**رواية**

# **عفان بن نومان**

# **(سلوم)**

**تأليف : نازك ضمرة**

**شخوص الرواية**

**الأسير : ســلوم ولقبه المعروف في بلدته ( عفان)**

**زوجته : ديجة**

**شقيقه : دعيس**

**خاله الكفيف: جسّار**

## **الشيخ: حامد (معلم فتيان القرية)**

## **المجندة اليهودية المغربية ريتشي**

**كتابة مقدمة ، وهذه الرواية هي تاريخية**

**كتب سعيد يقطين في صحيفة القدس العربي يوم االأربعاء بتاريخ 26/6/2019**

**لو أن هذا الباحث العربي سجل هذا الموضوع في جامعة غربية، وذهب إلى مكتبة (الفناك مثلا)، لذهب مباشرة إلى الرواق الخاص بالرواية، حيث سيجده موزعا حسب الأنواع الروائية، وضمنها سيعثر على جناح خاص بالرواية التاريخية. وله أن يختار من النصوص ما يشاء: فالعتبات المتصلة بالروايات يمكن أن تتحدد له من خلالها الحقب التاريخية المركز عليها، أو الشخصيات التاريخية التي تدور حولها، أو ما شابه هذا من المحاور التي تدور في فلكها، كأن ينطلق من السنوات التي كتبت فيها ليبحث تزمينا في تطور هذا النوع التاريخي، أي من زمن نشأتها إلى الوقت الحالي، بل يمكنه أن ينطلق من روائي واحد أصدر خلال عقد أو أكثر مجموعة من الروايات المنضوية تحت هذا النوع، أو يعقد مقارنة بينه وبين آخر من بلد غربي آخر، يلتقي معه في تناول حقبة أو شخصية تاريخيتين، أو ما شابه.**

**لكن هذا الباحث نفسه، في بيئته العربية، يمكن إذا كان يعرف جيدا واقع الرواية العربية ونقدها سيرفض هذا الموضوع، ويقول ببساطة ليست عندنا رواية تاريخية، فكتابنا يكتبون رواية بلا نوع؟ ونقادنا ينفون وجودها، لأنها انتهت منذ زمان في أدبنا. وإذا قبل الموضوع سيفكر في جرجي زيدان، وإذا ما تجاوزه إلى غيره وقف عند حدود أواسط القرن العشرين. إلى جانب مشكلة النوع التي ستعترضه سيجد نفسه أمام غياب بيبليوغرافيات خاصة بالأنواع الروائية. فإذا كانت بيبلوغرافيا الرواية العربية ناقصة ولا تغطي كل البلاد العربية، ولا ترهّن سنويا باستمرار، سوف لا يجدها تدله على تصنيفها حسب الأنواع، وعليه أن يعمل على تبين ذلك من خلال بعض المؤشرات مثل «الحاكم بأمر الله»، أو «العلامة»، أو «ثلاثية غرناطة»، أو ما شابه هذا من العناوين. أما أغلفة الروايات، وهي من العتبات الدالة، فقلما توحي إلى العوالم التاريخية التي تدور في نطاقها. علاوة على هذا النوع من المشاكل البسيطة، التي تصبح كبيرة في غياب البيبليوغرافيا واستحالة ضبط النوع، وتدقيق العناوين والعتبات، تعترضه مسألة الزمن؟ فمتى يمكن أن ندرج رواية ما في نطاق التاريخ، ونحن نرى المؤرخين كما يتحدثون عن التاريخ القديم، يتناولون التاريخ المعاصر.**

**فهل يمكننا اعتبار رواية تتحدث عن الربيع العربي في بلد عربي ما رواية تاريخية «معاصرة»؟ أسئلة كثيرة تفرض نفسها على الباحث العربي لإنجاز أطروحة أو دراسة ما حول الرواية التاريخية أو غيرها من الأنواع الروائية. وبسبب التراكم الذي تعرفه الرواية العربية لا بد من الاهتمام بأبحاث علمية تتصل بما قبل الدراسة، وعلى رأسها البيبلوغرافيا الدقيقة والموسعة والمُرهّنة.**

**فصـــــل 1**

**لم يكن لدى سلوم القوة والعزم ليمشي بالسرعة التي أرادها المجندون. خاطبه المجند الدرزي بصوت خفيض**

**- حظك أن تبقى على قيد الحياة، إن وجود مجندين يهود من أصل عربي ومجندين من الدروز حفظ حياتك. سأله احد الصهاينة، عما قاله للأسير، أجابه المجند الدرزي**

**- قلت له لولا أن الضابط المسئول امر بعدم قتلك، لأريتك كيف يكون الموت على يدي.**

**سلوم في حيرة وانبهار وفزع، يحاول أن ينظر حوله مسارقة وباحتمال، يراقب يدي واصابع كل واحد من الجنود الذين يحيطونه من كل جهة، يرتمي ويتكور لا يقوى على النهوض، يتألم من مؤخرته بسبب الإسهال الذي أنهكه، بعد أكثر من ساعة على أسره وتقييد يديه، ولكمه وضربه بأعقاب البنادق، وبالأقدام الحاقدة، الدرزي يمثل أنه يضربه، لكن ضرباته لا تؤلمه، إذ يميل بقدمه لتحط على مؤخرة سلوم أو خاصرته منبسطة، وتخفيفها عند اقتراب اصطدامها بجسمه، كل ذلك التعذيب في الخلاء وفي ذلك اليوم الحار والجاف لن يكون كافيا، قال له أحدهم، ومع انهم لم يجدوا لديه أي أثر لسلاح او نية في العدوان، لكن بالرجوع للمسئول عن الوحدة، والذي كان على مسافة تقارب نصف كيلومتر، أبلغهم أنه اتصل بالإدارة العامة، فتقرر نقله إلى المركز قرب مدينة اللد للتحقيق معه، واصل المجند الدرزي ثرثرته بصيغة ترهيبية، يقول لعفان، حضرت حالات إطلاق الرصاص على شباب فلسطينيين غامروا ودخلوا أرض إسرائيل، وأستغرب كيف تجرؤوا أن تخترقوا خطوط وقف إطلاق النار، أو حتى كيف تغامر بحياتك وتقترب من خط الهدنة، هل كانت نيتك مهاجمة مواقعنا؟ لولا أن المسئول امرنا بالحفاظ على حياتك حتى يتم التحقيق معك، لسارع احد المجندين بإراحتك بطلقة في أي مكان من جسدك وتركك في العراء تنزف دون أن يسعفك أحد.**

**سمع عفان المجند البولندي أكثر من مرة يهدده قائلا**

**- يلزمك رصاصة، هل تفهم؟ أنت بحاجة لرصاصة صغيرة، ثم نتركك حراً تموت بطيئا، تتعذب وأنت تشاهد الذئاب تنهش في جسدك والذباب. فكر عفان في نفسه قائلا، (أعرف قسوتكم، وسمعنا الكثير عن فنونكم في التعذيب والإيذاء لشعبنا الفلسطيني، كي تتحكموا في أرض أبائنا والأجداد).**

**ما إن أحاطوا به، اضطرب من المفاجأة، لكنه سرعان ما أدرك خطورة الموقف، نفذ الأوامر برفع يديه مستسلما، تلقى الضربة الأولى بكعب البندقية فوق قلبه، ترنح ووقع لكنه ركز يده على الأرض الخشنة ثم حاول الاعتدال وهو يصرخ**

* **زوجتي، زوجتي يا خواجا، مشان الله تسمحوا ارجع لزوجتي**
* **يا ابن الكلب، (ا تا حموريم)، لماذا لم تحضرها معك، لنريك ماذا سنفعل بك وبها**
* **زوجتي يا خواجا زوجتي، نصحتني أن لا أبتعد عن البيت، آه يا زوجتي، آه ياخديجة، وقبل أن يكمل الجملة عاجله المجند البولندي بلكمة على وجهه، أمال وجهه فجاءت على أذنه، وقع مغشيا عليه، قال له البولندي، هذه تحت الحساب يا ابن الكلب، وستشكو كثيراً من مثلها، داس المجند على صدره، سمع عفان عظام صدره تطقطق، تضطرب دقات قلبه، تتسارع ضرباته ثم يضعف قلبه كأنه سيتوقف، ارتج ورفرف القلب المعذب مرات عدة، أحس بقرب الموت، يتحرك سلوم على الأرض، يركله البولندي وهو يهوي بقدمه ثانية في رأسه، أحسّ ببعض الصحو لشدة الألم من الضربة، تلوى قليلا، وبصوت ضعيف، يهذي**
* **زوجتي، ديجا زوجتي، حبيبتي، احمد الله انك لست معي. لم يتحرّك كما توقعوا، ساكناً يئن ويتألم من شدة الضربات المتتالية من مجند اوربي آخر، وكلما ضربه أحدهم، سأله،**
* **من الذي أرسلك، ولماذ تغامر وتحضر لأرض إسرائيل؟ زادت الضربات من إنهاك قواه، فوق ما يعاني من آلام بطنه بسبب الإسهال من شربة ملح الإنجليز (إبسوم سولت)، لا يقوى على التنفس الطبيعي، يحاول أن يزفر او يشهق فيحس باختناق، وتكثر الأسئلة عليه، لا يقوى على التنفس فكيف يجيب بكلام، والإسهال والفضلات ما تزال تخرج من مؤخرته دون إرادته، تدخل أحدهم حين شاهد البراز السائل يندفع من مؤخرته بشكل متواصل، حاول مجند أشقر بمساعدة مجند يهودي مغربي رفعه لعله يقوى على الوقوف، لكنه هوى ثانية وتكوم مثل بالون مخروق، تناقش افراد الدورية بينهم حول قتله في مكانه، لكن رئيسهم حال دون ذلك مصراً على تنفيذ أمر ضابط الدورية وقيادة الأمن، فقرروا سحبه لضابط الدورية، ليوصلوه لسيارة الجيب العسكرية المختفية خلف الصخور الكبيرة بين الأشجار والأشواك، في أرض القرية الفلسطينية المهجورة والمجاورة التي مضى على سقوطها ثلاث سنوات، سلوم يحاول احتمال جرّه على التراب الخشن الجاف والأشواك، لكن شدة الآلام وضعف جسده من الإسهال ونقص السوائل يضطره أن يئن متألما شاكيا، عبر المسافة بين مكان أسره حتى الوصول إلى مقر رئيس الدورية، هناك انزلوه كجيفة لا حياة فيها، أراد البولندي أن يبرر قتله والتخلص منه، لكن آمر الدورية أخبرهم أن عليه تنفيذ أوامر القيادة العامة لجيش الدفاع الإسرائيلي، ولا داعي للانتظار حتى يتمكن من الكلام او التحسن، فهم ضابط الدورية أن سلوم الفلسطيني أنهكه التعذيب والضرب المبرح والإهانة التي عاناها حين امسكوا به، ثم لأنه لاحظ فضلات بطنه تخرج على دفعات سائلة، وعلى ساقيه وملابسه، هدأهم وأمرهم بتنفيذ ما يطلب هو منهم، خاصة وانه لاحظ علامات الجفاف على الأسير، وبعد محاولات استجوابات سريعة وتفتيش دقيق للمرة الثانية في جسمه وملابسه وسلته وقربة الماء، لم يجدوا ما يثبت نية عدوانية عند الأسير سلوم، اقترح يهودي فلسطيني أن يخلوا سبيله ليعود إلى أهله، لكن ضابط الدورية رفض الفكرة، واستمهلهم حتى يستفسر من القيادة العامة ثانية، فأفهمهم أن ادارة الأمن تطلب إحضار الأسير للتحقيق معه من قبل الإدارة العسكرية المركزية.**

**بعد كل الذي عانيت من المجند البولوني والفرنسي، تحركت السيارة بعيداً عن أرضي التي وقعت فيها أسيرا، أعرف ارض فلسطين، إنها أرضنا، ارض أهلي وبلدي، ملك اجدادي وأجداد أحدادي، وأقرب مدينة لذلك الموقع هي مدينة اللد، وقد عمل شهورا قليلة في معسكر للإنجليز في منطقة صرفند قرب اللد، قبل رحيل البريطانيين عن فلسطين، في مايو 1948، أولاد الكلب سلموا كل معسكرات الجيش البريطاني في فلسطين للعصابات الصهيونية.**

**ألقوه على طاولة الإسعاف في المركز، نظفوا مكان الجرح في رأس سلوم (عفان)، وتفقدوا صدره وطلبوا منه التنفس بعمق، لكنه عجز عن فعل ذلك، وحين اضطروه لذلك، صرخ صرخة مدوية افزعت الطبيب او هو ممرض، لشدة الألم الذي أحسه حين واصلت رئتاه في دفع عظام صدره عندما تنفس بعمق، ثم غاب عن الوعي لدقائق، صحا وكمامة من الأكسجين على فمه وانفه، ثم سرعان ما رفعوها حين فتح عينيه، لم يرسلوه لصور اشعة لصدره، بل ربطوه بحزام مطاطي حتى يقوى على الجلوس او المشي، مع الآلام التي عليه ان يحتملها، فهو أٍسير ولا يستحق إلا الاحتقار والتعذيب.**

**اشتدت آلام جسمي من كل مكان، وزاد ألم بطني مع ان الإسهال قد توقف، رفعت رأسي قليلاً استطلع ماحولي، فقلت في نفسي بصوت مسموع (جميل أن تموت دون ألم)، بعدها حضر طاقم آخر وما زلت لا أقوى على النهوض في مركز الإسعاف، لم يكن مع الطاقم الجديد بنادق، أصدرت أنينا موجعا، سقوني دواء وشراباً مما كانوا يحملون، ثم ألقوني في زنزانة صغيرة أعاني الألم من ضربات التعذيب وآلام بطني.**

**تقول الممرضة اليهودية الأربعينية**

**- خرام طردناهم، خرام موتناهم، اخنا هنا نساعد مريض، (لأ) نعذب إنسان. أحسست بشيء من راحة نفسية، وبعزاء وقليل من أمل، وقلت في نفسي، يوجد قلة يقدرون مشاعر الإنسان كمخلوق له حق الحياة الطبيعية في كل مجتمع، وفي كل مكان في العالم.**

**برغم شدة الآلام في جسمي والوحدة والظلام في الزانزانة، إلا انني تذكرت خالي جسار سجين العمى، تعرف خالي جسار الكفيف على كل شوارع القرية وأزقتها، القريبة من بيتهم والبعيدة، لديه ذكاء فطري وقدرة عجيبة على معرفة الناس من أصواتهم أو حركاتهم التي يسمعها أثناء مشيهم، كان يشجع ابني شقيقته سلوم (عفان) وشقيقه دعيس على المواظبة على القراءة والكتابة، ويصر على ملازمتهما دروس الشيخ حامد معلم فتيان القرية، وحتى يتأكد من تواجدهما عند الشيخ طول النهار، كان يحب الجلوس على مقربة من مكان جلوس الطلاب الصغار والشباب في كتاب الشيخ حامد، فحفظ الخال جسار جميع صغار السور من القرآن، أي الجزء الثلاثين، وبعض السور من جزء (تبارك) من مثل قل أوحي، وهل أتى على الإنسان وتبارك، وكثيراً ماكان يجبر ابن اخته على صلاة المغرب والعشاء في المنزل، حتى يسمع قراءتهما وحفظهما لصغار السور التي يحفظها هو نفسه، وكان يطلب من سلوم أن يكون إماماً في البيت، يضرب عصافير عدة في حجر واحد، كما يقول المثل، فيكسب سبعاً وعشرين درجة من الثواب في صلاة الجماعة، ويضمن أن ابني أخته في البيت، وليسا مع الأولاد المشاغبين والأشقياء، ويحافظان على التراث والتقاليد والأخلاق والدين، لم يكن يحضر صلاة العشاء جماعة في المسجد، لأنه كان يخشى من الكلاب الضالة، أو من الفضلات التي تلقى في الطرقات بعد حلول الظلام، حفظ الخال الكفيف الكثير من الزجل والأهازيج الوطنية والشعبية والمحلية، وكلما سمع امرأتين تقفان وتتحدثان، يتوقف فجأة كي يعرفهما دون أن يسألهما، كان يحفظ أصوات أهل القرية كلها، فيعرف رجال القرية ونساءها من اصواتهم، ويحاول التعرف حتى على أطفالها، يغني للنساء أحيانا بزجل يحفظه، مثل (طالعة من بيت ابوها، رايحة لبيت الجيران، لابسة الأحمر والأزرق، والعيون تلعب كمان، وأغنية اخرى تقول في مطلعها: يام الثوب مطرزتيه، حطيتي البدايع فيه) كان يقول للنساء، هذه اغانينا، حافظن عليها حتى لا ننساها وكي لا تضيعها الأجيال القادمة، بسبب انتشار الأغاني الجديدة، نخاف على تراثنا الفلسطيني.**

**الفصل الثاني**

**يلتصق سلوم وزوجته ببعضهما في ليالي الشتاء الباردات، ويبقى ضوء السراج في صراع مع الظلام قرب فراش أخيه دعيس على المصطبة الوسطى، وهي أوطأ بنصف متر تقريبا عن مصطبتهما، وعادة ماينفذ زيته ليلا وينطفئ قبل أن يؤذن للفجر، ثم تبدأ الديكة في الصياح معلنة قرب طلوع الفجر، يحس الزوجان الشابان ببرد الصباح وقتها، فيحاولان التغلب على قرص البرد بزيادة التصاقهما، وبمواجهة بعضهما وامتزاج أنفاسهما، تترامى إلى مسامعهما صوت شخير أخيه الذي يصغره بأربع سنوات، وخاله جسار الكفيف بجوار دعيس، تهمس ديجة ثرثرة لا يفهمها، لكنه يقترب منها أكثر، فتلتصق به متذمرةً من البرد، يتواصل صراعهما مع البرد حتى مع زيادة التصاقهما، لكن مثل ذاك التماس يخلق الإحساس اللذيذ بين الزوجين، يزداد نبض القلبين، وتسرع الدماء في الجريان في كل مكان، وقطف الثمار الحلوة يجعلك تنسى البرد والمشاق، تعلو أنفاسهما، لكنهما يحاولان ضبطها، وإخفاء مافعلاه وتنفسهما السريع العالي، تريد ديجة أن تصرخ سعادة واستمتاعا، فتمتد يد عفان على فمها تكتم أنفاسها، يهرب صقيع البرد وينسيان الشتاء، تتشبث ديجة بحبيبها تعويضا عن الصراخ اللذيذ وتعصره، وكفّ عفان على فمها كاتماً انين السعادة بالمتعة.**

**أشعر وقتها بسعادة ما بعدها سعادة، فأعمل على إطالتها بجهد ما، انحني واضع فمي وشفتي على فمها وشفتيها بدل كفي، وتطوق ذراعي رقبتها، وأجذب رأسها لأدفنه في صدري، حتى أتأكد أن سلسلة رعشاتها قد اكتملت وهدأت، تهمس في أذني قائلة أنت حبيبي يا سلوم يا زوجي، انا احبك، الحب لذيذ وجميل، أتمنى أن لا نتوقف عن الحب، الحب غذاء الروح يا حبيبي، لكم أنا سعيدة لأنني تزوجت مبكرة، أحبك لأنك علمتني وما زلت تعلمني طرائق وفنونا في الحب، لم أعد أهتم بنوع الطعام واللباس ولا بالجهد والتعب، لأنني أريدك أن تظل سعيدا، وها أنت تجلب السعادة لي معك، وتجعل قلبي يرقص ومفاصلي تتراقص لك، أنني أقترب منك يوما بعد يوم، إن حبك يا سلوم ينسيني طفولتي واهلي وكل ماكان يقلقني، حتى الظلام الذي كان يفزعني صرت أحبه واتمناه ياحبيبي، أدعو الله دائما أن نظل في اوج سعادتنا، أن يزيدنا من نعيمه، ويمنحنا طفلا يخلد هذا الحب ويغذيه، يهز سلوم رأسه، يحدق في وجهها ويحاول اقتناص نظراتها الخجلى، وهي شبه مغمضة العينين، أثناء حديثها وهمسها وبوحها، يسقط برأسه على وجهها، فيقبل جبهتها، وينحدر إلى عينيها، حتى تلتصق شفتاه بشفتيها، فيحس بجمر الحب، وبامتزاج تلك الشفاه المتلهفة للحياة والعسل، خديجة لم تعتد على المبادرة بالتقبيل، بحكم تربيتها، وخجلا كما التراث، لكنها تتوقعها من زوجها الحبيب وتنتظرها، يحس بانتفاخ شفتيها وبتهيجما اللاشعوري، فيغيبان في أتون المتعة والالتصاق، تمتد يده لصدرها، فيحس توثب حلمتي ثدييها الصغيرين، ينشط سلوم بعدها، فتتجدد همته، وكأنه لم يفعل شيئا من قبل، فيعيد رحلة الغوص في جنات النعيم مع زوجته ديجا ثانية قبل طلوع الفجر والشروق، وقبل أن يصحو النائمان اللذان يشاركانهما البيت، والبيت غرفة واحدة واسعة.**

**وعند الصباح الباكر في فصل الشتاء، وبرغم سماعها زخات المطر في الخارج، إلا أن ديجه تنهض بنشاط لتحضر حطباً ولإشعال النار، تطلب من زوجها عفان أن لا يتحرك من الفراش إلا بعد أن تعلو شعلة النار، لا أريدك أن تبرد يا حبيبي، ويصحو خالهما يتحسس طريقه كي يصلي الصبح لأن الفجر فاته بسبب البرد والظلام، مع انه كفيف لايعرف الظلام من النور، لكنه بإحساسه وحسبما سمع من الآخرين، يحلو له الاستدفاء بالفراش كغيره من المبصرين، تسارع ديجة بالذهاب لوالدتها التي لا تبعد أكثر من مائتي متر عنها، تلتقط أربعة أرغفة طازجة من منزل والدتها، بعدها يجتمع أربعتهم على إبريق كبير من الشاي الحار الطازج مع أوراق الميرمية، فيأكلون خبز الطابون الطازج مع الزيت والزعتر والجبن البلدية ، وهو طعام الإفطار في معظم بيوت القرية الفلسطينية، وعلى الأخص من يقتنون غنماً أو بقرة.**

**كان الخال جسار شديد الحرص على ابني شقيقته المتوفاة في طفولتهما المبكرة، وكثيرا ما كان يذكرهما بطيبة والدهما، ويكثر مدح شقيقته والدتهما وصبرها بعد حادثة وفاة والدهما، ويثني على ذكائها، فكانا يهتمان لكلام خالهما ويتنبهان لكل كلمة يقولها عن والديهما، يسليهما لعدم وجود أطفال قريبين يلعبان معهم، ولسوء حظ الطفل دعيس، توفيت والدتهما بعد ولادته بشهور عشر، وليس لهما جدة أو عمة او خالة تتعهد الطفلين، بل تزوجت خالاتهما خارج البلدة، وعمتهما كذلك في قرية مجاورة، فاضطر الخال أن يعهد بالطفل لأي امرأة مرضعة في القرية، والأمهات في القرية كثيرات، ومن العادات الحميدة في قريتنا، أن الأمهات المرضعات كن يتسابقن على تقديم الحضن الدافئ لأي طفل يتيم، عاش عفان واخوه دعيس مع خالهما في بيتهما القديم، واعتادا على أن لا يجدا معهما في البيت أحداً سواه، فهو عالمهما ومدبرهما وحاميهما في النور او وقت الظلام، ولأن دعيس كان صغيرا، فكان يقتبس القوة من تواجد خاله قربه، كان الطفل يخشى الظلام والوحدة، لا يجرؤ على التحرك في أطراف بيتهم الكبير ليلاً، وكلما احتاج أمراً، اقترب من خاله جسار والتصق به، بل واضطجع واضعاً خده على صدره او فخذه، يهمس له بحاجته، فيحاول جسار أن ينفذ ما يحتاجه الطفل، زاحفا او متكئا على عصاه القوية، وأحيانا يطلب الخال من سلوم أخيه الأكبر أن يقوم بما يلزم لشقيقه، أو ليمسك بيد أخيه ويذهب به إلى الركن الذي يريده أخوه دعيس، حتى يبول أو يتبرز، ثم إن دعيس الطفل كان يخشى البقرة ليلاً ، وقد حذره خاله منها مراراً وتكراراً خشية أن تدوسه او تنطحه، وعلى الرغم من أن الإنسان دجن أكبر الحيوانات الأليفة وهو الجمل، إلا أن البقرة حين تهيج تتمرد على الحبال والأربطة حتى وعلى مالكها، فتهيم في أطراف القرية، بحثاً عن ثور فحل يشعر برغبتها، ويبرد حرارتها الفطرية والتي تحرك مشاعرها، حتى إذا ما وجدت رغبتها كلّت وهدأت وعادت طبيعية مدجنة، وتعود لمنزل صاحبها راضية، جوعاً أو عطشاً أو حسبما تم تعويدها عليه.**

**بعد أن صار دعيس يعبث مع الأولاد في الحارات، تمنى أن يرى ثورا وهو يرضي بقرتهم ويلقحها، وليرى عملية التزاوج والتقارب والتحبب، لا يدري أين كانت تذهب لتحمل لهم عجلا كل عام، وهو وأخوه وخاله يشاركون وليدها العجل حليبها، كثرت تساؤلات دعيس عن هذه الأمور، وكثيرا ما كان يردعه خاله عن تكرار تفكيره بمثل هذه الأمور.**

**قبل وفاته كان والد سلوم يعود لمنزله مساء مرهقاً متعباً من كثرة العمل، في الحقل او البناء، كان قليل الاختلاط بالناس، وكل همه أن يحافظ على الثروة الجيدة التي ورثها عن والده، فأرض والد عفان واسعة، إذ كان والده يقضي معظم أيام السنة في رعايتها، ويعمل خلف جمله لنقل حصاد مزروعاته وثمار زيتونه، أو في تكسير الحجارة وتجهيزها لبناء المنازل، ومن ثم نقل الحجارة على ظهر جمله لمواقع البيوت، فكانت حالته المادية جيدة مقارنة مع باقي أهل القرية، كان يشعر أن ثروته تتحسن يوماً بعد يوم، وأنه يوفر بعض المال أكثر من معظم أهل القرية، ولن يجد نفسه مضطراً لبيع أي شبر من أرضه في سنوات الشيخوخة، كما فعل الكثيرون لمجرد التمتع بالأكل والسفر واللبس أو العلاج أو المباهاة، والد سلوم وحيد لا أخ له، مما زاد عناءه من العمل في الأرض وخلف الجمل، والأشقاء في القرية يتعاونون عادة على الحفاظ على الأرض حسب التقاليد، ولا يتقاسمونها إلا بعد أن يصل أولادهم لسن المراهقة، بل إن معظم الأشقاء إن كانوا أقل من ثلاثة، لا يغادرون المنزل الذي تركه والدهم لهم حتى لو تزوجوا، بل يحاولون أن يضيفوا غرفة أو علية على البيت حتى ينفرد كل أخ مع زوجته في غرفة خاصة، وفي نفس مواقع والديهم، وبعضهم يبقى طعامهم ورزقهم وعملهم مشتركاً تعاونياً ، وأكبرهم سناً يراعي مشاعر أخيه أو إخوانه، في حالة وفاة والدهم، حيث يقوم الأكبر بمجهود كبير لسد الفراغ الذي يتركه الوالد، شقيقة والد عفان الوحيدة التي تزوجت في قرية بعيدة، كان والده يزورها مرة أو مرتين كل عام، وخاصة في مناسبات الأعياد أو رأس السنة الهجرية، حمل معه ابنه سلوم مرة ليتعرف على عمته، كان لديه أتان قوية نشيطة، ومع أنه كان يصل للقرية التي تسكن فيها شقيقته بعد ثلاث ساعات من المشي الحيواني الجاد، فكان سلوم يتعب من الجلوس على السرج، فوق ظهر الحمارة فيقف على السرج خلف والده ويمسك برقبته، أو يطلب من والده أن يركبه على كتفيه، ويذكر سلوم كيف كان يمسك بأذني والده كتسلية، او ليزيد من دعم نفسه وتثبيت جسده، لكنه حرم من كل ذلك الدلال بعد أن مات والده، إذ تدحرجت عليه صخرة ضخمة مزقت جسده وحطمت عظامه، ولم يتمكن الناس من رفعها إلا بعد أن قضى نحبه في موقع الحادث، حيث كسروها قطعاً حتى تمكنوا من إبعادها عن جثته، شاهد سلوم الطفل والده وهو ممدد على تابوت، كانت سن سلوم أربع سنوات، حاول محادثة والده والالتصاق به، ولم يفهم الطفل سبب نوم والده، ولا عدم تجاوبه معه، أحزن المشهد كل رجال القرية، فأداروا وجوههم لإخفاء موجات البكاء التي اجتاحتهم، وهم يحاولون إبعاد الطفل عن جثة ابيه، مما جعل سلوم الطفل يزيد في بكائه وصراخه وإلحاحه، تركه الناس حتى غفا فوق جثة والده، بعدها غسلوا الجثة وكفنوها، ولم يعرف سلوم بعدها أين اختفى والده.**

**أما اخوه الطفل دعيس فكان في بطن والدته وقت وفاة والده، كان الطفل دعيس يلحّ على أخيه سلوم (عفان) أن يذهبا لأطراف القرية حيث تتجمع الحمير، ليشاهدا لعبها وتنافسها والتزاوج بين حمار وأتان، أو يقفا أمام حوش يضم غنماً أو بقراً لأحد العائلات في القرية للسبب نفسه ، كان سلوم يزجر أخاه دعيس ويهز كتفه رافضا طلبه بلطف، لكنه لم يكن يضربه، كان سلوم يدرك أنهما يتيمين، ومادام أنه هو نفسه حرم من رعاية والده الذي قتلته صخرة كبيرة، و يحس أنه أكبر من أخيه، فيشعر أن عليه مسئولية مراعاة أخيه دعيس وتعليمه.**

**ما إن وصل عمر دعيس خمس سنوات حتى صار شقيقه سلوم يجره معه كل صباح لكتاب الشيخ حامد، أحبه الشيخ وحنا عليه، وكان دعيس من أفضل الطلاب في سرعة حفظ القرآن والكتابة والقراءة.**

**أما الجمل فقد باعه الخال جسار، بسبب مشاكل رعايته، مع انه في البداية حاول تأجيره لأناس في القرية، إلا أنهم اهملوه كثيرا، حتى أشرف على الموت بسبب قلة الطعام، فاضطر ان يسترجعه بعد عامين، ويعوله لشهرين حتى عادت صحته كما كانت، وباعه بسعر جيد، حتى ينفق من ثمنه على أولاد شقيقته، واما البقرة فأبقاها ليشربوا ثلاثتهم من حليبها، ولكنه كان يكلف نساء الجيران لحلبها، وتقاسم حليبها معهم، وتسرح البقرة مع الراعي العام لجميع أبقار القرية وحميرها كما كان متبعا في قريتنا، وفي معظم قرى فلسطين، مقابل أجر سنوي يتم تحصيله صيفا في موسم الحصاد، نقدا أو من الغلة التي جناها الفلاح من أرضه، سواء كان قمحا او زيتونا أو غير ذلك من الحبوب أو الثمار.فصـــــــــل 3**

**الصيف في فلسطين جنة، نستمتع بحريتنا فيه، ونأكل من خيرات ارضنا الوافرة، فلسطين درة البلاد، وجنة العاشقين والمتعبين والفالحين حتى والفلاحين، أهل المدن يقومون بالرحلات إلى مختلف أرجاء بلادنا متنوعة التضاريس، فمن يعيش في الأغوار يسافر إلى الجبال أو ينتقلون للإقامة في المرتفعات صيفا، وسكان القرى والمدن الصغيرة ومن يعشقون السباحة، يزورون شواطئ البحر الأبيض المتوسط الساحرة، ويسبحون فيه، يشاهدون القوارب وصيادي الأسماك، ويشترون منهم بعض صيدهم ليأكلوا السمك الطازج، يسعدون ويمرحون تاركين هموم الأيام والعمل وراء ظهورهم، يشاركون زوجاتهم وأطفالهم المرح والاسترخاء، أما القرويون البسطاء أمثالنا فيحملون معهم من مخزونات أطعمتهم القروية، مثل الجبن والخبز المشرّب بالزبد الطبيعي ومربى العنب، والزيتون والزيت والزعتر، ليوفروا تكاليف شراء الأغذية من المدينة وعند الشواطئ، وبعضهم يحملون معهم طباخ الكاز الصغير لعمل الشاي او قلي البيض البلدي والبنادورى والبطاطا، ويجهزون الشاي كل صباح وبعد الغروب بين المغرب والعشاء، يسهرون ويغنون ويرقصون، ليوم فرح او أيام عدة، على شاطئ بحرهم الفلسطيني أو في ساحات موسم النبي صالح في مدينة الرملة، او قرب الأودية ونهر النعامين في منطقة روبين قرب يافا، عروس البحر المتوسط قبل 1948، وحتى في موسم النبي موسى بجوار مدينة القدس، من الجهة الشرقية وعلى مشارف غور الأردن، يتعارفون مع غيرهم من العائلات ويلتقون مع بعضهم، أوفي الغابات حول القرى أو عند الينابيع الطبيعية في الجبال والحقول البعيدة، وما أكثر تلك المواقع في سهول فلسطين وجبالها، نشرب من مياه الينابيع الصافية، نفطن نحن الشباب حتى والشيوخ بعدها للغناء والدبكة، لنخطف ابصارهن، ونغني بكلمات تسحرهن وتشجع النساء والصبايا على الاقتراب والإنصات، مثل (على دلعونة والدلعونية، صاروا يطلبوا في البنت مية، صار العزابي يرمي الطاقية، وصار المتزوج يلعب دلعونة، أو يام الثوب مطرزتيه، حطيتي البدايع فيه، طلي عليّ من الشباك، وانا لشوفك مشتاك.)**

**في صيف 1952 وبعد النكبة بأربع سنوات، ولم يمض على وحدة بقية فلسطين مع الأردن أكثر من عام، وجدت نفسي أسيراً بيد الجيش الإسرائيلي، أعاني الذل والتعذيب من قبل العدو الصهيوني، وأتحمل مرارة السجن والوحدة والوحشة، فكم ساءلت نفسي، أأنا أسير فلسطيني أم أسير أردني؟ فإن كنت أردنياً فلماذا يأسرونني؟ ولماذا لم تتحرك حكومة بلادي للعمل على تحريري، او مجرد السؤال عني أو إرسال مندوب من الصليب الأحمر ليطمئنني عن أهلي وخاصة زوجتي ديجة، أو ليطمئنوها عني في الوقت نفسه؟ آآه وآآآخ رأسي تعبت من التفكير، الصداع يعاودني كلما فكرت بما مضى، بأخطائي وأخطاء غيري، فلماذا اتعب نفسي بالتفكير في أمور لا أقدر على استيعابها، ولم يسبق لي أن مررت بمثل تلك التجارب والتناقضات، كل ما يهمني وقتها، هو أن أتحرر من الأسر او السجن او الموت، حتى أعود لزوجتي ديجا، لكن كم تمنيت أن أجد شخصا يخبرها بانني حي ارزق؟ وكيف يعرف أهلي وأقاربي واخي وخالي أنني لم أقتل، ولكم قتل الالاف من الفلسطينيين دون ذنب جنوه، راحت دماؤهم هدرا دون فائدة، ولم يسأل عنهم أحد، فالصهاينة يطبقون نصوص التوراة القديمة، يكرهوننا، يكرهون كل فلسطيني، إما أن يتم تعذيبه وقتله، او يستغلونه كالحيوان، يتقربون إلى ربهم بقتل عربي فلسطيني، يريدون التخلص من أي فلسطيني أيا كان على هذه الأرض.**

**قبل أسري تابعت كغيري من أهل بلدي، أخبار الشباب الذين كانوا يقتلون لمجرد أنهم حاولوا زيارة بيوتهم، وفي عام 1948 قام الصهاينة بأشنع انواع القتل والغدر والتعذيب والإرهاب كي يهجر الناس مواقعهم وبيوتهم وأملاكهم، وكانت نتيجة ذلك الإرهاب والتخويف والغدر أن تمكنوا من سرقة ثلاثة أرباع مساحة فلسطين، ولم يبق منها إلا الضفة الغربية والتي اتحدت مع الأردن، فهل انا محظوظ انهم لم يقتلوني لحظة مفاجأتي بإلقاء القبض عليّ، كانت ستتغذى الحيوانات المفترسة في بلادي على لحم جسدي الميت وطيور بلادنا الجارحة، ثم ماأكثر الضباع والثعالب في جبال فلسطين وسهولها، وما أكثر العقاب والصقر والباز والصقير والحدأة والغربان السود. وكم هاجمت الضباع والذئاب الناس المسافرين ليلاً وقتلتهم.**

**يتيمان لم يعرفا أما ولا أبا، خالهما جسار كان من عقلاء عشيرته، كفّ بصره طفلاً رضيعا، وقبل أن يتعرف على العالم والألوان جيداً، يذكر أن آخر ما شاهد في الدنيا من الألوان هو منديل ابنة خالته الأحمر، أعجب باللون الأحمر وبقي يصرّ على حمل منديل أحمر أو عمامة حمراء، وحزاماً عربياً أحمر على وسطه، ليس لأنه قيسي، أي من بني قيس، كما هم معظم أهالي قرى الخليل، لكنه اللون الذي ظل يذكره، مع انه من بني عمير، هكذا سمعنا شيخاً من قرية الجانية يقول، بأن معظم قرى جنوب وغرب مدينتي القدس ورام الله والسهول الداخلية هم من بني عمير، أما سكان الجبال شمال مدينة رام الله فهم من بني زيد، وجميع أهالي قرى الخليل وقضاءها هم من بني قيس، فكان الخال دعيس يسأل الناس ليؤكدوا له أن لون القماش أحمر قان، مثل دم الزعلول كما كان يصر ويقول، حتى أنه كان يشكر كل من يقدم له زهرة حمراء يباهي بها نساء القرية، يصدق مع انه لا يراها، لكنه يكره الكذب، فيسأل أكثر من واحد، وأكثر من واحدة عن لون الزهرة التي أهديت له على انها حمراء، فإن كانت غير ذلك، أشبع من أهداها له مسبات ولعنات واتهامات ومذمة، حتى لو لم يجده حوله او قربه، يرفع الزهرة الحمراء أمام عينيه المطفأتين كأنه يتأملها قائلاً لأي امرأة تلاقيه: ألا ترين وردتي الحمراء هذا اليوم؟ كان أهل القرية يسمون هذ النوع من الورد الأحمر"الحنّون" بتشديد النون، او الدحنون"ويعرف الخال جسّـار أنها لا تعيش أكثر من يوم واحد وهي على أمها، وإن قطفت فتذوي وتموت خلال أقل من ساعة، وبعد استنزاف عمرها كان خالي جسار الكفيف يضعها في مذود طعام البقرة، وحين يمازحه طفل أو رجل من القرية، يحاول الاقتراب منه ويبدو عليه المرح والأنس، وإن زاد المزاح احدهم او إحداهن عليه كسخرية منه، فيسبه بأقذع الكلام، وكان بعضهم يفعلونها عمداً بقصد سماع مسباته الجارحة، لكنه لم يتسبب يوماً ما في إغضاب أحد من أهل القرية، يحترمه الصغير والكبير.**

**كان الخال جسار الكفيف يكثر من جلوسه قرب كتّاب الشيخ حامد لتعلم القرآن، وبعض الحكَم بصياغة شعرية، أو الأحاديث النبوية، عبر إصغائه وانتباهه لقراءة الطلاب الجالسين على الأرض او الحصير، يتدارسون القراءة والكتابة وقراءة القرآن مع شيخهم حامد، وكثيرا ما صاح في الطلاب ينصحهم بالانتباه لشيخهم وتعلم القراءة والكتابة، والاستفادة من كل ما يقوله شيخهم.**

**فصـــل 4**

**عندما كان يموت شخص من القرية، كانوا يطلبون من معلم القرية قراءة القرآن قرب جثة الميت او عند القبر، فيطلب الشيخ حامد من الكفيف جسار كي يرافقه، او يفعلانها لنصف ساعة يومياً خلال الأيام الثلاثة الأولى أو سبعة أيام بعد دفن الميت، حسب إمكانيات أهل الميت أو معزتهم له، حتى لا يشعر فقيدهم بالوحدة كما يعتقدون، ولكي يجيب المتوفى على ملك الموت بلسان عربي فصيح، مقراً بدينه وبكتابه وبنبيه، وقليل من الميسورين والمتدينين كانوا يصرون على قراءة القرآن عند قبر ميتهم لأربعين يوماً، ويزورون القبر كل يوم خلال هذه المدة، أو مرات عدة كل أسبوع، يقومون بعد الأربعين بفك طقوس الحداد، وعمل وليمة كبيرة لأهل القرية، يأكل الفقراء والمحتاجون اللحم والحلوى يومها، ويسدّون جوعاً وحرماناً من اللحم لازمهم لشهور أو لأسابيع.**

**بعد ستة شهور من أسره، بدأ عفان يتعايش مع عمله في حدائق المعسكر عقابا له، واستهزاء بقدرته على التمرد، يخاطب المجندة ريتشيل المسئولة عن مراقبته ونقله من زنزانته إلى منطقة عمله حول المساكن والبيوت في المعسكر**

**- لن أنسى يا ست ريتشي ماعانيت في الأيام الأولى بعد أسري.**

**- اسمي ريتشيل، كم مرة اصحح اسمي لك، أو هو راشيل كما يعرفه العرب.**

**- أستسهل ان أناديك ريتشي، ريتشي، اسمعي يا ست ريتشيل، لا أستطيع أن أنسى العذاب الذي عانيته، قلت لهم ليس لديّ سرّ أخفيه، الحيوان! البولوني المجند حطم عظامي وأوشك على قتلي في الساعات الأولى لأسري.**

**- وهل تنسى انك اسير عربي؟ حافظ على حياتك وعملك، تعاون واعمل كما هو مطلوب منك في معسكر الأسر، إنس ما عانيت؟ كل إنسان يعاني يوما ما من مشكلة، وها أنت الآن سليم ومعك حرية القيام والقعود والأكل والنوم، وماذا تبتغي بعد؟**

**- سمعت البولوني يقول للمجند الآخر، لا همّ عنده إلا ملاحقة اي فلسطيني، لكن مازاد من عذابي وشعوري بالألم بعدها، شهور اربعة وهم يحققون معي، مستخدمين أساليب غريبة من التعذيب، ما أقسى أن تقع أسيرا عند اعدائك؟ ! ! . . . قلت لهم مرارا وتكرارا، إنني لم أقصد الإضرار بأحد يوما ما، وجريمتي الوحيدة أنني جرؤت على دخول أرض أجدادي، إنها أرضي ، أرضنا، ورثها أبي عن أبيه، عن جدي، وأهل قريتنا لا يعترفون بحدود تحول دونهم ودون فلاحة أرضهم التي لم تدخل ضمن خطوط الاحتلال عام 1948، إنهم الإنجليز وملح الإنجليز، كنت قد أخرجت برازا أكثر من خمس مرات قبل أن يفاجئوني، كان يقودهم ضابط أمريكي أو بريطاني، يتكلم الإنجليزية بلهجة أصيلة، ولا يتحدث العبرية.**

**- وكيف عرفت انها لهجة انكليزية اصيلة؟ تهز راشيل رأسها دون تعليق، تنظر حولها شرقا وغربا، تدور وتهتم بشئونها، تعدل من لباسها، تتأفف وتفتح زراً إضافيا، فتحرك رأسها يمينا ويساراً، كأنها تخلصت من حزام او ضيق كان يخنق أنفاسها، تعيد نقل رشاشها الأوتوماتيكي التشيكي اللامع من يدها اليسرى ليدها اليمنى، ثم توجه كلامها له آمرة**

**- استمر في عملك، بعدين سلوم بعدين، تتكلم بعدين، أنت كلام كثير، هنا شغل، عمل ، انت أسير عند إسرائيل، هل أنت جائع سلوم؟ أتيت لك بطعام اليوم، وجبة بسيطة بطاطا مقلية وحبوب بازيلا خضرا وقطعة دجاج. يواصل سلوم كلامه**

**- إن الكثيرين من الفلسطينيين عملوا مع الأنجليز في معسكراتهم وورشهم، قبل انتهاء انتدابهم الخبيث على بلادنا فلسطين، وكثيرون يعرفون لغتهم ولهجتهم جيدا، لا وإن معظمنا تعلم الكثير من المفردات الإنجليزية ليسهل علينا التفاهم مع البريطاني الغادر عند الضرورة.**

**تنهره المجندة الصهيونية مغربية الأصل**

* **لا تتكلم كثيرا، قم بواجبك والأعمال الموكلة لك، وإلا فستندم، وسينزل عليك غضب صهيون.**

**لحظتها يتذكر عفان (سلوم) زوجته ديجا، فيسكت عن الكلام، يصفن وعيناه تتأملان الأفق الشرقي البعيد، فيخاطب نفسه حالماً، (إليك يا ديجا أعيش تحت الظلم، وفي جو يأس قاتم اصرّ على الحياة، على أمل أن أعود لك، أشكر الله انني رفضت أن ترافقيني، وإلا كنت سجينة اسيرة ذليلة مثلي هنا، ومن المحتم أنهم سيفصلوننا عن بعضنا، اشكر الله ثانية انني كنت رجلاً حازماً معك، ولم أسمح لك بمرافقتي، وماذا لو سجنوك في مكان لا أعرف عنه، فماذا استطيع أن افعل؟ لا شك انني سأصاب بالجنون!، لأنني اعلم ان أحدهم سيركبك رضيت أم ابيت، يا إلهي هل واحد فقط؟ ربما عشرات من المفترسين، امثال الألماني والأمريكي والفرنسي والبريطاني، وحتى الحبشي، لأنهم اعتادوا على إذلالنا اثناء انتدابهم على فلسطين، حتى أن البولندي حاول الانفراد بي واغتصابي حتى انا نفسي، الموت لي وقتها، في ضميري أهمس لك يا زوجتي العزيزة ديجا، أستظل بشجرة تين قديمة هذه اللحظة، ثمارك شهية أيتها الشجرة وديجة كذلك، وظلك أجمل، ادخلى مرآة عيني، ليبزغ قمر بوجه فلسطيني، به غمازتان وذقن ملساء انيقة، تكتسب سمرة مع شروق كل شمس، ولا في الأحلام، آه يا ديجا أراك امامي تتمطين، وأمام عينيّ يمامتان تحطان على غصن، تتلاصقان وتتحابان، تسرقني رعشات الحب وغروب النظرات، يغمرني العبق الفلسطيني الريفي، اغصان أشجارنا طرية وأوراقها ناضرة، ممشوقة تهتز وترتعش، نلتصق فنصبح كتلة من جمر، كيانان لا ينفصلان، تعصف أمواج الأشواق في عباب بحرنا، مشتاقة لشواطئ قلبينا الهائجين، تحمل الموجة معها في سفرها أعتى الأحمال والسفن، صاعدة نازلة، أمواجنا قوية عاصفة تحفظ ما عليها وتوصلها إلى مبتغاها مستقبلة او مودعة، تنشط مع ريح الشوق، فتزيد نبض بحرنا الرفيق وأنا أحتضنك وبك ملتصق، ثانية احمد الله انك حرة بين أهلي واهلك يا ديجة، أحادثك كأنك قربي، وحين نلتقي سأقص عليك المزيد مما عانيت، وما سأعاني بعد هذا اليوم، هذا إذا أطلق سراحي ثانية يوما ما، إنني في حضرة امرأة يهودية ترفق بي، أو ... – ربما -. . . . ، ولست متأكدا من سر هذا اللين معي؟ ولا أدري ما الهدف من وراء هذه الملاحقة التي لم اعهد مثلها، أرجو أن تكون بمشاعر إنسانية مثل الممرضة التي سمعتها تقول لجنود جيشهم، (خلاص خرام تعذيب، يكفي عذبناهم وطردناهم من بيوتهم وارضهم، اخنا هنا ممرض نساعد المريض لأ نعذب احد) على كل حال لست متأكداً مما سيأتي، لكنني أجدها تعطف عليّ، وربما لأن أصلها عربية مغربية تخفف عني بعض همومي، أو ربما ذلك لأسباب عسكرية استخبارية، لاستدراجي للتعاون مع مخابراتهم، تحاول أن تنسيني بلدي وبيتي الكبير الواسع، بيتنا البسيط القديم في قرينتنا جميل بوجودك فيه، وسيعود جميلا، ولأنني ولدت فيه وتربيت، وأخيرا تزوجتك وعاشرتك فيه، سيظل جميلا حتى لو انه معتم وبلا إنارة وليس به نوافذ واسعة، بيتنا ضمنا مع ديجا زوجتي وجسدها النحيف اللطيف ويرعاه، حين نتحد نصبح شخصاً واحداً يا حبيبتي خديجة، هل تذكرين؟ هل تذكرين نحافتنا كلينا وصغر جسمينا وقصر قامتينا وعشقنا، وحين التصق بك أنسى الدنيا، وانسى الشقاء والجهد الذي بذلته في الحقل او في العمل خادماً للغير في سنوات المراهقة، لأحصل على قروش قليلة بعد ذلك، أتمنى أن أعرف مشاعرك عندما تذكرينني يا ديجا، هل تتوقف أنفاسك؟ أو تنحبس ويضيق تنفسك؟ أنفاسي دائماً محبوسة، أنفاسي لا ترتاح إلا حين تكونين قربي فقط، أذكرك يا حبيبتي ديجا بليالي البرد وكيف كنا نلتصق، وفي ليالي الصيف الحارة، كيف كنا نتلمس جسدينا تحت غطاء خفيف، حتى لا يصدف ويصحو شقيقي فيشاهدنا شبه عاريين، الأخلاق يا ديجة والشرف، حافظي عليهما، وأحب أن يكون أخي شريفاً، ويبقى محافظاً على الحياء وغض البصر، أما خالي جسار فهو الكفيف، فلا يقلقنا في اللباس أو حتى لو سرنا كلانا عاريين في البيت، شدة الحر ّكانت ترفع حرارة جسدينا وروح الشباب والحياة الحلوة تثير رغباتنا، وسخونة النار تؤدي إلى الغليان، والغريب أننا كنا كلما تقابلت اعيننا ونحن منفردين في البيت، كنت أهيج وأعود لك ثانية ومحاولة أن تبقي مضمومة بين ذراعيّ، ولأحتضن جسدك اللين الصغير القليل.**

**- هلو سلوم، هلو، أين سرحت، ومع من تتكلم؟ شفاهك تحركت كثيرا، ونظراتك متجمدة، فبماذا تفكر؟ الا تراني؟ ألا تحس أنني أمامك، وأراقب عملك أثناء تنفيذ حكم الأشغال عليك؟**

**- أعرف يا سيدتي اعرف، اعرف انك مجندة ومسلحة وتراقبين حركاتي وسكناتي، وعملي المفروض عليّ، وربما انك مكلفة بالدخول إلى أفكاري وذاكرتي.**

**تبتسم ريتشي وتهز رأسها، ثم تمد يدها اليمنى واصبعها السبابة مرفوعة، وتحرك يدها في الهواء امام ناظريّ. تعاملني بلطف أحيانا، ثم تفطن أنها جندي عدو، وأنا أسير محكوم بالأشغال الشاقة لعامين.**

**أحتار بكلامها وأتأثر للطف تصرفاتها معي، أزداد حيرة يوما بعد يوم، هل أنا في حلم، جسدي وأعصابي ومفاصلي وأطرافي تتخدر حينا، وترتخي تارة، عملت بجد وبنفس طويل، ولساعات في أرض أجدادي، يعجبها إخلاصي في عملي، فتشت ريتشي اليهودية مغربية الأصل جيوبها مرة، وناولتني ما وجدت من عملة قليلة كانت معها، قدمتها لي، لكنني رفضت قبولها، أصرت على أن آخذها، لكنني قلت لها بلهجة عربية فلسطينية ريفية،**

**- لا تنفعني الفلوس هنا يا ريتشي وانا في الأسر، ولا أحتاج لها، إنني لا أفكر في شراء شيء وانا فاقد لحريتي، وأكتفي بالطعام الذي يقدمونه لي كغيري من السجناء والأسرى، المهم أنهم تأكدوا أخيرا أن لا ذنب لي، لم اقصد أن أهاجمهم بدخولي لأرضنا التي بقيت لنا، لم يكفهم ما اختطفوه من أراضي فلسطين الواسعة في غفلة من الزمن، إنكم تريدون أن تمنعونا من استخدام اراضينا التي سلمت، فلماذا يصرون على حبسي؟، عرفوا انني إنسان مسالم، ولم يكن في نيتي مهاجمتهم او اختراق الحدود، لم أعد أحتمل التعذيب، ولا أحب القسوة ولا العنف، وسأظل إنساناً مسالماً اينما حللت، مادمت اتمتع بشيء من حريتي، وعلى أرض وطني.**

**صاروا يستغلون هدوء سلوم ومسالمته وصبره في خدمة العائلات في الكيبوتسات، والضباط الذين يعيشون في المعسكرات التي خلفتها القوات البريطانية لهم، يزرع الزهور وبرويها وبقص العشب، تقترب ريتشي منه، وتمسك بكتفه ثم تقول، هذه الوردة اليانعة الجميلة من عمل يديك يا سالوم، يانعة لكنني اشبهها بك، قميئة تحب الاقتراب من الأرض ولا تغادر مكانها، وأصابع ريتشي القوية تشتد على كتف عفان تعصرها، يتخيلها زوجته ديجا وهي سعيدة في أوج استمتاعها والتصاقها، يخاطب نفسه، (أحسّ بك يا ديجا هنا)، حنى ظهره يتناول مسحاته،**

**معظم فلسطين أسيرة مثلي الآن، أصبحنا أسرى لدى اناس غرباء، كيف جاءوا ومن أين اتوا، كيف تجمعوا؟؟ وكيف اتفقوا وكيف قدروا على طرد شعبي وقتلنا وحبسنا؟ ويطاردون من بقي منا في كل مكان، فرضوا علينا الهجرة، او الموت او القتال، القتال؟؟ هل حدث قتال؟ خدعة وخيانة كبرى، لم نشهد قتالا ولا معارك حقيقية بين جيشين او شعبين، إنها مهزلة، او هو سحر الغدر، حرصوا على أن يبقى شعبنا بلا سلاح، وحرموا رجال بلادي ونساءها من حمل اي سلاح، الموت والسجن والتعذيب كان لكل من لمس السلاح ايام ظلم الاستعمار البريطاني، والذي كانوا يسمونه انتداباً، أما الغرباء فالأسلحة لهم وحولهم وفي بيوتهم كتوفر الطعام واللباس، لا ندري كيف خدعونا واخافونا ونحن مستسلمين شبه راضين، لم يكن شعبنا مستعدا لهذا الغدر، لم يفكر أحد من شعبنا يوما ما، بأن قوة تستطيع طردهم وقتلهم، لم نتسلح ولم نتهيأ لحرب او مناوشة، لأنه لم يخطر ببال الفلسطينيين حقدٌ او عداءٌ او وجودُ عدو بيننا، ولم نكن نتضايق من الضيوف والزوار والأجانب الذين يحضرون ليعيشوا معنا على ارض فلسطين، فبلادنا واسعة وفيها خير كثير، ولكم رثينا لحال اليهود الذين ظلمتهم اوربا، فآوينا الكثيرين الهاربين منهم، وعطفنا عليهم، وقدم وطننا فلسطين المأوى الآمن لهم، لم نعرف أنهم أتوا يضمرون لنا الكره والعداء، وبنية فاسدة خبيثة، تكاثروا وتدربوا ونحن عنهم غافلون، ليتني اسرت او حتى قتلت في معركة شرف، سأموت شهيدا راضياً وسعيداً وبرغبتي، وسيفتخر أهلي بسيرتي العطرة، لأنني أكون لبيت نداء الأرض ومت شهيد الواجب والدين والوطن.**

**ها إني أحتفظ بقصاصات الصحف التي أعثر عليها بطريق الصدفة من بيوت عربية، أو تسوقها الرياح لتعلق بسور المعسكر، وتتداخل بأسلاكه الشائكة، أحاول مد يدي لالتقاطها مجازفاً بحياتي، أخبروني وأنذروني بأنني إن اقتربت من السور فسيكون الموت متربصا بي، لأنهم زرعوا الألغام والمتفجرات بين أسلاك سور المعسكر، كانت القصاصة الصغيرة التي وجدتها بالأمس تحكي عن موسم النبي صالح في مدينة الرملة في العام 1946، وكان في شهر أبريل نيسان أو أيار من كل عام، يقول الخبر، إن أهلنا يستعيدون أمجادهم وتاريخهم، في ذلك الموسم يجتمع الشباب ليعلنوا استعدادهم للدفاع عن فلسطين وحماية ارضها وشعبها، يقول المقال ابتدع صلاح الدين وأتباعه موسم النبي صالح في الرملة وفي وسط فلسطين وقرب أقدام جبال القدس، وفي موقع وسط بين البحر والجبل، كي يجتمع الشباب العرب استعداداً وتأهباً للغادرين لو غدروا، وشعبنا الفلسطيني حافظ على هذه المناسبة الوطنية لمئات السنين، بالتجمع في مواسم عيد الفصح من كل عام، ليشعروا كل غادر بأن أهلنا مستعدون ومهيأون لأي طارئ ومجتمعون، وجاهزون للجهاد فور النداء. يواصل عفان سرحانه مخاطباً نفسه، الإنسان لم يخلق للهزيمة، بل للتفوق والعيش الطبيعي، الإنسان قد يتم تدميره او يتراجع إلا أنه لا ينهزم، الموت خوفا أو مستسلما او قاعدا في البيت هي هزيمته الحقيقية، وما دمت أتنفس فأنا منتصر عاجلا أم آجلا، أو بإمكاني أن أواصل كفاحي لأنتصر، سأكسب النهاية، مهما احتمل هذا الجسد او فعل او أخطأ سأكون أنا المنتصر، وأنا الرابح، المهم هي الحياة والاستمرارية، ابو الشابي قال سأعيش رغم الداء والأعداء، سأفعل أي شيء حتى أبقى على قيد الحياة، وكل ما أفعله هو من أجلك يا ديجة، ومن أجل أرض أجدادي، ولدت بها وسأعيش بها، وكما خلفني والدي، سأخلف شبابا وصبايا أنا الآخر، ستفرحين يا ديجة، وسأزرع ارضك الخصبة بالحياة والنماء والإنتاج الوفير إن شاء الله، مهما غبت عنك وعن بلدتي سأعود، ولو بعد صبر طويل، وأغانينا تقول: سنرجع يوما إلى حينا، ونغرق في دافئات المنى، سنرجع مهما يمر الزمان، وتنأى المسافات ما بيننا.**

**أفطن للزهرة التي ناولتنيها ريتشي اتلمسها بين أناملي، أدسها في جيبي تذكرني بك يا ديجا، الا تتذكرين حين كنت تجدين زهرة جميلة في أرضنا؟ تنحنين وتقطفينها لتقدميها لي، حتى لو كنت تحملين لوازم الحراثة والنكش لمساعدتي في خدمة ارضنا، آمل أن تعتني بخالي جسار يا ديجة، لا بد أن أكون عوناً للخال، وأتمنى لو كنت قربك هذه الليلة لأضمك إلى صدري وأفيك حقك، كم بي شوق للمسك وتقبيلك يا حبيبتي، سامحني يا خال على بعدي عنك، أحاول فتح عيني ليلاً، لكنه الظلام، الليل الطويل، وظلام الفجر الثقيل مطبق على الدنيا والمعسكر، ولا شك أنه مطبق عليكم أنتم هناك أيضا، والكوة الصغيرة في علبتي التي أقيم بها مرتفعة، وكأنها لا وجود لها، تشبه كوة بيتنا القديم المرتفعة، اوصيك ثانية أن تهتمي بخالي يا ديجة وسامحيني أنت الأخرى، حبيسٌ هنا بغرفتي المعدنية الصغيرة عند عدو منغص لعيشنا جميعا، أتمنى أن لاأظل رهن إشارة ذكرأو أنثى من الغرباء والمغتصبين، ولا أتمنى أن يتحكم بإجلالك وشيخوختك أحد يا خال.**

عدها بأسابيع، وفي أمسية خريفية وجدت نفسي في غرفتي المعدنية الصغيرة مع ريتشي، تجلس امامي مشدوهة حذرة وانا سارح النظرات بعيدا، بعد أن طال صمتي وسرحان فكري، تصفن هي الأخرى نفسها، تجذب منشفة تغطي نصفها الأسفل العاري، ربما تسأل نفسها عن سبب اهتمامها بأسير عربي، أوهل تريد أن تطيب خاطري؟ أو لتعتذر لي عن كل أخطاء الصهاينة ضدنا؟ أو تورطها معي؟ لم تسألني عما يدور في خاطري، كلانا في حيرة مما نحن فيه، إنها صافنة تتأمل شيئا متجمدا أمامها، وتركت لي المجال كي احلم على طريقتي، أتنفس بطريقة طبيعية، أخيراً تفاجئني بالسؤال

- إنك لا تجاوبني ياسلوم على سؤالي أراك الآن سارح النظرات مثلي، فأين أنت الآن؟ وأين تسرح؟، وماذا يخطر ببالك؟

- اخبرتني زوجتي أنها تنتظرني حين خرجت لحقولنا البعيدة، لإفراغ محتويات بطني في الهواء الطلق بعيدا عن الناس.

- أيها العربي المعتوه! كيف اخبرتك زوجتك وانت سجين هنا في معسكر مقفل من كل اتجاه، ألم تكن أسير هذا الحضن قبل قليل؟ وبعيدا عن اهلك وناسك؟

- اعتذر ياريتشي، روحي تنبئني بهذا، لأنها قبل وقوعي في الأسر طلبت مني ألا أتأخر حتى الغروب، وقالت إنها ستطبخ لي شوربة عدس، حتى أعوض السوائل التي افقدها بسبب إسهال شربة ملح الإنجليز، بل إنني هنا معك وفي الأسر بسبب شربة ملح الإنجليز، نظفت امعائي يومها على أرضنا أرض أجدادي، هذا ما جري يا ريتشي، فأرجوك أن لا تزيدي جروحي هذا المساء.

يكرر عفان قوله في نفسه، (نعم، الإنسان لم يخلق للهزيمة، بل للتفوق والعيش الطبيعي، الإنسان قد يدمر أو يقع أسيرا، او يتراجع إلا أنه لا ينهزم، الموت خوفا أو مستسلما او قاعدا في البيت هي هزيمته، وما دمت أفكر وأحلم وأتنفس فأنا منتصر عاجلا أم آجلا، ومهما احتمل هذا الجسد او فعل او أخطأ سأكون أنا المنتصر، المهم هي الحياة والاستمرارية، سأفعل أي شيء حتى أبقى على قيد الحياة، وكل ما أفعله هو من أجلك يا ديجة، ويا أرض أجدادي التي ولدت بها وسأعيش بها، وسأزرع ارضك الخصبة يا خديجة بالحياة والنماء والإنتاج الوفير إن شاء الله، مهما غبت عنك وعن بلدتي سأعود لنعيش مع أبنائنا وبناتنا)

ترفع راشيل يدها عن كتفه. وتقول له

- هل قرأت شيئا في الأمس؟ أو هل تريد أن أبحث لك عن كتب قديمة وجدناها في البيوت التي هجرها العرب؟

- إنني أقرأ القرآن، نعم وأحب قراءة التاريخ وأخبار الجريدة إن توفرت لي جريدة قديمة، أحيانا أجد قصاصات من ورق جرائد فلسطينية قديمة حول سور المعسكر، قديمة جافة من الشمس والمطر وأربع سنوات على هجرها، لكنني ألتقط القصاصات، ادللها واحاول فردها لقراءة أشياء عن اخبار بلادنا فلسطين، ايام كانت فلسطين كلها لنا.

**- وأنا احب القراءة يا سلوم، وسأوافيك بالكثير من الكتب، مادمت تحب القراءة مثلي، إنني أستطيع الحصول على كتب كثيرة، من الجنود ومعارفي، إنهم لا يهتمون بكتب العرب التي وجدوها في البيوت المهجورة، مع ان حكومتنا دعت شعبنا اليهودي بتسليم أي كتاب يجدونه للمكتبات العامة، لكن معظم الناس والجنود لا يفعلون ذلك إما كسلا أو إهمالا، ولا يريدون الاحتفاظ بأي ثقافة عربية.**

**فصـــل 5**

**قبل خروجه من البيت يوم وقوعه في الأسر، سلوم يقول لزوجته**

**- مالي اراكِ أوقفتِ عملك في البيت وصرت تجهزين نفسك للخروج؟**

**- أريد مرافقتك، أحب زوجي، فلاحة أنا ومستعدة دائما لمساعدة شريك حياتي، وعماد بيتي، أريد مرافقتك حتى أهتم بك يا سيدي، وأحمل الماء لك، ثم لا أريدك أن تنأى عن القرية كثيرا، وأخشى أن يزيد الإسهال معك، لذا سأحمل لك الماء الكافي.**

**- نعم؟ نعم؟ مرافقتي؟ ماذا تقولين؟؟ (تتوقف خديجة مبهورة. . وعينا عفان مبحلقتان في عينيها)، هل انت مجنونة؟ لايمكن ان يحصل ذلك، ستبقين هنا، اهتمي ببيتك وبعملك ا ليومي.**

**- أرجوك أن تسمح لي بمرافقتك، مضى على زواجنا عام وشهران، (تعبس خديجة ويبدو عليها التأثر، فتتعجل في الكلام وبعصبية وضيق تكمل كلامها) لم تسمح لي بمرافقتك ولو لمرة واحدة إلى أرضنا واشجارنا البعيدة، ألست فلاحة مثل باقي نساء القرية، اريد أن أزور ارضنا البعيدة ياسلوم.**

**- لو كان لي بك حاجة، او لوكنت ذاهباً للعمل، او لو كان الموقف مختلفا لطلبت أنا نفسي منك أن ترافقيني، إنني لست ذاهبا للنزهة او للعمل هذا اليوم، تعلمين انني تناولت شربة مسهل صباح هذا اليوم الباكر، واريد أن اخرج بعيدا، كي استعمل الحمام بحرية في الخلاء الطلق، وتعلمين أيضا ان جميع بيوت قريتنا لا يوجد بها مرحاض واحد إلا في المسجد.**

**- أرجوك دعني ارافقك، أخشى ان يتعبك الإسهال فتدوخ، لن أثقل عليك ولن أضايقك، فلماذا لا تسمح لي بمرافقتك؟ ثم إنني سأحمل إبريق الماء عنك.**

**يرقق سلوم كلامه، يقترب منها، يمد يده حول عنقها، يقربها ويضمها إلى صدره، يهدئ زوجته خديحة ثم يقول**

* **عيب يا امرأة، هل تريدين ان تفضحينا؟ فماذا تريدين أن يقول الناس عني؟ سيقولون رافقته زوجته لتحصي عدد مرات إخراجاته؟ وأنا لا أريد أن يعرف الناس انني تناولت مسهلاً، أو إنني مبتعد عن القرية كي آخذ حريتي في إخراج فضلات بطني، لا تلحي عليّ، دعيني وشأني حتى لا يبدأ الإسهال معي هنا، او قبل خروجي من شوارع القرية، فأتألم كثيرا، أو هل تريدين أن أعملها في ملابسي، وهل يرحم الإسهال حين يندفع في خروجه، بل لا يقبل التأجيل.**

**تتمايل ديجة يمينا ويسارا استسلاما او اقتناعاً، تحني رأسها ورقبتها صوب زوجها سلوم، تمد يدها متوسلة ًضجرةً**

**- يا إلهي! لا أدري لماذا أحس بالملل هذا اليوم، وتريد أن تتركني وحدي في البيت، أرجوك دعني أرافقك بقصد النزهة، ألا تحب مرافقتي؟**

**- اننا في أشد شهور الصيف حرارة، وسأذهب بعيدا لتفقد بستان الزيتون البعيد، اخشى عليك من التعب والحر يا حبيبتي، قلت لك امكثي في البيت ولا تكثري الكلام، او اذهبي لوالدتك ساعديها او زوريها.**

**- لكنك تعلم انني احب أن اكون قريبة منك دائماً، افلا تسمح لي اليوم بأن اكون ثاني اثنين.**

**- دخيل ربك، يا إلهي! مللت لحاحك، قلت لك لا تزيدي في الكلام، يا ألله من حواء ومن إصرارها على مطالبها، ألا يكفيكِ طول الليل وأنت ملتصقة بي كأنك طفلة، ألا يكفي!؟، سأخرج اليوم مبكرا، استنشق هواء نقيا، بعيدا عن ظلمة بيتنا ورائحة الغنم والبقر، أعدك أنني سآخذك معي في رحلة ثانية خاصة لك، أما رحلتي اليوم فلتنظيف أمعائي، وطرح فضلاتي بعيدا عنك وعن البلدة، بين أشجار الزيتون والتين وتحتها.**

**- حسناً، جهزت لك قربة ماء والإبريق الجديد، حتى يرشح وتظل ماؤه باردة، وتشرب منه ماء باردا في الخلاء والجو ا لحار، وكلما عطشت، وليكون معك ماء كاف، حتى تغسل وتنظف جسمك بعد كل خروج.**

**- أنا الفلاح عفان إبن نومان، لا أعطش، اعتدت على الصبر، واحتمال المشاق، وسأعود لك قبل صلاة العصر، ولا يلزمني إبريق الماء، تكفيني القربة لسهولة حملها، أما الإبريق فإن حمله والتنقل به سيشقيني.**

**- و ربك لأملأنَّ القربةَ عن آخرها، ولو صارت ثقيلة عليك، رضيت او ابيت.**

**- ما دمت اقسمت، فلا بأس يا ديجا، يا حبيبتي، سأحمل ثقل ماءك معي أينما توجهت، وسأظل رفيق مشاعرك يا خدوجتي.**

**كلما ابتعدت في سيري نحو ارضنا، أتذكر كلام زوجتي ديجة، انظر للخلف لقريتي التي فيها زوجتي ديجة، وبعد أن مشيت ما يقارب كيلومتر ونصف، بدأت القرية تغيب عن عيني حين أسير في منخفض من الأرض، وحين ترتفع الأرض تبرز قريتي ثانية كرسوم مخربشة، بيوتها تلتم على بعضها، بيوت قديمة جلها من الحجارة والطين مكدسة تخشى التباعد، متلاصقة بيوتها، كمثل رغبة خديجة بكثرة التصاقها بي، بيوت قريتي تعشق بعضها، فماذا عن خدوج التي تريد أن أظل حبيس البيت، لتظل ملتصقة بي، ولو متنا جوعا، كل اهل بلدي يحبون الاقتراب من بعضهم، وبيوتها القديمة تحتمي ببعضها، لتنجو من دواهي الزمن، وإن صاح شخص من أطرافها أو طلب النجدة، يسمعه معظم الناس، فيهبون للنجدة او المساعدة او الحماية، عيناي تتأملان كل صغيرة وكبيرة تصادفني، أتجنب الحجارة الكبيرة، ولكن صغارها يصدم قدمي او أدوسه فيؤلمني، اعرج قليلا، وخاصة كلما أردت إخراج فضلاتي، أتلمس كل شجرة أمر بها، او أتلمس وأشتم رائحة أي نبتة عطرية، بلادي والله جميلة، ومالم تسرح في أرض بلادنا فلن تحس بما أنعم الله علينا في ديارنا وأراضينا، كل ما ينبت على أرضنا يعطي خيرا كثيرا، وكلما مررت بشجيرة زعتر او شجيرة ميرمية او زعتمانة، مررت بأصابعي عليها، ثم شممتها، لم أكن أكتفي بذلك، بل كنت اقطف غصنا صغيرا جدا أحياناً، أشمّه ثم أمضغه، وأشعر بانتعاش، قطفت قليلا من كل نوع، ولكنني قلت في نفسي، سأحزم اغصانا من النباتات العطرية، في طريق عودتي لمنزلي، وضعت لي ديجة في سلتي قطعة خبز مدهونة بالزيت والزعتر، لكنني لن أدخل طعاما هذا اليوم في بطني، حتى أطمئن أن أمعائي نظفت من البلاوي التي تضايقني، سأحاول أن لا آكل قبل عودتي لمنزلي، حيث سأجد ديجة قد جهزت لي شوربة، وسنتلذذ بها ونأكلها انا وزوجتي سويا في هناء واستمتاع.**

**من عادتي أنني حين أجوع لا أسأل ولا أدقق فيما هو امامي عادة، بل آكل أي شيء يتيسر لي، فكيف به لو كان من صنع يدي حبيبتي ديجة؟؟، ومع أنني خارج للتخلص من فضلات بطين، وتناولت شربة ملح إنجليز لهذا الغرض، لكنني لم أستطع مقاومة جماليات النباتات العطرية التي مررت بها، فقد مضغت وابتلعت أطراف الكثير من أغصان الزعتر الطرية وأنا في طريقي إلى أرضنا وأشجارنا، لأنها هي الأخرى تساعد على نظافة أمعائي. لا أقسوَ على شجيرات الزعتر البري قرب أرضنا او تلك التي اجدها في طريقي، كي تبقى على قيد الحياة، ولكي تجدد حياتها ونموها وتكاثرها طول الزمان، ولا شك أنها عاشت لمئات الأجيال في أرضنا وارض فلسطين، فكيف سأجور عليها؟ ستبقى تنعم بالنماء في الجزء الذي سلم لنا من فلسطين، وفي يقيني أن ابناءنا من الأجيال القادمة، سوف يعرفون كيف يخلصون البلاد من الغزاة. وفجأة وجد سلوم نفسه أسيرا لدى جنود الصهاينة.**

**وبعد التعذيب لأكثر من شهرين والتحقيق، اقتنع العدو الصهيوني ان عفان لم يكن لديه أي نية بمهاجمتهم، فحكم عليه بالعمل في معسكر حصين قرب اللد لتمضية مدة سجنه سنتين، لم ينس سلوم يوما قسوة التعذيب الذي عاناه على ايدي محققي الاستخبارات العسكرية، والعسكري البولوني، والعسكري الفرنسي، في الوحدة التي ألقت القبض عليه في أرض أجداده**

**- يسأله المجند اليهودي الفلسطيني عن اسمه، بلهجة عربية فلسطينية لكن بلكنة خواجاتية**

**- اسمي سلوم. سلوم يا خواجه، اسمي سلوم**

**انتهره المجند البولوني الأصل هازئا (شلوم؟ ) أنت نو شللوم أنت آراب خراب، أراب خرا أراب**

**- أقسم لك أن اسمي سلوم أو سلام. . أهلي كانوا يلقبونني عفّان في طفولتي لكنني لست خرّاباً يا خواجة**

* **أنت خراراب ، خرا . . . أراب ، يصدمه بكعب البندقية في يده اليمنى تحت الكتف،تنطلق قنبلة مدوية من مؤخرة عفان، وحين صدمته الضربه التالية في صدره يسقط سالوم مغشياً على الأرض منقطع الأنفاس، تنبثق دفعة قوية من البراز الرخو من أسفله، يحسّ بالسائل الحارق يبلل ملابسه وحتى قمبازه الفلسطيني التقليدي، لم يكن يرتدي سروالا يومها، لأنه في الخلاء ولسرعة الاستجابة للإسهال، ارتفعت قدم أحدهم لضربه وهو ملقى على الأرض، لكن الجندي الدرزي شدّ المجند الحاقد للوراء، فنزلت حذاؤه الضخمة على كتف سلوم، صاح سلوم من الألم، حاول أن يتقلب ويتلوى على أرضه، وكلتا يديه تحيطان بحذاء الرجل، وتمسكان بها بكل ما أوتي من بقية قوة، يضغط عليها ليبعدها عنه، أوليضعها على الأرض، وهو يتوسل له أن لا يعيد الضربة، تعب فأفلتت القدم وهو يحاول أن يتحسس مكان الضربة، لكن الشلل بدا ظاهراً والضعف على حركة ذراعه، نظر سلوم حوله وهو ملقى على الأرض فوق الأعشاب الجافة والأشواك، وعلى الأرض التي خلفها له والده، لكنها ارض رحيمة مهما قست عليه، فهي ملجؤه ومصدر رزق عائلته الفلسطينية، تعيش على خيراتها ونتاجها. يستطلع أعين الجنود المحيطين، سأله المجند العراقي، لماذا تأتي هنا إلى أرض إسرائيل؟**
* **لم أعتد على ارض أحد، هذه أرضي، أنا أحب ارضي، حضرت لتفقدها، ولمعرفة ما يلزمها، إننا نحب أرضنا ونستفيد منها، ولم يصدف أن تعذبت او أصابني ضرر من زيارة ارضي واستغلالها، أرضنا أغلى علينا من أرواحنا، كلماته متقطعة، وهو يتلوى من شدة الم ضربات التعذيب فوق أرضه.**

**حاول الاعتدال في جلسته، فدفعه الفرنسي الأشقر ببندقيته فهوى إلى الأرض ثانية، اتجه سلوم الضعيف المستسلم في عيني الأشقر الزرقاوين الباردتين، كسرت أضلاعي يا خواجة، لم أذنب حتى أستحق هذا العذاب، لم يفهم الصهيوني الفرنسي كلام سلوم، لكن واحداً من المجندين في تلك المجموعة، ينظر لسلوم ببرود المنتصر، كان ينتظر نتيجة مخاطبة الجنديين اللذين يعرفان العربية، ثم إن الضابط وربما كان أمريكياً أراد أن يعرف من سلوم لماذا وكيف وصل إلى هذا المكان الذي يعتبرونه أرض إسرائيل، إن تلك المنطقة كانت منزوعة السلاح، حسب اتفاقيات خط الهدنة، وفاصل بين الجزء المحتل من فلسطين وبين منطقة ما تبقى من فلسطين العربية، ضربات أخرى أقل عنفاً هوت على ظهره وجانبيه من الفرنسي والألماني والروسي، لم تمهله الضربات المتتالية ليقول جملة مفيدة، دفعه المجند اليهودي فلسطيني المولد برفق نوعا ما إلى الأرض ثانية، ربما ليجنبه الضربات الحاقدة، وبدأ ينصحه بالاعتراف عن هدفه من حضوره إلى حدود دولة إسرائيل، ومن أرسله؟ رافعا يده ليوقف الضربات المتوالية على جسد سلوم، يؤشر لرفاقه بيده، ليمهلوه حتى يحقق معي، أشار لهم قائدهم الأمريكي بالتوقف عن الضربات القاتلة، وبلغة عبرية طلب أحدهم منه النهوض، لم يفهم عفان الكلام الصهيوني، فصاح به اليهودي العراقي أن انهض، والمجند الدرزي واقف لا يجرؤ على قول أي شيء، عفان لا يقوى على الوقوف، كان منهوك القوى حتى قبل وقوعه أسيرا في أيديهم، بسبب شدة الإسهال، من شربة ملح الإنجليز، والضربات العنيفة على صدره وظهره وكتفيه، ثم زاده الرعب والتعذيب سقما، يعرف أنه حتى لو نهض فسيتلقى ضربات أشد من جديد، إنه الآن خائر القوى، يتلمس عفان موضع الألم وعيناه ترقبان تحركات البولندي، يحس أن أضلاعه محطمة، وقلبه ما زال يخفق في ضعف واضطراب، يخشي أن يعود البولندي او ا لفرنسي لتكرار ضرباتهما الحاقدة، يشاهد أن بقية الجنود الآخرين يوجهون بنادقهم صوبه، وقد تصدر إشارة لأحدهم أو لهم كلهم لإطلاق النار عليه في آن، ففضل الموت وهو ممدد على أرضه، بدل محاولة النهوض، يقول في نفسه، وماذا لو وقف وقتل وهو واقف، فالأشجار تموت واقفة، وهو العربي الفلسطينيي المؤمن بقضاء الله وقدره، الموت قادم على كل حي لا محالة، وحين يأتي سبب الموت لا يرحم، سيوقف الحياة في جسد الخائف أو الصامد، وحتى الشجاع، لكنه لاحول في جسده ولا قوة تمكنه حتى من الاعتدال في الجلوس، يشعر بعطش شديد ودوار، فلماذا لا يبقى مستلقياً على تراب وطنه وأرضه الحنون، والتي طالما رعاها، وخدمها وقطف ثمارها، وياما حرثها وقلم اشجار الزيتون والتين والعنب المزروع بها، وكم من مرة استظل بظلال أشجارها، يلح عليه الدرزي بكلام عربي للنهوض بعد أن أبعد الجنود قليلاً عنه، يرفع رأسه مرعوباً يتأمل الوجوه واحداً تلو الآخر، ينظر في أعينهم أملاً في أن يتعرف على ملامح وجه إنساني من بين المحيطين به، تتجول عيناه تخاطبان السماء، ثم اتجه بنظره صوب قريته، لم ير مخلوقاً من بلده يلوح في الأفق، أعاد النظر إلى السماء وبآهة وهو ينظر للمجند الأسمر قال في تأوه وثقل يارب! . . . ثم نهض محاولا الاستقامة والصمود، لكن طعنة غير قاتلة بكعب بندقية صدمت رأسه من الخلف، فهوى ثانية فوق أرض أجداده، فصدم رأسه حجر صغير كان مختفياً في باطن الأرض، انغرست في جلد رأسه ثلاث شوكات جافة او أربعة، لكنه لم يقو على حكها او محاولة قلعها، ثم عاجله احدهم بضربة من حذائه أسفل بطنه، فانبثقت دفعة أخرى من البراز السائل وفاضت على ملابسه، وعلى ساقيه والأرض، وفاحت روائح غير زكية، نفروا جميعا مبتعدين عنه، وظهر جليا انه لا يرتدي سروالا،**

**لم يفقد الوعي، لكن الآلام في جسمه كانت من كل مكان، حتى أن السقوط على الأرض، سبب له رضات في عظام رأسه وكتفيه التي لا يكسوها إلا لحم قليل وبلا شحم.**

**أسمعهم يتحدثون بالعبرية ويتناقشون بالإنكليزية، وكأنني داخل علبة او برميل، أو كأنني على وشك النوم، او في حلم، لا أفهم كلمة مما يقولون، تحركت من الألم، واشتد أنيني، فتحت عيني، ففوجئت بالفرنسي يضع مقدمة البندقية امام وجهي، أدركت وقتها أن لي عدواً بغيضاً، لم أكن أصدق اللاجئين من الفلسطينيين، حين كانوا يصفون قسوة عساكر الصهيونية، وهم يرعبون سكان القرى والعائلات، ويعاقبونهم بقسوة وبلا مشاعر إنسانية، ليضطروهم لمغادرة بيوتهم وأملاكهم، ثم ويقتلون ابناءهم والأمهات أمام أعين العائلة أو الآباء، وكأنهم جمادات لا تحس ولا تتألم، كي يرعبوهم ليهربوا للنجاة بأرواجهم، وترك بيوتهم وأملاكهم، التي تعبوا وشقوا حتى عمروها، لم يفكروا بمعاملة الناس ومعاملتهم حتى كالحيوانات، مع ان الأجانب والصهاينة يظهرون أنهم يحبون الحيوانات، ولا يعاملونها بقسوة، بل يدعون لحماية الحيوان والرأفه به، كل هذا الظلم الصهيوني حتى يرعب الفلسطينيين، ويضطروهم للهرب من الموت والعذاب، ولمغادرة بيوتهم، مما سبب رحيل الفلسطينيين ونكبتهم، تذكرت أحداثا كثيرة سمعتها عنهم وعن قسوة قلوبهم ضد الفلسطينيين، ولذلك لم أفاجأ بما لقيته من قسوة في التعذيب حين اصطادوني، حاولت الوقوف، لكن رأسي كانت ثقيلة، والألم يتزايد فيه، مددت يدي من الخلف، أحسّ دما دافئا ما زال ينزف من مؤخرة رأسي، أحرّك أصابعي واعيدها أمام عيني، فأرى الدم على رؤوس أصابعي، أعود للضغط على الجرح، مسحت الدم عن أصابعي وكفي بملابسي القديمة القصيرة، رفعت رأسي ثانية وأنا أتألم من شدة الوجع، بينما كنت ارفع رأسي شددت جسمي ببقية القوة التي لدي وقتها، حتى تمكنت من الجلوس على الأرض، خمسة او ستة يحيطون بي، اثنان منهما بدآ يدخنان، وآثنان آخران ابتعدا قليلا، وأدارا ظهريهما، ثم أخذا يخرجا البول من جسميهما كل في اتجاه، والبولوني والفرنسي ما زالا يصران على قتلي، حتى أصدر مسئول منهم أمرا بنقلي إلى السيارة التي لم الحظها من قبل، وحسب أوامر القيادة العليا في اللد.**

**حاول سلوم الوقوف وحده، لكنه ترنح وهو يحاول الانتصاب، ورجفات تجتاحه من شدة الألم الذي يعانيه في كل مكان، ما إن وقف حتى أحسّ بدوار شديد، فتراخت ساقاه ثانية وهبط راكعاً مستغيثا (يا ألله، الله أكبر) نزل على ركبتيه فوق تراب أرضه الساخن الخشن، لكن عينيه ظلتا تجولان الأجواء حوله، خوفا من ضربات جديدة تنزل عليه، لمح أثناء ذلك طائر غراب أسود يحوم في السماء، تبعه بنظراته مصعداً بها صوب السماء، رفرف الطير كثيرا في الأعالي، كأنه يستطلع الجمع في المكان مستغربا، زعق الغراب مرات عدة، فدبت في سلوم قوة كافية، ينهض منتصباً رجراجا، تقدم الدرزي العربي ثم واليهودي الفلسطيني يساعدانه، فجروه صوب السيارة، كأنه غصن شجرة زيتون قطع عن أمه الشجرة قبل أيام قلائل، لكنه ما زال صلبا متماسكا خسر الكثير من رطوبته والخضرة التي تزينه، غصن قوي يتحمل الأحمال والأثقال ويصمد حتى لحرارة النار. فكر سلوم في نفسه هل سأعيش يا ترى؟ وهل سيبقونني حياً، قرأ وسمع عمن تم قتلهم وتعذيبهم من قبل جنود الصهاينة بدم بارد، حتى الأطفال لم يسلموا، ولا النساء الحوامل او العجائز، أحسّ أن لا أمل له في الحياة، لكنه نسي الخوف من الموت ومن الآسر، فعزى نفسه قائلا، لست اول فلسطيني يموت على ارضه، والله لن يهمل الظالمين، ثم تذكر اقوال بعض الحكماء، (الإنسان لم يخلق للهزيمة، بل للتفوق والعيش الطبيعي، الإنسان قد يدمر او يتراجع إلا أنه لا ينهزم، الموت فقط هو هزيمته، وما دمت أتنفس فسأنتصر)**

**بعد مرور شهور ستة على سجنه، تخبره ريتشي أنها قد يتغير مكان عملها وطبيعته، تتمطى وهي تنظر للأرض، وكأنها في موقف حرج او تشعر بارتباك وربما حيرة، أخبرته أنها كلفت بمهمة بعيدة، وقد تزوره ثانية بعد يومين، لكنها لم توضح له أو تناقشه في أي موضوع حتى ولا عما حصل في ذلك المساء.**

**فصــــل 6**

**بعد انقضاء أسابيع التحقيق والتعذيب، صدر الحكم بأن يعمل عامين داخل المعسكر الحصين قرب اللد، ليخدم الطرق والحدائق العامة وحدائق منازل الضباط المقيمين هناك، إذلالا للعربي الفلسطيني، وعلق أحد القضاة العسكريين قائلا، (لا يصلح الفلسطينيون إلا للعمل خدما عندنا)، لم يعلق سلوم، بل اكتفى بهز رأسه ببطء شديد، بعده رفع رأسه إلى السماء، وعقله يخاطب ربه بما في نفسه، خصصوا له غرفة معدنية صغيرة يسمونها كرفان، يشاهد قطة تمر قرب الكابينة التي يقيم بها، فصار يحاول ان يدخر من طعامه شيئا يقدمه للقطة، لعلها تعتاد عليه وتسليه في وحدته، دخلت مرة في زنزانته، فأراد أن يحبسها في غريفته في المعسكر كي تسليه وتؤنس وحدته، تخيلها زوجته، فصار يناغيها ويتلمسها ويحاول التقرب منها، لكنها أبت قبول مداعباته، كشرت عن أنيابها واستعدت للمقاومة والخرمشة والعض دفاعا عن شرفها وحريتها، سبحان الله، فكر سلوم في نفسه.**

**الحيوان لا يقبل الأسر ولا الذل، يقاوم حتى لو فقد حياته، وأنا سجين لاحيلة لي كي أسترجع حريتي، وريتشي تحاول تدجيني، أيتها الشياطين، أين المفر، سماؤنا بعيدة الغور واسعة الأطراف، وبلا نهايات، أجول بها بعيني وأفكاري بلا توقف، لكن الأرض ضاقت بي، عقلي متسع وبلا حدود كتلك السماوات، وميزنا الله عن المخلوقات الأخرى، بالعقل والكلام والابتسام، لكننا نطالب السماء دائما بمساعدتنا على الحياة، سأصبر حتى يرتوي الصبر من دمي، كما يقولون، سأصبر على امل أن أعود لزوجتي ديجة، احبك يا ديجة، احبك ايتها القطة الجميلة الناعمة كزوجتي، أعرف أن ديجة ستدافع عن شرفها لو حاول أحد أن يعتدي عليها، وتعرف القطة أنني لا أصلح ندا لها او زوجا او رفيقاً، وإنني غريب عن جنسها، لذلك فهي تقاوم التصاقي بها، الصهاينة في أرضنا غرباء، لا بد أن أن نقاوم الصهاينة الغرباء كي يرحلوا، كي يرجعوا من حيث أتوا، فصبري أنا وأمثالي هو أساس وقاعدة لبناء مشروع وطني جديد، لا بد أن نتهيأ لطرد هؤلاء الدخلاء من بلادي، وإجبارهم للعودة لبلادهم الأصلية التي حضروا منها، شعبي برغم ضعفه ومسالمته وتهجيره، إلا أنه شعب قوي صلب وعنيد، يأبى الضيم ويرفض الاستسلام، مثلي انا، برغم سجني واسري، إلا أنني اتشبث بالحياة، وسأعود حراً يوما ما، واخلف البنات والصبيان، صامدا صلبا مع شعبي نتربص الفرص كي نغير الظروف لنعيد حياتنا وتواجدنا على ارض الأجداد من جديد.**

**يخاطب عفان نفسه، كأنه يخاطب جمعا كبيرا من السجناء والمهجرين، فلسطين يا حبيبيتي، يستأنس بحرنا الأبيض بأهله، ما إن يحس بوجودهم على شواطئه في يافا او حيفا او عكا او غزة، يزيد نبضه وتعلو أمواجه راقصة مرحبة بناسه الأصليين، يروق لهم الاستماع لهدير تلك الأمواج المتواصلة بلا كلل ولا ملل، فتخدر أعصابهم وتنسحر مشاعرهم، تتابع تلك الأمواج، فتهيم ارواحهم بامتداد هذا البحر المتلألئ على الشواطئ وفي الأعماق، فيتذكرون زياراتهم وهجراتهم ومعاشرتهم لهذا البحر، يتأثر به السعداء والتعساء، ينسون واقعهم اليومي، وما يشغل بالهم من مرض او الم او ربح او خسارة، ويتمنون لو ركبوا تلك الأمواج، يسرح الزائر ويمرح فوق رمال شواطئه، حتى وأطفال فلسطين يصابون بالدهشة، حين يجدوا أنفسهم يلعبون على شواطئه، لا يريدون ا لعودة لبيوتهم، يتمنون البقاء على شواطئ بحرنا الأبيض، فيزداد صخبهم وهم يقتربون من بأطرافه، ويداعبون جوانبه، يريدون الغوص في مياهه والعوم، يتدافعون ويتراشقون،وحين يطلب منهم أحد الاستعداد للرحيل تصيبهم رجفات الرفض، يريدون مواصلة الحياة والعبث مع حبيبهم بحر يافا واوقاتهم قربه، فيزداد حماس البحر وشوقه للناس والأرض، فيقترب منهم أكثر، ويصرّ على معانقة أرض فلسطين المقدسة بشوق وحنان، ثم يعود للجزر والمد بلا توقف، هياج بحر يافا وعكا يخلد قصة الكفاح الفلسطيني من اجل الحرية والبقاء. يقف بحرنا مع اهلنا حارسا للأرض، ومعينا لهم عبر القرون، سنحافظ على قداسة الوطن الفلسطيني وتواجد الأهل فيه، حتى إن نساء فلسطين الزائرات لبحرنا يستأنسن ويفقدن بعض السيطرة الموروثة كالخجل والحياء، فيقمن ببعض الحركات في جو الحرية والأمان، وبعضهن يتجرأن على ارتداء لباس البحر، أو ينتزعن الكثير من ملابسهن، ليضمهن البحر ويستمتعن في أحضانه، أو يسمحن له بالوصول لأي مكان في أجسادهن وما بعدها، فرصة لهن، يعبثن ويداعبن شبق البحر وإغوائه، حتى وتمرده، والماء تغسل كل تعرّق أو رغبة بالأجساد، قلة كن السابحات، بل وندرة من الريفيات، لكن بنات يافا وحيفا وعكا وغزة، لا تقل مهارتهن في معاشرة البحر والغوص فيه عن مهارات الشباب، وفي نهاية الرحلة والزيارة تبقى أرواح الزائرات ملتصقة بشواطئك يافلسطين، حتى لو ابتعدن، يعرفن أن ما قمن به عند البحر ومعه هي ذكريات لا تمّحي، صارت زيارة الريفيات للبحر تراث وعادة لا بد منها، يحكين لغيرهن عن تلك الرحلة المحببة، وتظل لحظاتها مخزنة في الذاكرة، لا تبرح بحرنا روحك حتى لو نأيت، ترافقك مغرياته كالرموش أينما سرحت تلك العين، ومن يضطر او يقدر على المكوث في إحدى فنادق يافا، يعرف نمط حياة أهل يافا نوعا ما، إذ تظل موسيقى هدير الأمواج مرافقة لاوقاتها ليل نهار، صيفا وشتاء، تناجيهم وتشعرهم ان مدينتهم لا تبرح بحرها الحبيب، ولا تمل من وجوده لامساً جسدها الحي الجميل. آه لو يعرف كل فلسطيني وكل دخيل، كم عبرت شعوب كثيرة على هذه الشواطئ، وحاولت أسرها والاستقرار بها، لكن مصيرها كان النبذ والرفض والرحيل أو الفناء.**

**أغرى القطة مرة لدخول غرفته الصغيرة، فحبسها يوماً كاملاً في زنزانته، كانت تلك التجربة بمبادرة منه، وربما لجهله وعدم خبرته بالحيوانات، أراد أن يعرف هل يعتاد الحيوان على الحبس ويصبر عليه كالإنسان؟ غرفته أصبحت عالمه الوحيد ليلاً، أما نهارا فهو صديق الزهور والورود والشجيرات على أرض المعسكر في فلسطين والمسحاة، ويوم السبت يزداد إحساسه بالوحدة، هل تقبل القطة معايشته أثناء عطلة نهاية الأسبوع على الأقل، وهل تتعايش مع أحاديثه لها؟ لكنه فكر كيف يؤمن لها طعاماً كافياً كي تصح التجربة؟ لا يسمحون له بالتحرك في المعسكر يوم السبت، لأنه لاعمل في ذلك اليوم، حريته هي داخل غريفته، والمعسكر مسيج ولا يستطيع أي إنسان ولا حيوان النفاذ عبر ذلك السياج، كان معسكراً بريطانياً قبل سنوات قليلة، وزادوا من تحصينه بعد هجمات بعض العرب الفلسطينيين وتسللهم داخل الأرض التي استولى عليها الصهاينة، إنهم الإنجليز الذين لا ضمير لهم، لعنة الله على الظالمين منهم، أتوا لنا بهذا البلاء الذي اكتوى به شعبي، وها أنا أعاني من الأسر لأنني أردت أن افرغ أوساخ بطني بحرية في أرضي، فماذا كانوا سيفعلون بي لو كنت أحمل سكينا او مسدساً؟؟ لولا بريطانيا الغادرة فلن يتمكن هؤلاء الغرباء أن ينجحوا بالتحكم بأرضنا وبلادنا، كانت معسكرات الإنجليز محصنة، كانوا يعرفون أن شعبنا يكرههم، ويعرفون أنهم ظالمون، اولئك المستعمرون الكارهون تجنوا على شعبنا وبلادنا وعلى حريتنا، وعملوا بكل ما اوتوا من الخبث والدناءة، لخلق كيان دخيل على أرض فلسطين، وبحمايتهم ومساعدتهم، ومع هذا وبرغم ضيقي من السجن، وتقييد حريتي، لكنني سأعيش، وسأصمد، وسأعمل كل ما يريدون، وما أستطيعه وكل ما يتاح لي، لأبقى قويا سليما مستعدا للعودة لبلدتي واسرتي، عالم المعسكر هو سجن كبير لي، ولا أستطيع الاقتراب حتى من البوابة، فهم مطمئنون أنني لا أستطيع الهرب، وليس هناك أسرى او سجناء عرب كثيرون، إن الصهاينة كيان جبان جديد، يكرهون غيرهم، سبحان الله كيف أصبح الغرباء هم الأصلاء، والعرب الأصليون هم الغرباء، فإما أن يرحل الأصليون عنهم ويبتعدون، او إن مصيرنا الموت والقتل، لم يتمكنوا أن يدينوني بأي جرم، فحكموا علي بالأشغال لعامين، جزاء تجرؤي على الاقتراب من حدود ما يسمونها دولة إسرائيل، سأقوم بكل ما يطلب مني أثناء شهور السجن، وانتظر انقضاءها حتى أعود لحريتي، وأجواء عقلي وأفكاري التي لا حدود لها، لكنها ستظل فلسطين وأرض فلسطين وحرية فلسطين.**

**كانت عادة بعض الأسر الفلسطينية الغنية أن تستخدم العائلة طفلاً يتيما او فقيرا أو طفلة قبل عام 1948، ليساعد أهل البيت او رجل البيت، وانا نفسي سبق وعملت خادما (قطروساً) في قرية بعيدة عن قريتي وأهلي، لم يحتملني أقاربي ليعولوني بعد أن بلغ عمري عشر سنوات، فقال كبارهم، لنضعه عند أحد أغنياء قرية بعيدة يرعى له غنمه، حتى يتدرب على الرجولة وقسوة الحياة، ثم يقول آخر (شو فيها؟ أي لا ضير في ذلك، النبي محمد عمل راعي غنم).**

**شاهد عفان قطاً ذكرا آخر أثناء عمله في الحقل، يمشي حراً وفي خيلاء، ونشاط واستعلاء، قارن حاله بحال القطة ذات الألوان الجميلة، حاول استرضاء ذلك القط الذكر، لكنه نظر له بستهزاء، وواصل مسيره كأن لم يتحدث معه أحد، فتذكر تلك التي حاول حبسها، فكر أن القطة الآدمية هي التي تحبسه وتتحكم فيه، إنها القطة ريتشي، ناعمة لكن مخالبها مؤذية ومخيفة، وليس أمامه إلا محاولة الحياة ليعود لزوجته ديجة التي تنتظره، ثم يكتم ألمه كعادته، إذ يفطن لنفسه ولتواضعه وضعفه أمام أي مجند صهيوني او مجندة، فيهم عنجهية وغرور وتعالي وحقد علينا، وسلوم لا سلاح له إلا التواضع والصبر والتعقل، عقله يأبى قبول التعذيب، وجسده يتألم من الضرب المبرح والإهانة، وأثناء عمله في أحواض الزراعة الصغيرة، وقريبا من زنزانته، يخاطب عفان الضابط المسئولة عنه للذهاب للمرافق الصحية أثناء فترة استراحته، وفي إحدى المرات حاول أن يرضي القطة ويدربها ويوقعها تحت تأثيره، فقدم اللحم الذي حمله لها من طعامه، لكنها أبت إلا الوقوف خلف الباب وهي تصيح مبحوحة، حاول أن يهدئها ويمسّد على ظهرها، وتمتم بكلمات اعتذار لها، قدم اللحم لها، شمته وكادت أن تقضم قطعة منه، وما إن فتح الباب لها حتى انطلقت راكضة بأقصى سرعتها، تاركة الطعام له في زنزانته، دون أن تنظر وراءها، ابتعدت القطة بأقصى سرعتها مبتعدة سعيدة بحريتها، شاهدها تتجه بعيداَ صوب منزل من منازل الغرباء الذين اعتادت البقاء قربهم، فقال في نفسه، قطة حقيقية تهرب مني، وأنا أحاول التهرب من قطة بشرية.**

**امرأة صهيونية ايطالية قصيرة في الأربعينات من عمرها، تكرهني وتخاطبني بأوامر في استعلاء، لم تظلمني بما فيه الكفاية لأكرهها، لكنها تنظر لي بأني عربي عبد، والعبد لا يحتاج إلا للطعام والشراب، أما أن يقيم في بيت ويعمر أرضا، أو يعيش حرا، ويعمل حسب حاجاته ورغباته أو لتنمية مهاراته فتلك أمور لا يستحقها العربي الغوييم، صار المهم عندي في ذلك اليوم أن أغيظ هذه المرأة البدينة الإيطالية وأختبرها لعلي أدجنها، وهو أقصى ما أستطيع فعله لهذه المتغطرسة اللئيمة، اللعنة عليها، ولا يهمني إن كانت ستزداد نقمتها، فليس بعد خسارة الحرية ذنب او عذاب.**

**قوة سحرية تترسخ في سلوم منذ اليوم الأول لأسره المشئوم، تصلبت شرايينه وأعصابه، وصار يزداد عزما وإصرارا على الحياة، يرى أن ظله يسخر منه كلما دفعوه او سقط، لكنه في الوقت نفسه يشعره أنه يرافقه ويتابعه ويقف معه، يسنده ظله ويساعده فيتألم هو الآخر بألمه، ويحرك يديه او ساقيه بنفس حركات عفان، لكنه لا يستشيره، ولا ينتظر إشارة منه، يتحرك بمثل حركاته وفي الوقت نفسه تماماً، ذاك الظل الرفيق أعاد الكثير من الثقة وحب التواجد على الأرض لنفس عفان بن نومان، تمنى عفان لو يعرف كيف ينبض قلب خياله، وهل تتسارع ضربات قلبه مثله، أم إنه صلب لا يضيره الضرب والخوف والقلق ولا حتى الحب؟ قلب سلوم يخفق تهيؤاً لما سيأتي بعد كل ما سيفعلون به، يزداد نبضه، وعندما يحس بالتعب والإرهاق والرهبة من الموت يتماهى مع خياله، ينظر له ثم يتأمله وهو يتعذب ويتألم، فتتوالد في جسده الناحل قوة خفية تسنده، لا ينظر للوراء، ولا يفكر في الهرب، يدرك أنه الموت لو فعلها، او لو خاطبهم بعناد ورفض، لكن خياله يثبت تواجده على الأرض، فيجد أن ملامح خياله جامدة ثابتة غير عابئة بكل ما يحس به سلوم، وهذا يلهمه الصمود ومواصلة الحياة والصبر.**

**ماذا؟ هل اليهود متواجدون في كل مكان في العالم؟ ما دام انهم كانوا يعيشون في البلاد العربية المختلفة لقرون ومرتاحون، فلماذا تركوا اماكنهم وبيوتهم واملاكهم ورحلوا إلى فلسطين لينكبونا؟؟ أمر عجيب والله، لكنني أعتقد أنه ليس في صالحهم، أن ما يحيرني هو لماذا ترك اليهود الصهاينة وغيرهم من الأجانب بلادهم وجاءوا إلى بلادنا فلسطين، ما السبب يا ترى؟ هل صحيح يعتبرون ان فلسطين والقدس أماكن مقدسة لهم ولهم وحدهم؟ أو إن هناك اسبابا أخرى في رؤوسهم ورؤوس من أيدهم ودعم الفكرة، إن كل العرب وكل المسلمين وكل المسيحيين يعتبرون فلسطين ارضاً مقدسة، لكن ومع هذا لم يحضر عرب ولا مسلمون من بلاد بعيدة وكثيرة، ليستوطنوا معنا في فلسطين، أو ليطردونا ويحلوا في أماكننا، الهند فيها مسلمون، وربما مغلوبون على أمرهم، وتايلند سمعت وقرأت أن فيها مسلمين، وأهل باكستان كلهم مسلمون، وافغانستان، وحتى الاتحاد السوفياتي يوجد به ولايات وشعوب إسلامية، ومظلومون، لكنهم لم يهجروا بلادهم ليستوطنوا في الأرض المقدسة فلسطين والقدس، واعرف ان اليهود كثير منهم اغنياء، ويحبون الحرية والتجارة والفلوس، وأرباحهم ومكاسبهم ستكون اكثر في أي بلاد أخرى غير فلسطين، يكرر سلوم السؤال على نفسه ثانية، فلسطين مقدسة عند المسلمين، فلماذا لم يحضر المسلمون من كل مكان ليستوطنوا بها، قبل الهجمة الصهيونية؟ والمسيحيون يقدسون القدس وبيت لحم، فلماذ لم يحضر المسيحيون للاستيطان في فلسطين والقدس، كما فعل اليهود وبالاستقواء والدعم من كل بلاد العالم الغربي المسيحي، لماذا حضر الصهاينة فقط لينافسونا لقمة العيش؟ ليس هذا فحسب، بل تعسكروا وشعبنا عنهم غافلون، يريدون كل البلاد لهم وحدهم، فطردوا شعبنا الفلسطيني الذي عمر هذه البلاد لآلاف السنين.**

**يا ربّ التمس الرحمة والصبر على المكروه، التمس منك ان تمنحني الصبر على الظلم وعلى هذا العذاب.**

**ريتشي يا ريتشي، كيف بعثك الله لي؟ لا أدري أهو رب إسرائيل او رب بلادي هو الذي شوه فكرك، وزرعك في طريقي، ثم من أوحي لك بفكرة التخييم على حياتي؟ أمك؟ والدك؟ رئيسك؟ عشيقك الغادر؟ لذيذة أنت ومؤلمة في الوقت نفسه، سجين ينتقم من سجانته وهي تنتقم لشيء ما، شرهة يا ريتشي ومخيفة، خالي الكفيف بحاجة إلى رعاية، لا أب لي ولا أم، وزوجتي ديجة تتنظرني، إن كانت ما تزال على قيد الحياة خديجتي، أخشى أن تمرض وتموت حزناً على فراقي، مثل أمي رحمها الله، لم تستطع والدتي أن تفعلها وتصمد أعواما بعد موت أبي، لم تستطع تحمل الوحدة والمرض والهموم، ولا نداءات الحياة وقسوتها بعد وفاة زوجها قتيلا بصخرة ضخمة سقطت عليه، لم تفعل شيئاً جديداً بعد موت والدي رحمه الله، وأقصى مافعلته أنها صمدت حتى ولدت شقيقي دعيس بعد وفاته بشهور قليلة ثم عاشت ستة شهور أخرى إضافية بعده، استسلمت بعدها ورحلت عند زوجها القتيل، لكنني أعتقد أن خديجة زوجتي تستطيع الصمود مدة أطول! . . . فهي شابة مراهقة، ولم ترزق بأطفال مثل امي قبل موتها.**

**فصل 7**

**بعد قضاء الشهور الأولى من الحكم في أعمال شاقة، كالحفريات الصعبة او حمل أكياس الزبالة الثقيلة في المعسكر المحصّن، أثبت سلوم استقامته وحسن سلوكه وأداءه لعمله، تصرفت ريتشي فتوسطت لتخفف عبء العمل عليه، فكلفوه أن يخدم حديقة عشرة منازل متقاربة، وخاصة منزل أرملة ضابط إسرائيلي، أخبرته ريتشي أن الفلسطينيين قتلوا زوجها في معارك باب الواد، بوابة القدس الغربية، ظهر بعض قلق في عيني ريتشي، فأوصته أن لا يختلط بالأسرة الهولندية، وأن يكتفي بتنسيق الحديقة وخدمتها، ابتسم سلوم (عفان)، وهو يهزُّ رأسَه، لم تفارق صورة ديجة زوجته عينيه، يتخيل حركاتها وسكناتها، ونومها وصحوها ونهوضها وجلوسها، وتحركها حوله في بيتهم قليل النور، لم تبلغ خديجة الثامنة عشرة من عمرها بعدً.**

**يخاطب نفسه، إنني في حيرة، هل حملت زوجتي ديجا يارب في الشهور القليلة قبل وقوعي في الأسر؟ وهل سيكون لي خلف يذكرها بي كلما صاح الطفل أو نام، هل سأبقى فاقدا لحريتي؟ او هل سيدبرون لي جريمة أخرى ليصدروا حكما جديدا عليّ؟ هل سيقتلونني بعد إنهاء مدة محكوميتي؟ هل سيعيش طفلي بلا اب كما عشت انا وأخي؟ وإن سلمت أو أفرج عني يوماً ما، هل سأجد غصناً يانعاً ينمو ويزهر ثم يثمر من بطن ديجا؟، حتى إن مت مثل والدي في شبابي، أكون عارفا أن شجرتي لن تتوقف عن الإثمار؟، بل ستمتد أغصانها محلقة في أجواء بلادي ونامية منتجة، سواء كان الوليد بنتاً أم ولداً، ستؤول حصتي من أملاكي التي ورثتها عن والدي لطفلي، وأعتقد أن هذا لصالح ديجة زوجتي كذلك، بدلاً من أن تبقى وحيدة تنتظر سماع أي أخبار عني في وحدتها، أعرف جيداً أنها لن تنساني، إذ لابد أن يهمس ملاك الحب في أذنيها رفيف مشاعري، ولتعيش خيال التواصل بين روحينا، لأنني أحبها كثيراً، ليس هذا فحسب، يزداد عشقي لديجة يوما بعد يوم، صرت أحاول ان أتعلم المزيد عن الحب، إنني اقرأ اي ورقة اجدها أو كتاب عن الحب وعن حسن معاملة الزوجة، ستفرحي كثيراً يا ديجا، وجدت الكثير من الكلام عن الحب، وتعلمت تصرفات أكثر للتعبير عن الحب، من كتب قديمة ومنشورات من مخلفات الفلسطينيين، التي احتفظ اليهود بها، أوصلتني المجندة المجنونة للكثير منها وأتسلى بها وأتعلم منها لأجلك، تغيرت ثقافتي وارتقت بدرجة كبيرة حسب إحساسي، سمحوا لي بقراءة أي كتاب يصادفني، وحتى من مكتبة المعسكر الصغيرة، تعلمت القليل من العبرية وما زلت أتعلم، لعلى آمن مكرهم، أستطيع أن أقرأ بعض الصحف اليومية من بيت الأرملة اليهودية، إنها لا تعرف العربية، ولهذا استفيد من كلامها مضطراً، ولها طفلان بعمر 8 سنوات و10 سنوات، يدرسان العبرية ليتعلماها جيدا، لأنها وزوجها القتيل من أصل هولندي، لكن من يضمن أن أعود حياً لك يا ديجاي؟ وهل ستحتمل ديجة الشابة الصغيرة الانتظار؟ ومن يعلم؟ هل سأبقى أسيراً وخادماً هنا عند من اغتصبوا بلادنا، وهاهم يغتصبون أعمارنا ويستعبدون أجسادنا، واستولوا حتى على رغباتنا وشهواتنا، وقد يأتي عليهم وقت يستغلون فيه بطون نسائنا،،،، و ,,,,,, وفروجهن لزيادة أعدادهم؟ وليتني أعلم أخبار أخي المراهق دعيس، ولد شقي ضال، كان ميالاً للكسل والعبث ومصاحبة الأولاد الأشقياء وال . . . ، كنت أزجره وأحرّض خالي الكفيف عليه، كي يمسك به ويؤنبه أو يعاقبه، أعرف أن خالي كان يتستر عليه، أو . . . . ثم لم أجرؤ أن أشرح لخالي الثاني الأطرش والمتزوج عن شقيقي دعيس، لأنني أعرف أنه سيضربه ضرباً مبرحاً قد يصل حدّ الموت، لأن خالي الأ**

**طرش لا يعرف الرحمة، وقد تكون إحدى الضربات قاتلة لشقيقي دعيس، مع أن خالي الأطرش طيب هو أيضا وكريم، لكنه حين يغضب لا يعرف قريبا ولا غريباً، لأنه رجل مستقيم، لا يجرؤ أحد أن يعارضه في البلد، إن خاصم أحداً فهو إما قاتل أو مقتول، لا يهاب ولا يعرف الوجل، نشيط قوي خفيف سريع الحركة، لهذا كان كل رجال القرية يتجنبون الصدام معه أو إغضابه، يحكم الثيران والعجول والبقر وأشد البغال أو الأبقار تمرداً، وهو الراعي الأمين المخلص لحيوانات بلدتنا كلها، يسرح بجميع دواب البلد قبل طلوع الشمس، ويعود بها عند الغروب، لا يعرف كللا ولا مللاً، بل أصبح معاشه مع الحيوانات أسلوباً ارتضاه وفضله عن التعامل مع البشر، وربما صدرت عنه تصرفات حيوانية أحياناً، مثل القسوة وسرعة التصرف، والصبر على الجوع أو العطش أو الأنانية.**

**لكن السؤال الذي يبقى في رأسي لا يبرحه، وسيظل ملحا أتداوله بيني وبين نفسي، (لماذا ترك الصهاينة بلادهم التي نشأوا بها وتربوا فيها، وجاءوا عندنا ليتعذبوا ويعذبوننا، وليبدأوا حياة جديدة ويشقون؟) كانوا يحضرون بالعشرات والمئات ويتكاثرون، يستعدون للعداوة والبغضاء، ثم أين؟؟ . . . في بلاد الأمن والأمان فلسطين، ويستقوون بأسلحتهم ا الحديثة على شعبي الأعزل. البلاد العربية حولنا، يعمرها سكان عرب مسلمون ومسيحيون وقليل من يهود عرب، وعاش بيننا فئات مختلفة من اليهود في فلسطين، لا يضايقون الناس ولا يتضايق الناس منهم لأنهم مسالمون، ومواطنون فلسطينيون، مثلهم مثل غيرهم، ثم ما دام أن اليهود تكاثروا سرا في بلادنا، وبمعاونة بريطانيا ووعد الغادر بلفور(لا بارك الله به)، ومع هذا فبلادنا فلسطين واسعة، تتسع لنا ولكل الوافدين، فلماذا طردوا اهلنا، لماذا اصروا على تهجير شعبي وامتلاك مدن فلسطين وقراها واراضيها؟، غرتهم قوتهم، فصاروا يقتلون ويسرقون وينهبون، يكرهون الفلسطيني، ويضطرونه لهجر بيوتهم وأماكنهم واراضيهم، تحت التهديد بالقتل والتعذيب، لماذا؟ لماذ؟. . لماذا يصبح اهل البلاد الأصليين لاجئين؟؟. . . ، اليهود والصهاينة لم يكونوا لاجئين حتى نشفق عليهم ونؤويهم، صحيح إن هتلر ربما ضايقهم، لكنهم كانوا يعيشون في أوطانهم الأصلية، لم يكن النازي يهتم بمعاداتهم لأنهم يهود، فقد قتل هتلر وشرد كل من عارضه ووقف في وجهه أيضا، لم يفرق بين مسيحي ولا يهودي، كل من رفض الانضواء تحت حكمه ورغباته فهو عدو يجب التخلص منه، ثم عادى بريطانيا المسيحية، وعادى فرنسا وهي الأخرى مسيحية مثله، فلم يكن اليهود هم أعداؤه فقط، كما سمعنا والإشاعات الكاذبة، كان اليهود يعيشون في أمان في بلاد اوربا وأمريكا وروسيا، وبرغم أن هتلر لم يصل بلادنا ولم يؤذنا، لكننا نكرهه ونكره تصرفاته المجنونة، ثم لماذا ترك اليهود الذين كانوا يعيشون على الأرض العربية بيوتهم وأملاكهم ليهاجروا لفلسطين؟ ولم يكن عليهم أي ضيق ولا خطر في مواطنهم الأصلية بين العرب؟ . . لا نحب الظلم، فكما اننا لا نريد أن نظلم أحداً، فإننا لا نحب أن يظلمنا أحد، نحن مظلومون، لم نفعل أي جرائم مثل هتلر حتى ينتقموا منا! !ّ . . . . كان شعبنا يعيش في فلسطين منذ ثلاثة آلاف عام، فلماذا إذن يطردون شعبنا؟ ولماذا أنا اسير وخادم وسجين عندهم؟**

**مضطر أن احتمل ظلمهم على أمل ان يعيدوني إلى أهلي وزوجتي وبلدتي، إنني لا أنسى زوجتي، ولا أنسى بيتي الكبير، الذي خلفه والدي لي ولأخي، إنني اشتاق إلى أخي دعيس، واريد أن أطمئن عليه وعلى سلوكه، في نوبة من ضيق نفسي، يجأر عفان شاكياً، ياللمروءة يا للكرامة ياللنخوة، أين أهلي، أين ناسي، أين شعبي؟ أين العرب؟ أين الإسلام؟ أين الله؟ كل ما يحدث يفتك بالصبر، ويفجر العقل وكأنه يشابه الحلم او المستحيل.**

**ملاذي هي زوجتي، وهي أملي الذي يجعلني أتعلق بالحياة، وأحتمل كل اختراق لي، او استحلال لطاقاتي، لا تستكيني يا ديجة، فأنا كما عهدتني سأظل وفيا لعينيك وآهاتك وحضنك الناعم الأمين، أعاهدك بأنني سأحاول مواصلة الحياة لأجلك، وسأحاول العيش على هذا العهد، اصبري وتصبري، وكلما اوحي اليّ انك صامدة صابرة، سيهبني الله الصبر والصمود والقوة، وأعرف ان الله سيفرجها علينا، بل قولي لا بد أن يأتي الفرج، عملت واجتهدت وعانيت حتى اقتنع اهلك بتزويجك لي، وعملت بجد ونشاط كي اعولك بعد زواجنا، وما زلت أعمل كي أنجو من الموت، ليس خوفاً منه، بل لأجلك يا ديجتي، لكي أعود لك، ولأضمك إلى صدري، هذا الصدر يشعر بفراغ وشوق حارق، يتمنى الاقتراب من انفاسك، واستنشاق عرقك، أحاول التغلب على اليأس بالعمل وبالصبر ياحبيبتي، لا شك أنك ازددتِ نضجاً وجمالاً وفهماً أثناء غيابي عنك، وأريد أن أطمئنك أنني تعلمت الكثير، وفهمت كل ما يزيد لذة الحياة مع رفيقتي ديجا، بعد أن مرت مايقارب السنة على فراقك.**

**لماذا اصرّ خالي جسّار الكفيف على التمسك بعزوبيته، في بلدتنا اثنان كفيفان آخران تزوجا، وانجبا أطفالا مساعدين، أما خالي جسار فابنا شقيقته المتوفاة زادا من شقائه، ملآ حياته انشغالاً وتفكيراً وفقراً، في بلدة صغيرة منطوية على نفسها، المال والأرض والبقرة والغنيمات كلها لابني شقيقته، لم يترك والد خالي له ولأخويه بيتاً صالحاً للسكن، فاضطر أن يبيع حصته من الأرض بثمن بخس لإخوانه وأقاربه، وربما استغلوا فقدانه لبصره وحاجته للطعام واللباس، لهذا بقي الخال الكفيف ملتصقا بابني شقيقته سالوم (عفان) وشقيقه دعيس، يشاركهم منزلهم الكبير الواسع، بيت قديم، لا يعرف أحد متى بني ولا من بناه، جدرانه من الحجارة الكبيرة المثبتة مع بعضها بالطين والكلس، ومع مرور الوقت ازداد الخال جسّار تمسكاً برأيه في عدم اقترانه بامرأة وبإصرار، لكي تظل حياته مرتبطة بي وبأخي دعيس.**

**بعد العام 1942 قدم الإنجليز حكام فلسطين آنذاك مذياعا لأهل قريتنا،ً لمتابعة نتائج أخبار المعارك وانتصاراتهم في الحرب العالمية الثانية، ولسماع التعليمات العسكرية والطوارئ إن لزم.**

**في العام 1943 يستمر هطول المطر المتقطع ثلاثة أيام بلياليهن ، تهاوت بعض البيوت الطينية القديمة في القرية، ومن كثرة استماعهم لأنباء معارك العلمين ووصف دوي المدافع الثقيلة، صار الجميع يشبّهون الرعد والبرق بدوي القنابل في المعارك، وقد واصل المذياع نقل المزيد من مواقع التقدم والنصر للحلفاء على النازية، يجتمع الراغبون في سماع قراءة القرآن او سماع الأخبار عند مذياع القرية في مضيف المختار، لكن الناس كانوا يسهرون شتاء من أجل السمر، وبسبب طول الليل، ثم هي عادة متأصلة في البلدة، يجتمعون في مكان واحد أو اثنين كل ليلة، مضيف شرقي القرية والآخر غربها، لتسهيل الوصول على كبار السن، وخاصة في الليل وفي أيام البرد، تتسع المضيف لعشرين رجلاً مرتاحين، أو لثلاثين متراصين، والنار في موقد قابع وسط حلقة الرجال، عليها أباريق معدنية إثنان أو ثلاثة، أحدها كبير كخزان للماء المغليّ، وآخر لنقع القهوة وتخميرها، وثالث أصغر للقهوة الجاهزة للشرب، أو للشاي، وبعد استمرار هطول المطر لثلاث ليال متتاليات، صاح منذر من أهل القرية أمام باب المضيف يقول**

**- انهار منزل ابو شوكة. وبرغم البرد والظلام الدامس والهواء العاصف، هب القادرون من الجالسين مهطعين للنجدة، يتساءلون وهم يركضون عما إذا كان أهل البيت داخله حين هوى السقف؟ وكثيرون اتجهوا لمنازلهم يحضرون ادوات الجرف والتحريك، على أمل أن ينقذوا العجوزين وابنتهما. لكن الله سلّم، حيث هب ثلاثتهم خارج البيت، حين سمعوا طقطقة الخشبة الرئيسة في السقف تنذر بأنها ستنكسر من منتصفها تقريبا، صاح الجار (ساعدوني يا أهل بلدي ويا جيراني ويا أقاربي، ماتت بقرتي والحمار، حاول الناس إنقاذ البقرة، لكن تشابك الأخشاب الهرمة وثقل الطين وسماكته، وشدة الظلام والبرد، وتواصل المطر جعل أغلبهم يضربون كفاً بكفّ، ويدعون الله أن يعوض صاحب البقرة عن خسارته، وحين تجمع الناس ثانية بعد طلوع النهار، وبسبب الطين والبرد والمطر لم يستطع أحد أن يحرك ساكناً، بل تركوا الحيوانين ميتين مدفونين.**

**وبرغم أن الناس صاروا يكرهون هتلر لكثرة معارك القتل والموت، لكن كراهية الناس لبريطانيا التي تستعمر فلسطين والمترسخة في عقولهم، تمنوا ان تتحطم بريطانيا وتخرج مهزومة،لاحبا في الألمان بل لأن الإنجليز اذلوا أهل فلسطين، ولحق ظلمهم أغلب الناس، عانوا من تحكمهم في الفلسطينيين بسبب تحيزهم لليهود، وساعدوا في استجلاب عشرات الآلاف من المهاجرين اليهود لفلسطين، بطرق غير شرعية، شجعوا هجرة اليهود وحموهم وسلحوهم حتى يستقروا في بلادنا فلسطين، علنا وخفية، قدموا لهم المساكن والكثير من الأراضي العامة، والمخصصة لمنافع الشعب والبلد عامة أو لتخدم الجيش الوطني الفلسطيني، فصار معظم الناس يدعون الله بهزيمتهم، حتى نتخلص من حكم الإنجليز الظالم لبلادنا فلسطين.**

**فصـــــل 8**

**في ذلك اليوم المشرق الجميل، وصلت أرضنا قرب خط الهدنة، كنت قد أخرجت الفضلات مرتين في طريقي، أحسست بانتعاش جديد، وبنداءت الطبيعة الهادئة بكل ما تحمل من تضاريس صارت تجذبني وتحببني بأرضي، وتذكرني بوالدي الذي ترك لي هذه الأرض الخصبة، وتماهت طيور المنطقة مع مشاعري، فهل عرفتني العصافير ياترى أو تذكرتني؟ أو هل أحسّ ذلك البلبل براحتي بعد التخلص مما كان في بطني؟ أو انه أراد أن يذكرني بجمال الكون والحياة والطبيعة والزعتر والنباتات العطرية الأخرى في أرضنا، يتطاير من غصن زيتونة رومية قديمة، إلى شجرة بلوط برية ضاربة جذورها في اعماق الأرض لمئات السنين، بلبل يسرّي عني بتغريده الساحر؟ هل عرف أنني احب سماع أصوات الطيور؟ ولماذا يغرد ذلك الكنار على شجرة الزيتون العتيقة الهرمة تلك؟ من المؤكد أن والدي لم يزرع تلك الشجرة، لإنها شجرة معمرة، لا شك أن عمرها فوق أربع مائة عام، تضخم جذعها وتلوى متماسكاً قوياً، ويلزم أذرع رجال ثلاثة لتطويقه، وبرغم تمكن الحشرات والقوارض من الجذع في أماكن عدة، لكن أسفل جذعها قرب الأرض انتفخ وتعرج وتثنّى، محافظا على بقاء الشجرة ودوام نموها وتجدد حياتها، ليتني أتذكر وجه أمي، وليتني أتذكر شكل ثدييها وهي ترضعني أو ترضع شقيقي، ثديان او هي ثلاثة تبرز قوية أمامي من جذع شجرة الزيتون، وبرغم أن مغصاً قليللا بدأ يضايقني، إلا انني واصلت تفقد أشجارنا، اتأمل ما تحمله من ثمار، اتقدم حتى اتلمس الثديين الكبيرين الأملسين، أنهما جاهزان لقطعهما وزراعتهما ليصبحان شجرتين قويتين مستقلتين عن امهما، عصافير تحلق وعصافير تهبط على أشجار التين والزيتون الأخرى والأصغر عمراً وحجماً، كلها راسخة ثابتة تتجذر في أرضنا العزيزة، رؤوس اغصانها الكثيرة العالية تعانق السماء، هبات نسيم ناعمة تهب، أحسها تلامس وجهي وجبهتي، وتحرك شعري الظاهر من تحت طاقيتي، تنعشني وتزيد من إصراري على الصمود، كدت أنسى ألم المغص وقرقعة أمعائي، وانا اتماهى مع طبيعة بلادي وبستاني، مع كل تلك الخروق والثغرات في جسد جذع شجرة الزيتون، إلا أن شجرتنا المعمرة تزداد قوة وثباتاً في الأرض على مدى الدهور، تماماً مثلي أنا، مثل شعبي الفلسطيني، يتعثر سلوم وهو يواصل تفقد أرضه، ويتابع تأمل أشجاره وثمارها والطيور متنوعة الأشكال والألوان والأصوات، يتلمس شجيرة زعتر برية، يقرّب أصابعه من انفه، قال الله الله، ما أجمل هذه الرائحة، للزعتر البري رائحة مميزة قوية ونفاذة، تصطدم قدمه بحجر ناتئ كاد أن يقع، أحسّ بنوبة ألم أسفل بطنه، أسرع للقرفصاء، صار يحس بتراخ وضعف قليل لكثرة ما فقد من السوائل، شرب القليل من الماء، لكنه لا يشتهيه، يقول في نفسه، لا أدري لماذا سموه (ملح انجليز) في بلادنا، مع ان اسمه إبسوم سولت، ينسى الجوع والعطش في تلك اللحظات، أنسام هواء الضحى في ذلك اليوم تدخل نشوة في جسده، برغم كثرة الإسهال وبعض الآلام في أمعائه، إنه بين أشجاره وعلى أرض اهله.**

**مضى على الهدنة بين الإسرائيليين والفلسطينيين أربع سنوات، حصل خلالها مضايقات أو هجمات على قريتهم، لكن أهلنا ظلوا صامدين، ولم يهربوا، لا يريدون أن يصبحوا لاجئين، حتى لو ماتوا جميعا، دفاعا عن بلدتهم واستقرارهم بها.**

**في ذللك اليوم الخريفي أراد سلوم أن يخترق حاجز الخوف، ويتجه بحرية وأمان إلى أرضه، كغيره من أبناء بلده، الذين لهم أملاك قرب خطوط وقف إطلاق النار. استمرت الطيور في نشاطها وتكاثرت في بيئتها الأصلية من جميع الأشكال والأحجام والألوان، تحوم صاعدة نازلة على أشجارنا فرحة أو مرحة، أو هي فزعة خائفة، جرذان وحراذين وسحالي تنفر أو تفسح الطريق لي، ثعابين طويلة وأخرى قصيرة وبألوان مختلفة تتحرك مبتعدة عني، لا أدري أيها معادٍ وأيها خشيةً، قلقت وازددت حيرة وحذراً وعناداً وتقدماً، ظهر أن الطبيعة حولك استخدمت لغتها ورموزها لتحذرك، فأنت بشر مريض واعزل يسهل إيذاؤك واصطيادك، أمعاؤك لا تريحك بل تزداد حركة وإيلاما كلما مشيت، تود لو تجلس للخروج كل خمسين متراً مع آلام تشتد أسفل بطنك، لكنك تخشى وتجفل بين الحين والآخر، كلما نفر جرذ، او انسابت ثعبان هاربة او مدافعة عن موطنها، أحسست أن كل ماحولك تعاديك أو هي تهديدات تثيرك، وأنت فوق أرض أهلك، وبين أشجارك.**

**يحاول سلوم أن يتوقف عند كل شجرة، حتى يتفقدها ويعرف ما يلزمها من خدمة او تقليم، او يقدر الثمار التي تحملها في ذلك العام، يريد أن يتأكد أنها تستحق أن يهيئ نفسه وأخاه وزوجته لقطف ثمارها حين تنضح، بعد شهر أكتوبر تشرين اول، وبعد أن يتأكدوا أن الدوريات الإسرائيلية غير متواجدة في تلك المنطقة، إن المسافة بين قريتهم ومدينة اللد تقارب العشرين كيلومترا، لم يتمكن الإسرائيليون من استيعاب هذه المساحات الشاسعة من أراضي فلسطين وقراها ولا استغلالها ولا الإقامة فيها حتى عام 1952،، فمازالت جميع القرى في هذه المساحات السهلية الواسعة الخصبة خالية من أي سكان أو إعمار، مما اضطرهم أخيراً، لنسف بيوت كل القرى الكثيرة في تلك المساحات الشاسعة، هدموا في ذلك العام واخفوا معالم ما يقارب الخمسين قرية في تلك المساحات الشاسعة، حتى يتأكد اللاجئون الفلسطينيون أن لا عودة لهم، ولا أمل أن يعمروا بلادهم وقراهم وبيوتهم ثانية.**

**في غمرة اشتداد نوبات الإسهال والمعاناة، ينصدم عقله واذناه فجأة بصوت آمر، وقتها وجد نفسه مطوقا، يطلبون منه الاستسلام والنوم على الأرض. وبرغم مغص أمعائه وتقييد يديه إلا أنه أراد أن يضحك حين سألوه عن سلاحه، أشار لهم أسفل جسده، ثم تذكر حالة الخوف والأسر التي وقع بها على أرضه، فطن وقال، فتشوني ولا أعرف الأسلحة، وبعد الضربات الأولى من التعذيب المؤلمة، انفصلت حذاؤه اليسرى عن قدمه، بعد أن انقطع طرفها، فمشى مضطرا مدفوعا لخطوات حافياً، ثم قال لهم ذاك هو سلاحي، مدّ قدمه الحافية، وأشار إلى حذائه الذي نأى عنه خطوات عدة، سخروا منه ولعنوه ولعنوا كل العرب والمسلمين، اغتاظ رئيسهم من سذاجته واجاباته فوجه مسدسه صوب رأسه مهددا كي يسرع في تحركه.**

**وقتها تأكد لي أنني وقعت أسيرا بيد اعداء شعبي، تواصل الإسهال الشديد واضطرني مرات عدة أن أخرجه وأنا مقيد اليدين، وتحت الركل والتعذيب بين أيديهم، أسر وضعف بين غرباء حاقدين، يقول سلوم**

**- اسمح لي يا خواجة أن ألتقط حذائي، فدفعه البولوني للأمام بعقب بندقيته، لكن الباقين، هدأوا الوضع بإشارة، وسمحوا له أن يحجل خطوات عدة للوراء وهو مقيد اليدين، حتى لا تعشش الأشواك والأعواد الجافة في قدمه.**

**يتوقف المجند العربي ليشرب من زمزميته العسكرية، أليس عربياً؟ لماذا لم يعرض عليّ أن أشرب؟ مع انه عسكري مثلهم، لكنهم ظهر أنهم لا يحترمونه، شبه معزول عن الأوربيين اليهود والأميركان، الأرض المهجورة منذ أربع سنوات أي منذ عام 1948 لم يفلحها عربي ولا إسرائيلي، ثم إن اراضي فلسطين كثيرة وواسعة على سكان إسرائيل، سمع عفان من الناس أن الإسرائيليين كلهم، لا يكادون يملأون مدينة يافا أو حيفا، عدا عن مركزهم في مدينة تل ابيب (أو هي تل الربيع)، فكيف سيملؤون عكا وطبريا وبيسان ويعمرون واللد والرملة وبئر السبع، وجميع القرى الفلسطينية الصغيرة والكبيرة؟ سيكون عندهم عشرات الآلاف من المنازل الفلسطينية المهجورة زائدة، ولن يجدوا يهودا كفاية لملء الفراغ الذي تركه الفلسطينيون، ثم ماذا عن الأراضي الزراعية الواسعة الخصبة على الساحل، وأراضي الغور الشمالية وحول نهر الأردن؟ لن يجدوا عمالاً إسرائيليين يفلحونها، سمحوا للدروز في الجليل بالبقاء وللشركس ولبعض المسيحيين في مدينة الناصرة وما حولها، ولبعض الفلاحين الضعفاء ممن فقدوا بلداتهم واضطروا أن يقيموا في البيوت ا لفارغة في مدينة اللد القديمة، أو لبعض المواطنين من كبار السن العاملين والمتعاونين معهم، ثم إن قلة قليلة جدا من الفلسطينيين، سمعوا بقرار الأمم المتحدة، بمهلة للسماح لمن أراد من المهجرين بالعودة إلى فلسطين. سأله أحدهم**

**لماذا يلبس بعضكم ملابس عسكرية أيها الوغد العربي المخرب؟ يترجم الدرزي سؤاله.**

**- إنها قديمة ومستعملة، من مخلفات الإنجليز يا خواجة، لا دخل ولا مشاريع في بلدنا ولا نقود لدينا كي نشتري ملابس جديدة، أنا وأخي ومعظم أهل قريتنا من الشباب نلبس من مخلفات الجيوش، بعد رحيل الانتداب البريطاني.**

**- ومن هم الذين يلبسون ملابس عسكرية في بلدتكم او من اقاربك؟**

**- العسكر يا خواجة هم أمثالكم، أما أنا ففلاح ثروتي هي الأرض وزوجتي، لم يرزقني الله اطفالا بعد حتى افتخر بهم، ولم نعد قادرين على فلاحة أرضنا كالمعتاد، بسبب العداوات التي نشـأت حديثاً بين العرب واليهود، ثم فرضت الهدنة ومنعنا من الاقتراب من ارضنا غرب البلدة، ومع هذا لا نريد أن نصبح كاللاجئين الذين طردوا من بيوتهم ومزارعهم، فلست قادراً على شراء ملابس جديدة على مقاس جسدي.**

**أخرج سلوم ست مرات من احشائه قبل أن يقع أسيرا بين أيدي الصهاينة، وحين بدأوا يعذبونه ويضربونه ويؤذون مشاعره بكلمات جارحة، أحس بالمزيد من الألم أسفل بطنه، طلب منهم الاختلاء لإخراج ما به لمرة جديدة، إلا أنهم استهزأوا به وزادوا من قسوة تعذيبه، هوى على الشوك والحشائش الجافة، فانتشرت رائحة كريهة، فابتعدوا قليلاً عنه، ووضعوا اصابعهم فوق أنوفهم يقفلونها كي لا يشتموا رائحة الوسخ الخارج منه على الأرض امامهم وعلى ساقيه، جنديان يصوبان بندقيتيهما إلى رأسه، كانت بنادقهم أوتوماتيكية لامعة حديثة، قال في نفسه، الموت أفضل من هذه الحال، رجاهم أن يقتلوه ويريحوه من الآلام في جسده وعقله ويديه وقدميه، لكن ضربات اللؤم والتعذيب بأرجلهم وأيديهم وبأعقاب البنادق الحديثة تعاقبت عليه من طرف، الويل له، كم سيحتمل؟ ومتى سيموت وأين سيموت؟ تذكر الآية القرآنية التي تقول (ولا تدري نفس بأي أرض تموت)، يقول عفان في نفسه، كم أنا شقي!. . . شقي منذ مات والدي وتركنا أنا واخي ايتاماً، وأشقياء منذ ماتت والدتي بعد ولادة شقيقي الأصغر دعيس، وشقي للعيش في بيتنا مع خالي الكفيف جسار.**

**فصل 9**

**أوصلته ريتشي قبل ساعتين لزنزانته، لغرفته الصغيرة، نعم هي ريتشي اليهودية المغربية، الحياة هنا اصبحت ريتشي، برغبة أو بلا، ريتشي أدمنت سلوم، حتى أنني أصاب بذهول وغياب عن واقعي حين اكون ملكها، وتحت تأثير أنوثتها، نادراً ما أفطن ان أسأل نفسي متى سأشبع أو أي منا هو الذي سوف يشبع؟، أنا الذي سأكتفي؟ ام هي؟ هل يملّ الإنسان من اللهو والاستمتاع، ربما أنا مختلف عن غيري من البشر، احيانا اكون كثور هائج، وأحيانا أكره نفسي، وأكره الوقت والساعة واللحظة التي اختطفتني فيها ريتشي، هل تحب أي بقرة أن يتم حلبها يا ترى؟ ليتنا نجد طريقة نسأل بقرة ما او نعجة هل تحب أن يحلبها مخلوق غير صغيرها؟ أجد نفسي انني كالبقرة لا أستشار ويتم حلبي، حتى لو أحسست بمثل ذلك، ستخترع حركات واحتكاكات، تشعل جمرة صغيرة مخفية تحت الرماد، وتضع لها بعض القش الناعم حتى تفز نار، وتبدا لهيب نيراني ثانية، أتجرأ بأن أسألها أحياناً، هل ستطول سهرتك؟ وبآلية تجيب، لا أدري كيف أفقد مرابطي حين أزورك ايها القزم الفلسطيني، ثم تكمل قائلة، ولا أدري كم تبقى من عمري؟ أو هل انتقم من نفسي؟ أو من أهلي؟ ولماذا حضر والداي إلى إسرائيل وتركا المغرب؟**

**حين نظن أن الزمن توقف تحدث ظروف طارئة أو غير معقولة ولا متوقعة، نفقد بوصلة الاتجاهات، لا أصدق ذلك، وضع غير طبيعي، بل ويصعب ان يتقبله العقل، وهل في زمن اللامعقول يحدث أمر معقول؟ أرى نفسي أزداد نضجاً يوما بعد يوم، رحمك الله يا ميكافيلي، نعم تعلمت في أقل من عام ما يعادل عشرين عاماً، فلسطيني أسير لاحرية له، ومجندة إسرائيلية بحرية مطلقة، مؤهلاتها اثنتان، تتكلم العربية والثانية انها أنثى متوحشة، تعبر عن مشاعرها بطريقتها وبالتجاوب مع متطلبات جسدها، وكأنها هي الأخرى تعاني من حصار ما، تنبش وتبحث عن أفعال تثبت بها وجودها وتحررها، لا شك أنها ذكية ومثقفة، وهل كل ذكية هي مثقفة؟ قالت إنها من حزب الخضر، وربما حزب شيوعي، وهل كل امرأة مغربية حرة؟ المغاربة! . . . المغاربة! مغلوبون على أمرهم، نسمع عنهم الكثير، يقول الناس عنهم أنهم طيبون، وأسمع ان منهم سحرة كثيرون، يستطيعون ان يكشفوا الكنوز المخفية، ويكتشفون السارق والمحتاج والشقي، ويقولون انهم يقربون الأحبة من بعضهم، ويرتقون الخلافات بين ذكر وأنثى لو حدثت، إن ما كنت أعرف عنهم أن هناك حياً في مدينة القدس يسمى حارة المغاربة، لكن! . . . .**

**ما من شك أن ديجا زوجتي ما زالت تنتظر عودتي، نعم عودتي؟ أقصد فكاك أسري وعودتي لها، لبيتنا الكبير القديم، للبقرة وللأرض، هل قلت عودتي يا سلوم؟ أأنت الملوم يا سلوم؟ أو انك مخترق ملجوم؟، وهل تعرف خديجة أنني أسير ولها سأعود؟ عقلي لا يستطيع استيعاب مثل هذه التساؤلات ولا احتمالها.**

**نفعك جسدك يا عفان، أفادتك كنوزك ومخزونك من الطاقة التي تبحث عنها ريتشي، نبع فلسطيني ريفي لا ينفذ، وربما لا يضعف، وديجا أحق الناس بوروده، قد لا يفيض، لكن من المؤكد أنه لا يجف، ملعونة هذه الريتشي، تجعلك تهوي رضيت أم لم يخطر لك ببال أو . . .وقد تسمح لك بالارتماء لو لهثت، غرفتي الصغيرة عفواً زنزانتي أوسع قليلا من زنزانة السجن، لقد جربت الزنزانة العدو، اعوذ بالله، ظلام وضيق ورطوبة وبرد في الشتاء، وحر قاتل في الصيف، أما هذه فثلاثة أمتار في مترين، ومرحاض ملحق بها، غرفة حارس لمنزل ربما أو كأنها حوض سيارة كبيرة، وهي من مخلفات الانكليز عذبهم الله كما سببوا لنا الكثير من العذاب، يهذي سلوم بعد مغادرة ريتشي، ريتشي، ياريتشي! يغني بصوت مسموع لكنه منخفض:**

**ريتشي ياريتشي يالله اخرب بيتك، أسستِ العِشرة ما بيني وبينك**

**غصبن عن ديني بتعزي ميلك وانا بتعذب من قلة دينك**

**ازرع واقلع باذنجان، يلعن راس ابو الزعلان، ازرع واحفر وانكش ياسلوم ، وارو أرضاً عطشي يا محروم.**

**أصحو بعد ربع ساعة أو أكثر من مغادرتها، يراودني شعور أنني أصبت ببلاهة أو هذيان طيش، كم هي المسافة التي تفصلنا عما نشتهي؟... هل يحددها الزمان ام المكان أم الحظ؟... أخشى أن أفقد عقلي فجأة، ولا أستطيع بعدها أن اعرف ماذا سيجري لي! . وربما هذا ما يحدث لي فعلا.**

**خالي جسـار، جســار خالي!، المسكين خالي، الأعمى خالي، منذ نعومة أظفاره كُفّ بصره، هل تطيعه ديجا وتخدمه يا ترى؟ هل سيعقل شقيقي دعيس التعيس، أو هل هداه الله ياترى؟، خالي ودعيس بحاجة إلى من يهتم بهما، وديجا أيضا، كيف عشنا؟ وكيف استطاع خالي الكفيف الأعزب تدبر أمور حياتنا حتى كبرنا؟ أحب ذلك الكفيف مع انني كثيرا ما قسوت عليه أو كذبت، حين كنت أتظاهر انني لا اسمعه، او انني غير موجود، وظلام الفجر هذه الليلة، حالك السواد، إنها ليلة من ليالي آخر شهر عربي، شهر عربي؟، وهل هناك شهور للعرب؟ ظلام في ظلام ، ظلام هذه الليلة كالنور في عيني خالي جسّار، جسار جسار، جسار؟ كيف ذلك؟ وأين يمكن ومتى يمكن أن يكون جسوراً؟ ولماذا اسموه جساراً؟ ما دام لا يرى فلا فرق عنده بين ليل أو نهار، لا يعرف الخوف ولا الخطر، لذلك أسموه (جسار) ربما، فرضت عليه ظروفه أن يتعايش مع كل الصعوبات، يسير بصحبة عصاه متفحصاً طريقه متكئاً عليها، حفظ دروب القرية كلها ومنعرجاتها، وحتى مواضع النتوءات في أي زقاق مهما بعد، ومهما هجره أو لم يمر عبره ، فلا ينسى بقعة واحدة من مسارب قريتنا، يذهب للصلاة جماعة في المسجد معظم الأوقات، وبيتنا يبعد عن المسجد أقل من مائتي متر عبر شوارع متعرجة وغير معبدة، هل المكفوفون فقط هم الذين لا ينسون؟ هل سينسى المهجرون الفلسطينيون شوارع قراهم والأزقة حول بيوتهم؟، والطرق لمزارعهم؟ وهل ستعود لهم يوما ما؟ أكثر من دعواتك يا خالي الكفيف جسار أدع لي،علني أرتاح بطريقة ما، أوينفتح لي فرج قريب، وأنا سأدعو لك من جانبي، وبأساليبي المتاحة، نعم؟ وهل عندي أساليب في الأسر؟ لكن . . يجب أن تتأكد أنني شريف يا خالي ، وسأظل شريفاً، مهما اضطررت لأفعال مخالفة لتراثنا الذي ربيتمونا عليه، سأعود إنسانا ريفيا فلسطينيا طبيعيا إذا أطلق سراحي، ستفتخر بي يا خال.**

**الأرملة الشقراء تشهد لي بحسن سلوكي وحبي للسلام، لطول عملي عندها، وطاعتي العمياء لما تريده مني، بعدما أشقتني واحتقرتني كثيرا في بدايات عملي لها، أصبحت حنونة عليّ، وبحاجة لي، أُسدي لها ما ينقصها حين تستدعيني في خلوة أو حين يخرج طفلاها إلى المدرسة،**

**أما ريتشي السمراء، . . . يهودية من أصل مغربي، علمتني الكثير الكثير، علمتني الكثير واللغة العبرية نوعا ما، علمتني وما زالت تعلمني الفنون والجنون، وكل ما يقيم الدنيا ولا يقعدها، أسأل يهودياً عراقياً يرافق ضابطا فرنسياً، لماذا يحضرون للسؤال والكشف عني والتفتيش؟ فيجيبني بجفاف وتعالي، وهل تظن نفسك في بلدك؟؟ أو بين أهلك؟ ألا تعرف أنك اسير وعند أعدائك؟ إن المعسكر دائرة مقفلة ولا يخرج منه شخص إلا ويكشف اسمه وبطاقته، قلت له بطاقتي هي ملابسي التي على بدني، ملابس السجناء المحكومين بالأشغال طبعا، ولا ملابس عندي سواها، ولم أخرج ولو مرة واحدة من هذا المعسكر، ولم أقترب حتى من بوابته، ثم اضفت قائلا له، حين تأكدوا من سلامة قصدي من دخولي ارضي في قريتي، حكموا علي بالأشغال لعامين بدل أن ينظروا في إخلاء سبيلي، والحكم جاء بعد احتجازي والتحقيق معي والتعذيب لما يقرب من ثلاثة شهور، وبعد انعدام أي دليل لإدانتي، كنت منهكا من المرض وقتها، أسيراً أعزل لا يهتم به أحد من جنسه ولا من أهله ولا من بلدته، ولا من حكومته، ولا يهتم بانقطاع أخباره أحد، حتى أضافوا لمهمات ريتشي مسئولية مراقبة تحركاتي وعملي في المعسكر.**

**خالي جسّار سيرتاح حتماً لو أفرج عني، أبشر يا خال! ، لن أخيب ظنك فيّ، ولن أضيع تعبك وتكريس حياتك لرعايتي أنا وشقيقي دعيس في طفولتنا، وما دمت حرّمت الزواج على نفسك فسنخدمك في شيخوختك ونرعاك كأولاد لك، لا يحرم كل اعمى في قريتنا من الزواج، وقد نجد لك امرأة تقبل الزواج منك، سأنجح في إلزام دعيس بالعودة لدروب الأصحاء والشيم العربية، الشرف والكرامة، لم أرغب يوماً ما ولم أفكر أن أكشف ملابسي وعورتي لرجل ما، حتى ولا رغما عني إلا بموتي، كان حقدا وجهلاً وتآمراً من أقرب الأقربين العابثين ، لاأدري كيف تمت؟. . ! ! . . ، للإهانة؟ للترهيب؟ أو لأذل أمام الصبيان؟ الخزي لهم أولئك الأنذال، وأخيراً زوجوني مبكراً، مع انني لم أكن أفكر بالزواج وفور بلوغي الثامنة عشرة، لماذا زوجوني؟ لا أدري، مع ان بعضهم كان يطمع بي، وحتى بعد زواجي طمعوا بزوجتي لولا أنني اثبت لهم رجولتي واستعدادي لقتل من يقترب مني او منها.**

**حين ألقاني الصهاينة على أرضية السيارة العسكرية، كنت أسترق النظر إلى السهول الخالية من السكان، وإلى أشجارها المهملة، والشجيرات التي تطاولت على ما جاورها وما يحيط بها من اعشاب وحشائش، لم تتوقف الطيورعن النشاط وممارسة الحياة في بلادي، وانا وقعت في الأسر، وعاجز حتى عن تحريك قدمي او يدي، تأملي للفراغ حولنا وقتها فاجأني بكثرة طيور بلادي المختلفة، وأثناء سير السيارة في طرق زراعية غير معبدة، شاهدت طيور الحجل والسمان والدوري والبلابل وابو زريق والحمري والغراب والصقر والحدأة والدوري، تتطاير من مكان إلى آخر، قلت في نفسي سقى الله تلك الأيام، حين كنا نطارد مثل تلك الطيور لنصطادها، داست عجلات السيارة بعض الشجيرات العطرية الخضراء، ففاحت روائح الأرض حين اختلطت ببعض الأعشاب التي ما زال فيها بعض الخضرة، مثل نبات الزعتر او الميرمية او الزعتمانة او الخس البري والشيح والغار والسريس. طغت تلك الروائح على آلامي وخففتها، ذكرتني بالتطلع إلى السماء، راجيا نجدة أو معجزة تنقذ هذا الإنسان المستضعف، واقع بين أيدي اناس ظالمين لا يعرفون الإنسانية ولا الرحمة. السيارة تقطع المسافات تسرع أحيانا وتتباطأ احيانا أخرى، حسب سهولة الأرض ووعورتها، سألت نفسي للمرة المائة ربما، (هل سيبقى سلوم على قيد الحياة يا ترى، ولما يمض عام ونصف على زواجه من ديجة، حبيبته ديجة، لا شك أنها أفاقت من قيلولتها بعد عصر ذلك اليوم، فلم تجد زوجها حولها في بيتنا القديم الواسع، لا بد أنها قلقت، وتساءلت وحزنت، وذهبت بعد صلاة العشاء تبكي لأمها، بعد أن ملت من تطمينات خالي لها، لا شك انها تعاني الوحدة والوحشة، أعلم جيدا انها لن تغادر بيتها، على امل أن اعود لها قبل المغرب، اتخيل يأسها وتحرقها وهي لا تقوى على الصبر لعودتي، ثم ما أدراها أين أنا؟ وكيف لها أن تعرف؟ أعرف أن قلقها سيتضخم حين تغيب الشمس، ويقبل الليل، ولا أعود لبيتي، لها ولحضنها، ستنتظر عودتي طول الليلة الأولى، ستذهب بها الظنون كل مذهب، لا تعلم انني بين أيدي اعداء حاقدين سفاكي دماء، هل سيطلقون سراحي بعد أن يشبعوا شهواتهم في تعذيبي؟ أشك في ذلك، حتى لو تركوني هنا في ارض أجدادي سأكون محطما ومعطلا لا أقوى على الحركة، ولا يجد أهلي إلا عظامي على ارض أجدادي، إنني لن أقوى على المشي ليلا لمنزلنا لو تركوني عند الغروب في الخلاء، حطموا أضلاعي وركبتي، وكفتي قدمي، سأضطر للزحف ربما، أو اصاب بغيبوبة، فتهاجمني الوحوش كالضبع الجائع والذئب المسعور. آه يا بلادي، ما أعزك وما أغلاك، (عليك مني السلام يا أرض أجدادي، ففيك طاب المقام وطاب إنشادي).**

**فصــــل 10**

**إيمان سالوم لا يضعف، حتى مع الحصار الذي وجد نفسه فيه، والمجهول الذي يطمر أحلام حياته كإنسان ريفي اعتاد على الحرية، وفي أوقات ضيق وساعات حرجة، وبينما كان يومها يعاني من شدة حرارة الشمس، ومن المغص الذي رافق الإسهال، ومن أوجاع آلام الضربات المتلاحقة من أفراد الدورية الصهيونية لتعطيل قواه، يجرجر جسمه المنهك وهم يسحبونه كالخروف إلى الذبح، لكنهم يتجهون به صوب السيارة مدفوعا مطوقا ومهانا مقيد اليدين، تهبّ نسمة هواء ناعمة أنعشت أنفاسه قليلا، أحسّ ندى رخياً يهبط على جسده، يمنحه بعض الإنعاش، تذكر أنه لم يخطئ على أحد، يخاطب نفسه (كنت أمشي على أرضي، وأفرغ محتويات بطني الفاسدة على أرضي، وأتفقد شجر الزيتون العتيق على أرضي، فأين أخطأت؟، وعلى من اعتديت) فجأة واتته قوة واشتد عوده ثانية، بعد أن كان متراخ من كثرة الإسهال والضربات المؤلمة الحاقدة على رأسه وصدره وخاصرتيه، ازداد قدرة وصمودا وصبراً، غمرته رعشة أمل تدعوه للتحلي بتماسكه وثبات إيمانه بحقه في الحياة، قال في نفسه، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)، سماء بلادنا صافية، وفضاؤها واسع رحب، هذه السماء الجميلة الزرقاء، تزين بلادنا فلسطين منذ أن خلق الله الأرض وما عليها، ولن تختفي تلك القوة السحرية العظمى، إنها الملهم لي ولأهلي ولشعبي في الضيق وعند البأس بلا يأس، ظل عفان صامتاً عبر الدقائق التي مرت حتى وصلوا السيارة العسكرية المرابطة بعيدا، لكنه لم يتوقف عن مخاطبة نفسه، أنا عفان سلوم بن نومان الذي عانى الكثير في طفولته وصمد، بلغت سن الرشد ونجوت من استغلال الرجال لي، ومن المرض والخوف والظلم والتهميش والحرمان، حتى تزوجت، خديحة زوجتي لاشك أنها تنتظرعودتي هذه اللحظات على أحرّ من الجمر، أفتقد السلة الصغيرة التي كنت أحملها قبل قليل، ملأتها لزوجتي بثمار التين والزعتر والزعتمانة من أرضنا، لم ارشدهم للمكان الذي علقتها فيه، حتى لا يستفيدوا منها، هل التقطها أحدهم ياترى؟ آمل ان أعود لها وأجدها حيث علقتها على غصن شجرة زيتون، افضل أن تذهب للجحيم على أن يأكلوا من تعبي وانا أتعذب، أعجب أننا لم نعد أحراراً في التجوال بأرضنا، وهل جزائي هو السجن او القتل لأنني أتفقد أرضي، قد تعرف كل الدنيا أنني وقعت أسيرا إلا أهلي وزوجتي،لاشك انهم سيقطعون الأمل من عودتي، ظنا انني مت او قتلت أو اكلتني الوحوش، أخرجت برازي غير المرغوب على أرض أبي وأجدادي، قبل قليل كنت أمشي فوقها بثقة وفرح برغم آلام بطني، ليتني لم أتناول الدواء المسهل الذي تناولته فجر اليوم. لكن هل ينفع الندم بعد أن وقعت الفاس في الراس؟**

**قبل أن يصدر قائد الوحدة أمراً بنقله للسيارة، شاهد سلوم وجوهاً كثيرة لا رحمة فيها تحيط به، تتسارع توارد الأفكار في رأسه، ما بين الخوف من الموت، والندم على تطرفه في أرضه، ثم ونوبات الألم في بطنه من الإسهال، والآلام التي يتزايد إحساسه بها لشدة الضربات التي انهكته، كان منهوك القوى، ومع كل هذا تتكرر الأوامر له بالنهوض والتحرك وقول الصدق، بدأ الدوار ينأى به عن عالم الأسوياء، أحسّ بسوء حاله وبضيقه من الوقوع في الأسر، تقترب صفحة السماء منه، يحاول التنفس فيحس بأن الهواء ثقيل لا يدخل رئتيه، يتمنى هبة هواء باردة وقوية، رحيمة من أعالي السماء تمنحه الأمل، إنه لا يقطع الأمل، يثق بإن السماء لن تخذله، إنها سماء أرضه وأملاكه فكيف بها ستغدر به، وما عليه إلا أن يصمد مثل ارضه التي تحميه وتحمي قريته، وتحفظ عليه حياته، يشهق بنفس عميق كي يعيد له توازنه، يشعر بزوغان أنظاره، أين تباعدت عني السماء في هذا الوقت ؟، إنني مأزوم وبحاجة لرحمة سماوية، أحسّ ببعض هزال وعلى وشك الغياب.**

**تباطأ عفان وتراخى في مشيته، انتفض على طعنة في خاصرته، وطلقات رصاص قريبة دوت حوله، تجمدت فرائصه، تمنى لو يداه طليقتان كي يتحسس جسمه إن اصابته بعض تلك الرصاصات، حنى رأسه وتأمل جسمه، لكن غشاوة على عينيه حالت دون رؤية ملابسه المبللة وجسده، ارتجف عفان قلقا وحيرة وحزناً وضعف حيلة، همس في نفسه، حين يقترب الموت ننسى الألم، الخوف يتلاشى من عقله، يستجمع بقايا قواه، لينفذ الأمر بالوقوف وهو يتألم، يريد أن يتحسس مواضع الضربات الموجعة في صدره وظهره وخاصرتيه وكتفه ورأسه، حاول رفع يديه ليلمس مواضع الألم في رأسه، لكن يديه مقيدتان، وجوه عابسة، ووجوه أخرى مستنفرة، عيون مختلفة الألوان تفيض حقداً، لا تعرف الرحمة، هياكل متشفية تتحلق حوله، تحول بينه وبين مشاهدة صفاء السماء وأبوابها، اصطدمت عيناه بقرص الشمس الساطع، حسب انها تراقب ما يفعل جند الصهاينة بإنسان وحيد بريء، لم يستطع معاتبة الشمس ولا مخاطبتها، فغضّ من بصره، حمد الله ان النور يملأ العالم حوله، وأن الشمس ترى وتشهد على كل ما يجري له، تمنى لو ان اشجار حقلهم تقدم عونا له، ولو بنتفة ظلال تخفف حرارة أشعة الشمس الحارقة منتصف النهار، زاد عطشه، طلب أن يسمحوا له باستعمال قربة الماء، جف ريقه ولا يقوى حتى على الكلام، أشار لهم مرات عدة على فمه وحلقه، لكن لم يستجب له أي منهم، لم يسمحوا له بجرعة ماء، وحين يئس من عونهم حاول تناسي الأمر، وصار يقرأ آيات من القرآن مما يحفظ، يحس بهدوء نفسي وبعض من صلابة، شاهد أشجاره دائمة الخضرة منزرعة راسخة في ارضه، تشمخ برؤوسها إلى السماء، غير عابئة بهم ولا بأسلحتهم، وهو ضعيف رجراج على تلك الأرض، لا يقوى على الحركة، الأرض ترحب به كلما سقط عليها وتحن عليه، ولا يضيرها ان ينبطح او يجلس عليها، او يقف كشجرة او عود جاف على سطحها، حين تقدم أحدهم يجهز بندقيته ليحطم سلوم، أو ليدكه بحذائه الكبير الصلب، نهره رئيسهم، قائلا، لا نريد أن نحمله، هاهو يمشي بنفسه معنا إلى مصيره النهائي.**

**حين كنت ملقى على الأرض أول وقوعي في المصيدة، لاحت فرجة سماء زرقاء من بين اثنين ممن يحيطون بي، تحرك جسدي قليلاً، أحاول التأكد أنني ما زلت حياً، وأستطيع الوقوف والاستعداد للإجفال، والتحرك إن هوت ضربة جديدة على رأسي أو جسدي، والبولوني المنتفخ يتحدث بعبرية مكسرة، وهو يصوب بندقيته إلى رأسي ينتظر السماح له بإفراغ رصاصاته، يعيد اليهودي العراقي ترجمة ما يقول المجند البولندي**

* **أتنهض أم تفضل أن تبقى نائماً في هذا المكان إلى الأبد؟ أأنت مخرب؟ ولماذا أنت هنا؟**
* **أنا ريفي عربي فلسطيني يا خواجة، ولا شك أنكم لاحظتم انني مسهول، اخذت شربة ملح انكليز (إبسوم سولت)**
* **يكرر البولندي كلامه قائلاً: أنت عربيم خَراب خراراب.. خرا أراب**
* **أوكي أوكي عربي صحيح، لكنني لا أحب الخراب ولا الكراهية، أو سمني كما تريد يا خواجة، وما تصفه شاهدته يخرج مني رغما عني.  
  المجند اليهودي الذي يتكلم اللهجة الفلسطينية يقول**

**- أثبت مكانك وقل الصحيح قبل أن تكون نهايتك. . أنطق وقل الصحيح، حتى لاتصبح رأسك كرة ممزقة ومبعثرة، وبين هذه الأشجار المهجورة في هذا المرج الفسيح، هل ضاقت بك الدنيا حتى تتحدى جيش الدفاع الإسرائيلي، وتوقع نفسك وتتجرأ بالتقدم صوب ارض إسرائيل؟.**

* **أوكي يا خواجة، آآه... اوكي، إنها مشيئة الله يا خواجة، إننا كلنا الآن نعيش في فلسطين، أنت وانا نعيش في فلسطين، فلسطين بلادنا، أنا لم أعتدي على ارض أحد، نحن كلنا في فلسطين، إنه حظّي التعيس هو الذي جرّني اليوم إلى هذا المكان، إنني منهوك القوى، بطني، بطني تؤلمني، ثم السوائل والقاذورات التي تثقل ملابسي، بعد الضربات القاسية التي انهالت عليّ دونما ذنب جنيت. يدفع المجند البولندي زميله كي يبعده عني ويقترب وبندقيته جاهزة لكل الاحتمالات ثم يقول كلاماً لم أفهمه، لكن الشاب اليهودي أصغرهم عمرا يتكلم اللهجة الفلسطينية يقول**
* **رائحتك كريهة، هكذا أنت عربيم، عربيم دائماً وسخ وكذاب، أنت وسخ، عربي وسخ، فلسطيني (يروخ مخيم لاجئين مو تيجي خدود دولة إسرائيل؟)**
* **كلنا بنا رائحة وسخة يا خواجة، إن تعذيبكم لي هو الذي أخرج روائحي التي تكرهونها، ليس بإرادتي يا خواجة، كل البشر يمتلئون بروائح كريهة مخفية، إخراج الروائح الكريهة من أسافلنا عيب كبير في تراثنا يا خواجة.**
* **أنت آراب دائما وسخ، أراب خراب، خرا أراب.**
* **سمعت جنود الإنجليز الذين كانوا يحكموننا قبلكم، يخرجون اصواتا وروائح كريهة من أدبارهم، دون حرج او حياء، أما نحن فنحرص على النظافة والطهارة من الأسفل حسب ديننا ومعتقداتنا، فتبقى أسافلنا نظيفة تماما كما تحافظوا على نظافة وجوهكم أو أيديكم يا بيك، لأننا نصلي متطهرين من كل الأوساخ، إنه الشراب المسهل ملح الإنجليز وتعذيبكم هو الذي سبب خروج الفضلات مني، وفاضت حتى على ملابسي يا خواجة. لعن الله الإنجليز وكل شيء أحضروه لنا.**

**كلما حاول النهوض سقط ثانية من الدوار والألم، أشار أحدهم بانتظار رأي المسئول الأول عن المجموعة، نظروا كلهم صوب سيارة الجيب، تكلم أحدهم باللاسلكي عن أمر لم أفهمه، أجبروني على النهوض، ثم اضطروني لمشي الهرولة أحياناً، وحين ارتخي وأذبل، تحتك قدماي في الأرض والأشواك، فأحس بها تتمزق، فأرتمي ارضا عاجزا مستسلما للموت، فتقع على جسدي ضربة مؤلمة توقظني فأندفع ناهضاً من شدة الألم، أعود لمحاولة مشي الخبب معهم، وحتى لا يبادرني أحدهم بضربات أخرى، ذراعي التي ابتليت بالضربة قرب مفصل الكتف ما تزال مرخية لا قوة فيها وأشكو من شدة الألم، هذا عدا عن الألم في مؤخرة رأسي، وفي أضلاع صدري وحوضي ومؤخرتي، حتى قدمي لم يسلما من الدوس عليهما، وعيناي كعيني قرد مربوط بين جمع من الأولاد القساة المشاغبين، تستطلعان الأماكن والجو والحجارة والأشواك في حذر وخوف وقلق، ولا أغفل عن توجيه نظري وعقلي صوب السماء، لعل فرجاً يأتي من هناك، أوتخفف اوجاعي وآلامي، تذكرت الغجري الذي حضر لقريتنا ، إذ كان معه قرد يطلب منه أن يرقص، أو يعجن، أو يجلس جلسة العجوز، فيلبي القرد طلب صاحبه، خوفا من عقاب او طمعاً في قرن موز مكافأة له، وها أنا انفذ كل أمر يطلب مني بلا إرادة ولا تفكير، لكن دون مكافأة او استرضاء، بل بالخوف والتهديد والوعيد، مثل قرد الغجري، ومع كل حركة تتجه عينا القرد المستغربة إلى كل اتجاه ، تتأمل حركات الناس المحيطين حوله، والأولاد المشاغبون يحاولون نخسه، أو نتف شعر جلده ، فتزداد حركات عينيه فزعاً أوكرهاً فيستعد للمواجهة، وربما إيقاف الاعتداء عليه، لكن سلوم لا يتقن تصرف قرد الغجري في هذه اللحظات المريرة.**

**ومع هذا تتراقص عينا سالوم، وتتحركان بسرعة كبيرة إلى كل اتجاه ، يريد أن يعرف من أي فرد ستخرج الطلقة القاتلة، وذاك الطويل الأنيق الأشقر يهودي أمريكي، آمر الدورية والمجند الفرنسي لا يعرفان كلمة عربية واحدة، ولا يحاولان التحدث بالعبرية، تعلم البولوني كلمات عربية قليلة، كلها في السباب أو اللعن أو الكلام القبيح والجنس والأعضاء التناسلية، يسأل اليهودي الفلسطيني سالوم**

**- هل تتكلم إنجليزي؟ (دو يو سبيك إنجليش)؟**

**- نو نو إنجليش، ممكن شوي شوي، بلطّش تلطيش، إنجليزي شوية فيري ليتل، very little يطلب رئيسهم من الدرزي واليهودي اللذين يتكلمان العربية التحقيق مع سالوم، يسأله أحدهم بالعربية،**

**- رئيس الدورية يسأل ما قصتك؟ تكلم بسرعة، بينما باقي أفراد الدورية يوجهون أسلحتهم صوبه، الجميع يقفون متحفزين يملؤهم الحقد.**

**- إنني مشوش الفكر، لا أدري من أين أبدأ، لقد سبق وشرحت سبب مجيئي هنا لأرضي، إنه ملح الإنجليز، شربة قطعت أمعائي، أوصلتني لهذه الحالة المزرية.**

**يقول عفان في نفسه (هل هي ارض ابائكم يا أولاد القحبة؟ ما الذي اتى بكم وجمعكم هنا في بلادنا، حتى تقولوا إن هذه ليست ارضي، أخخ أتمنى لو اني حر وراسي سالمة؟!!). . . يتنهد ثم يقول، إننا نقطف الزيتون من أرضنا يا خواجة منذ زمن بعيد، حتى بعد أن قمتم بتهجير شعبنا، واصلنا قطف ثمارها كل عام، ولم يسبق أن اعترضنا أحد، ولم نواجه أي معارضة في السنوات الأربع الماضيات، لا نفكر في إيذاء أحد، ونحب أن نعيش ونموت قرب أرضنا، سرعان ما يجيب أحدهم.**

**- الأرض رجعت ملكاً لنا، إنها أرض إسرائيل، انتم فلسطيني حرامية، انتم كنتم تسرقون ارض إسرائيل، وحسب إرادة رب بني إسرائيل، استرجعناها من فلسطيني غريب خائن.**

**ويكمل اليهودي العربي قائلا**

* **هذه أرض إسرائيل، أرضنا عادت لنا، تخلصنا منكم لأنكم كنتم تحتلونها وتستعمرونها لما يقارب من الفي عام.**
* **وكيف لي أن أعرف هذا، لم يقل لي أحد، وأنا لم أشتر أرضا من أحد، ولم أغتصب ارض أحد، ولم أبع أرضي ولم أؤجرها ولن أوقع أي عقد للتخلي عنها.**

**يترجم اليهودي الفلسطيني للمسئول الأمريكي وللأوربيين أقوال سالوم، فيخاطبه أحدهم**

**- أنت ملعون، عربي ضعيف وحقير، لكن كلامك يغيظني**

* **إنني أحترق، من الأسفل يا خواجة، نار في أسفلي ولهيب في حلقي و مسامير في معدتي وسكاكين في أمعائي، وجمر في دبري، وآلام ضرباتكم على جسمي، أحس بغثيان يا خواجة، أريد جرعة ماء، أظنني سأموت؟.**
* **نريدك أن تموت، بل نريد أن يموت كل العرب أمثالك، وهذا هو الأفضل لنا ولكم، أبله، غبي، جاهل، عربي معتوه، خراراب ، عربيم، عفان.**

**عفان يقول في نفسه، (انا وأمثالي سنريكم نجوم الظهر، يا ولاد الكلبة، إذا تم تحريري)، قطع اليهودي الفلسطيني أفكاره ، يترجم ما قاله آمر الدورية**

**- ماذا تعمل؟. . وكم عدد أفراد أسرتك؟ أنت عربيم مجنون**

* **بيتنا كبير عالي السقف، ومقسم إلى ثلاث مصاطب تعلو الواحدة عن الأخرى بدرجتين، ولا يعيش به إلا أنا وزوجتي وأخي الذي يصغرني بأعوام قليلة ثم خالي الكفيف.**
* **هل أرسلك أحد لتكشف على حدودنا؟، هل أنت جاسوس؟ سترى الويل، وستلقى الأمرين إن تبين كذبك، تتصنع البله على أمل أن نخلي سبيلك؟ يتدخل المجند الدرزي ويخاطبني بأسلوب ألطف قائلاً**

**- لو كنت مكانك لاعترفت بسرعة، حتى لا تتحطم أضلاعك ورأسك، ثم تضطر أن تنطق بالصدق بعد كل أنواع التعذيب، هل أنت جاسوس؟ هل أرسلك أحد لتستطلع تحركات جيش الدفاع الإسرائيلي؟ يقاطعه المجند البولوني كبير الجسم منتفخ البطن، يتنفس بصعوبة يعود للقول**

**- عراب خراب، عربي خبيث، أكرهكم، الموت لكم لن يبقى منكم أحد.**

**سحب عفان نفساً طويلاً ملأ صدره بالهواء النقي، أدار وجهه عنه واتجه بنظره للسماء، ثم حاول أن يغمض عينيه.**

**تلقى أمر الوحدة أمراً بنقلي إلى مركز التحقيق في المدينة القريبة، ثم كلف ثلاثة من افراد الدورية بالبقاء والقيام بتدريبات إضافية بالسلاح الحي في تلك المنطقة على الحدود حتى منتصف الليل.**

**فصل 11**

**الزوجة الصالحة نعمة كبرى في الحياة، أدركت هذه الحقيقة وأنا أعاني السجن والامتهان لدى عدونا السجان الصهيوني، أعيش معظم الوقت في الخيال مع زوجتي ديجة (خديجة)، حتى لو كنت في أوقات تلبية حاجة ريتشي أو حاجتي، أحمد الله أن أهلي زوجوني مبكراً، فخبرت ممارسة الجنس التقليدي مع زوجتي بالحلال، قبل أن أتعلم فنونه مسجوناً، عشت انا وزوجتي أجمل ايام عمري، لست نادما على زواجي من ديجة، عقلي وضميري يرفضان معيشتي هنا، وأحسّ انها بلا طعم، حتى مع كل ما ألاقي من ابتكار وإغواء وتنويع في اهتمام ريتشي وغير ريتشي، حاول بعض السجانين إشعاري أنني لست أسيرا ولا سجينا، لكن كل ذلك لم يستطع أن يزيح شعوري بالمهانة والاستغلال المختل والمختلف لوجودي ضعيفا مستسلما، البي حاجات غيري، صرت أمارس جميع نشاطات الحياة تقريبا، اتجول داخل المعسكر، آكل وأشرب حسب رغبتي، ولا أنكر أن طعامي صار فيه الكثير من التنويع والأصناف التي لم اسمع بها من قبل في قريتي، ومطاعم غريبة لم أعهدها من قبل، وقد لا تتاح ثانية لك يا سلوم؟؟، تشاهد عيناي الكثير من المنبهات والإغراءات والإغواء، وأغرق في دفء الأجساد، أليس من حق شاب مثلي أن يأكل ويعيش ولماذا لا يستمتع؟ مادام ان العمر محسوب عليك، ولا تقدير لك أو شكر لو رفضت التجاوب، بل ربما تقع في هموم الذل والإهانة، أفلا أعوض نقص حريتي بأن أخوض تجارب ملذات ولو . . . .. لا أدري ماذا اسميها؟ مع انني أعرف انها عابرة؟، ثم إنني أشعر أحيانا إنني لا أخسر شيئا، وخديجة لا تخسر شيئا، فما دمت أسيرا، فخسارتها غيابي عنها، لا تدري ماذا أفعل هنا، أوما يفعل بي إن قلنا الصحيح؟ فلا ديجة ولا أنا بقادرين على الاختيار، فهي لن تعلم عن كل ذلك، حتى انا نفسي لاأدري أمتعة ما أتذوقه او هو تعذيب بشكل مختلف؟. . . ،**

**لكنّ سؤالي الأهم هل تعلم ديجة انني حي أرزق?. . . ، أعرف سذاجة أهلي واستهتارهم بي، وربما سيظنون انني في عالم الأموات والقتلى، وياما خسر الفلسطينيون شباباً وصبايا وأطفالاً على أيدي المحتل الصهيوني، هزموا شعبنا، واحتلوا ارضنا، والصهاينة يدعون أنها أرضهم، مع اننا نحن سكان فلسطين الأصلييين، إنهم مستوطنون غزاة لبلادنا، سرقوا ارضنا على حين غرّة كاللصوص، واكرهونا على الخروج منها، وبكل وقاحة يقتلوننا او يسجوننا حين حاولنا أن نقاومهم بصدورنا، إنهم محتلون أجانب، والمحتل لا بد أن يرحل، وعليه أن يعود من حيث أتى.**

**حين أكون وحدي وخاصة في ظلام الليل والعزلة التي فرضت عليّ، أشعر أحيانا إنني أفقد حيويتي والأمل، ويساورني مشاعر الإحباط و والتخلي عن التحدي، كل شيء يوحي بأن عليّ قبول المتاح لي، وحتى في لحظات احتراقي بنار ريتشي وحاجاتها برغبة مجنونة، تجمعنا حاجة الإنسان، كانت تساورني مشاعر بؤس، وأي متعة اعيشها تصبح فقاعة صابون سرعان ما تنطفئ، فور خمود جذوتها، لكنها بدون وعي ولا نية، غرست فيّ روح الحرية، وما زلت لا أفهم ما تقوله عن حزب الخضر، وعن حزب شيوعي، انا أعرف شيوعي يعني كافر، ينكر جميع الأديان، مادام انها تكفر بالأديان، فلماذا حضرت لفلسطين، اليهود المتشددين لدينهم هم الذين نكبونا، أخبرتني مرة أنها لا تحب البقاء في جيش الدفاع الإسرائيل، لكنها تحكمني، وتتحكم بي بطريق يخالف مبادئ ديني وضميرها الذي تدعيه، في الأسر ومذلة الضعف، لا تقاوم إغواء الجسد، وأنا عربي محروم، فهل هناك اناس يرفضون نداء الجسد؟ لم ولن أكون حرا يوما لأمارس حريتي كما يستغلونني هنا في الأسر. ولن تتاح لي مغامرات وتجارب بإرادتي، إنهم يعيشون الحياة كما يريدون.**

**ديجة هي صنو روحي، عوضتني ديجة الكثير الكثير مما فاتني، بعد أن عانيت اليتم والضياع والمخاوف والشكوك وطمع الناس بي، برغم صغر سنها وبساطتها إلا أنها كانت السند القوي، حببتني في الحياة ومكتنتني أن أعيش كالآخرين، باستسلامها لي وقبولها كل ما أريد، وقتما اريد، مهدتني لأقوم في الأسر بدورها، وها أنا استسلم لريتشي وغير ريتشي، لإرضاء الرغبات، ولأصبح نفعيا أتمنى أن أتشبث بك يا ديجة هذه اللحظات، بل بك وبالحياة، لكي ترفعي من معنوياتي ثانية، وأجدك مطيعة تنفذين كل ما أطلبه منك برضا وتعاون، بل دون أن أستشيرك، وقتها فعلا أحس أنني فلاح ريفي ابن قريتي، أشعر انني أصبحت رجلا إنسانا أستحق الحياة، حياتي مع ديجة وفي بيتنا الأثري العتيق تستحق كل دقيقة او جهد من عمري.**

**تخاطبني اليهودية المغربية المكلفة بحراستي**

**- يظهر انك تحب زوجتك؟**

**- اووه، كثير كثير يا ريتشي، كثير يا ريتشي كثير،**

**- وماذا عنها؟ هل كانت تحبك مثل حبك لها؟**

**- اوووه (ماي قاد) My God! . . . كما كان الإنجليز يقولون، يا إلهي! ، انها تفضل أن تموت ولا أتركها او ابتعد عنها.**

**- أنتم رجال كذابون، كلكم كذابون، رجال عرب ورجال يهود كذابون، الرجال كذابون، انانيون، تقولون مالا تفعلون، وتفعلون عكس ما تقولون، وحين تفعلون شيئا جيداً يوما ما، تعرفون تماماً أنكم ستجنون منفعة كبيرة لكم، وإلا فإن رغباتكم الجنسية وطمعكم المادي هما اللذان يمليان عليكم اللطف الزائف، ونادرا ما تستطيع حواء التنبه ومعرفة تلك التصرفات المتصنعة، إلا بعد انقضاء اوقات من عمرها، وإن عرفت يكون الوقت متأخراً كثيراً، انا اعرف ذلك جيدا من واقع خبراتي، فبعد أن آلمتني الكثير من تصرفات الرجال، صدمت فصرت أقرأ كتب علم النفس، وكتب السلوكيات البشرية.**

**- أنا لا أعرف مثل هذا الكلام يا ريتشي ولا أريد أن تشرحي لي عنه، مرة تقولين علم نفس، ومرة حزب خضر، ومرة حزب شيوعي، انا مسلم عربي ريفي، يعني فلاح، لا اغير رايي، ولا افكر بغير العيش في سلام وأمان مع زوجتي في بيتي وما حوله، أنا اكره النزاعات ولا أستطيع العيش في جو عدائي او نكد.**

**- الرجال العرب ويهود كله منافق، عندما يحتاج المرأة في أمر ما يؤلهها، يخليها مثل عشتروت أو فينوس، كأنه يريد أن يعبدها، ومستعد أن يفعل أي شيء ليرضيها، وبعضهم يتطرف فيقتل رجلا آخر او يحارب العالم من أجل إرضائها، مثل نابليون، أما هتلر فقد دمر العالم وبلده وقتل الملايين من شعبه واليهود والمحارق، وربما أراد أن يرضي عشيقته، او ليريها شجاعته وقوته وقدرته على فعل المعجزات، إلا سلوم، أنت إنسان نظيف وطاهر وبريء، كأنك ولدت من رحم الأرض وفي هذا المعسكر الكبير،إن هدوءك وبرودك ومرونتك وصلابة عقيدتك، جعلني أحسّ أنك أنسان خلق لي، لي فقط، أنت رجل مختلف، لا تبيع ضميرك ولا أهلك ولا أرضك مهما واجهتك صعاب او عرض عليك مغريات.**

**- وماذا يهمني انا من اخبار هتلر او بابليون، انا سمعت ان الحرب العالمية الثانية انهزم فيها هتلر، وكل مغرور او معتدي ينال جزاءه، فلا يهمني هتلر ولا بابليون، وكل ما يهمني هو حالي بعد خروجي من الأسر**

**- انا قلت نابليون، مش بابليون، هتلر كان مجنونا يا سلوم.**

**- نعم؟ على هذا تريدين أن أفهم أن كل من يصل لمنصب كبير أو حاكم يصاب بالجنون، ينسى انه ابن ناس عاديين. وأنه سيأتي عليه يوم يجد نفسه فيه مهزوما أو مريضا أو ضعيفا أو عجوزا أو سيعاني مرضه الأخير الذي لا ينفع معه طب ولا دواء، وسيرتاح الناس منه بعزله او موته.**

**- لكن لماذا أنت متضايق من هنا يا سلوم؟ أو تفضل أن أخاطبك باسمك في بلدك يا (عفان)، إنك تعيش في غرفة انظف من بيتكم، وهنا كهرباء وفي قرية عربي مافي كهرباء، وهنا ماء نظيف، وأكل نظيف، وعمل خفيف، ولا ينقص عليك شيء، وفرص أخرى كثيرة مفتوحة أمامك، وتجد اناساً يهتمون بك صحيا ونفسيا.**

**- لا يهمني كل ما تقولين، حريتي وأرضي وزوجتي هي غايتي**

**- أيها الحيوان، يبدو لي أن ما قرأناه عنكم في التوراة اليهودية صحيح، تقول عربيم جـوييــــــــــم، اي مثل حيوان. لا تعرفون أين هي مصالحكم، ولا تصح الحياة معكم إلا باستعبادكم، جوييم. لم يهتز ولا ينفعل عفان من كلامها، ولايفهم حتى معاني مفردة جوييم.**

**كعادته عفان يخاطب نفسه مهددا ومتوعدا، تمنى لو يستطيع أن يقول لها (ما دام انكم اتهمتونني بالاعتداء على حدودكم، وحياة ربك إن اطلق سراحي، سترون عجباً، وأقل ما نفعله، سأنجب انا وخديجة الكثير من الأطفال، لأشحنهم وأهيئهم لطردكم من أرضنا فلسطين كما طردتمونا) لكنه يفطن لوضعه الحرج فيجيب قائلا، ----أنا محظوظ بك يا ريتشي، أعرف أين أنا، وأعرف أقصى ما يمكن أن أحصل عليه، فهل تخبريني ما المطلوب مني؟؟. .. ، أرجو أن تغيري فكرتك، فلا تتهميني بالغباء أو تظنين أنني إنسان ريفي ساذج، لا أنكر لطفك معي واحتضاني، فلا تستخدمي هذه الثقة لتحقيري، أنا إنسان صادق ولا أكذب او انافق، أكرر ما قلته سابقا، إن أهم شيء عندي هي أن اعود حراً، إلى بيتي التاريخي القديم في بلدتي، كي اكمل بقية عمري مع زوجتي ديجة، ولنخلف اولادا وبنات، سائرين على سنة الآباء والاجداد. تسكت ريتشي عن الكلام، تسرح بنظرها بعيدا، تعدل قبعتها العسكرية على رأسها وتحك شعر رأسها في مؤخرته، تنظر صوب الباب، تخطو خطوتين للأمام، تعود خطوة للخلف مترددة، تدير ظهرها ثانية لسلوم، اوشك عفان على أن يسألها إن كانت غضبت منه او تود مغادرته، لكنها بادرته بقولها**

**- إنت رجل شباب كويس سلوم، مع ان اسمك هو عفان لكنك عفان نقي يعني نظيف، أنت تعرف انا احب أكون صديقة دائمة لك، انا لا أضرك، لا بل احب أن أحميك، ربما اخون الأمانة اليهودية حتى يبقى عفان بن نومان مرتاحاً، فهل ممكن أن تصير سعيداً، فهل تعدني ان تكون سعيداً هنا، في معسكرنا؟.**

**- وماذا لو نقلوك من هذا المعسكر يا ريتشي، فماذا سيجري لي،**

**- لا لا لا، انا عقل كويس، أنا فيه مخ، انت هنا سنة، وانا هنا لسنتين، مضى منها 8 شهور، بعدها إما أخرج من جندية، او أن اختار مكاناً آخر لعملي، المرأة هنا مدللة في جيش الدفاغ الإسرائيلي، انت معي وعندي وتحت رعايتي طول مدة سجنك.**

**الأسير سالوم يرد على المجندة التي كلفت لمراقبته أثناء عمله**

**- ما دام تسمون جيشكم جيش الدفاع، فهل انا هاجمتكم حتى تأسروني؟ انا إنسان مسالم، ولا سلاح معي، فلماذا عذبوني واروني الموت مئات المرات بالتعذيب، وأثناء التحقيق المطول معي، وبعد إنهاك جسدي وروحي حكموا بسجني، مع انهم عرفوا بساطتي وبراءتي، لم يفكروا بإطلاق سراحي، كي اعود لبلدتي واهلي وزوجتي. بل حكموا عليّ عامين بالسجن والخدمة، جيشكم هجومي عدواني، وليس جيش دفاع. (يخاطب عفان نفسه، طز، خلاص حكموني وخلاص، وأسوأ مما أنا فيه، مش رايح يصير، سأحكي كل ما يخطر ببالي)**

**- أوووه عفان، انت ما تنسى شيء؟ كم مرة قلت لي هذا الكلام، وهل انا التي فعلت بك كل ما جرى لك؟؟؟... ، أنا أنقذتك من الكثير من العذاب والمتاعب، ألا تعترف؟ ثم إن هناك امور لا نفهمها أنت وانا، وأفضل أن لا نتكلم في مثل هذه المواضيع، دعنا ننسى ونتأمل جمال بلادنا، انظر ها أنت تسقي الزهور الملونة والعشب الأخضر، وتشاهد الأشجار حول المعسكر وداخله، وترى الشوارع النظيفة المعبدة والمضاءة بالكهرباء، وأنابيب المياه النظيفة ممددة في كل مكان، ثم انظر لجميع انواع الطيور بأشكالها والوانها الساحرة حولك وفوق رؤوسنا، ها هي تتطاير من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة، ونسمع تغريد بعضها بين الحين والآخر، وكأننا في جنة، قارن هذا ببلدك الوسخ بشوارعه الضيقة والملتوية بترابها وغبارها واوساخها، وبيوتها المعتمة، اعرف بيوت عرب، ودخلنا بيوت فلسطينية كثيرة بعد احتلالها، معظمها مقرفة، ورائحتها عفنة، أستغرب كيف كانوا يعيشون بها؟ أستغرب جداً، حتى الحيوانات كنتم تظلمونها وتحشرونها على العيش معكم، ولو اعطيتوها حريتها لهربت وخرجت من بيوتكم الضيقة والمظلمة.**

**- يا ريتشي، يا ريتشي، شعبي الفلسطيني شعب طيب يا ريتشي، أثبت صلابته وحبه للحياة، وعاش على هذه الأرض الطاهرة المقدسة آلاف السنين، وأثبت انه يستحق الحياة، عمر البلاد وبنى وزرع وخلف الأولاد والبنات، وصرنا شعبا فلسطينيا محترما، وصار كل السائحين الأجانب يحبون شعبنا ويحترمونه، وشعوب كل الدول العربية كانوا يتمنون زيارة دولتنا فلسطين، للصلاة في المسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين في عاصمة بلدنا القدس المقدسة، ثم وللاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي في فلسطين والأنهار والوديان والجبال الشماء والماء والخضراء والوجه الحسن، وتذوق جميع أنواع الفواكه المختلفة فيها، فهل تعتقدين، أن هذا الجمال الذي تتحدثين عنه هو من صنع جيشكم، ولم يمض على احتلالكم لبلادنا وتشريدكم لشعبنا اربع سنوات؟ كل ما هو موجود على ارضنا وفي بلادنا فلسطين، هو من تعب شعبي وجهده، شردتم هذا الشعب، والآن تقولون إن بلادكم جميلة بحدائقها ومزارعها وطيورها وحريتها، هذه الأرض هي فلسطين، واعيد وأقول لك إن كل ماذكرته كان موجودا قبل استيلائكم عليها.**

**- إنك لا تحس بالبرد ليلا ها هنا، فالكهرباء والتدفئة متوفرة لك، فهل تبين لي كيف تعيشون في أجواء البرد في بلدكم؟ وكيف تتدفئون في الشتاء والبرد؟**

**- ندخل تحت فراش صوف الغنم، نلتصق ببعضنا، نثبت أعيننا على نور السراج الضعيف وهو يضعف قليلا قليلا، ثم تنطفئ أعيننا تحت الفراش، مع انطفاء نور المصباح، لننعم بنوم هادئ مريح لذيذ.**

* **وهل ينام أخوك قربكما؟**
* **تفرش زوجتي فرشتنا الخفيفة لي ولها على المصطبة العليا، في الزاوية البعيدة المظلمة من البيت، ينام شقيقي وخالي على فرشتين قصيرتين على المصطبة الأوطأ، قرب موقد الحطب وحيث نطبخ طعامنا في الزاوية الأخرى.**

**- أيها الفلسطيني الملعون، على الرغم من جهلك وأسرك إلا انك رجل غريب شوفيني عنيد. لولا أنني اعتدت على التعامل معك كل يوم وعرفتك جيدا، لأريتك الأنجم في وضح النهار، او وقت الظهيرة كما يقول المثل عندكم، لكن لأنني عربية يهودية، وأفهم نفسية العربي، فهناك صفات قليلة جميلة فيكم، تحبون مساعدة الغريب مثلا، لكن ديننا والحاخامات يكرهونكم، والكل يخاف منكم. إن كبارنا لا ينسون التاريخ، ويتذكرون ما فعله نبيكم باليهود في بلاد الحجاز.**

**- يا سيدتي أنا لا أكره احداً إلا إذا آذاني، ولأنك ما زلت لطيفة معي، فإنني لا اكرهك.**

**- ما دمت لا تكرهني، هل تستطيع أن تحبني؟**

**- وهل يستطيع اي طير او حيوان او إنسان أن يحب سجّانه؟**

**- انا لم أسجنك، القاضي وضباط آخرون هم الذين حكموا عليك، وانا هنا جندي، مكلفة أن أراقبك في المعسكر بجانب أعمال عسكرية وشرطية أخرى، عليك وعلى غيرك، فلا تلمني، بليز بليز، وأحب ان تفهم انني أحاول أن اساعدك لأني عرفت انك مظلوم اولا، ولأنني عربية مثلك، ومع هذا فأنا مكلف بذلك لأسباب أخرى لا أقولها لك.**

**أصارحك يا سلوم، أنني كنت احب ولد عربي، ابن جيراننا في المغرب قبل حضورنا لدولة إسرائيل، كان صغير الجثة واسمر مثلك، انا سمراء لأنني عربية مثلك ايضا، اتمنى لو ان اهلي لم يتركوا المغرب، كنا نعيش هناك بين اصدقاء وجيران ومعارف، وكان المجال مفتوح امامنا للتجارة والعمل هناك، أما هنا فإننا مطلوب منا أن نعمل طول العمر لنخدم الدولة، لا نشعر بالأمان لكي نتمكن من العيش براحة واطمئنان، ومن الممكن أن نموت في معركة او حرب مع جيراننا من العرب، كان لنا قيمة واهمية في المغرب اكثر بكثير من هنا، لكن هذا لا يعنيك ولا يفيدك، ولا يفيدني، فلننس ماضينا، ونحاول عيش حاضرنا.**

**يعلو صوت زامور انتهاء نوبة العمل لذلك اليوم في المعسكر، ربما هو معسكر صرفند،يسلوم يخاطب نفسه، (لو ملكت حريتي لخرجت اتفقد الطرق وشوارع قرية صرفند العمار، وصرفند الخراب اي القديمة.)**

**الإنجليز الخبثاء واليهود المهاجرون سموها الخراب، للمساهمة في تحطيم نفسية الإنسان الفلسطيني، وسمحوا للعمال العاملين مع الإنجليز من الموظفين الأجانب ومن وفد ورغب في الإقامة في تلك المنطقة، فأنشأوا بلدة مجاورة سموها صرفند العمار، وهي أقرب للمعسكر، كي يصل العمال والموظفون إلى اعمالهم مشياً على الأقدام.**

**عرف أحد الصهاينة العرب تلطف ريتشي معي، مرّ بقربها مرة وهي تراقب عملي في حقل أزهار صغير، فقال لها، لا نريد عربا هنا، لا نريد فلسطينيين، الفلسطينيون غير موجودين، هذه الأرض هي أرض إسرائيل، عمروها وأقام بها الفلسطينيون مجانا الفي عام، وقد منحها الله لنا قبل أربع سنوات، فهي أرضنا، أرض موسى وداود وسليمان، أرضنا عادت لنا بسهولة وبقرار إلهي دون طول عناء، فلينتشر الفلسطينيون في أقطار السموات والأرض، عند عربهم وخيام بداوتهم، وفي الجزر البعيدة والآفاق الواسعة، لا نريد أن نرى سجينا فلسطينيا أو عربيا عندنا إلا إذا كان عاملاً أو خادماً، وإلا فلينأوا عن هذه البلاد، ويبتعدوا عنا، والفلسطيني الجيد هو الذي يبتعد عن بلادنا، بلاد بني إسرائيل، والفلسطيني الذي نحبه هو الذي يموت وبأي طريقة، تهز ريتشي رأسها، وتطمئنه انها تعرف اكثر منه، وهي تقوم واجبها بتكليف من الاستخبارات العسكرية.**

**فصل 12**

**تلاحق عيناي طيور بلادي، وأحلق معها في الأجواء الواسعة، أفقيا وللأعلى ، فتتراءى لي أطراف أرض قريتي، وأتخيل الموقع الذي القي القبض عليّ فيه، فأجدني أبتسم سرعان ما تعلو ضحكتي، تذكرت اندفاع الخراء من مؤخرتي كرشاش قوي، مع صوت انفجارات خفيفة متلاحقة، جعلت جنود الدورية يجفلون بعيداً، ثم فطنوا للرائحة الكريهة، فانشغلوا عني ووضع كل منهم أصابعه على انفه، أدار البولوني بندقيته لإنهائي، لولا تدخل اليهودي الفلسطيني، أمرّر أنظاري على سفوح التلال التي تحيط قريتي من الغرب ومن الشمال، وتذكرت موقع المقتل أو (المقتلة)، حيث يلتقي طريق السيارات المنحدر في نقطة تتشعب إلى ثلاثة اتجاهات عند انعطافة قوية، ولأنها في زاوية صعبة وبين ملتقي ثلاث جبال، حدثت حوادث للسيارات قاتلة. وتبعد تلك النقطة عن البلدة مسافة الف متر، وأذكر أننا كلما عرفنا تدهور سيارة في نقطة التقاطع تلك، نجتمع نحن الأولاد، ونذهب لمراقبة الحادثة، وكثيرا كنا نبحث لعلنا نجد شيئا سقط من المصابين او السيارات المتدهورة او المتصادمة. لكننا في الوقت نفسه كنا نعرض على المصابين الماء ونبدي استعدادنا لإحضار الطعام لهم من بيوتنا، او نأخذ النقود منهم لنشتري لهم ما يريدون من الدكان الصغيرة في بلدتنا.**

**وبعد استقرار الهدنة بين اليهود والعرب، شاركت مثل اولاد القرية في بيع البيض واللبن والحليب لعساكر البادية والجيش الأردني عام 1948 و1949، كثير من العساكر لم يكونوا يحملون نقودا كافية، حاول بعضهم استغلال ابناء القرى، ومع هذا لم تثر أي مشكلة في أي حالة حسبما عرفت، لم يتشاءم الناس من وجود القوات الأردنية، بل إن البعض رحب بهم، لكننا تمنينا لو انهم قاموا بعمل ما، او لو ارجعوا مدينة واحدة مما استولى الصهاينة عليها بدون حق، أو لو أعادوا قرية واحدة للفلسطينيين، أسمع انهم استطاعوا حماية القدس الشرقية والأقصى من الاحتلال عام 48 واوقفوا الصهاينة عند باب الواد واللطرون، لكم تمنينا أن يشتبك الجيش الأردني مع الصهاينة في مناطق كثيرة، لكي نثور ونعاونهم وننتقم من الصهاينة، لطالما تمنينا لو سلحوا الفلسطينيين ليساعدوهم ويطردوا الصهاينة من القرى التي شرق اللد والرملة على الأقل، والناس وقتها كانوا مستعدين نفسيا ويائسين، ويودون الانتقام من الصهاينة الأجانب، لكن للأسف كل ماحصل هو تهدئة الأوضاع، لا بل ساهم الجيش الأردني والأمن في منع الفلسطينيين من اقتناء السلاح أو استخدامه.**

**بقيت اكثر من ثلاثين قرية بين قريتنا ومدينتي اللد والرملة فارغة لأربع سنوات، إذ كان العدو منشغلا بترتيب اموره في المدن الكبرى مثل يافا وحيفا واللد والرملة،وذكر بعض كبار السن ومن كانوا يقرأون الجرائد وقتها، بأن الجيش الأردني كان قادرا على حماية اللد والرملة وقراهما من الاحتلال، وهما ليسا من حصة اليهود في مخطط تقسيم فلسطين حسب قرارارت الأمم المتحدة، هموم الأمس القريب ما أكثرها، وما اقل أفراحها، وما أثقل ذكرياتها.**

**الله ما أجملك ياجبال بلادي وسهولها، والأودية وخرير المياه الصافية في فصل الربيع، والفراشات والأشكال المختلفة من الطيور، ترفرف سعيدة فوق الأزهار البرية والنباتات والهضاب والبرك، وتنزل على اطراف الجداول تتساقى رحيق الماء الهادئ النمير، قبل نكبتنا وتهجيرنا.**

**أتذكر نفسي في معسكر الاعتقال، فترتد عيناي على السهول الخضراء حولي وحول المعسكر، سهول واسعة تملؤها الأشجار المثمرة والخضار وأشجار الزينة واشجار الظلال الوارفة، يسحرني هذا البهاء في بلادي فيغمرني بالحب والوفاء لأرضنا، يتبادر لذهني حزن عميق، يعيد توليد الأسى المتكرر في نفسي، فأشعر بالغربة وانا في وطني، فيتراءى الكون لي ظلام وغموض وخداع، تطول النهارات، وتشجيني الليالي، بل أكره قدوم الليل حيث أجد نفسي وحيدا في زنزانتي، تنتابني الهواجس ومشاعر الظلم والوحشة والوحدة، تتوارد إلى عقلي أصوات خارجية من زوجتي خديجة، وكأنها تخاطبني، فيتحرك لساني بكلمات لا أدري كيف تخرج من فمي، ويساورني شك بأنني أصبحت مهووسا وبي نوبات من خبل، فتوقظني كلمات ريتشي، وتعيدني لواقعي الشاذ، تشغلني رائحة جسدها، فأنشغل بملامحها وتفننها بملابسها ثم وانفاس الشبق والرغبة، وهي تعابث هذا الجسد المتوقد، تحرك جميع حواسي وأحس بأنني أحترق، ويتناقص عمري وجهودي التي حرصت على توفيرها لزوجتي ديجا، أحاول الإنصات لصوت الشوق الصادق والحنين لك يا ديجا، وريتشي في سماوات انسجامها والمتعة المحرمة علينا، لا تسأل عن حلال ولا تعبأ بحرام، أشعر انني في حرب صعبة أحاول الخروج منها سالما، إن لم أحرز شكلا من أشكال النصر، مستبعدا فكرة الاستسلام أو إظهار الضعف، فما دمت افكر واتنفس واستمتع فأنا قوي، وأمامي طريق الحياة مفتوحة على الحب والنجاح، بعد محاولاتي الانتصار على نفسي ومواقفي، ينساب إلى روحي توازن ما وتناغمات تعيد لي توازني، تهمس لي أصوات رفيقة ناعمة تدعوني للركون للهدوء والاستقرار، وكأنني خارج من كابوس واضطراب حلم غير مريح،**

**آآه يا خديجة، يحيرني كيف يختلف الزوجان، فالرجل يعمل لنفسه ولأسرته سواء كان متزوجا او أعزبا، والزوجة بالمثل او أكثر إخلاصا، فكيف يختلفان؟ أسمع بعضهم يمدح حياة العزوبية، فأتساءل بعد خبرتي القليلة بعد الزواج، هل حياة الأعزب حياة؟ من عادات بلدتنا الجيدة أن معظم شباب قريتنا يتزوجون في سن مبكرة، ليحصلوا على أطفال لمشاركة الأب في شيخوخته ولمساعدته في زراعة كل ما يلزم للأسرة، او للعمل خارج القرية للمساهمة في مصاريف العائلة،**

**بعد التهجير القسري والهزيمة التي ألحقها بنا الصهاينة، خسرنا معظم ما كان لدينا من شجاعة وصمود، أصبنا بالاحباط وصدمة الهزيمة ووصمتها، فانتشر الفقر بين الفلسطينيين، وليس لقريتنا فقط، امتلأت قريتنا بالمهجرين، وسكن اللاجئون في الخيام والكهوف والغرف الصغيرة جدا، اتخذوها سكناً مؤقتا لهم، على أمل ان يعودو لديارهم التي هجروا منها قسرا وترهيباً، لا أتصور كيف يستطيع شاب أن يعيش بدون زوجة تشاركه العمل والطعام والمنام؟ إن ساعة تحتضن فيها زوجتك، او هي تحتضنك لتعادل كل منافع الدنيا الأخرى، فالزوجة هي نعمة كبرى لا يعرف الشباب قدرها إلا من ترمل او أصبح مطلقا. أو حرم من زوجته قسرا كحالتي، آه يا زوجتي ديجا ما أجملك! وما أحلى لحظات احتضانك، ليتك تدرين حجم اللهيب الذي يحرق قلبي هذه الأيام في الأسر، إنني أتمزق شوقاً للتحدث إليك، حين أرى الشباب والشابات اليهود يحتضنون بعضهم بحرية واستمتاع ويتعانقون، أحترق غيظا، وحين انحصر بين أحضان ريتشي ورهن رغباتها، يتمثل شوقي لك، وأتخيل انك معي، الحسرة التي تنتابني وانا في ملاعب ريتشي والأجواء التي نعيشها، تزيدني تحرقا لأنفاسك، اتصورك أنت في حضني يا ديجة، ولهذا فأنا مستعد أن أفعل أي شيء يساهم في تحرري، سامحيني يا ديجة، على قبول المشي والسهر مع المجندة المغربية اليهودية ريتشي، ليس لي حرية حقيقية في قراري، لكنها وعدتني بأنها ستساهم كثيرا في تحريري، فور انتهاء مدة محكوميتي او حتى قبلها، حبيبيتي ديجة، لا تقلقي، مضى الكثير ولم يبق إلا قليل ، انها أحد عشر شهرا او مايقارب العام باقية على إكمال مدة محكوميتي، اصبري يا حبيبتي، تعلمي الصبر مثلي، الصبر هو أملنا الوحيد في هذه الأيام الصعبة، ومع هذا فأنا أتساءل كل يوم، هل سأتحرر يا ديجا يا حبيبتي؟ يازوجتي الغالية؟عدونا ظالم لئيم، أنانيون في كل شيء، ليتك تعلمين ما انا فيه من قهر يا ديجة! على الرغم من أن اموري هانت كثيرا، ولا اشكو من جوع ولا عطش ولا تعذيب، صرت أعمل أعمالا خفيفة ولي غرفة خاصة، وزوجات الضباط يساعدنني باطعمة حديثة لم اسمع بها من قبل ولم اتذوقها وبملابس، وأحيانا يتعدى الأمر ذلك كثيرا، ويوقعنني بما لا يخطر لي ببال، وحريتي هي بقراراتهم، ولا بد أن ابقى داخل سور المعسكر، لا هوية معي ولا اي ورقة، سوى بطاقة سجني المثبتة على الملابس ورقمي، أسوار المعسكر عالية، ومكهربة وملغمة، ولا منفذ لي إلا من مدخليه، ملابسي مميزة، وحين حاولت الاقتراب من البوابة مرة، هددوني بالقتل بالرصاص لو اقتربت ثانية من هناك، لا تنقصني الملابس، فلدي ملابس داخلية متنوعة كثيرة، تقدمها لي اثنتان أو ثلاثة من نساء العسكر الذين أخدم الساحات حول بيوتهم، وأعتقد أن أغلب تلك الملابس والأشياء الأخرى هي من بيوت الفلسطينيين ومخلفاتهم، ومن متاجرهم التي كانت عامرة مكتظة بالبضائع، أنظف ساحات المعسكر وحدائقه من أوراق الأشجار والأعشاب الضارة، وملابس العمل هنا هي ملابس سجين مميزة، وحين تريد ريتشي أن أتعامل معها، تبعدني عن أعين المراقبين، وتلبسني قميصا وسروالا نظيفا، وكانت تأخذهما معها ثانية حين تغادرني، وبعد مدة صارت تثق بي كي تبقي الملابس المدنية عندي، لأنني وعدتها بعدم استعمالها في غيابها، ثم صرت أتجرأ بلبسها بعد انتهاء ساعات العمل، وبعد أن اغتسل في صومعتي الزنزانة، هل تعلمين اني كنت أحزن كلما نظرت لنفسي في المرآة الصغيرة بملابس نظيفة ووجه حليق ناعم يفور بالصحة؟ لماذا؟ لأنني لا أجد حبيبتي ديجا قربي كي أثير إعجابها، هل تسمعينني يا ديجة كما أسمعك؟ وهل تحادثينني كما احادثك، وهل سأتحرر من الأسر يا ديجا؟ هل سأعود كي ننعم بحياة ملؤها التفاهم والسعادة؟ ليتك تطلبين من الله أن يرأف بي، ويلطف بحالنا! !.**

**فصــــــــــــل 13**

**ينتزعني من أحلامي ذاك العسكري الصهيوني اللئيم، يحرسني في ذلك اليوم، ويراقب عملي السخرة في ساحة بعيدة عن البيوت المأهولة في المعسكر، يعبث بسلاحه، ينظر للخلف وحوله، يراقب يدي وعيني وأشك أنه خائف منّي، يضع اصبعه على الزناد، يخاطبني بقليل من العربية الثقيلة جدا، وبلكنة غريبة**

**- هل تفكر بخطة تخريبية ايها العربي الجبان؟ إنشغل بعملك وأنجز ما كلفت به لهذا اليوم، حتى أعيدك إلى سجنك بعد ذلك، إن هذا هو اقل ما تستحقون ياحيوانات، السخرة والعمل الشاق والسجن والحرمان والاحتقار هو ما يلزمكم ايها الفلسطينيون الحقراء، أنتم جوييم، أصررتم على رفض وجودنا في أرض أجدادنا، وهاأنت وأمثالك تذوقون الذل الذي يليق بكم، لقد نصرنا الله عليكم بعددنا القليل على كثرتكم اضعاف أضعاف أعدادنا، إنها بلادنا ونحن الذين نستحقها، سلمها الله لنا دون حرب ولا قتال يذكر، مجموعات بسيطة منا غلبت كثرتكم، فهربتم كالغزلان والفيران مع مشايخكم تاركين بيوتكم وحيواناتكم ومصانعكم ومتاجركم وحتى مساجدكم ومقدساتكم، بقي لنا كل مزارعكم وكل شيء ثمين عندكم، خوفناكم قليلاً وأذقنا بعضكم سوء العذاب، فهربتم للنجاة بحياتكم، كل ما على هذه الأرض عاد لنا لآننا نستحقها، وبسرعة ودون خسائر تذكر من جانبنا، ألا تعلم اننا شعب الله المختار؟ أنجز عملك ايها العربي النذل، اسرع بإنجاز ما طلب منك حتى أرتاح من رؤية وجهك الأغبر، وإلا جعلتك معوقاً مدى حياتك حتى يزداد عذابك، هيا أسرع باقتلاع الأشواك وتنظيف ساحاتنا واحواض الزراعة من الحجارة، واقتلع الأعشاب من أحواض الزهور في بلادنا الجميلة هذا اليوم، أنجز كل ما هو مطلوب منك لأستريح منك حين اعيدك لسجنك، وآخذ حريتي بعيدا عن وجهك القبيح، سأحاول أن استمتع بأمسية جميلة على هواي بعد أن أعيدك لزنزانتك.**

**لم يدر عفان بماذا يجيب ذاك العسكري الحاقد، يحفظ الصهيوني كلماته عن ظهر قلب، وكأنه درسها وكررها مئات المرات، يحفظ جمل التحقير للعربي عن ظهر قلب وبسلاسة دون تفكير. مما يدل على نجاح الملقنين له ولأمثاله من الشباب، وكأنه يقرأ قصيدة حفظها او هو الذي ألفها، لكن عفان أجابه بصوت خفيض**

**- وماذا يفيد هذا الكلام، انت لك عملك، وانا لي عملي، ولا أرى أي صدام بيننا هاهنا.**

**- وكيف تريدني أن اعبر عن كرهي لأمثالك من العرب؟ لقد قتل نذل منكم أخي الأكبر عام 48، بطريقة غادرة.**

**- لم يحدث حرب عام 48، ولا معارك حامية او متواصلة بين العرب واليهود، لم يفكر العرب بغدر أحد، إنكم أنتم الذين فاجأتمونا باعتداءاتكم، لم يصدق الفلسطينيون أن اليهود كانوا قادرين على تخويف الفلسطينيين أو طردهم، كان كل الفلسطينيين مستهترين باليهود الصهاينة، لكن تبين أنكم مدربون ومدعومون من جيش بريطانيا، فنكلوا بالكثيرين من شعبنا الفلسطيني، وصاروا يعذبون الأطفال والشيوخ والنساء، حتى يخاف الناس ويهجروا بيوتهم خوفا من اسلحتكم الكثيرة والحديثة.**

**- سأتوقف عن الرد عليك، مادمت تعرف تأثير أسلحتنا وقدرتنا على تحقيق ما نريد، أغرب عن وجهي قبح الله وجهك ايها العربي الجوييم.**

**على الرغم من تآمر بريطانيا ودول أخرى على شعبنا الفلسطيني، إلا أن أهلنا ظلوا واثقين من أنفسهم في البداية، غير عابئين بتهديد او وعيد، يعرفون أن اليهود قلة في فلسطين، ولن يخطر ببال أحد أن الغرباء سيكنوا قادرين على ابتلاع المدن والقرى على المدى الطويل، مع أن عدد اليهود في فلسطين لم يكن كافيا ليملأ مدينة صغيرة واحدة، فكيف سيحكمون كل مدن فلسطين واراضيها الواسعة؟**

**أخذ الفلسطينيون الأمر بالاستهتار، فلم يتوحدوا، ولم يستعدوا ولم ينظموا أنفسهم للقتال، يعرفون ان الحق معهم، وانهم اصحاب الأرض والبلاد، لكن أكثر ما كان يثبط همم الفلسطينيين، هو استحالة الحصول على السلاح، كل الشباب يعرضون انفسهم ويتقدمون متطوعين ومجاهدين، لكنهم يرتدوا مخذولين حين لا يجدون من يسلحهم، وإذا تمكن احدهم من توفير مائة جنيه فلسطيني، لشراء بندقية فلا يجد من يبيعها له، أو تكون بندقية قديمة فاسدة، لا تصلح لمعارك ولا حتى لصيد حمامة، في حين أن الأطفال اليهود كانوا يعومون في أكوام وصناديق من السلاح الحديث والرصاص يملأ بيوتهم وخنادقهم وجيوبهم وسياراتهم، تبا لها من فترة عصيبة، تآمر الزمن والغرب والعرب على الفلسطيني، فخذلوه وحطموا كبرياءه، يالها من مهزلة، ان ينجح مائة الف صهيوني بهزيمة مليون فلسطيني، وطردهم من بيوتهم، إنها سخرية التاريخ، اعرف كثيرا من شباب بلدتنا وغير بلدتنا كانوا يذهبون لمعارك باب الوالد بدون بنادق على أمل ان يتمكن أحدهم من سلب سلاح يهودي، وسبق وعاد أكثر من أعزل مسلحا بسلاح اليهود القتلى.**

**كل القرارات الدولية كانت ضد من يلجأ للعدوان، وثق الناس بالهيئات الدولية وقراراتها، وبحتمية تطبيقها، وحين صار ما صار، وأجبر الناس على هجر بيوتهم، ادرك الناس انها قرارات ووعود خادعة، قال البعض إن هي إلا أسابيع أو شهور، حتى يعود الناس لبيوتهم وأملاكهم، ويقبل الصهاينة بما خصص لهم من فلسطين، حسب قرار التقسيم الذي اقرته الأمم المتحدة عام 1947، لكن استقواء الصهاينة بتحصينات الجيش البريطاني وبدعمها المادي والمعنوي، وبمعسكرات الانتداب البريطاني وأسلحته التي تركها لهم، سرعان ما رجحت كفة الصهاينة على كثرة شعبنا الأعزل. يسخر العسكري الصهيوني من عفان، ينظر له نظرة شزر، ثم يبدأ بصفير موسيقي ويمشي مبتعدا محتقرا لذلك العربي الأسير.**

**فتح أهل قريتنا صدورهم للمهجرين، فآخوا بين المهاجرين والأنصار، كغيرهم من القرى، فمن كان عنده بيتان قدم واحدا منهما لعائلة مهجرة ، ومعظم الناس قاسموهم مخزونهم من الحبوب واللبن المجفف والزيت والزيتون، وبعضهم دعاهم لمشاركتهم في قطف ثمار حقولهم من التين والزيتون، ليأخذوا حاجتهم طول الموسم، وكان كثير من بيوت البلدة وسط القرية قديمة مهجورة، بعضها مبني من الطين والحجارة الصغيرة والخشب، وأخرى بيوت عقد كبيرة قديمة، بيت والدي كان من حجارة كبيرة ، حسنة التربيع وممشوطة، فيه تزوج والدتي وفيه ولدت، وفيه غسل والدي وكفن، وفيه ماتت والدتي، وفيه عشت طفولتي البائسة برعاية خالي جسار الكفيف، كنت أنا وخالي نهتم كلانا بشقيقي دعيس في طفولته بعد وفاة والدتي، في بيتنا تزوجت أنا وديجا، وفيه استمتعنا بطعم الحياة الجديدة، وبالحب والتعاون ومساعدة خالي الكفيف واخي، يواصل سلوم (عفان) حديثه لنفسه.**

**تصادم رجلان من المهجرين الفلسطينيين المقيمين في قريتنا، لأن أبن أحدهما المراهق ابتسم لابنة الثاني، والتي تقاربه في السن، قال والد الفتاة لوالد الفتى اللاجئ**

**- لا شك أن الهجرة أفادت الكثيرين وأنتم منهم، فجرى الدم والصحة في أجسادكم وأجساد أولادكم بسبب الحليب المجاني والمارجرين والسكر والملابس الدافئة، وأشياء أخرى كثيرة توزعها (الأونروا) على المهجرين. فصار لديه طاقة على معاكسة بنات الناس، فبدلا من مضايقة البنات، علم إبنك الأدب والاحترام، ولينشغل بمهنة تنفعه وتساعده على تأسيس اسرة مستقبلا، فأجابه والد الصبي المراهق**

**- خسئت يا كثير الكلام، فأنت مهجر مثلنا، أقسم أنني كنت آكل في بلدتي بفلسطين بيضة صباح كل يوم، واسأل أهل بلدي أننا كنا مستورين، ونذبج دجاجة أو ديكا كل شهر، ونذبح خروفا سمينا على عيد الأضحى كل سنة، وتصنع زوجتي الكثير من الزلابية والمطبق على عيد الفطر، توزعه على الجيران والمحتاجين، فهل توزع وكالة الغوث بيضا على اللاجئين؟، كنا مستورين والحمد لله، وسنبقى كذلك، وابني مهذب وأمين.**

**تدخل الجيران بينهما واصلحوهما، لكن أحد الحاضرين الشباب من أهل القرية رفع صوته قائلا، يا جماعة زوجوا البنت للشاب الذي يحبها وتنحل المشكلة، فاعترض والد البنت قائلا، فشر، اعوذ بالله، لانزوج بناتنا لأناس لا اصل لهم ولا فصل، فرد عليه والد الفتى، وحضرتك من أي اصل انت؟ ابنتك تسرح كل يوم بحثا عن الخبيزة والسلق والسبانخ خارج القرية وفي الحقول البعيدة، فكيف تضمن شرفها؟ فعمل مشايخ القرية على إبعادهما عن بعضهما، وأقنعوا كل واحد منهما مغادرة المكان.**

**في قريتنا لم يخطر ببالي أن أكلم بنتاً في طفولتي، والعادة ان لا يجرؤ أحد على ذلك، إلا كلاما عاديا أمام الناس، وليس في خلوة او استغلالا لموقف بعيد عن الأعين، فيتيم مثلي همه أن يسلم من أذى الأشرار، فظلت تلك طباعي، وحتى في سني مراهقتي لم أخالف طبيعتي، فكنت ابتعد دائما عن اختلاق المشاكل، كنت أعجب بكل امرأة ألمحها، وخاصة إذا كانت جميلة متوسطة الطول أو قصيرة ممتلئة قليلاً أو قوية الحركة، كنت أرى فيها والدتي التي كانت قصيرة قوية، تحضر لنا حاجتنا من الماء من عين النبع، حيث كانت تحمل جرة الفخار على رأسها ، وتساعد والدي في الحقل، وفي حلب البقرة والشاة وإطعام الجمل، أتصورها برغم صغر سني أيامها، إلا انها تظل ماثلة أمام عينيّ دائماً، ما اجمل الأم مهما كان طولها او عرضها او شكلها، لماذا لم تستطع والدتي العيش طويلاً بعد وفاة والدي؟ مع أنها كانت دون الثلاثين من العمر ، ووالدي كان يكبرها بسبعة أعوام ، اضطررت أن أتعلم العمل في أرضنا في سنّ مبكرة، كما كنت لا أتوانى عن مساعدة أقاربنا وجيراننا، حين يطلبون مني ذلك، استغلني الناس بسبب يتمي، واستغلوا خالي الكفيف مقابل طعام أو قطعة لحم لإجباري على العمل في أراضي الناس بأجر زهيد.**

**كثيرا ما تنتابني موجات من الأسى والذكريات التي مرت بي قبل الأسر، او يوم حتى تفاصيل كثيرة جرت يوم حصل اسري. تواصل خروج سوائل ملونة وروائح كريهة من مؤخرة سلوم في موقع الأسر، يبتعد الجنود عنه، فيجدها فرصة ليقرفص، وليتناول حجراً متوسطاً يمسح به فتحة شرجه، يتقدم الجندي البولندي، ويصوب بندقيته إلى رأسه ليقتله ويرتاح منه، لكن العريف الذي من أصل بريطاني يزجره، فيقول، البولندي**

**- لماذا يحضرون صوب حدودنا؟ فيجيبه الصهيوني الفلسطيني**

**- نريده حيا، يكفينا ما قتلنا من العرب، أعرف أنك بولندي، ذاق اهلك الويل على يد هتلر.**

**يحفظ سلوم الكثير من القران الكريم ، حفظها في كتّاب شيخه حامد الذي رعاه وساعده، فطن سلوم أن يقرأ بعض صغار السور في عقله لعلّ الله يرأف به، سمعوه يتمتم فظنوا انه يسب عليهم، فعاجله الروسي بضربة في ظهره بعقب بندقيته، صرخ عفان من شدة الألم، انقطعت انفاسه فكبا ثانية على الأرض. غابت الكلمات عن شفتيه.**

**تجفف الشمس جلد سلوم وحلقه ، والإسهال والسوائل المتبقية في جسده تزداد سيلانا من مؤخرته. خارت قواه ، وضعف بصره ، طلب السماح له أن يواصل إخراج مافيه، لكنه ما إن أراد جلوس القرفصاء للتبرز حتى كبا على وجهه مرة أخرى دون أن يتكلم او يشكو، مصدوما من الموقف الرهيب الذي وجد نفسه فيه، فسكبوا قليلاً من الماء على وجهه، ثم سقوه جرعات قليلة في قمع ورقي عملوه خصيصاً، وأمروه أن يشرب كمية الماء القليلة، جرعها وتنفس، فتح عينيه، نظر في وجه من ناوله الماء نظرة شكر، لم يعرف سلوم أن مشكلته الصحية هي في نقص السوائل من جسده ، ولو لم يقع في الأسر لربما عجز عن العودة للقرية، ولربما فقد حياته قبل أن يجده أهله بعد أن تبلغهم زوجته بعد الغروب عن غيابه، مرت دقائق وهو مقرفص فدفعه الجندي البولوني بمقدمة حذائه يطلب منه النهوض، تحسنت أنفاسه قليلا بعد جرعات الماء، استند على صخرة بجانبه ونهض واقفاً متثاقلاً، جذبه جندي آخر، فعجلوا بجره لسيارة الجيب العسكرية، أمروه أن يصعد للسيارة، فاستغرب الأمر وقال لهم : أين تريدون أن تأخذوني؟ ظل معتقدأ انه لم يفعل امرا يستحق سجنه عليه، بل اعتقد انهم سيكتفون بما عاقبوه به فوق أرضه، فتجيبه مجندة**

* **أركب، إركب، أنت أسير، ليس من حقك أن تتفوه بكلمة أو اي سؤال.لكن سنأخذك إلى الأطباء والمختصين لنكمل التحقيق معك بعد معرفة مشكلتك الصحية.**
* **لكن زوجتي فتاة صغيرة، وسوف تصاب بالجنون لتأخري، هلا عدتم بي للبلدة حتى أبلغها بما حدث، ومن ثم أرافقكم. لكن المجند ا لصهوني بصق على الأرض ساخرا ينهره قائلا**
* **ألم نقل لكم خرّاب، عربيم كذاب عربيم حرامي، عربيم مجرم، عربيم لازم موت، عربيم خراب خرا أراب.**

**فصل 14**

**في أمسية من ليالي أوائل فصل الخريف، عدت من منزل الأرملة الشقراء بعد أن أخرتني لأكثر من ساعتين عن موعد عودتي لغريفتي المألوف، قدمت لي افخر طعام يخطر على بال، وجالستني وجاذبتني حتى نسيت نفسي وهمومي، وعايشتها بكل ما يلزمها من حب والتصاق واحتراق، وجدتني بعدها وحيدا في زنزانتي، اسميها زنزانتي مع انها غرفة صغيرة بها لوازم الحياة، كالماء والمرحاض والكهرباء، زال الكثير من الخبل الذي تلبسني مع الطعم والشراب والاقتراب، فوجدت أنني أصبحت لغزا، او إن الحياة كلها لغز، بي حاجات كثيرة، والآخر له حاجات مختلفة او متشابهة، حاجات تتوافق، وأخرى تتعارض، نفوس تتجاذب، وأرواح تتنافر أو تنأى، مغناطيسية جاذبة برضاك او بالرغم منك، وبعض المشاعر كقطعة من معدن، تبرد بسرعة، وتسخن بسرعة، وتصدأ بسرعة، وحين تشتبك بالكهرباء تصبح مغناطيسا جاذبا وبقوة، وبعد انقطاع التيار تعود باردة جامدة لاحراك بها ولاحياة، لكنك في هدوء الليل وصفاء النفس ترى نفسك بلا قناع يا سلوم، وكأنك تنظر لأعماقك عبر زجاج نظيف شفاف، فترى عوالم الحزن والأسى غائرة في اعماقك، وتشوه صفاء بحرك الذي كنت تحسبه محيطا يتسع لهموم الدنيا وخيراتها، فتنكمش إلى داخلك كسلحفاة حين تحسّ بخطر او عدم أمان، تعودت على مرارات المعاناة والهموم، كلما انفردت في صومعتك السجن. على الرغم من ان الغير يحسب انني أرتاح وفي رضاء، لم أعد افرّق بين المتعة والألم، كلاهما يسبب لي وخزا وخبلاً، أجد نفسي مضطرا للانغماس فيهما ومسايرتهما، وكأن الألم والمتعة هما داء ودواء في الوقت نفسه، يتناغما ليجعلا الحياة بمفهوم غائم أو مقلوب، لا انسى انني سجين فاقد لحريتي، وكل ما أفعله او يفعل بي هو بتأثير من الآخر ولصالحه، لكنني في الوقت نفسه أحسّ أن بذرة إيماني قوية، وقادر على أن استعيد توازني يوما ما، أدرك أن لا مناص لي من الصبر والصدق، وكما قال طارق بن زياد، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا انكم هنا أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام.**

**ليلة الأمس حلمت وعلى غير عادتي، شاهدت والدتي تجلس على الأرض براحة وأمان، مادة ساقها، فظهر ربلة ساقها نظيفة لامعة، وأمامها كومة ضخمة من الأرز على أرض الغرفة، وبجانبها كومة أخرى من السكر، اقل حجما، وبلهفة أسأل والدتي، من أين لنا بهذه الكمية من الرز والسكر يا والدتي، فأجابت اجتمع مشايخ فلسطين في المسجد الأقصى، واتفقوا على مساعدة المحتاجين، عرفوا أن والدك متوفى، فقرر لنا كيسا كبيرا من الأرز، ونصف كيس من السكر، والدتي سعيدة أيضا بمحصول ذلك العام من الخير، وتجلس بجانب المحصول كأنها على البيدر، بعد حصاد القمح ودرسه وتذريته، والدتي مرتاحة تمد ساقها اليمنى على طولها على المصطبة، وتحرك الرز بيدها في سعادة، سألتها لكن هذا خير كثير ياوالدتي، وبسرعة أجابت، تعلم اننا نحن القرويون نساعد بعضنا واهلنا، وكل هذا ليس لنا، فلله فيه نصيب كبير، سررت من والدتي في حلمي، ودعوت الله لها، ثم انحنيت فقبلت رأسها وقبلت يدها التي مدتها لتطوق رقبتي بها، لكنني أطلقت ليدها الحرية، لتطوقني وتضمني، وتعطيني جرعة من حنانها ورضاها عني، حزنت حين صحوت، لفقدان أمي، لكنني قلت لنفسي، كانت ستتعذب كثيرا لو كانت على قيد الحياة، ولن تنام او تسعد لحظة بسبب غيابي، وعدم معرفتها بمصيري لدى عدو حاقد ولئيم، نهضتُ وتوضأتُ ثم صليتُ ودعوتُ لها بالرحمة.**

**استغل أقارب عفان يتمه هو وشقيقه، ثم وحاجاتهما وخالهما للغذاء والكساء والدواء، واشتروا من أملاكهما بموافقة خالهما الأعمى قطعة أرض مهمة لهما قريبة من القرية، بحجة الإنفاق عليهما لتربيتهما، وحين بلغ عفان الثانية عشرة من عمره، اشتري صندوق عجب، يعرض فيه صور جميلات أو ممثلات، مدعيا ان تلك الصورة هي لعبلة حبيبة عنتر، وكان ينشد ويغني ويلحن الكثير من الكلام، ليسوق نفسه والصور المخزنة داخل الصندوق، ومما كان يغنيه وينشده:**

**(يالله تفرج في أمان على عجايب من زمان**

**يالله تفرج يالله شوف على عنتر الملهوف)**

**وحين يصف صورة مكبرة لامرأة جميلة، وعادة ما تكون اقتطعت من إحدى المجلات، يجلس الأطفال او النساء خلف االمنظار المكبر، وهو يغني،**

**(هذي عبلة البدوية كحلتها نصف وقية)**

**فيحصل على دخل بسيط، وفي حدود ربع دولار في اليوم بعد عمل سبع إلى ثماني ساعات، يدور بصندوقه عبر شوارع القرية، او ينتقل لقرية قريبة، يعود مساء ذلك اليوم مرهقا، لأنه حمل صندوقه على ظهره الذي يزن عشر كيلوغراما على الأقل لمسافة خمسة كيلومترات ذهاباً، وخمسة اخرى في الإياب. وفي إحدى يديه يحمل المقعد المخصص لجلوس زبائنه، عمل على هذا النمط سنتين او ثلاثة، ثم زوجوا عفان بعدها، مقابل بيع قطعة أرض أخرى مهمة وكبيرة، في منطقة سهلية خصبة للزراعة لتغطية مهر العروس وتكاليف العرس.**

**في إحدى ليالي الخريف من العام الثاني لأسري، صحوت على صياح ديك في مكان بعيد، وجدتني أرفع رأسي، أفتح عيني، وأجلس على الفراش، تذكرت صياح ديكنا المزركش بمعظم الألوان، حتى إن ريشه كان يشكل لوحة فنية تريح النظر، وتحفزك للتأمل في جماليات الخالق، كيف أعطانا الله تلك الحيوانات والطيور بأشكال وألوان وأصناف يصعب حصرها، لكن ديكنا لم تكن الألوان وحدها هي ما يميزه، بل كان ديكا فحلاً، يحرص على دجاجاته أكثر بكثير مما نحرص نحن على أسرنا، يراقبها ويتبختر امامها وخلفها، وحين يلحظ أن إحداهن بحاجة ماسة له، يقفز ملبيا حاجتها بخفة وسرعة ورشاقة، ينزل بعدها مرفرفا بريشه المفرود والمنفوش مختالا بذكوريته، ديكنا كان يخلب لبي، ويحفزني على النشاط والفحولة، ويجلب الفرح لنفسي، لكم جلست طويلاً وأنا أتأمله، وأعجب بحركاته وشجاعته، أما دجاجاتنا العشرين وهن مصدر طبق البيض اليومي في بيتنا، نأكل ثلاثاً إلى اربع بيضات يومياً، ونبيع ثمانية إلى عشر بيضات كل يوم، ساحة منزلنا واسعة وللدجاجات زريبة جانبية في طرف الحوش، وكثير من بيوت القرية كانت صغيرة ضيقة، لا يمكن أنسى منزلي الواسع مهما غبت عنه، فهل سينسى اللاجئون الفلسطينين بيوتهم التي اكرهوا على تركها يا ترى؟، مثل تلك الذكريات ما زالت تساعدني على تأمل الجمال وتذوقه، وربما يسوق هذا الإحساس إلى التفنن في ترتيب امور حياتنا، لكنني وبصراحة استفدت كثيرا في مدة سجني وبعد تعلق ريتشي الإسرائيلية بي، إذ أتيح لي قراءة الكثير من الكتب التي غنمها الصهاينة من بيوت أغنياء الفلسطينيين، وكلها مكتوبة باللغة العربية، ومعظم الصهاينة لا يحبون قراءة العربية، فكنت كلما شاهدت كتابا عربيا على رف في أي بيت أدخله او أخدمه، استأذن باستعارته، او تحضر لي ريتشي بعض الكتب التي تستطيع الحصول عليها.**

**حثنا خالي وبعض اقاربنا على متابعة تربية الدجاج الذي تركته والدتي في بيتنا، وحرصت على إبقاء عددها كثيرا كما تركته والدتي، وجدتها لعبة وملهاة لي في طفولتي، أهتم بها لأن والدتي كانت تهتم بدجاجاتها، نبيع البيض بأسعار زهيدة جدا، او نقايض به من الدكان الوحيد في القرية بمواد غذائية او الصابون للتنظيف أو الحلوى والملح والسكر والشاي. صورة دجاجاتي وديكهن تعشش في ذهني هذه الأيام، وتزيد من إحساسي بالفقد وأنا في الأسر، لكن ديجا زوجتي هي الأكثر حضوراً في مخيلتي، أراها أمامي في كل الأوقات، حتى وأنا في جلسات خاصة مع ريتشي، اتصور أنني مع ديجا، وكلما علمتني ريتشي فنا أو حركة جديدة، تعجلت روحي في طلب الحرية، كي أسعد زوجتي الحبيبة ديجة، فيتقد في نفسي شعور قوي بحب الحياة انتظارا للحرية، وهذا يعطيني الكثير من الأمل، متفائلا بأنني سأتحرر يوما ما من هذا الأسر اللعين، دون أن أعتدي على أحد، إذ كنت في أرض أبي، ولم يكن لدي سلاح، وسأكرر هذه الجملة كلما خطرت ببالي او مهما طالت الأيام، ومهما سئلت في محاكمة او لأصدقاء ومعارف او في أي اجتماع، وحتى حين أستغيث بربي أطلب العون، سأشير لهذه الحقيقة، وأذكر ذلك لربي وللملائكة التي تحاسبني، وأدعو الله أن يلهمني الصبر على ظلم الصهاينة لي ولشعبي، فلماذا إذن يتم أسري؟ أهي القوة والغرور؟ أو الإصرار على مواصلة الإرهاب والتخويف لكل فلسطيني؟، لأنهم الأقوى؟ لا يرون امامهم من يعيق تقدمهم او نصرهم او تمردهم على قرارات الأمم المتحدة، والتي لم تعطهم أملاك قريتنا ولا حتى املاك القرى التي تقع غربنا، أدرك أن الشكوى والتذمر لا يفيدان، (إذا كان القاضي غريمك فلمن تشتكي؟؟)**

**صياح ذاك الديك الذي أثار لواعجي أكثر من مرة، يذكرني بخالي حين كان يناديني أن أصحو لصلاة الفجر، بعد صياح ديكنا، كنت أصحو فعلاً، ولكنني في معظم الأوقات أحرك زوجتي متعمدا، حتى تفيق، فتقترب مني ونلتصق، وغالباً ما ننشط وقتها فنمارس حقوقنا الطبيعية أولاً، وبعدها نتذكر أن علينا أن نستحم قبل أن نقوم بأي صلاة، فنتكاسل ونغفو ثانية لساعة أو ساعتين، يتعب خالي وهو ينادي علي، فييأس ويتعب ويغفو ثانية، نصحو مع طلوع الشمس كل يوم، أقود حماري وأخدم الناس، كنقل الحطب أو لحمل القمح لطحنه في مطحنة الخليلي، على طرف قريتنا من الجهة الغربية، وديجة تعلمت حلب غنماتنا والبقرة، تنظف البيت البسيط بعد ذلك، ثم تذهب لزيارة والدتها وتقضي ساعتين او ثلاثا هناك، وكنت أسمح لها أن تلعب مع بنات الجيران قرب بيتنا، أو تعمل على تجميل نفسها ريثما أعود من عملي، شوارع القرية متربة وغير معبدة، وليس فيها أي نوع من الترفيه والملهيات، الناس أحرار في أوقاتهم يقضونها حسب ظروفهم، لا مشاريع ولا مصانع، وبعد نكبة عام 1948 لم يبق للبلدة اراض زراعية كافية، بل منعنا الصهاينة من فلح اراضينا السهلية الخصبة، فصار الناس عاطلون عن العمل معظم ايام السنة، ودولتنا الأردنية فقيرة تعتمد على معونات بريطانيا واوربا، وصارت أوقات الفراغ في القرية مملة وطويلة، مما جعل معظم الناس يلوبون ويفكرون بطرق وأساليب للحصول على دخول ولو بسيطة للانفاق على قوت العائلة الضروري.**

**فصل 15**

**تنادي ديجة على دجاجاتها ليسرعن في الحضور والتجمع لالتقاط ما ستطرحه من علف لهن، وصدف أن كان عفان داخلاً للبيت لحظتها عائدا من الحقل، كان الديك كعادته متسربلا بجمال ريشه وكبريائه، فاعلاً ما يحلو له، يعلو ظهر دجاجة، وينتقل إلى أخرى، تنهره ديجا، فلا يهتم بها، فتنظر لزوجها عفان، يتأملان بعضهمان ثم ينفجران في ضحك عال، تقترب منه وتميل عليه، وأصابعها تعبث بالعلف الذي تلقيه لدجاجاتها، يقول لها اهتمي بدجاجاتك، وأنا سأرتاح قليلا، ثم أستعد للصلاة فطعام العشاء، اصرت أن يبقى واقفا معها حتى تأكل الدجاجات ما ألقته لهن، الدجاجات يلتقطن الحب والديك يلتقط حبتين أو ثلاثاً، ثم يتوقف ليراقب دجاجاته ليتأكد من وجودهن كلهن، وأن عندهن الأكل الكافي ربما، فتقول ديجة الفلاحة البسيطة لعفان، ماشاء الله أنا عندي ديكان، يجذب عفان زوجته، ويبتعدان عن العلف منسحبين صوب البيت العتيق قليل الإنارة، صاح عفان مقلدا الديك، تمسك يده بحلقة الباب، وهو يدفع زوجته أمامه، ثم يقفل الباب خلفهما، ثم يكمل كلامه لها داخل البيت قليل النور، لكنه ،**

**قائلا لزوجته، إن كنت تقبلين أن تكوني دجاجة فسأقبل أن أكون ديكاً، فماذا تقولين؟ قهقهت خديجة ضاحكة وهي تحاول أن تعيد تغطية ماكشفه سلوم من جسدها.**

**عفان كان أكمل ختم القرأن عند شيخه حامد قبل زواجه، وكان أهل القرية يحتفلون بكل شخص يختم القرآن ، ويستطيع أن يقرأ أي سورة طويلة دون أغلاط، يتقدم صفاً من الطلاب وهو يحمل ورقة كبيرة ملصقة على خشبة أو كرتون، وعليها رسومات إسلامية وتعابير تاريخية وكتابات دينية وتعليمية وحكم، يطوفون معظم شوارع القرية لإشهار الحدث، تتبرع معظم النسوة له وللشيخ بالبيض أو بالجبن أو بما تيسر أو دريهمات ولو يسيرة.**

**يتذكر عفان ماحدث قبل خمس سنوات او ست، حين حضر خاله كعادته عند الشيخ حامد**

**وبصحبته رجل كبير في السن من أقاربهما، يسأل عن الولدين عفان ودعيس، فقال استاذهما الشيخ حامد**

**- إن كليهما يعرفان القراءة والكتابة ويحفظان الكثير من كتاب الله، فتدخل خالهما جسّار مكملا.**

* **عفان خلوق طيب ملتزم، لكنه مسالم لدرجة الضعف، وبهذا ينطبق اسمه سلوم على شخصيته، لكن سرعة حفظه أقل من شقيقه دعيس، أما الأخ الأصغر فهو شديد الذكاء، جريء في كل شيء وأسرع في الحفظ من أخيه، وبرغم قصر المدة التي تابع شيخنا حامد بها، فقد تعلم القراءة والكتابة بسرعة عجيبة، لكنه عابث بإصرار وبرغبة وقناعة. فأجاب قريبهما العجوز**
* **أريد أن أختبر ابن عمنا الأصغر دعيس إن سمح الشيخ لنا بذلك، لم يعترض الشيخ، بل دعا تلميذه دعيس للمثول بين يديه، ونبهه الشيخ حامد بضرورة الوقوف بأدب واحترام، ثم ورد التحية على خاله ثم وابن عم أبيه.**
* **اطلب منه أن يقرأ لنا شيئاً مما يعرف يا شيخنا ، قال الضيف الأمي. فقال الشيخ حامد لدعيس**
* **أقرأ هذه الصفحة من مجلة (الكشاف الفلسطيني The Palestinian Boyscout أمام خالك وعمك. فقرأ الصفحة التي تبين نشاطات الكشافة الفلسطيني الشباب في مدينة القدس، وجاء في الخبر أن للكشافة الفلسطيني مراكز في القدس ويافا ومدن أخرى في فلسطين، فيها يدعو محرر الصفحة الشباب الفلسطينيين إلى الانتظام في سلك الكشافة لخدمة الوطن، لتعلم النظام والوفاء والإخاء، وللاستعداد لمرحلة الاستقلال والحرية بعد انتهاء فترة الانتداب البريطاني عن فلسطين عام 1948.**
* **أحسنت يا بني عد إلى مكانك قال الشيخ حامد، لكن قريب دعيس استمهله قائلاً**
* **بارك الله فيك يا دعيس، ألا تكملها بالأخلاق العالية، وتقتفي أثر الطيبين من أهلك، حتى يرضى عنك ربك ومعلمك الشيخ حامد وناسك؟ يخاطب دعيس استاذه**
* **هل سمح لي شيخي أن أعود للجلوس مكاني، وكان عمردعيس ثماني سنواتً.**

**ضحك خاله وأدار وجهه كي يخفي الضحكة، ثم طأطأ رأسه كي يتمكن من الاستماع لتعليق الشيخ المعلم، وسط دمدمة الدارسين الثلاثين، وكل منهم يقرأ أو يكتب أو يستمع لطالب آخر ليتعلم منه.**

**هبت نسيمات هواء ناعمة، حركت أوراق شجرة التوت، شجرة مزروعة في باح المسجد، قبل سبعين إلى ثمانين عاما، رقصت أغصانها واهتزت مع الريح الخفيفة اللطيفة، سقط باب نافذة غرفة التدريس الكبيرة قبل أربع سنوات، ولم يجد عزماً من متطوع بإعادة إصلاحه وتركيبه، ليس إهمالا في بيت الله، إنها غرفة واسعة ملحقة بالمسجد للضيوف الغرباء، الذين لايعرفون أحدا من سكان القرية، لكن لا تصلح للمبيت ولا للسهر بها شتاء بسبب اتساعها حتى لو أقفلت بابها والنافذة، ولن تحسّ بدفء بها حتى لو وصلت النار سقفها، إلا إذا كنت أنت الذي يغذي النار بالحطب، أو يحرك أباريق الشاي والقهوة داخل النار أو على أطرافها، وفي الصيف كل الناس تتمنى أنسام الهواء، لهذا يحضر كثيرون للنوم بهذه الغرفة التي تشبه صالة متوسطة المساحة نهارا، طلبا للجواللطيف فيها لأنها في الطابق الثاني، بابها كبير ونوافذها واسعة، ما زالت أوراق شجرة التوت يانعة الخضرة تتراقص، برغم أن فصل الخريف قد دخل قبل أيام قليلة.**

**يهدئ الشيخ ضيفيه ويعتذر بأنه سيتابع تدريس تلاميذه، قبل حلول صلاة العصر، كي يغادر كل إلى بيته. يتنحنح جسار الكفيف قائلا للشيخ حامد**

**- نعم عليّ أن أستعد للصلاة، وسأعود لك بعد خروج تلاميذك إلى بيوتهم، لنتحدث في أمر الأولاد.**

**تتحرك خديجة مسرعة تكمل ارتداء ملابسها، وتنهض بهمة لمتابعة بيتها ودجاجاتها. لكن عفان ظل مستلقيا على فرشته البسيطة في بيتهم الكبير، يقول لنفسه، أحمد الله أنني اجتزت كل مصاعب الحياة الماضية، وأصبحت رجلا، لكن ليتني لم أكره بالقوة على دخول المغار، أكره تذكر تلك اللحظات وأتهرب منها، لكن شقيقي الشقي دعيس هو الذي يبحث عن الكهوف، ويبحث عمن يعنيهم الأمر، صرح شقيقه مرة قائلاً "أتمنى لو أنني خلقت بنتاً، أو لو تحولت لامرأة"**

**- اسكت قطع الله لسانك، لا تكمل صراحتك، وانظر للشباب الصالح، ولذوي القوة والفضيلة.**

**- الحياة فاسدة، وما مر بنا كعائلة لامعين لها تقلل من إحساسي بضرورة الرجولة.**

**- قبحك الله من ولد فاسد، قال له أخوه، ثم أكمل أهكذا أراد والدك لك؟ أو أمك؟ تصور لو كان أي منهما على قيد الحياة!**

**- لو أراد والدي والحظ حياة نظيفة لنا لما تركنا لتنهشنا الذئاب.**

**- وهل مات والدنا برغبته وهل فعلتها والدتك كذلك؟**

**- أحب أن أساعد المحتاجين، وأتعاطف مع أي رغبة**

**- إياك أن تعود لمصاحبة الفاسدين، وإلا حرضت أهلنا عليك لتمزيق جلد قدميك وإليتك من كثرة الضرب والجلد.**

**- أنت أخي وأكبر مني، إنني أحبك وأحترمك، وأتمنى لك كل خير، وأرى أن تهتم بنفسك وبزوجتك.**

**- وسنزوجك أنت الآخر بعد ثلاثة أعوام أو أربع، أو عندما تبلغ الثامنة عشرة، فلتحسن سيرتك.**

**- أطمئنك ان هذا امر مستبعد في المدى القريب.**

**قبل أن يعود دعيس لمكان جلوسه بين الطلاب، يوقفه ابن عمومته العجوز الجالس بحذاء جسّار الكفيف ليقول له**

* **أعجبتني قراءتك يا دعيس، فواظب على اجتهادك وسلوكك الحسن، وأعدك أن أزوجك إحدى ابنتي، وسأترك لك حرية اختيار أي منهما تريد، ولأن والدك ابن عمي فسأتكفل بتجهيزك وتجهيز عروسك حين تصل سن الرجولة، والنضج الصحيح في بلدتنا هو سن الثمانيةعشر عاماً على الأقل، وليس أمامك إلا سنوات قليلة، فاعمل بجد وتدرب على الفلاحة فيما تبقى لكم من أرض، أو تعمل بالأجر عند الآخرين، حتى تكون قادراً ومهيئاً للقيام بواجب الأسرة.**

**فكر دعيس قليلاً ثم أجاب**

**- لا يلزمني زواج يا عمّ ، وشكراً لك على نخوتك ، ومن حسن حظ ابنتيك أن لا يكون مثلي زوجاً لأي منهما.**

**في الغرفة الواسعة الملحقة بمسجد القرية، تهب نسمة هواء عليل من الجهة الشمالية، تنعش الشيخ حامد، يطفئ سيجارته ويلقي بها بعيداً خارج الغرفة، ثم يستاف نفساً عميقاً قائلاً**

* **أحب أن أملأ صدري بهواء نقي عفيّ، وليس عبر دخان السيجارة. يتنحنح جسار ثم يمد يده لكتف ابن عمه، ويقول له، دعنا نغادر المكان حتى لانشغل الشيخ حامد عن تعليم ابنائنا.**

**فصــــل 16**

**تواصل تحقيق الصهاينة معي والتعذيب الشديد خلال الأسبوعين الأولين من أسري، كانوا يحققون اربع مرات أو خمسة كل يوم، مع مختلف انواع التعذيب الجسدي والنفسي، لعلي أعترف لهم عن نيتي مهاجمتهم، او الإضرار بأي شيء داخل حدود دولة إسرائيل الجديدة، يقترب مجند يهودي عراقي مني، يسألني إن كنت أريد أن أعترف بشيء عدائي لهم، أجفلت فزعا وحذراً، لكنني وجدتني مسنوداً على جدار خشن، ولا قوة بي على الحراك، فتهيأت نفسياً للكمة قوية منه، لكنه نصحني ثم هددني بلهجة عراقية بأن أعترف حتى لا يتواصل تعذيبي، وأخبرني أنهم لا ينوون قتلي.**

**ولكثرة متاعبي الصحية وآلامي، أدخلوا علي في الغرفة الواسعة الباردة، طبيبا فحصني، وسألني عن شكواي، ثم غادرني دون أن يجاملني، تحضر بعده ممرضة وتقدم لي دواء، قالت لي (إنت نوم نوم)، لكن فراش أرضية الغرفة كان خفيفا جداً وغير مريح، حاولت البقاء صامتا مستسلما ولا أريد أن أتفوه بكلمة واحدة.**

**في اليوم الأول بقيت جثة شبه هامدة تارة، وأحاول أن أتقلب من شدة الآلام في بطني ورأسي وركبتي، وظهري وجانبي وخاصرتيّ وكتفيّ، مقيدا وملقى على ارض صلبة، بين الحياة والموت، لم أستطع النوم من شدة الألم في جميع أنحاء جسمي، أحاول أن أتأمل مكاني وحالتي وما حولي، لكنني اغيب عن الوعي ثانية، في اليوم الثاني وعند بدء التعذيب والتحقيق الجدي المنظم، لم أثب إلى وعيي العادي بعد، وطنين أذني متواصل من كثرة اللطمات على وجهي، وآلام بطني وظهري متواصلة، في اليوم الرابع وجدت نفسي في غرفة مظلمة منعزلة، بلا فراش ولا ماء، قلت للممرضة دون أن أنظر لوجهها**

* **أريد كأساً من الشاي الحلو، ما دمت تفهمين العربية، وأريد طعاماً سائلاً.**
* **أنت نو ضيف، أنت سجين، ممكن تشرب ماء فقط، احمد ربك إذا تحصل على ا لماء، ثم ها نحن نعطيك دواء حسب أمر الطبيب كي تتحسن. حاولت الجلوس والاعتدال، لكنني صرخت من الآلام التي في ظهري واضلاعي ومفاصل ذراعي وكتفيّ، فابتعدت عني جافلة خائفة، وحين هدأت طلبت مني أن لا أتحرك قدر الإمكان، وذكرتني بأن قدميّ مقيدتان، ثم قالت إن الموت قرب رأسك.**

**في اليوم الخامس وافق الطبيب والمحقق الرئيس على تقديم طعام دافئ لي بعد الدواء، قدموا لي حساء خضار ليس بها خضار، وأكرهت على تناول جرعات ثانية من الدواء، ربما للتأكد من انتهاء فترة الإسهال وشربة ملح الإنجليز، قضيت ليلة اخرى ملقى على الأرض بغطاء خفيف لكن بوسادة قش هابطة ليس بها الكثير من القش المطحون، وبعد أسبوع بدأت أتحسن، دأبوا على تقديم وجبتين يومياً لي، لكن بقيت تحت التعذيب والتحقيق دون كلل، وأنا لا أعلم موقعي، ولا في أي مدينة أو قرية من وطني فلسطين أنا، وحين جرؤت وسألت ثالث محقق يستجوبني، عن موقع السجن أهو قرب اللد او قرب يافا؟، ثار غضباً وحقداً وبادرني بلكمة أطاحت بي عن الكرسي الذي يثبت قدمي بقائمتيه الإماميتين، وقعت على الأرض أنا والكرسي، ثم ضربني بعصا مطاطية معه على كتفي، تهدلت يدي وتخدرت ثانية، صعقة كهربية أصابتها من ضربة العصا، صرخت، صرخت صرخة قوية لجلجت المكان، ووضعت يدي الأخرى مكان الضربة، حاولت الهدوء بعد أن تذكرت أنني أسير بين مخلوقات موتورة وحاقدة، يدي ترتخي وتتدلى ولا سيطرة لي عليها، مشلولة ولا تتأثر بأوامر الدماغ، طلب مني الاعتدال، لكنني عجزت عن ذلك، فدفع الكرسي بعضلات قوية وانا متشبث به حتى اعتدل الكرسي، لم أقو على تحريك يدي المعطوبة طول تلك الليلة، وظلت بقايا الآلام بها لما يقارب عشرة أيام بعد ذلك، أجابني المحقق الضخم**

**- أنت في أراضي دولة إسرائيل يا سالوم ولست في فلسطين، فلسطين مات، كنعان مات، مات ولن يقوم ثانية، فلسطين ماتت إلى غير رجعة، تناهش ماتبقى من أشلائها جيرانكم العرب سوريا لبنان مصر اردن، ضموها لمتونهم وانمحت.**

**قلت لريتشي التي ابتلتني ببدء استعمارها لي بعد شهورأربعة من وقوعي في الأسر**

* **قلت للمحقق الضخم"الله أكبر" لماذا تقول فلسطين مات، أنت حر!. . قل ما تريد يا خواجة، كنعان موجود وبعض أملاكه انتزعت، كنعان كثير العيال ويحب الأطفال، إننا نسمى غير العربي خواجة، وهي كلمة تركية ربما، إنها ليست مسبة ولا لعنة، فأجابتني ريتشي الصهونية ساخرة تقول**
* **يظن الفلسطينيون وبعض من دفعهم على عداء يهود أن كثرتهم ستنفعهم، قلت لك أكثر من مرة أنا تحولت إلى إنسان علماني، الأديان مصيبة العالم، اختلاف الأديان وتصادمها، تخلق الحروب والخلافات والمتطفلين، والصاعدين للمناصب باسم الدين، انا كنت من حزب الخضر، والآن اجمع فكري مستقلا، بين حزب الخضر واليساري والعلماني، سأشرح لك بعدين، بعدين، عن هذا، انت ريفي فلسطيني مثل معظم الفلسطينيين، أناس بسطاء، مافيش ثقافة حقيقية، تتمسكون بقشور تتوارثونها اباً عن جد، وكلمات تحفظونها عن ظهر قلب من مشايخ او كتب دينية، بدون تفكير ولا تحليل ولا فهم المضمون الحقيقي.**

**- عن ماذا تتحدثين؟ يا سيدتي العسكري؟ ما معنى حزب اخضر، وحزب علماني، وحزب شيوعي؟ هل هي غير الدين اليهودي؟ أو هي جزء من العقيدة اليهودية؟**

**- ربما من حسن حظك أنني أعرف حزب الخضر والحزب الشيوعي والعلمانية، فاحمد ربك، سأشرح لك إذا بقيت في هذه الوظيفة، لكن اقول لك، إن فيه بعض من عرب مع الحزب الشيوعي، لا فرق في المواطنة بين يهودي أو مسيحي أو مسلم بالنسبة للحزب الشيوعي، أن تكون شيوعيا أي لا تنتمي لدين يفرّق الناس عن بعضهم، كلنا اعضاء حزب شيوعي، كلنا نتعاون مع اتحاد سوفياتي، كلنا نوافق على ان يعيش الفلسطيني مع يهودي مع مسيحي على ارض فلسطين مواطنين، المهم نأكل ونشرب ونعيش ونعمل وننتج وبحرية في دولة إسرائيل ولصالح دولة اسرائيل.**

**لكن المحقق قال لي وقتها، سنحولك للمحاكمة بعد شهور ثلاثة من التحقيق وربما تمتد لستة شهور حجز وتحقيق، حتى يثبت التحقيق المتواصل معك أنك لست مخططاً ولا إرهابياً ولا مجنداً ضد إسرائيل أوضد جيش الدفاع، ثم سنتحرى عنك في بلدك وحكومتك، بطرقنا الخاصة لنتأكد من عدم وجود نية العدوان على حدود دولة إسرائيل مستقبلا.**

#### **في الليلة الأولى من زواجي بديجا كانت عجيبة، اجتمع الغباء فيها مع الحرية، ديجا تظل الأجمل، شاب حقير أسمرخشن الجلد، باهت البشرة، وقفت حائراً ماذا عليّ أن أفعل وكيف، وهي منكمشة خجلى تنتظر مني كلمة أو حركة، طفلة بعمر خمسة عشر عاماً صغيرة البنية، أهلي الأغبياء لم يعلموني ماذا بعد، قالوا لي اطلب منها أن تقلع ملابس العرس وتستبدل بها قميص النوم أمامك، وإن أحجمت إما أن تخوفها أو تبعد السراج عنها، وتبتعد قليلاً. وما إن حاولت إبعاد السراج، حتى شاهدتها قد قلعت ملابسها كلها، وبحثت عن قميص النوم الخفيف، ثم دفنت نفسها في الفراش وغطت جسمها. ضحكت بصوت داخلي، احسست وقتها بسعادة لا حدود لها، تأكدت وقتها أنني رجل وعندي زوجة، انا حر استمتع بزوجتي، وسأجعلها تستمتع بي بالمثل، نحن زوجان نحب بعضنا، احببتها كثيرا وقتها، عشقتها، لم اصدق نفسي أن لي زوجة ورفيقة بهذه الطريقة، سرحت بأفكاري وتساءلت، يا إلهي كيف يأتي الحب فجأة، وفي دقائق قليلة صارت ديجة لي حبيبة؟ شكرا لله، والشكر لك يازوجتي ديجة.**

#### **حبيبتي أنت يا ديجا، روحي فداك يا ديجا، هل تعلمين أين أنا الآن؟ أين أنت هذه اللحظات؟ أتمناك لأسند رأسي على كتفك، أو لأريحه بين ثدييك الصغيرين، ما ألذّ عبق أنفاسك الشابة، وحتى عرقك الممزوج برائحة شعر بقرتنا أو بقطرات من حليب طرطشت على ذراعك، أو كم ردائك أو حتى على صدرك، آآه ما أجمل ذلك الصدر الصغير المشدود النافر، لكن ملمسه كان يذوبني، ينقلني إلى عالم من السحر والاندماج بجمال الأنثى، ومع انني واجهت في الأسر نماذج مختلفة، لكن نهديك يظلان هما الأمل الأجمل، ولا ترتاح أنظاري إلا بمشاهدتهما، وملامسة فمي لهما، ومرور شفاهي فوقهمان بمص او عصر او استدفاء، انشقّي ايتها الأرض وابتلعيني، اوصليني لديجة من تحت الأرض، ليتني أتبخر لتحملني الريح في أعالي السماء، أنا في حلم، أنا في شوق لها، أذوب هذه اللحظات، وأستمتع بلذة مع ديجا بعمق لم أشهد مثله من قبل.**

**كانت حيية خديجتي، فوجئت بكلتا يدي أحاول مساعدتها في خلع لباس العروس الضيق الطويل، لكنها كانت سريعة في إتمام الخطوة،نحيفة مستقيمة الجسد كتمثال من عاج، حلمت أنني سأفك الزرين العلويين، وتتسارق أنظاري لمشاهدة اسفلها شبه عارٍ، وقتها ستتجمد عيناي هناك، لم أتعامل مع ثوب عرس لفتاة من قبل، فكيف لي أن أفطن أن هناك زراً أو أكثر، ومن حرجها نسيت هي الأخرى فك أزرارها كلها، الزران الأخيران يحتاجان إلى فك، عاركت وتمايلت ثم أسقطت جسدها لتجلس على الأرض، حين أحست أن أسفل صرتها بدأت تتنفس الهواء، وأن هناك شابا يتأملها، ويساعدها، مع أنها كانت تلبس سروالاً دقيقا وشبه شفاف، فطنت لطمر ما بدا على غير عادة، فتقوقعت في جلستها، فككنا الزرين الأخيرين، ووجدت بعدها أن لباس عرسها كله عالقاً بين أنامل يديّ هاتين.**

**يا إلهي، ما أجمل جسد ديجة وما أجمل هدوءها وحياءها، تمنيت لو انني جهزت سراجا قوي الضوء حتى أنعم بحوريتي، وما ألذ ملمس ذراعيها، أردت أن أداعب صدرها، لكنها مدت يديها إلى سروالها تتأكد من أن مناطقها مستورة، وشعلة السراج الضعيفة تصارع الظلام، لتبقى على قيد الحياة.**

**رحماك يا رب، هنا في غريفتي السجن، أحسّ بآلام في أصابع يدي، أسمع حارساً يتنحنح خارج زنزانتي، اقترب من الباب، تعمد أن يشعرني أنه موجود ومتنبه لي، نظرت له من ثقب في الباب يشعل سيجارة، ويخفي وجهه والشعلة حتى لا يكتشفه سيده المراقب، السارق يخشى كل السارقين ويحذر مكرهم، ينزل سلاحه ويسندها على فخذه لثوان، ثم يرفعه فجأة، يتفحصها، ويسحب طلقة في بيت النار، يعيد ربط زرّ الأمان.**

**يحاول العسكري جلوس القرفصاء، ربما أحس بالتعب من الوقوف والتمشي في ممر الزنزانات، أنشأها الإنجليز لحصر المعارضين والوطنيين الفلسطينيين، ولحجزهم في المعسكرات دون محاكمة، كانت ملأى بهم، واليوم حل الصهاينة والغرباء مكانهم، يتحكمون بمن بقي من الفلسطينيين او من وقع في أسرهم، لا أدري عدد هؤلاء السجناء والأسرى، ولا مجال لمثل هذا السؤال.**

**ليلة زواجنا حاولت أن لا أكره زوجتي الشابة ا لصغيرة خديجة وألا أخيفها، كما هي عادة الشباب في بلدنا، بعد أن خلعت ملابس العرس الطويلة، انكمشت ديجة خجلا وحرجاً، كادت تمحي وهي تلوي جسدها لتخفي ما ظهر منها وما بطن.**

**بنطال العسكري الذي يرقبني، مشدود عليه، ولا يسمح له بالاستراحة لمدة طويلة في قرفصائه، لم أعرف سبب تلك الجلسة ولا ضرورتها له، استند على بندقيته وقام ليسند ظهره على الجدار المقابل، تمثال شرقي منتفخ قبيح، ويزيد وجهه بشاعة بدخان سيجارته رخيصة النوع.**

**ظننت ديجا ليلتها تمثالاً مرمرياً، فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، عضلاتي؟ لم يكن لي عضلات، صحيح أنني عملت بنكش الأرض بالفأس الثقيلة في أرضنا وللناس، من أجل طعام أملأ به بطني لذاك اليوم، وبرغم ضآلة اللحم على ذراعي وساقي، إلا أن يدي قويتان شديدتان، إن امسكتا بشيء يصعب جدا إفلاته، كنا نأكل مرة واحدة في اليوم، وبعد ا نتهاء موسم ا لحصا\، كنا نكسل ولا نعمل معظم أيام السنة، لم أكن أكملت الخامسة عشرة قبل رحيل الإنجليز، فلم تتح لي فرصة العمل في معسكراتهم أو بمزارع الأثرياء في يافا واللد والرملة، كنت أتمنى لو أمكن لي أن أعمل واوفر بعض النقود، كي أذهب للمومسات في يافا وتل أبيب، للتعرف والتجربة ولو مرة واحدة، لكن ذلك والحمد لله لم يحدث، تعلمت بالسذاجة طويلة الأمد مع زوجتي ديجة مجاناً، أما ما تعلمته لاحقا في معسكر الأسر فسيحتاج لمجلدات لشرح تطبيقاته، وها أنا مازلت أقبع في زنزانة إنجليزية البناء إسرائيلية التحكم، وقربي حارس قبيح الشكل والمنظر، لا أطيق النظر إليه، أكرهه، وأعرف جيدا انه يكرهني، ويتمنى التقرب إلى ربه عندما يقتلني بطلقة رخيصة، لا أعرف من أي أرض جلبوه.**

**فطنت ديجا أن تحضر شرشفاً خفيفاً، بل هو غطاء رأس المرأة الريفية الصيفي الخفيف الواسع، والمصنوع من الشاش القطني ، وحين ألقيته عليها اعتدلت، تنتظر ماذا سأفعل بعد، حياة جديدة بدأت تدب في كياني حين لمحت تفاصيل ذلك الجسد الطاهر، وضوء السراج الضعيف يحاول معي دوزنة ألحان الحياة الحلوة ومذاقاتها.**

**أحدث العسكري البشع ضوضاء وحركات مشبوهة مسموعة، توقعت انه يريد أن يجد مبررا لقتلي، لم أفتح الباب، ولم أسأل عما يريد، رجعت لسريري الخشن، أواصل عيشي وذكرياتي مع ديجة.**

**فصل 17**

**تحادث زميلها الحارس وتمازحه، تطلب منه أن يحمل لها بندقيتها ريثما تحضر شيئاً من دكان الجندي، تفكر قليلاً ثم تسأل المجندة ريتشيل زميلها الحارس قائلة: ما رأيك في أن تذهب أنت لتحضر شراباً وشيئاً من الحلوى لك ولي، وأنا سأهتم بمنطقتك حتى تعود؟ يقبل الجندي عرضها، كنت أراقبهما في زنزانتي الموصدة بباب ثاني خارجي من الشبك الحديدي القوي، وباب الزنزانة الرئيس لا يفتح إلا من الخارج، حتى انه ليس له ممسك لسحبه أو الإمساك به من الداخل، فوجئت بها توجه نور كشافها لداخل الغرفة الصغيرة، تحاول البحث عن مكان وجودي، وما أسهل اكتشاف موقعي، إنها غريفة او كرفان يمكن سحبها بسيارة صغيرة، تسألني إن كنت ما زلت على قيد الحياة، تناولني علبة صغيرة من الشوكولاته قائلة**

**- هذه تغذيك إذا أحسست بالجوع أو تسمنك وتسليك، وتعطيك طاقة لو نقص الطعام عنك، ويمكنك أن تقدم قطعة أو قطعتين منها للحارس كل يوم، ليفتح الباب المصمت عليك ، تأكد لنا " إنهم لم يجدوا ضدك ممسكا يدينك إلا اقترابك من حدود دولتنا بغباء، وأنا أسميها بحسن نية، ولهذا قضت المحكمة أن عليك عمل عامين في الأشغال سجينا داخل أسوار المعسكر." علقت ريتشي بعدها قائلة**

**لا أستطيع فعل أي شيء لك بعد صدور الحكم عليك، لقد حاولت المستحيل حتى تمت الموافقة على نقلي من الدوريات المتحركة، لدوريات حراسة المعسكرات والكيبوتسات، لأنني أحب الخضرة والحدائق، والطبيعة، وفلسطين كلها جنة الدنيا بأشجارها وثمارها ونباتاتها المتنوعة، وإذا ظل سلوكك مسالما، سأحاول بعد مدة أن أقترح على المسئولين أن يعطوك حرية محدودة، اي الذهاب للعمل والعودة منه إلى غرفتك، دون حراسة عليك، على أن أكون المراقبة المسئولة عنك، في حركاتك وسكناتك، معظم شباب إسرائيل الواعين والصبايا بدأوا يشعرون بملل وضيق من العمل العسكري، لا داعي لكل هذا العدد الكبير من الجنود والجيش، لا بل كل شباب إسرائيل جنود، ويستجلبون المزيد من الشباب الغرباء من كل مكان في العالم، يضايقوننا ويتكبرون علينا نحن الذين غامرنا في السنوات الأولى لتأسيس دولتنا، وها أنت ترى أن لا حرب ولا معاداة لنا من أي من جيراننا الدول العربية، إن إطلاق سراحك شبه مستحيل، لكن لو أسر العرب إسرائيلياً فربما نبادلك بالأسير الإسرائيلي، ثم قهقهت هههه، (يأسر العرب إسرائيليا؟؟)، منشغلون بأمورهم الشخصية وباتهامات بعضهم عن سبب نكبة اهل فلسطين، أو أي موضوع تافه، أو مازالوا يحلمون كيف يمكن أن يهزموا إسرائيل، او يفسروا سبب هزائمهم، وكيف ان بضعة آلاف من الشباب اليهودي المخلصين، هزموا مئات الآلاف من الشباب العربي المتخلفين والمختلفين.**

**خلال شهور التحقيق، لم تتوقف محاولاتهم الضغط علي وإغرائي بالاعتراف بأنني حضرت بنية السرقة او التخريب، أخرجوني مرات عدة من زنزانة صغيرة معزولة، ويداي مقيدتان خلف ظهري، يتبعني شخص ضخم يمسك بجنزير يلتف حول ساقي ويتصل بيدي**

**- ماذا تريدون مني أن أقول ياحضرة الضابط؟**

**- نريدك أن تعترف بخططك وأهدافك من وصولك لحدود دولة إسرائيل.**

**- إنني لم أذنب، ولم أحاول أن أؤذي أحداً، متى سستقتنعون أنني بريء؟ وإنني أطالب أن يتم إطلاق سراحي حتى أعود لأرضي وقريتي ولزوجتي الصغيرة والتي تركتها حاملاً ربما.**

**يأمر الضابط بإعادتي للزلنزانة بعد نوبة تعذيب روتينية، وإبقائي مقيدا حتى أعترف بما كنت انوي فعله، يحضر محقق أو اثنان نهارا ومحقق أو أكثر ليلا والقيود في يدي أو رجلي، وليس لديّ شيء أضيفه عن سبب وجودي سجينا عندهم.**

**أثناء عملك في حدائق بيوت المعسكر، وبعد الحكم عليك بشهرين، يمر بك ضابط كبير يتجول في أنحاء المعسكر ترافقه زوجته، يرقبان حركاتك وعملك في حديقة زهور، سلوم يعمل دون الالتفات لأحد، مستمتعاً بالزهور وبتفتحها، وزيادة إزهارها منذ أصبحت ضمن واجباته، تقول زوجة الضابط،**

* **ياي ، زهور بلدنا جميلة. أطرق سلوم حتى يسمع كلام زوجها، سمعه يهمس لزوجته (هذا هو الأسير الفلسطيني الذي كلمتك عنه)، ابتسم سلوم وقال**
* **فعلاً زهور بلادنا جميلة، قالها بصوت مرتفع يسمعانه، ثم قال في نفسه، (لم يعد عفان يخشى المزيد من العقاب بعد صدور الحكم عليه بالعمل مسجونا لسنتين)**
* **أتعرف أسماءها (ولد)**
* **أزهار بلدنا : النرجس والحنون (الدحنون) والياسمين والورد والفل والمنثور وفم السمكة، والبري منها الصفيرية والزيزو وعوينة البقرة وأشكال كثيرة من النباتات البرية تزهر أزهارا جميلة، فانتهره الضابط اليهودي قائلاً**
* **كفى، كفى، لتهنأ بسجنك، اعمل ولا يهمنا أن تحفظ أسماء زهور بلادنا.**
* **أوكي يا خواجة، زهور بلادي فلسطين كلها نعرفها.**
* **(لأ) زهور فلسطين ، (هذا) زهور إسرائيل.**
* **أنت تتكلم عربي يا خواجة.**

**-لازم أنا (كلّم) عربي، عندنا ناس درزي (يكلم) عربي، وعندنا ناس شركس (يكلم) عربي، وعندنا ناس مسيحيين (يكلّم) عربي، وعندنا بدو مسلمين ضعفاء يحبوننا (يكلّم) عربي، وعندنا ناس في حزب شيوعي يكلّم عربي، وعندنا يهود من عراق ومصر ومغرب ويمن كله يتكلم عربي. والآن قل لي، (إيش) هذه الأحواض الصغيرة الخضراء؟**

* **هذه أحواض زرعتها جانباً، إنني أفتقد الشاي بالميرمية أو بالزعتمانة أو بالزعتر أو على الأقل بالنعناع، لا أنسى نباتات فلسطين البرية والمنزلية، فزرعت هذا الحوض الصغير، حتى اشمه او أقطف منه لو لزمني، لا نستطيع أن نحيا بدونها، حوض للنعناع، وحوض صغير لشجرة ميرمية، وحوض للزعتر وآخر للزعتمانة.**
* **أنت مش يبقى هنا، ممكن أنا أنقلك لمعسكر بعيد، أو روخ على بلدك اردن.**

**تمسك زوجته بيده وتجذبه ويبتعدان بسيارة الجيب العسكرية.**

**حاولت أن أحمي شقيقي دعيس، كيلا يقع في متاعب أخلاقية أو اجتماعية برغم أنفه، لكثرة مرافقته للمشاغبين وذوي الأخلاق الفاسدة، وهو ضعيف البنية وأخف مني بكثير، لكنه يختلف عني كثيراً في تفكيره وفي طباعه، أشفق عليه كثيرا، لأنه لم يشاهد والده، ولا يتذكر والدته، ماتت والدتنا عندما كان عمر أخي أقل من عام حزناً ومرضاً وهزالا، إنني أحترم الكبار والناصحين، وتمنيت دائماً لو كان والدي ووالدتي ما زالا على قيد الحياة، كي يرشداننا ويضبطان أمور أخي، لكن أخي لا يريد أن يلتفت لأي نصيحة مني، اعتاد على التمرد والضلال، أتألم أن جميع المجايلين لوالدي ووالدتي ما زالوا أحياء، وأغبطهم، وأغلبهم في الخمسينات من أعمارهم أو الأربعينات، في بلدتي وفي بيتنا التاريخي الكبير، كنت أفتقد شخصا مخلصا لي ولأخي أشكو له، وخالي الكفيف جسّار يحبني ويحب أخي، ولا يدخر وسعاً لمساعدتنا على تفهم الرجال وأسرار الحياة، لكنه هو نفسه بحاجة لمن يساعده لكبر سنه وكفّ بصره، تأثرت بكلام الكبار وقبلت الزواج المبكر من فتاة صغيرة لم تبلغ سن الرشد بعد، حفاظاً على الأخلاق والشرف والدين والعادات الاجتماعية ولعصمتي، لعلّ أسرتي ترزق بأطفال يخلفونني ويحافظون على أرضنا وأملاكنا الزراعية الكثيرة التي خلفها والدنا لنا، ولكي تساعد زوجتي ديجة خالي وتجهز له ولنا طعامنا، أما أخي فمتمرد بطبيعته لا يعبأ بعاداتنا ولا بالأخلاق الفاضلة، لا يشتغل بالأرض ولا بالزراعة، ولا يحب أي عمل، بل كل همه السهر والغناء والرقص والعبث والغياب عن البيت، ومعاشرة الشباب المغامرين والطائشين والمشبوهين، لذا كان دائم التأخر في العودة للبيت أغلب الليالي بعد أن أصبح عمره ثلاث عشرة سنة، ومع انني كنت في السابعة عشرة من عمري، لم أستطع أن أحكمه بعدها أو اضبطه، صار يعارضني ويعتبر نفسه ولداً كبيراً مثلي، لذلك كنت أتحاشى الصدام معه، وخالي الكفيف لا يدري عن موعد مغادرته ولا موعد عودته، أهم ما أنجز هذا الولد هو تعلم القراءة والكتابة بشكل جيد، وكان من أسرع الطلاب تعلماً وحفظا عند شيخنا حامد، لم أعد أجرؤ على إبلاغ خالي الكفيف ولا خالي الثاني الأخرس ولا خالي الساذج عن تصرفاته، لأنهم حين يعاقبون تكون ضرباتهم قاسية ومهينة ومؤذية وقد يقتلونه، وأنا أحب أخي وأشفق عليه، فهو أصغر مني، كنت وأنا حرّ قبل أسري أعمل دائماً على محاولة إصلاحه وتقويم سلوكه بالصبر والتقرب منه والنصح، بعدها صار خالي الكفيف يخشاه، لأنه حين ضربه بعصاه التي يتكئ عليها مرة، قرر أن ينتقم منه دون أن يخبرني، فوضع في طريقه داخل المنزل وأمامه حجارة، فتعثر وجرح في جبهته، وطارت عمامته عن رأسه، صار يبحث عنها فلم يجدها، فنادى بأعلى صوته يستنجد بي، ويطلب مساعدتي للعثور على عمامته البيضاء الملفوفة على طربوش أحمر، لم تكن لتفارق رأسه إلا ليلا، أما شيوخ القرية فكانوا يلبسون عمامات عثمانية مزركشة برسومات دقيقة نافرة ذهبية، بعدها هجر خالي منزلنا، وصار يقضي معظم أيامه في مسجد القرية يبيت ويأكل ويشرب فيه.**

**بعد وقوعي في أسرهم، لا أدري لماذا كانوا يأتون بي للتحقيق كل يوم؟ ألا يكفي ما عانيته على الحدود، وفي الأسبوع الأول من تعذيب وتحقير وتحقيق؟ وهل جلبي كل يوم هو للتعارف أوللسلام علي؟ أم يظنون أن عقلي قد ينمو وينبت أوراقاً وثماراً غريبة؟ ، أمام باب غرفة من الغرف المتداخلة في تعرجات الطريق إلى غرفة التحقيق، تكوّم شبه إنسان في زاوية، ظننته ميتاً فتنحيت عنه للزاوية الأخرى، لكن أنفاسه كانت قوية متناغمة، سمعت أحداً ينادي اسمي، تتبعت مصدر الصوت فإذا به أسير مثلي جمعتنا غرفة صغيرة مرة، في مكان آخر غير هذا المعسكر، عرفني لكنني لم أستطع معرفته، فقد كان شبه مومياء، لا يتعدى وزنه أربعين كيلوغراماً، يئن وعلى ساقه ورأسه ورقبته ربطات شاش طبية، مقيد اليدين، تحرسه مجندة أوربية شقراء لا تفهم العربية ولا العبريه، توقفت قربه فأخبرني، أنه لم يهجر بيته في مدينة الرملة، فحاولوا إخافته وتنفيره، كي يلحق بغيره من اللاجئين الهاربين بأرواحهم، أبلغهم أنه لا يهمه إن قتلوه أمام بيته، حققوا معه، ولما لم يغير كلامه، ضربوه حتى أشبعوه ركلاً وتعذيباً، ودبروا له تهمة حتى يكون سجينا عاملاً في الكيبوتسات او المعسكرات الجديدة مثلي، وبعد كل ضربات التكسير التي مارسها بحذائه العسكري على رأس ذاك الكهل الفلسطيني، أتبعها بطلقة أصابت عنقه، حولوه لمركز صحي كي يوقف نزف جروحه، وحتى وهوعلى هذه الحال يحضرونه للإهانة على أمل إكراهه على الرحيل، ويتمنون لو يموت، لأن له أملاك وبيت بطابو وإثباتات ملكية.**

**أثناء عملي بعد مغادرة ضابط المعسكر مع زوجته، تنفست الصعداء، ونظرت للسماء، تتدلى سحابة يتيمة من السماء الشمالي، تنحرف في سيرها صوب الشمس الهاربة للغروب، كانت ثقيلة بطيئة متشحة بدثار رمادي قاتم، كأنه يهمي على رأسي وحواسي رذاذا منعشا، رطبا ورخياً، وحين أصبحت الغمامة في عين الشمس بدأت أوصالها تتمزق، تفرعت شعبها وانفرجت ، كدخان قنبلة هائلة تناثر في السماء، فأتت على مساحات واسعة من الفراغ اللانهائي، أصرت بعض أجزائها أن تتابع قرص الشمس علها تجد لها مكانا آمناً هناك، فوق بحر يافا كما كنا نسميه، لكن عيني كلّتا عن المتابعة، حين انتعش جسدي وحلقت روحي في عوالمها النائية، نسيتها حين ذكرت مدينة يافا وشواطئها التي اعتدنا زيارتها كل صيف، نلعب على رمالها البيضاء النظيفة، ونحاول الغوص في مياه بحرنا المتوسط، ونراقب الصبايا السابحات، لكننا كنا نحاول الاقتراب من الفتيات اليهوديات الجميلات العابثات والمتحررات.**

**فصل 18**

**- هاي آراب خراب! تيروريست!، خربت عقلي يا مخرّب سلوم، يا أيها الفلاح العربيم الذي تبدل ونضج في الأسر، زادت كراهيتي للجندية والجنود والتجنيد، سبق وقلت لك إنني أرى كل ذلك لا مبرر له، بل إن الحروب هي الخراب نفسه والتخريب، لا أدري ما الذي يجري بعقلي هذه الأيام؟ هل أنا أحدثك أم أحدث نفسي؟**

* **بصراحة لا أفهم ما تقولين وعمّ تتحدثين، وماذا تقصدين يا ريتشي، وهل يستطيع حبيس أن يخرب شيئا أو أحدا؟ عم تتكلمين؟**
* **عن نفسي، ألا تقبل أن تشرب كأس بيرة صغير معي ولو لمرة واحدة؟**
* **وكيف أشرب وأنا سجين؟ ثم لماذا أشرب؟ ألم أقل لك أنني لا أشرب أي شيء مسكر؟، وماذا أستفيد لو شربت، وماذا تستفيدين أنت من شربي، أنا لا أعرف الشراب ولا يلزمني، يقولون إنه مسكر ويأخذ بالعقول، ولماذا افرّط بعقلي؟.**
* **أنت حر طليق يا سلوم، تعمل في حقل أو لمساعدة منزل ضابط ما في المستوطنة، أنت لك مستقبل واضح، سواء في حالة الحياة او الموت، لكنني أجهل غدي ومستقبلي، فانا أشعر أنني الأسير، أسيرة أفكار كثيرة وأوهام، أسيرة تعذيب الضمير، وأسيرة الجيش وكثرة الآمرين الغرباء، وأسيرة أحلام وهلوسات وهمية بالية القدم، الإنسان الأشقر يتحكمون بكل أمور حياتنا، ثم لا تنس أنني أسيرة لا أستطيع العودة للعيش في ارض آبائي وأجدادي اليهود العرب في المغرب، أسيرة طغمة من الضباط الأجانب، يخدمون أسياداً لهم وشركات كبرى طامعة، ولا يهمهم اليهود وخاصة اليهود الشرقيين، لماذا طردنا الفلسطينيين من بيوتهم، أرض فلسطين كانت تتسع لكل اليهود الموجودين في العالم والفلسطينيين الذين هجروا من بيوتهم ومدنهم وقراهم، لم يصطدم الشعب اليهودي بالمسلم ولا بالمسيحي منذ قرون طويلة، كان الكل يعيشون في أمن وسلام، في فلسطين وغير فلسطين، كما كنت أعيش بين المسلمين انا واهلي في المغرب، إن تجارة السلاح هي جزء مهم من كل هذه التهجير والسادية، والدول لها مصالح، وتريد مواطئ اقدام لعملائها، وفلسطين أصبحت بؤرة حلبة مصارعة لدول عظمى، ودول أوربا كلهم كاذبون منافقون، يظهرون دائما عكس ما يضمرون، فلا تنخدعوا بكلام الأوربيين يا سلوم، إن رجعت لأهلك قل لهم إن الأوربيين كذابون منافقون، هم الذين اضطرونا للهجرة ثم شجعونا وسلخونا من ديارنا واوطاننا الأصلية، تماما كما أجبرنا الفلسطينيين على الهجرة، وترك بيوتهم وأملاكهم وبلادهم، أرادنا الأوربيون والصهاينة أن نملأ الفراغ الذي تركه الفلسطينيون الخائفون والهاربون من الموت المبرمج لهم من العملاء المتحكمين برقابنا، إنهم يأملون ان يتحكموا في العرب والشرق والبترول بأن يستخدموننا لهذه المهمة، إنهم يعرفون أن إسرائيل لا يمكنها العيش والصمود بين العرب وحدها، سيفرضون علينا ان نؤذي كل العرب، مقابل تزويدنا بالسلاح والمعونات الاقتصادية. فيجيبها عفان**

**- إنني سجين داخل أسوار معسكر، أمضي مدة لا أعلم طولها، أحسّ بالأسر سواء كنت داخل زنزانة أو غرفة أو في حقل فلسطيني فأنا في الأسر، وكل من بقي في فلسطين شرقاً وغرباً هم أسرى تحت الحساب والعقاب، بمحاكمة أو بلا محاكمة.**

* **دعني أغير الموضوع، هل كنت متدينا يا سلوم؟ هل كنت تصلي الصلوات الخمس؟**
* **لم أكن كذلك، نحن الشباب نصلي إن كنا في حضرة الكبار، او لو كنا قريبين من المسجد، لكن كل شاب في القرية يحضر لصلاة الجمعة. ولماذا تسألينني مثل هذا السؤال؟**

**- أنا نفسي لا أعلم، لكنها فكرة خطرت ببالي.**

**- لا يوجد لمسجد قريتنا مئذنة، فيضطر المؤذن للمخاطرة بالصعود إلى سطح المسجد، وبدرجات حجرية غير منتظمة ومتآكلة، يتشبث بجدران المبنى القديم، والذي لا يقل عمره عن مائتي عام، ويصبح الصعود أكثر مشقة حين يكون ليلاً، أي لأذان العشاء أو الفجر، أو لتنبيه أهل القرية عن حدث هام، أو للسؤال او البحث عن شيء مفقود.**

**- تمام تمام، بالله عليك أكمل، اشرح لي بعضاً من عاداتكم، تكلم عن أي شيء تتذكره**

**- أذكر أنه علا صوت شخص قبل صلاة العشاء، ينادي جميع أهل القرية الصغيرة، بعد أن ضمن ركونهم في منازلهم بين المغرب والعشاء. فصاح منادياً، (يا سامعين الصوت صلوا على النبي، نعجتنا البيضاء لم تعد لمنزلنا، أرجو ممن يجدها أن يخبرنا عن موقعها حية او ميتة، او يحضرها لمنزلنا وله مكافاة ربع جنيه فلسطيني). هذه الطريقة الإعلامية لنشر الخبر في القرية.**

**تتقدم ريتشي من عفان، ترخي سلاحها عن كتفها ويديها، تسنده على طرف جدار، تضع يدها على كتف عفان وهو مستمر في سقاية الزهور، تسأله هل تعجبك الزهور يا سالومي؟ هل اعتدت عليها هنا؟**

**- أحب الزهور، واحب الأرض، لكن معظم هذه الزهور منقولة من بلاد بعيدة، إنها تحتاج لعناية وحرص ودلال، اما زهور فلسطين الطبيعية، فلكل نوع منها موسم خاص تنمو فيه.**

**- توقف سالوم توقف، توقف عن العمل، الا تلاحظ أنني وثقت بك، وركنت سلاحي جانباً، ولا أستبعد أن تغافلني وتخطف سلاحي وتقتلني، أليس كذلك؟ يضحك عفان ويضع يديه خلف ظهره تطميناً، فتقول له، دعنا نتحدث حول امور اخرى، لكنه يبادرها قائلا**

**- صداقتي لا تفيدك، ولاصداقتك تفيدني**

**- بالعكس يا سلوم بالعكس، الصداقة حلوة ومفيدة لكل الناس وفي أي زمان ومكان.**

**- كلامك ممكن ومنطقي، نعم الصداقة حلوة، لكن ليس بين أسير وسجان.**

**- اوووه سلوم، انت يائس، لماذا؟ كن متسامحا وطموحا تحب الحياة في أي مكان، أنا عربية مثلك، وهل سيبقى السجين مسجونا طول عمره، ما هي الا سنة او اقل وتكون حرا في دولة إسرائيل لو أردت، ألا تسمعني أتكلم العربية معك؟ أنا أشعر أنك إنسان لطيف، واحب أن اعبر لك عن أحاسيسي وتعاطفي، هل يضايقك ذلك.**

**- لكن يا ريتشي أنا اسير، انا متزوج، انا احب زوجتي، انا مشتاق لها، اهم شيء عندي أن أنال حريتي، كي أعود لزوجتي التي تنتظرني، ولأخدم أرضي وبلدي**

**- اوكي، اوكي، استرح الآن، وسأذهب لإحضار وجبة طعام لك ولي، اغسل يديك حتى أعود، جاء وقت الاستراحة، فتوقف عن العمل.**

**مساء ذلك اليوم الذي لم يعد فيه عفان لمنزله، صعد المؤذن الشاب، ذو الصوت القوي، ونادى بأعلى صوته: ( عفان بن نومان غادر منزله صباح هذا اليوم ولم يعد لبيته واسرته، فمن شاهده أو عرف مكان وجوده فلينبئ أهله، والله يجزي المحسنين. ثم أعاد الإعلان ثلاث مرات، نظر الناس الذين لم يعرفوا بالخبر من قبل في وجوه بعضهم مستغربين متسائلين، لم يتوقع أي من أهل القرية وقوع عفان في الأسر، انتظر أقارب سلوم وصهره والد زوجته ساعتين، لعل أحدا يدلي بخبر عن آخر مرة شاهد فيها عفان، تأمل الناس أن يأتي أحد بنبأ ما، يسمون والد الزوجة بالعم في قريتنا، تململ عمّه، وفكر بابنته، فنهض على الفور واتجه لمنزلها، ثم رافقها معه إلى بيته ورحبت بها والدتها، وطمأنتها قائلة:**

**(إن زوجك عفان سيحضر إن شاء الله يا ابنتي، وربما التقى بأحد معارفه من القرى المجاورة، فاستضافه، فلا تقلقي وها أنت تعيشين ثانية معنا في بيتك الذي ربيناك وكبرناك فيه، ونحن الفلاحون يحدث عندنا مثل هذا أحياناً، حيث لا يوجد طريقة ليبلغ الرجل أهله حين يكون بعيدا عنهم، فلا تلفون ولا وسيلة اتصال متوفرة بين القرى او بين الناس إلا باللقاء الشخصي، أنت ابنتنا ونحبك ولا تظني أنك بزواجك صرت غريبة عنا، فهذا البيت بيتك، ووالدك وأنا نحترمك وننتظر زوجك معك، فاهدأي وقري عينا.)، اطمأنت ديجة قليلاً، مسحت دموعها بطرف شالها العريض على رأسها وشعرها، ثم كررت مسح دموعها حتى شعرت باستقرار بسيط، وبدأت تتحدث مع والدتها وإخوانها.**

**تشاور والد ديجا مع عدد من كبار السن في القرية، فقرروا أن يخرج عشرون من الرجال ليلتها، يطوفون بكل أطراف القرية وفي دائرة نصف قطرها كيومتر ونصف، ينادون ويبحثون عن سلوم، وقد صادف ليلتها انها في السابع عشر من الشهر العربي، والقمر ينير السماء، ولأن عفان شرب شربة مسهلة، ربما تعب أو أصيب بغيبوبة أو نام في الخلاء، وفي مكان قريب من القرية، والنداء قد يفيقه، إو إن كان جريحا او صادفه ضبع او ذئب نهشه، قد يصيح او يسمع الباحثون صوته، ثم وربما كان مريضا هزيلاً، لا يقوى على العودة لبيته، فإن كان به حياة وسمع فسيرد على النداء، وإن قتله حيوان فسيبقى ذلك الحيوان حوله، أو تحضر حيوانات أخرى لأخذ حصتها من جثته، في الحقيقة خرج ما يقارب الخمسون من أهل القرية، متعاونين متكافلين، قسموا انفسهم إلى فرق لا تقل الفرقة عن عشرة، ومنهم الشباب والكهول وبعض الشيوخ، ليغطوا نصف محيط القرية تماماً ويسيروا منادين وباحثين في نصف دائرة غرب القرية حيث اتجه، غير عابئين باليهود ولا بالحدود المصطنعة، لم يهتم أهل القرية بالمنع الذي يفرضه رجال المخفر على أهل القرية، إذ يمنع الجنود العرب اهلنا من الاقتراب من خط الهدنة والمنطقة الحرام، خرجوا ومعهم سكاكين طويلة وسيوفاً وعصيّاً ثقيلة، وحمل أربعة من أهل القرية بنادق عثمانية قديمة موديل ماوزر من صنع ألماني لا يتسع مخزنها إلا لطلقة واحدة في كل مرة أو طلقتين، استعداداً إذا واجههم حيوان مفترس، وأكثر ما كان يقلقهم هو كمائن جنود العرب بذريعة ضمان عدم وقوع احتكاكات أو مصادمات مع العدو الصهيوني، حيث كانت جيوش العرب لاتقوى في تلك الأوقات على الصمود أمام الأسلحة الحديثة لدى الجنود الإسرائيليين، ومع هذا غامر كثيرون من الشباب، وحتى بعض من الشابات اللاتي رافقن إخوانهن، اوأزواجهن، وتخطوا الخط الأحمر، غير عابئين بدوريات اسرائيلية او عربية، وقرب الفجر تنادى أعضاء الفرق، للعودة إلى القرية، أدرك الجميع أنهم عادوا خائبين، ولا خبر لدى أي منهم عن عفان، إلا ما سمعوه من زوجته نفسها (شرب شربة ملح إنكليز، وقدر ملعقتين من بترول التدفئة، وخرج للحقول الغربية حتى ينظف أمعاءه من الفضلات، اقترب والد زوجة سلوم منها، ونادى على الحاضرين ليسمعوا ما تقول، فسألها**

* **كم شهراً مضى عليك ولم تأتك العادة الشهرية؟**
* **شهران يا والدي ، يقول والد خديجة بصوت مرتفع صائحاً**
* **إشهدوا يا أهل بلدتي ويا أهلي ويا أهل سلوم أن ابنتي حامل من زوجها سلوم، أريد أن يبقى شرفنا نظيفاً، ولا يظنن أحد سوءاً بابنتي، لو لم يرجع عفان لا سمح الله، ثم إنني أعلن أن الخيار لأهل عفان أن يحملوا البنت للطبيب في المدينة للتأكد من حملها، وها هي تعيش مع والدتها في أمان، ولن تعود لمنزل عفان إلا بعد حضوره، سكت الجميع وهزوا رؤوسهم موافقين، وقال أغلبهم وبصوت مسموع ، ندعو الله أن يعود زوج ديجا بالسلامة. صاح خال سلوم الأعمى وعلى مسمع ممن تبقى من أهل القرية - مات سلوم، ولن يعود، هكذا أحساسي، ولا أمل عندي في عودته، ونوافق نحن أهل عفان على قرارك بإبقاء ابنتكم عندكم.**

**نام خال عفان الأعمى ليلتها على مقربة من مدخل الدار الواسع، والبقرة أليفة تعرف طريقها وبيتها جيداً، فلن تضره لا هي ولا عجلها.**

**لأول مرة منذ زواجهما قبل سنة ونصف تنام ديجا وحدها، اعتادت على احتضان زوجها، ينامان متلصقين، ويضع كل منهما رأسه على ذراع الآخر، مستغنين عن الوسائد، كأنه دميتها، ويشعر هو كأنها والدته، وحين أصبحت في بيت أهلها، تخاطب ديجة نفسها، على أي جنب ستنام؟ ولأي جهة تدير وجهها؟ تسمع نحنحة والدها، فتطمئن قليلاً، لكنها قضت ليالي الأسبوع الأول ساهرة تعد نجوم السماء، حتى مطلع الفجر، تنتظر أن يعود عفان لها، او يأتيها خبر يطمئنها بوجوده حيا، تقول لنفسها ولوالدتها: كيف سأنام؟ ومتى سيأتيني النوم؟ سأبقى ساهرة حتى يعود سلوم، عفان لم يمت، عفان سيعود، لكنني أجهل متى واين هو الآن، إنني أحسّ بنوبات من برد وارتجاف يا والدتي، مع أن داخل البيت دافئ، والصيف حار، وأنفاس بقرتكم يا أمي حارة، ورائحة روثها تملأ المكان، أحسّ بحرارة زائدة هذه الدقائق، ولو كان سلوم هنا لخلعت ملابسي الثقيلة هذه، تقول والدتها، في حال غياب الزوج تنام المرأة بملابس النهار العادية حسب عاداتنا يا إبنتي، حتى لو كان الوقت صيفاً وحاراً.**

**تتمتم خديجة بكلام خفيض لا تسمعه والدتها، آه ما ألذ لمسات أصابعه وهو يساعدني على خلع ملابسي بصمت ودون كلام وفي الظلام، أساعده أحياناً في فرك ظهره عند استحمامه، وما هي إلا دقيقة أو اثنتان ويكون قد أنهى استحمامه، يصب ملء إبريقٍ من الماء الدافئ على رأسه وجسده، لتنظيف الصابون، ثم إذا أراد المزيد يطلب مني إعادة ملء الإبريق ثانية بالماء المدفّأ، تزايدت حركات البقرة في الأسفل، وهب وليدها يدور حولها يطلب المزيد من الرضاع، ملت البقرة منه، وأرادت الخروج للساحة الخارجية للمنزل، لكن والدة ديجا أغلقت باب الدار ليلتها على غير العادة صيفاً.**

**تخاطب ريتشي سلوم قائلة،**

**-أيها العربي الملعون!، برغم حقارة جسدك وقلته، كم أنت قوي وصلب!، إليّ بالمزيد!، سأقتطف كل نماء في جسدك المحروم، يا أيها العربي، ما أحبكم للنساء والجنس!، سأحيل تلك القوة إلى كنز لا ينفذ، أشبع هذا الجسد المتعطش دوما للحياة، تؤمنون بالجنة وبالحور العين، وهنا الجنة والحياة والحاضر ونعيمك المقيم، وديني هو العقل والعلم والحاضر والمستقبل، والجنة والنار هي في دنيانا وخلال أعمارنا، أخبر أهلك الأغبياء، داوموا على معتقداتكم وتراثكم المتجمد، رؤساؤنا وحكماؤنا يشجعونكم على ذلك، لا بل يثيرونكم بطرق جهنمية، لتتمسكوا بقناعاتكم بحياة أخرى بعد الموت، كي تعمى أعينكم عما يجري حولكم، وفي العوالم الأخرى، فيظل أغلبكم أسرى الأحلام والتمسك بالتراث المتجمد، لا بل تزدادون عجزا عن فهم الواقع وتجدد الزمن، ويبقى خيال السيف والخيمة والمتعة والفرس والحوريات في عقولكم، وهانحن لكم سادة بعد اليوم، وسنبقى كذلك. يفكر عفان بما يسمع، برغم غرابة أفكارها وكونها امرأة مغربية.**

**- هل تقولين كل ذلك لأنك شربت علبتي بيرة؟ أو انك حانقة وتحملين مفاهيم غير الصهونية العنصرية الحاقدة؟**

**- إنني لست صهيونية، ولست ثملة، كرهت الحقد الصهيوني بعدما عشت ثلاثة أعوام في إسرائيل، وجدت أنهم يفعلون أسوأ مما فعل النازي باليهود والمعارضين له. إنني لست ضد الحياة، اقتنع بأفكاري التي في رأسي، وأخيرا تقاربت مع الفكر الشيوعي، والصهيونية مرض يهتك حياة الإنسان العربي واليهودي على السواء، إنها عنصرية بغيضة، سياسة الإلغاء هذه لا تدوم في هذا الزمن، قد يفلح عسكريو الصهونية في استغفال العرب لزمن يقصر أو يطول، ويتم استغلالهم لتجمدهم وأساليبهم القديمة، لكنه سيأتي يوم يندمون فيه على أعمالهم، ولن يرحم التاريخ الظالمين. إنهم يستغلون ظروفك حين تضعف، الصهونية هي وكيل الغربي الحاقد على العرب، إنها أداة الدول الاستعمارية لتنفيذ إفقار الشعوب العربية وتمزيقهم، لا ينسون هزيمتهم في حطين، متذكرين قوة العرب في العصور الوسطى، والتي أبهرتهم وقلبت الكثير من مفاهيم الضلال والتخلف في الأشقر.**

**أردت قول الكثير لها، تذكرت موقعي وحالي سجيناً، وعرفت أن كلام المجندة الصهونية ريتشي لا يعني شيئا مهما لي في الأسر، وأن أكثر ما يهمني هو حريتي وكرامتي، ومن جانبي لم أنس أنني الأسير المغلوب على أمره، وأقصى ما يمكن أن أناله هنا بعض من حرية أثناء سقاية زهور المعسكر المسيج والاهتمام بالزراعة، وقرب غريفة سجني، ولذلك لا يهمني كثيرا ما تعتقده وما تقوله.**

**والد ديجا يقول لها بعد شهر،**

**- ما دمنا لم نعثر على اثر من سلوم، فلا تقلقي يا ابنتي، كل غائب سيعود لبلاده، إن كان حيا يرزق، وإلا علينا ان نستعد ونكون مهيئين على قبول حظنا ونصيبنا، ولا تدري نفس ماذا يخبئ القدر لها، (( لا تدري نفس بأي أرض تموت)) صدق الله العظيم، ارتاحي في فراشك يا ابنتي واستريحي وأريحينا، إنك مازلت شابة جميلة، فلا تقلقي، فإن لم يعد زوجك سلوم، فعلينا ان نقبل قضاء الله، وسيتقدم لك الكثير من الشباب من اقاربنا او أقارب سلوم.**

**- لكن يا والدي افكر في ضعف خال عفان الكفيف، وشقيقه دعيس، إنهما بحاجة لمن يساعدهما.**

**- لا تهتمي يا ابنتي، لهم الله، سييسر الله لهم طريقا، الله هو الذي خلقهم، وهو الأولى بتدبير أمورهم.**

**تتسلل ديجة إلى فراشها في منزل والدها على مهل وبغير رغبة، لكن لأن الجميع نام لابد من ذلك، وخاصة بعد أن بدأ برد الخريف يزداد ليلا، تسير مضطربة سارحة الأنظار، لا تدري أين توجه نظرها بسبب بعد السراج الهزيل عنها، وكأنها مغمضة العينين، بيت والدها هو الآخر واسع ضعيف النور، يظهر القمر ويغيب كل ليلة، وما إن يطلع الفجر تنهض لعمل اي شيء يخفف العبء عن والدتها، ويخفف ضغط التفكير والقلق في رأسها،ديجا تعد الأيام والأسابيع والشهور، والجنين في بطنها يقلقها تارة، ويعطيها أملا يجعلها تتقبل الانتظار، السراج ضعيف في الليل ولا ينير إلا سنتمترات حول فتيله، تنتظر وصول إحدى رفيقاتها في النهار لتلعبا لعبة البنات المفضلة وهي التقاط الحصى بسرعة، وبترديد كلمات تظهر مراحل التقدم والانتقال من مرحلة إلى أخرى، تلتقط الحصيات الست واحدة واحدة، ثم اثنتين اثنتين، ثم ثلاثة ثلاثة ، ثم أربعة واثنتين، ثم خمسة وواحدة، ثم الستة مرة واحدة، وفي كل مرة ترفع حصا سابعة في الهواء وتلتقط ما تريد قبل أن تهوي الحصى المرتفعة، وعليها أن تلقف الحصى الطائرة مع الحصيات عن الأرض، مهارة ودقة وسرعة وتركيز، وربما تحتاج سنوات من التدرب على هذه اللعبة، حتى تتقن أي امرأة هذه اللعبة، وقليلات هن اللواتي يتقن الدورة كاملة في كل مرة، ديجا تحب تلك اللعبة ، ويسمونها لعبة (الكال)[[1]](#footnote-1) في قريتهم.**

**اعتادت ديجة أن تجلس مع والدتها وخالتها، وتحادثهما عن حياتها القصيرة مع عفان، عند زواجنا كان عفان يتيماً يخاف كل أولاد القرية ويهابهم، واستغله الكثيرون منهم، ولم يتعارك مع أحد قط في حياته، غدر به الكثيرون وخانوه واستغلوه، ولا يجرؤ أن يشكو، وسرعان ما يعلم بعض أو معظم أهل القرية عن أي شيء يحدث، ولا يمكن إخفاء خبر او فعل في قريتنا، وحين سألتها جارة والدتها، هل انت نادمةعلى حظك التعيس لزواجك من عفان يا ديجة؟ فتجيب ديجة بحماس الواثق**

**- والدي إنسان عاقل لم يخطئ بتزويجي من سلوم، وأنا لست نادمة على زواجي منه حتى في غيابه عني، فهو ما زال رفيق روحي وحياتي وعمري ومستقبلي، إن سلوم رجل حقيقي وشهم برغم صغر عمره أو جسمه، وجدت كل الحنان والحب والمتعة برفقته، وأما بقية طلبات الحياة فلا أهتم بها، وليس في قريتنا أغنياء باذخون، حتى أشعر انني ظلمت أو خسرت، فمعظم شباب القرية يمرون بحياة كما نعيشها أنا وعفان.**

**يقول سلوم ل ريتشي**

**- سلوم كان جائعاً متألماً من الإسهال وقت إلقاء القبض عليه، يريد التوقف لإخراج ما يقرقر في أمعائه، يطلب من الجنود السماح له بالابتعاد عنهم للتبرز، أو أن يبتعدوا هم عنه قليلاً، لكنهم يطلبون منه أن يفعلها وهو واقف، تمنّع في البداية لكنه سرعان ما وجد نفسه يفتح ساقيه دون إرادته، يرفع ملابسه حتى لا تتلوث ويفعلها أمامهم، صاروا يلتفون حوله ينظرون إلى دبره وقُبُله، تقدم أحدهم ورفع طرف قمبازه على رأسه وظل ممسكاً بها مقهقها عنيدا، محاولاً خنقه، بينما نصفه الأسفل عارياً، لمس بعضهم أسفل ظهره وأسفل بطنه بأطراف أسلحتهم، وبينما كان يحاول إنزال لباسه عن رأسه، لكنه لم يقو على الصمود أمام قوة البولوني الضخم الممتلئ، أحسّ أنه بقي في صراعه ذاك ساعات أو عمراً بأكمله، مع انها كانت لدقائق قليلة، وبينما هو في صراعه اليائس، يد تحاول إنزال ثيابه عن رأسه والأخرى تحاول ستر عورته، ثم يتابع سلوم (عفان) البوح ل(ريتشي) عما مر به في قريته.**

**- المصائب تأتي أولاً من الأقارب، لم تتح لي فرصة اللعب الآمن كغيري من أولاد، فأنا يتيم الوالدين و أخوالي لهم ظروف صعبة تشغلهم حتى عن أولادهم، وربما كان أكثر الاستهتار بي والاستغلال يأتيني من أبناء أقاربي، دون علم أهاليهم.**

**فصــل 19**

**هل المحافظة على البقاء حظ؟ هل الأسر حظ؟ هل الخطأ حظ؟ وهل اليتم حظ؟ هل موت والدي شاباً حظ؟ هل لحاق والدتي به حظ؟ وهل حظي أن أخطئ حظ؟ وهل كل خطأ يورد إلى شطب حياة كاملة أو يوقف بعضاً من حياة هو حظ؟ هل الحرب والعداوة والكراهية قدر أم حظ؟ هل الصحة حظ؟ هل الرجولة حظ؟ هل الاستسلام للسيطرة والتسلط واجبة دائماً؟ أم هي ضعف؟ أم قصور أم هي الأخرى حظ؟ أسئلة مقلقة كثيرة، حياة الإنسان هي مجموعة من الأسئلة، فكيف نستقرعلى رأي؟ وكيف الحل؟ ومتى الخروج من دوامة القلق والخوف والتهديد؟ أبحث عن أجوبة تريحني قليلا، هل يجتمع الخير والشر في إنسان واحد، في شعب واحد، في بيئة واحدة ، فكيف إذا تعدد البشر واختلفت الشعوب والأماكن؟ وماذا لو تجاور شعب مسالم يحب السلام، مع شعب حاقد استفزازي يعيش على أوجاع الناس؟ وهل يعتبر هذا حظاً أو قدراً؟**

**بينما كان سلوم يهتم بحوض زهور لا يعرف أسماءها، زهورغريبة عن أرض فلسطين كالجنود الذين يقابل سحنهم يوما بعد يوم،أو أولئك الذين جلبوا لينزرعوا في أرض فلسطين، مثل جنود شتيرن والأرغون وحتى الهاغاناه، تنبه للعصافير المحلقة فوق الحديقة التي يهتم بها، هل عرفتني عصافير بلادي يا ترى فتبعتني هنا حتى في معسكر الاعتقال؟ هل اشتاقت لمشاهدتي لأنني غبت عنها طويلاً ؟ إنها الأنواع التي عرفتها وتعاملت معه في طفولتي، هل أحست بشوقي للحرية وبضعفي، هل جاءت كي تتشفى بي لأنني آذيت الكثير من أبائها وامهاتها واجدادها حتى واقاربها؟ أو إن وجودها حولنا هو تعاطف مع سلوم الأسير، وهي تراه محبطاَ ضامراً ضعيفاً مأسورا؟. خاطبها قائلاً**

**- حلقي عالياً حرة طليقة يا عصافير بلادي، احملن كلماتي بأمانة إلى ديجا حبيبتي، إنقلن أنفاسي وتأوهات روحي على اجنحتكن، لا تهاجرن يا عصافير بلادي ولا تتركن اراضيكن للطيور الغريبة، أنتن تعرفن كل شبر في فلسطين، لا تصاحبن الطيور الغريبة ولا تنخدعن بجماليات ريشها وأشكالها والوانها الجميلة الجاذبة، إنكن في جنة لا تعرفن قيمتها وأهميتها، إسألنني عن ذلك، أنا المجرب المكتوي وما زلت، لا تخدعكن الزهور الغريبة، فبعضها سام وأكثرها خادع، احترزن من روائح البارود والحدود ، لا تخيفكن أصوات الحقد والمتفجرات والقنابل ولا تجزعن، احتملن حر بلادنا وبردها، ولا تهاجرن، الهجرة شر مستطير، الهجرة موت نصنعه بأيدينا، لا تأمنّ لجمال بعض الطيور الغريبة ومسكنتها، بعضهن يخفين حقدا دفينا، وقد تجدن أنفسكن بين مخالب الكبار والطيور القوية، او بين مناقيرها، أكرر نصحي بأن تحذرن الطيور القوية الغريبة، لأنها ستحطم أعشاشكن وتقتل فراخكن.وستخسرن وجودكن والاستقرار والأمان، وأخشى أن تصبحن يا طيور بلادي أنتن الغريبات والمهاجرات، وتستقر الطيور المهاجرة في أماكنكن وتأخذ منكن دفء أعشاشكن.**

**مجند درزي يفاجئ سلوم بوقوفه قريبا منه، يراقب حركاته، يتكلم معه بالعربية، يعرف لهجته الفلسطينية الشمالية، فيسأله عفان عن الرجل الذي يرتدي السواد وله لحية طويلة.**

**- هل لك دين يا سلوم؟**

* **نعم وديني الإسلام**
* **هل تحب أن تغير دينك**
* **ولماذا مثل هذه الأسئلة**
* **إنه الكاهن الحاخام يزور بيوت الضباط والجنود، ليعلمهم المزيد عن دينهم، وعن التعاليم التوراتية. عفان يسأل الدرزي عن دينه**

**- أنا لي دين والحمد لله، هو دين أبي وأمي، ولا أريد أن أتفلسف لك، لكن أظن أن الدين مطية في حياة البعض، دابة الأرض دائماً، يستغله كثير من الانتهازيين والنفعيين والحكام، والمشايخ والكهنة.**

**تقف امرأة على شرفة منزلها تحيي الحاخام، وتطلب من القوة العليا أن تحميه، قالت إحداهن بعد أن أوقفت الكاهن، مستأذنة بسؤاله**

* **نريد مدرسة قريبة من منزلنا في هذا الكيبوتس تعلمنا وتعلم أولادنا أصول ديانتنا وباللغة العبرية.**
* **طبعاً طبعاً يا بنتي، ومع أنني متطوع لمساعدة رجال الجيش من المتدينين، ولتوعية غير المتدينين من يهود إسرائيل لتتبع دين آبائهم وأنبيائهم. لكن المرأة تقاطعه قائلة**
* **نخشى على أولادنا وأحفادنا أن لا يتعرفوا على تعاليم ديننا، إذا انشغلوا بأمور الدنيا والحروب والمال ورغبات الجسم، نريد أن تتاح الفرصة لكل إسرائيلي تهيئة عقولهم لتثبيت وجودنا في أرض إسرائيل، أرض الميعاد. يبتسم الكاهن فتهتز شعرات لحيته الطويلة المدلاة لتصل إلى حزام بطنه ثم يقول**
* **قادمون، قادمون، الدين واللغة وتطهير الأدمغة مما علق بها من ثقافات الشعوب الأخرى، وملايين اليهود قادمون، كنا نحيا مع الإغيار في كل مكان، والآن نحن حكام ارضنا، والأغيار هم المنبوذون، إنها ارض إسرائيل، ولا نريد أن يشاركنا بها الأغيار، نريدها خالصة لليهودي من اي مكان، عاد شعبنا وتجمع ليسود ويبقى، ليحكم الأرض والسماء، وسيعيننا الله على أن نسخر البشر لمساعدتنا في كل مكان، ومن كل جنس ودين، والقريبين منا والبعيدين، فنحن شعب الله المختار، قالها لها بالعربية والفرنسية والألمانية ثم العبرية.**

**كان المجند الدرزي ما يزال واقفاً قربي، بجانب حديقة الزهور وشجرات الليمون الثلاثة والبرتقالات الأربعة، واستمع لكلام الكاهن، أدار وجهه وبصق على الأرض بصوت خفيض، تتلألأ أجنحة العصافير في أشعة الشمس، وتتجلى ألوانها الزاهية، غير عابئة بمن تحتها. يردد الكاهن**

* **اصبروا واطمئنوا، سيكون كل ماعلى ارض أسرائيل في خدمة دولتنا الفتية، وسيبقى علم ديانتنا مرفرفاً، خفاقاً. ازدادت حركة شعرات لحيته الطويلات، يتراقص حنكه الأسفل أثناء حماسه في الكلام بثقة العارف عن كل قادم، هبت نسمة هواء خفيفة لطيفة، تحمل عبق زهور البرتقال، تتطاير شعرات جدائل لحيته شمالاً ويميناً، كأنها جمع من أشباح مرعبة في حلبة مصارعة. وحين أحسّ الكاهن أن المرأة ملت من كلامه المتكرر وبدأت تتراجع قليلاً قليلاً لدخول المنزل، لا مس بطرف أصابعه طرف قبعته السوداء المرتجفة، وتأكد من أناقة معطفه الطويل الأسود كذلك ، لكن عيناي ظلتا تتابعانه حتى اختفى بين بيوت عائلات الضباط والجنود، انشغل العامل الدرزي ونأى بنفسه بعيداً عن المكان، تذكر سلوم نفسه لحظتها، فخاطب نفسه قائلاً: ليتني لم أكبر، وليتني لم أتزوج، وليت أبي لم يمت، وليت أمي لم تمت، وليتني ما عرفت شربة ملح الإنجليز، وليتني ما حضرت لأرضنا البعيدة ذاك اليوم، وليتهم لم يحضروا لاصطيادي يومها.**

**عاد يخاطب طيور فلسطين، أحس اليوم بندم شديد، لأنني أتذكر كم جمعت من بيوض الحمائم البرية وفراخها في الماضي، نزعتها من أعشاشها، وكم نزعت صغار العصافير، ونجحت في حالات أخرى في صيد الأم أو الأب بشرك فوق العش، وكم أكلت من لحوم تلك العصافير وبيوضها، هل تعرفت عليّ في أسرى، أو هل تتشفى بي تلك الطيورهذه اللحظات يا ترى او تقصد أن تعاقبني على ما كنت فعلته بجنسها؟ وها أنا الآن في شرك أناس غرباء لا يرحمون، مالي أرى أن الطيور نشيطة كثيرة في الأجواء هنا هذه الأيام؟**

**أذكر حين دفعني ذاك الأوربي العلج ، صدره وبطنه يكادان أن يتبعجا من الامتلاء واللحم والشحم ، هويت صوب الأرض، فامتدت يداي المثبتتان ببعضهما أمامي، ركزت قامتي الهزيلة على رؤوس أصابعي، فرفعت رأسي دون أن أشتكي، أطالعه وأتأمل نظراته الحاقدة، ثم وبصعوبة نجحت وعدلت قامتي ثانية. ثم قال ذاك الصهيوني الأوربي السمين**

* **أيها الفلسطينيون الملاعين، ما أصبركم على الأذى، وما أشد احتمالكم، غيبوا عن وجوهنا واغتربوا أيها الأغراب، تفرقوا وتشتتوا، ما زلت لا أشعر بالأمان حتى وأنا في أرض إسرائيل منتصرين عليكم عسكرياً، تركت بيتي وأملاكي ومتجري ومرابع طفولتي في أوربا ومع هذا لاأحس بطعم النصر، إن ربّنا راض عنا، ولو انني لا احب الخدمة العسكرية، لكن قسوتنا ضرورة للقضاء على أمثالك أيها العربي الحقير، تنطق عيناه بأبلغ استهزاء وبأمرّ نقد وحقد، استغربت أنه يتكلم العربية، وعفان منهك لا يقوى على المشي، ويجد صعوبة حتى في التنفس ومرارة ملح الإنجليز وطعمه تلوث فمه ولسانه وحلقه وأنفاسه.**

**ليتك قربي يا ديجة، لأشكو لك أو أحدثك عما في نفسي هذه اللحظات، لن أستطيع أن أصارحك بكل ما جرى، وقد أعاني في قادم الأيام بما هو أعظم، لكن لو تحررت وأنا في عمر الشباب وبصحة مقبولة، سأبتعد عن الخطر، سأحافظ على صحتي، السلام هو مطلبي، ليس لي وحدي ولكن لابني أو لأطفالي، سأحاول أن أعيش طويلاً، كي أحمي أطفالي وأبعدهم عن الأشرار والمغتربين والضالين، أريد أن يتفرغ أبنائي لتعلم كل ما فيه خير، لا يضرُّ إنساناً، ولن أتيح لإنسان أن يضرَّهم، لن نفكر أنا وأولادي بالشر ولا بإيقاع الضرر بمخلوق أي كان، سيكون ابني أميناً وصادقاً ونظيفاً وبصحة جيدة، لن أنصحه بتناول شربة ملح إنكليز إلا تحت إشراف طبيب، سأرعاه وأحميه من كل ما يمكن أن يؤذيه.**

**وأنت يا ديجة سترتاحين، أضمن وأتعهد لك أنك ستكونين سعيدة، ستهنأين بالعيش معي ومع أولادنا، سنحسن كلانا تربيتهم ونعتني بهم من أجلك ومن أجلهم، من أجلنا، من أجل حارتنا، وبلدتنا، سيساعدون الأهل والأقارب، أحبك يا ديجة وأتمناك قربي في أي مكان، سنعيش عمرنا كأننا في حلم ملتصقين ظلاماً كان الجو أم منيراً، حاراً أم بارداً، ليلاً أم نهاراً، صيفا أم شتاء، أنت معي الآن وفي كل زمان، وما دمت معي وبقربي فلا يشقيني عناء أو بلاء، سأعمل أي شيء من أجل إسعادك، ومن أجل أبنائنا وبناتنا، سنكون أسرة سعيدة، ستفتخرين بأبنائك، بأبنائنا وببناتنا، وسأجعلك تفتخرين برفيق عمرك والدهم.**

**هل سأعيش أم سأموت شاباً مثل والدي ، مات وهو يعمل عملاً خطيراً من أجلي ووالدتي وشقيقي ، نعم مات وهو يعمل، فهل سأموت أنا في السجن؟ في الأسر؟ في الزنزانة وتحت التعذيب أو وأنا أخدم في حدائقهم، وأنا شاب كوالدي؟ لكن والدي ترك ولدين، أنا وشقيقي، وليتني مت أنا وعاش والدي، حتى لا أتعرض لكل أنواع الشقاء التي مرت عليّ، وإن مت هنا في الأسر فهل ستعرفين عن موتي يا ديجة؟ أما بعد موتي أتمنى أن أعرف ماذا سيحصل لك، الأرواح لا تموت، ستحلق روحي وترعاك، سترفرف في كل الأرض حتى تلاقيك، وتعرف ما فعلت بعد موتي، هل ستتزوجين؟ ومن هو ذلك الإنسان الآخر من بعدي؟**

**تصل المجندة المغربية لنقله من حديقة منزل الأرملة الشقراء، بعد مضي العام الأول على أسره، تقول له**

* **قد تستغرب ، أحمل لك تحية من كراسكي البولوني ، هل تذكره؟**
* **لا سلمه الله ، وهل ينسى الإنسان المكبس؟ وماذا عنده؟**
* **لم يسلم فعلاً، حتى دون أن تتمنى له المرض**
* **لا أدعو له بالمرض فقط بل أدعو له بالموت القريب**
* **حبيس غرفة حقيرة منذ ثلاث شهور ، بعد أن لفظته جميع المسشفيات**
* **ما به**
* **مرض خبيث يفتك فيه**
* **خراء الأبرياء والإسهال سلاح قاتل كسرطان الدماء، فتجيبه ريتشي**
* **إنه يتمنى أن ينجو من جحيمه، يقول إنها جحيم هنا في إسرائيل، شك وقلق و . . . وكراهية**
* **وهل يتذكرني حقا؟ وهل تحدث عما كان يتمنى أن يقوم به؟**
* **مالذي قلته لك قبل قليل**
* **ذكرتني بشربة ملح الإنجليز(إبسوم سولت) يا ريتشي، وبتعذيبه لي وضربه المبرح وبأمور معيبة حاولها حين اختلى بي.**
* **يتمنى كراسكي أن يعود ليصلي عند قبر والده الذي قتل في حرب النازية، ويطلب العودة هناك بعيداً عن دولة إسرائيل، تصور إنه يتمنى ترك أرض الميعاد ليموت هناك في بولونيا.**

**لم أحلم أن أرى نور الشمس والفضاء والزهور قبل إنهاء مدة الزنزانة والحكم بالأشغال عليّ، وأحدى الدرزيات العاملات في مطابخ الجيش والنظافة قالت إن المعسكر قرب مطار اللد، وتأكدت من ذلك حين كنت أشاهد بعض الطائرات الصاعدة أو النازلة على بعد مسافة قريبة من موقع المعسكر، كان مطارا دوليا وقاعدة عسكرية صغيرة لبريطانيا أيام انتدابها على فلسطين، وحين سألت ريتشي عن موقع المعسكر أجابتني**

**- هل تريد أن تجلب المتاعب لنفسك؟ معرفة تضرك وربما تضرني. بعدها لم تقل كلمة واحدةً حول هذا الموضوع.**

**فصـــل 20**

**- هل تعلم ياتيرو، يا تيروريست أنني قررت الالتحاق بمعهد خدمات الطيران. لم يظهر أي تأثر او انفعال للخبر، فتكرر ريتشي قائلة، الم تسمع ماقلت عن معهد خدمات الطيران،**

**- هل ستصيري قائد طائرة حربية؟ والله أنت حرة، القوي يستطيع أن يفعل ما يريد.**

**- لم اقل انني سأتدرب على قيادة الطائرة، خدمات الطيران أي لكي أصبح مضيفة في الطائرات المدنية.**

**يهز عفان كتفيه، قائلا،**

* **أنا لا أحب مثل هذه الوظيفة، ولا أفهم ماذا تفعل المضيفة في الطيارة؟ ثم ولماذا هذا الاختيار؟**
* **نعم أريد أن أكون مضيفة طيران، الإقامة في مكان واحد مملة، الإقامة هنا في دولة إسرائيل كأنها سجن، كل الشعوب التي حولنا تعادينا وتكرهنا، أصبحت أحس أنني أسيرة مثلك، أنت تتوقع أن يطلق سراحك يوماً ما، وتعرف أين ستتجه، وتعرف مكان راحتك وأهلك، أما أنا فالمستقبل بالنسبة لي هاجس مقلق حارق، لا نملك أنا وأهلي أن نكون مغاربة بعد كل ماحدث، ولانستطيع البقاء جزءا من نظام غير شرعي ومحاصر من كل الدول التي حولنا، إن وجودنا في دولة محاصرة هي مواطنة مزيفة، كأنها قشرة مواطنة رقيقة، او هي ضحك على اللحى، إنها مثل الملابس الأمريكية الصيفية لاتستر جيدا، خفيفة ويسهل خلعها او مشاهدة ما تحتها أو يسهل تمزيقها، إنني أعيش في ظلام وظلم ونيران حارقة.**
* **أصبحت أجد صعوبة في فهمك في الأيام الأخيرة يا ريتشي، هل لأنني ريفي لم أدخل المدارس النظامية؟ إنني أحمل من الهموم والضيق ما تنأى به جبال، نعم إنك تسرّين عني قليلاً، وتكشفين لي الكثير من المسارب والخطوط الدقيقة لعقلي ومشاعري، لكنني حين أتذكر أنني أسير سجين، تضيع الاتجاهات ببوصلة أفكاري، ثم ما أسمعه منك فلسفة ووعي لم أتوقعه، تتكلمين كأنك موتورة، الحقد يولد قوى خفية لانستطيع ضبطها أحيانا، ويصعب أن نجد لها متنفساً إلا بتخريب او تدمير، وحكايات الحكماء التي تعلمنا منها أثبتت أن الإنسان حين يتجبر او يقوى لحد عدم القدرة على الضبط، فإنه يعمل بلا وعي على تدمير نفسه من داخلها، او هدم البنية التي تحمله.**
* **ما دمت أنا موجودة فأنت لست أسيراً يا سلوم، صرت أشتاق إلى اللامكان حتى ينمحي في عقلي الزمان ، حين أكون مضيفة في الطائرة لا أحس الساعات المملة في اللامكان، ولا الأيام الرتيبه، لا أريد الحرية المزيفة على هذه الأرض التي يقولون لن انها مقدسة، إن حياتنا خالية من المعاني الإنسانية على أرض دولتنا المزعومة، هي زائفة وزائلة لا محالة، لكم جرب الكثيرون قبلنا أسلوب الأبرتهايد والتعالي على السكان الأصليين وفشلوا، فلن نكون افضل مما فعلته فرنسا في الجزائر، ولا من البيض في جنوب افريقيا، ولا من بريطانيا في كل مكان حلت به مستعمرة في افريقيا او الهند او الشرق الأوسط، ومحاولاتنا سلوك النمط الأمريكي، وكيف استطاعوا شطب وإلغاء الهندي الأحمر في أمريكا الشمالية، سنبوء بالفشل هنا، الوعي هنا اكثر بكثير، مما كان لدى الهندي الأحمر، وأكثر من الإنسان الأوربي والغربي المغرور، حين صار الإنسان الأبيض يحبو ويزحف نحو أمريكا، كان بلا ضمير، بلا ثقافة حقيقية بلا إنسانية، أناني حتى العظم، لا يفكر إلا في نفسه، والظروف ايامها كانت ظروف الاستعمار والاستعباد، كانت قرون السباق من اجل التوسع والخروج من اتون سجون الظلم الأوربي، ومعاداة الهندي الأحمر والقضاء عليه كان وسيلة للتنفيس عن الحقد الذي كان كامناً في عقولهم، بسبب الحروب الدينية والحدودية والفئوية والطائفية، فصار جل اهتمامهم المال والاقتصاد والغنى والذهب بطرق لا إنسانية، فانشغل الأوربيون بالاستعمار والقتل والاحتلال وقهر الشعوب الآمنة المستقرة، والتي كانت في حالة من الضعف والفقر والتخلف والانعزالية، إلى حد يرثى له، في إفريقيا كان الجهل والمرض يفتك بالناس، وفي أمريكا البعيدة كانوا بعيدين عن الحضارة والتقدم العلمي، وأوربا في أوج نهضتها ويقظتها، لا هم للأوربي إلا أن يصبح غنيا او حاكما متسلطا، أو مستمتعا بكل مطالب الحياة، وعبر قرن او قرنين وفي غفلة من الزمان، حصل ما حصل، في جو انعدام المواجهة الحاسمة، أو الاعتراض القوي، او هي اتفاق اللصوص والأشرار، تمكن الغربيون من إبادة ملايين الهنود الحمر، أو طردوهم إلى مستعمرات إسبانيا في أمريكا الجنوبية والمكسيك، فخلق الإنسان الأبيض أمريكا، غريبة في كل شيء، ومع هذا فلا أتوقع لها أن تظل قوة عظمى، والزمن دوار.**

**على كل حال، سأكون مضيفة طيران يا سلوم، هل تفهم ما معنى مضيفة طيران؟ هناك في الطائرات المحلقة لن أهتم بشروق شمس ولا بغروبها، ولا أين سانام وكيف، ولا مع من سأنام.**

**- برغم انتباهي التام لكلامك يا ريتشي، إلا أن شكوكي وقلقي لا تنتهي، ثم هناك تساؤلات كثيرة في رأسي. عملك كمضيفة في الطائرات، يعني أنك ستقضين معظم عمرك بها، أفلا تخشين سقوط الطائرة؟**

**- حينما نركب السيارة أفلا نخشى وقوع حادث للسيارة، بسبب خطأ منا او من الغير؟ في الطائرة ينحصر الخطأ في طرف واحد، فلا نتوقع تلاصق طائرة بأخرى او اصطدام بينهما، او تشقق الطريق وانحدارها او تثلمها، كما يحصل للسيارات على الأرض، ففي السيارات هناك عوامل خطيرة أكثر بكثير مما في أعالي السماء، السيارة لها محرك واحد، أما الطائرة فلها اثنان او ثلاثة او اربعة، والخراب والتعطل متوقع أي وقت في سيارة او طائرة أو أي آلة في الدنيا، العالم أمامي واسع، روحي تزداد تمرداً يوما بعد يوم، بدأت أحنّ للتحرر وللتحليق بعيدا عن الواقع والمألوف.**

**عفان يفكر في نفسه ويتمتم قائلا، أفكار هذه الإنسانة التي لا تتوقف جلت بعض الغمام الذي يضبب رؤياي، أحسّ بإنسانيتي تستيقظ بوعي وتحفز يوما بعد يوم، تقطع ريتشي أفكار سلوم وتكمل قائلة،**

* **إن إنسانيتي وحقي في الوجود والعيش ينمو ويتضخم يوما بعد يوم، لا بل ساعة بعد ساعة، منذ بداية هذا الأسبوع، تنتابني أفكار تقض مضجعي، سأتابع روحي في مساراتها أو صراعها، لعلنا نلتصق وننأى ونحلق، سأحمل عقلي وقلبي معي، سأحاول الاندماح في عالم جديد، عالم أريده أن يكون فيه الكثير من المفاجآت المحفزة. عفان ينطلق بكلام عفوي قائلا**

**- لا أفكر بالتأملات التي تخالف عقيدتي ونشأتي ولا أؤمن بها، إنني لست مغامراً، ولا أريد أن أجرب المغامرة، أريد الامتداد عبر التاريخ، ولا أبحث عن لحظة شموخ ثم أنتهي، أحب الخلود، ليس بعمري على مدى مئة سنة او اكثر، لكن بخلفي، بأولادي وبناتي سأمتد، وستمتد جذوري وأغصاني عبر الحياة والوطن، اسمعي يا سيدة ريتشي. إن أفكارك تزعزع استقراري النفسي والاجتماعي يا ريتشي، هذا إن كنت أفهم كلامك، ربما مازلت أجهل الكثيرمن أفكارك واجتهاداتك وسلوكياتك، إنك تخلطين المطامح بالمرابح، والمكاسب بالمتاعب، والمطالب بالعواقب، تؤثرين في عقلي وعلى مشاعري والخشية أن يصل الأمر لضميري، أحاول الصمود والمقاومة، لا أنكر أنك نورتِ زوايا كثيرة في قلبي وعقلي، وزدتني إيمانا بالحقيقة، أعرف أنه لا بد من طرق ومشاريع، لي أهداف أعرف حدودها، لكن البدايات صعبة عليّ، والطرق فيها الكثير من السدود والحواجز، أفكارك تخلط الواقع بالخيال في رأسي؟**

* **أرى أنني لم أعد أراك جاهلا يا سلوم، سأعانق السماء صبح مساء، كتفاي سترتاحان من حمل السلاح، ولن أحتاج حزاماً قوياً يحمل مسدساً وخنجراً فتاكين.**
* **مهما قلتُ ومهما فعلتُ ومهما اقتربتُ منك، أحس بأن فجوة واسعة ماتزال بيننا، أصارحك أنني لا آشعر بأمان، فمن ناحية أقشعر حينما ألمح مسدسك وخنجرك الذي يلوح متراقصاً أو نابضاً تحت الحزام، وأعيننا تتابع ومشاعرنا تهيم بكل ما هو أدنى من الحزام، ألم تتنبهي لسلوكي؟ أعني الفرق في سلوكي ونظراتي حين تكونين بملابس عسكرية معظم الوقت؟ وبين الأوقات حين تقوديني فيها ولو لمطعم صغير سريع الوجبات بملابس مدنية؟ أو لأي غرفة ولو منعزلة، أو حتى لزنزانتي، عفواً غرفتي الصغيرة، حيث تكونين بملابس او بدون، كما تعرفين، فأين المقارنة بينك بلباسك العسكري، وبين الأنثى الجاذبة وقتها أنت؟**

**تسرح ريتشي بنظراتها بعيدأ لثوان طويلة ثم تقول،**

* **لقد أسعدتني بكلماتك الأخيرة، وطمأنتني انك تندمج معي حين أتحرر من قيودي، ولتتذكر يا سلوم، أنني لم أعد أهتم بالصحائف والأوراق القديمة، لتعد تلك النصوص التوراتية للمتاحف والمعابد، وقلوب المؤمنين وأرفف المنافقين، جميلة شهوري الماضية يا سلوم الفلسطيني بعد التاثير في مشاعرك، أرى أنني أقوم بعمل عظيم، عظيم جدا يخفف عني ثقل الضمير، ويفسح المجال للكثير من أفكاري وحياتي وتأملاتي لمستقبلي، أتفهم ما قلت قبل ثوان؟ إنني لم أتبنّ طفلا أرعاه أو أستغله، بل تبنيت مشاعرك كلها.**
* **ريفي عربي فلسطيني مضطرب أنا، لا أدري من الذي يغير الآخر منا، وهل قرارك في العمل مضيفة جوية نهائي؟ لم تجب على سؤاله ، تنظر بعيداً وعالياً للأفق الأبعد مرة ثانية، تضع ذراعها اليمنى حول خصر سلوم، تجذبه وهي تسير حالمة، لم يجرؤ سالوم أن يسألها عن وجهتهما، لكنه ظن أنها محلقة مع طيور غيرمرئية وعلى أنغام سماوية، بعدها يقضيان وقتا حالما ساحرا معا.**

**فصل 21**

**كان شتاء عام 1947 طويلاً، تواصل نزول مطر غزير معظم ايام الشتاء، وامتد في ربيع ذلك العام أيضاً ، فكانت غلال الزروع والثمار وفيرة، واستبشر الناس بحمل الزيتون، ارتفع الزرع إلى ما يقارب قامة الرجل في منطقة قريتنا، وعلت نباتات الذرة لتخفي أطول الرجال بينها، وتقاطرت سيارات الحمضيات على البلدة لبيع البرتقال بجميع أصنافه بأسعار لا يصدقها عقل، فصرنا نقول (صار البرتقال أرخص من التبن أوالقصل أو القش)، أي إذهب لهم بكيس مملوء بالقصل اوالتبن، وسيملأون كيسك برتقالاً مختلطاً.**

**وهذه الأيام من عام 1952 سلوم أسير، يعمل حول منزل مستوطنة يهودية شقراء في الأربعينات من عمرها، يخاطب نفسه، صحيح انني محصور ومراقب في مستوطنة صغيرة قليلة السكان، لكنها عامرة بالأزهار وبساتين الخضار، أستطيع تنفس الهواء النقي، يحاول أن ينصت لحديث المرأة الشقراء، تحكي مع امرأة يهودية سكنها قريب، لكنهما تتحدثان بلغة لا يفهمها.**

**اعتاد كلب الشقراء على عدم النباح على سلوم، ينظف تحت القطة، يروي الزهور، يتعهد المساحة الصغيرة المزروعة بالخضار حول الفيلا الصغيرة، يرويها بالماء وبقطف ثمارها من البنادورى والفاصوليا والخيار والفلفل الأخضر والباذنجان والكوسا، أرض خصبة جدا، حين يتعهدها شخص مخلص، تأخذ زوجة الضابط ما يكفي لطعام ثلاثة أشخاص أو أربعة من صنف أو من صنفين كل يوم، ثم تطلب من عفان أن يرسل باقي القطاف إلى المكتب الرئيس، يكيلونه ثم يقيدون قيمته لحسابها، مضت أسبوعان وأنا أنتظر مشاهدة زوجها، لم أجرؤ على سؤالها ولا حتى التحدث معها عن أي أمر، ظننتها لا تعرف إلا الفرنسية، ولكنها فاجأتني بعد الأسبوعين بلهجة عربية مكسرة، دعتني للجلوس معها ومع ابنها وابنتها، لمشاركتهم طعام الغداء من السمك في ذلك اليوم، لم يصدف أن أكلت السمك إلا في مطعم صغير في يافا، عام 1946، بصحبة أحد أقاربي، حصل معي إسهال وآلام في بطني بعدها، مع أنني زرت يافا مرتين أو ثلاثا، لكن طعام السمك لم أكن أستسيغه من قبل، وأهل قريتي لا يأكلون السمك ولا يحضرونه لبيوتهم، لعدم وجود ثلاجات أو كهرباء في قرى فلسطين، أعجب كيف استطاع اليهود سرعة كهربة كل مكان وكل قرية في فلسطين المنهوبة، وفي أقل من ثلاث سنوات بعد تثبيت دولتهم. استعمرنا الأتراك أربعمائة سنة، وحكمنا الإنجليز بعدهم ثلاثين عاماً، وما زالت قرانا كلها دون كهرباء ولا شبكات ماء، ولا أدري إن كنا سنبقى بلا كهرباء بعد اتحادنا مع الأردن؟.**

**وضعت خادمتها السوداء طبقين فارغين أمامي على الطاولة، لم أعتد على الجلوس للطعام مع عائلة أجنبية، وبعد أن وضعت الشيء نفسه أمام سيدتها وأمام كل من الطفلين، تحادثني قائلة،**

**- السمك لذيذ، أردنا أن تشاركنا طعامنا هذا اليوم**

**- أخشى أن أصاب بالتسمم أو بالمرض أو بالإسهال إذا أكلت السمك؟**

**أكدت لي أنه سمك طازج، ولا خطر من أكله، أمشي صوب طاولة السفرة مترددا، أتوقف ثم أتقدم بحذر، ثمّ كيف لي أن أجلس مع المرأة الشقراء على طعام العشاء، وزوجها غير موجود؟ تلاحظ خادمتها الحبشية السوداء ترددي، فتتحادث مع صاحبة المنزل بالفرنسية، فتسألني**

* **ألست جائعاً، أو هل بك آلام تمنعك من حرية الحركة؟**
* **هل سيحضر البيك زوجك الليلة على الطعام؟**
* **زوجي؟ لولا أنهم مدحوك واختبروك وتأكدوا من بساطتك لقتلتك هذه اللحظة، زوجي قتله الفلسطينيون في جبال القدس.**

**خرست وانقطعت أنفاسي حين سمعت ردها، لم أجد كلمة مناسبة أعزيها بها، لكن تذكرت عبدالقادر الحسيني، وحسن سلامة، والشيخ عز الدين القسام، حاولت أن ألتزم الصمت وأدرت وجهي محاولاً أن أعود صوب الباب ، لكنها سرعان ما قالت**

**- أنت ليس لك ذنب، وكثيرون أمثالك أبرياء ومسالمون، ثم أنت لست لاجئاً ولن تنافسنا أنت ولا أهلك في أراضينا التي أعادها الله لنا، ضمن مساحات دولتنا الفتية، زوجي مات فداء إسرائيل، وأنا وابناي فخورون به، لقد تحقق هدفنا الذي مات من أجله، وسبب تقديري لك ما لمسته من نشاط وإخلاص في عملك، إذ تقدم إنتاج حديقتنا، وزاد دخلي أكثر من الضعف، بعد بدء اهتمامك بزراعتي، ولم أعد أطالب بمساعدات مادية إضافية، من إدارة الكيبوتس ولا من السلطة المركزية.**

**فصل 22**

**في العام 1951 انقطع نزول المطر مبكراً في ربيع ذلك العام ، لم تنزل نقطة مطر واحدة بعد منتصف شباط فبراير، والشمس تذرع السماء كل يوم ساطعة محلقة حارقة، تجفف الحرث والزرع، اسودت الجلود، وقتمت الوجوه، نفقت أبقار وأغنام كثيرة صيف ذلك العام، والمروج الغربية محرمة على أصحابها، تزايد جنون اليهود وتدريباتهم، يتواجدون على الحد الفاصل كل نهار، لا يتوقف هدير الرصاص ليلا ولا نهاراً، تدريب واعتداء وتخويف لمن بقي من عرب فلسطين الذين لم يهاجروا، إزعاجاً وإغاظة وتيئيساً، بعض الناس امتلكوا أباراً من يجمعون بها ماء المطر، فاختصوها لأنفسهم ودوابهم، كان عندنا بئر، لم يكن لدينا إلا ثلاث شياه وبقرة واحدة ، كنا بحاجة للمال، فقرر خالي الكفيف بيع جزء من مخزون ماء البئر لأصحاب الغنم من سكان قرى بني قيس أو التعامرة وعرب السواحرة، هؤلاء مشوا مسافات طويلة بأغنامهم، طلبا للماء والكلأ، قدموا من قرى محافظة الخليل وقرى بيت لحم وجنوب مدينة القدس بأغنامهم يجوبون القرى والمناطق الأخرى من بقية فلسطين، حتى لا تنفق أغنامهم، مصدر ثروتهم في حياتهم، بعد أن منعوا من دخول سهول منطقة الخليل الغربية والجنوبية، او الوصول إلى سهو منطقة بئر السبع الواسعة بالمراعي، لأنها أصبحت ضمن أراضي دولة إسرائيل، فاضطروا أن يسعوا في مناكب ما تبقى من فلسطين، في أراضي قرى غرب رام الله الخصبة بعد موسم حصاد الحبوب، كان عفان يتعاون معهم ويساعدهم، كي يحصل على دريهمات قليلة او سطلا من حليب تحوله ديجة زوجة عفان إلى جبن لبيعه، واستغلال ثمنه لتأمين غذاء افضل له لزوجته.**

**بعد عودته لغريفته داخل معسكر الاعتقال، شاهد سلوم فأره الذي اصبح جاراً له، تمنى لو يستطيع أن يدخله عنده يشاركه غرفته كقطة او كلب، لكن الفأر ابى دخول الزنزانة، كان يرحب بأي بقايا طعام يلقيه سلوم له، ويقبل أن يقترب منه سلوم، لكنه كان يبتعد كلما مد يده لتلمسه، لا شك انه فأر فلسطيني حذر، ليت شعبنا كان حذرا مثل هذا الفأر الفلسطيني، يتضايق الفلسطينيون من الفأر، لكن ليتهم تمكنوا من تعلم أساليب حفاظه على حياته وروغانه حتى يضمن بقاءه حرا في عالمه، فكر سلوم بهذا الأمر كثيرا، ووجد أنه أعمق بكثير مما هو في ظاهر الأمر، فحياة الفأر وخلوده على أرض فلسطين حكمة بالغة، تذكر عفان أن قلة من الفلسطينيين صمدوا في أماكنهم وقراهم، وقرروا البقاء تحت الحكم الصهيوني يأساً وإصراراً، فإما الموت وإما الحياة بأي شكل على أرض فلسطين وطنهم ومنشأهم وجذورهم، ارتاح قليلا حين تذكر هذه الحقيقة، ثم قال في نفسه، ستأتي الأيام ويدور الزمان، ويتكاثر هؤلاء الشجعان او اليائسين، سيكسبون ثقة وقوة وسيزدادون عددا، وسيأتي يوم يفرضون فيه وجودهم ثانية لإعادة تعريب ما سلب من فلسطين.**

**لكن شعور سلوم بالوحدة أحبطه يومها، فمشاهدة الفأر اصبحت ملهاة ودمية إضافية له، كثيرا ما تأمله طويلا وحادثه، حين يكون وحيدا بعد إنهاء عمله، يجلس أمام باب زنزانته، ويخاطب الفأر. سبحان الله، كنت أكرهك وأعمل على قتلك في قريتي، وبين حيواناتي في منزلي العتيق، واليوم أشعر بأنك تعيد علي صور حياتي في بيتي وديجة تصيح هاربة من مشاهدتك، فأهب لنجدتها، محاولا قتلك، لكنك أذكى مني وأسرع، تحب حياتك وتحرص على مكان وجودك، فسرعان ما تختبئ، ألا تتوسط بيني وبين ديجة، إلا تذهب يا صديقي الفأر لتبلغها قبلة او رسالة من زوجها؟ كم أنت لطيف وماهر وعنيد، إنني أتعلم منك حب الحياة، وأتعلم كل يوم كيف أحافظ على حياتي وأسرتي وتواجدي على أرض فلسطين الغالية، ثم يسرد عليه حكايات وقصصاً وأخباراً طويلة عنه وعن أسرته وعن حياته لا تنتهي، يقصها سلوم على الفأر، وعينا الفأر تتلألآن، وكأنه يفهم ويسمع ما يقصه عفان عليه، لكنهما تتأملان سلوم وحاله.**

**فجأة يخاطب نفسه، (يخرب بيت أهلك يا عفان) هل ضاقت عليك الأرض بما رحبت؟ أو انك عميت حتى ساقتك قدماك الحيوانيتان الساذجتان، حتى داست أقدامهم عليك حين أمسكوا بك، لماذا لم تتنبه للمنطقة؟، كيف لم تسمع حركاتهم وتقدمهم؟ شبابك ووجودك على ارضك وأرض أجدادك منحك الثقة بأنك في مكان أمين، الصهاينة أعداؤك، وأعداء شعبك، فكيف امنت لهم، إنهم هم الماكرون، ونحن في غفلة عنهم ساهون، وستبصر ويبصرون، لكن كيدهم جد عظيم، فكيف تسلمون؟؟ بعد أسرك تلا تتابعت وجبات تعذيبهم اليومي لك، نوبات تعذيب تتكرر كل يوم، على ظهرك وذراعيك وفخذيك وإليتك، عدا عن التهديد بالكي الكهربائي والاغتصاب، ولا تسأل عن رأسك؟ والعبث بأماكنك الحساسة لتحطيم معنوياتك، قدماك تحملان جسدك ورأسك، لكن أقدامهم تطأ هذا الجسد ورأسك الصلب العنيد، كل ذلك من أجل (شخة) وإفراغ الخراء من أحشائك.**

**عرفتُ وأنت يا عفان تحتَ التعذيب مالم تكن أعرف، وتعلمت وأنت في السجن من أنت ومن هم وتواترت عليك الأسئلة عن مصير أهلك، وتعلمت بعد معرفة ريتشي أن الحياة فن، ولو بأسلوب الفأر، وتحمله أي ظروف حرصا على الحياة.**

**لم يكن يكفيهم تشفيهم بتعذيبي، بل يسخرون مني ومن أمثالي من رجال فلسطين ونسائهم، كنت أنسى أهلي وديجا وأنا بين مخالب هؤلاء الحيوانات وقيودهم، ماذا لو دخلتُ الحدودَ التي يتحدثون عنها عن قصد؟ لتغنم او تكسب مما فيها من خيرات يا سلوم؟ أكل هذا بسبب شربة ملح إنجليز؟ اللعنة على الإنجليز وعلى أملاحهم وجريمتهم، ولماذا شربة ملح الإنجليز في ذلك اليوم يا رب؟ أرى وأشهد رجالاً آخرين من أهلي وبلدتي يتجهون غرب القرية يتأملون أملاكهم ويتعهدونها قدر استطاعتهم، ولكن حين فعلت ذلك من أجل (شخة) صادف الخروف ذئاباً، وعزاؤك يا سلوم أن نعجتك لم تكن معك، لماذا لم تصبر الذئاب دقائق قليلة، حتى يفرغ الخروف أحشاءه، ثم يغادر المكان بحثا عن معاش في مكان وجود ديجا وحضنها؟ الموت! إنه الموت العبوس، قاتم الوجه يزورني كل يوم لنزع الصبر والأمل من عقلي، يأمل ذلك الصهيوني الخبيث أن ينتزع خيطاً ولو دقيقاً كل يوم من روحي الفلسطينية، أشعر أن انتظار نوبة التعذيب أشد من الإحساس بالعذاب وأنا في مقابض أجهزته، أقبل أيها الموت دفعة واحدة، لا أدري أين أنا، ولا من أين أتيت، ولا لماذا خلقت، مرحباً بموت رحيم أو لئيم، الموت هو الموت، لا فرق، بين موت في فم سمكة أو بين حطام طائرة، او تحت أنقاض بيت منسوف، الموت قاطع طريق وقح مع انه جبان، لا يأتي إلا على غفلة او بعد غلطة، فليرح هذا البدن، لم يعد بدني لي ، ليس بدني الذي أعرفه هذا الذي أرى، آلام وجروح ورضوض وأورام وتشويه في كل مكان، لم تسلم فتحة في جسدي إلا وشوهت، أنفي وفمي وعيناي وأذناي وأسفلي، تفتحت والتهبت وتورمت، الموت والنار ولا العار، شكراً لله أن أهلي لا يعلمون، هددني الخبيث مرات عدة يقطع زائدتي الأمامية، عنوان رجولتي ومصدر استمرار وجودي في الحياة، كيف تكاثروا وانتشروا في كل مكان، هددني ذاك العسكري الذي شارك في إلقاء القبض علي بأنه سيملأ لي أحشائي ثانية، بعد أن يتوقف الإسهال، وأشار بيده إلى أسفل سرته، أنا مسلم فلسطيني تائب لله، لا أفعل اللواط حتى لو قطعوني ارباً ارباً، ولا أقبل أن يفعل بي.**

**لكنني تذكرت فعل أبناء عمومتي أثناء صغري ويتمي في قريتي، أجبروني على ذلك قبل بلوغي العاشرة وما بعدها حتى الثانية عشرة، إن الوالد هو الذي يضبط أبناءه ويحميهم؟ لم أكن أعرف أهمية الوالد قبل تلك الحادثة، كنت أحس بضيق من الأولاد الغاصبين، تذكرت وقتها ضرورة الأم حين تحس بالضيق أو بالحرمان من الحنان، أو حين أرى أخي الصغير يبكي ولا يجد من يحتضنه أو ينظف بين فخذيه ، فينفر خالي الكفيف من الرائحة ، فينهرني لأقوم بمساعدة شقيقي، وإبعاده عنه، أحمله خارج البيت حتى ينهي تبرزه، كنت أنساه ساعة أو ساعتين يبكي خارجاً، وخاصة حين يغلبني النوم، وخالي الكفيف يطالبني ببرود أن أنهض لمساعدة أخي، فلا أطيع وأماطل حتى يحنق، وأشاهد يده تمتد لعصاه الثخينة، جربت وقعها على جسدي مرة أو مرتين، كم هي مؤلمة ويطول المها، ولو شدد ضربته لحطمت العظم الذي تقع عليه الضربة في أي مكان من جسدي، والورم يدوم أياماً بل وربما أسابيع بعد الضربة، لذلك كنت أخرج وأغيب عن البيت حتى لا يعرف خالي مكان وجودي، فأقع صيدا بين أولاد أقاربي الأكبر مني سناً، ونحن في حقول الفواكه أو الخضار في ضواحي القرية، باحثين عن شيء نأكله، فأدفع الثمن تحت ضغط التخويف أو الضرب، وصدف أن عصيت فأشبعت ضرباً وتربيطاً وكان كل ما أراده الأوغاد، مرحباً بالموت، ليتني كتلة من جمر أحرق من عذبوني وأحرق نفسي معهم!**

**هل أنت الخروف يا سلوم أم الراعي الأهبل؟ وإن كنت من فصيلة الخراف فمن ساقك؟ عقلك يعجز عن حسم الأسئلة، حياتك لغز لا تدرك مداه ولا كنهه، ولكنك تحس أن مسامات عقلك تتفتح يوما بعد يوم، في سجون أعدائك وأعداء شعبك تنمو وتتثقف، أمر غريب عجيب محير،أرادت المجندة مغربية الأصل الاحتفاظ بك كتيس مدرب، أو أن تكون آلة جنس نابضة، تحاول أن تجعل منك خزانا تحفظ فيه مفاهيمها للحياة، وتخزن فيك معلومات تهما للمستقبل وتساؤلات، حاولت تلك المرأة أن تضعف الكثير من إيمانك بتراثك، لكن لا نكران بأنها اثرت فيك وأثرت عقلك بالكثير من المفيد، (أما ترى الماء بتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا) على الرغم من قدومها من بيئة من أشد البلدان تمسكا بالقديم والجمود، لكنها حين وصلت فلسطين، تمردت على كل شيء قديم، قالت لك كفرت بكل الأديان والمعتقدات القديمة، وأصرت على أن دينها هو ما يمليه عليه عقلها وضميرها ومعتقدها وحزبها، صرت في حيرة من أمرك، على الرغم من إصرارك على دينك يا سلوم وتقاليدك، إلا أنها زلزلت كل أحاسيسك وقيمك.**

**أن الشكوك والتساؤلات بدأت تقض مضجعك، وريتشي هذه اليهودية تظلّ موضع التساؤل، خديجة زوجتك التي لا تعرف مقرها هي موضع شوقك، العلم نور، هكذا علمنا شيخنا حامد، وكلما سمعت شيئا أ و قرأت معلومة، أقول لنفسي: اليس العلم نور؟ ولهذا لم أكن استنكر كلام ريتشي والمدخلات التي تحاول تعبئة عقلي بها، عرفت معنى الديمقراطية ومعنى التقليد الأعمى، والتراث المتجمد، وسيئات الاستعمار الكثيرة والظلم، وحسنات الأسر القليلة، لكن زوجتي هي أهم شيء في فكري وقريتي، أصبحت اتحرق للعودة لأحضان ديجة كي نطبق الكثير مما تعلمت من ريتشي هنا في الأسر، ومن الكتب التي قرأت وما زلت أقرأ كل يوم، كي أجعلها افضل نساء القرية، سأدعو الناس للوعي والتثقف، بدل الجلوس ساعات طويلة في الحارة اوأمام المسجد بلا عمل مجدٍ، لا يفعلون شيئا سوى الثرثرة والخلافات على امور حياتية أو دينية سطحية وفرعية، او عائلية متكررة أو عصبية، أو يلعبون السيجة على الأرض يرسمونها في موقع مترب ولو كثير الغبار، الدين النصيحة، سأنصحهم، وسأحاول ان أفتح عيونهم، لعلهم يدركون ان عدونا انتصر علينا بوعيه، بعلومه وبنظامه، وباستعداده وتخطيطه للمستقبل، وتقدمه في كل شيء، سأقول لهم، انظروا لأراضينا التي بقيت مئات السنين بلا أشجار ولا ثمار تملؤها، نزرع القمح او الشعير او الذرة كل عام، ونبقى طول السنة كسالى ننتظر موسمها، ولماذا لم تغمر اراضينا اشجار الزيتون والتين والعنب والفواكه الأخرى بجانب الحبوب؟ يقولون قطع الأتراك اشجار الزيتون من ارضنا حين كانوا منسحبين مهزومين اثناء الحرب العالمية الأولى، ومضت خمسون عاماً وأرضنا جرداء، لم يزرع أحد في ارضه شجرة جديدة، بعكس الصهاينة، ما إن استولوا على ارض من شعبي ولو كانت قطعة صغيرة، إلا وجعلوها جنة، أسرة الضابط الإسرائيلي التي أخدمها أصبحت توفر من نتاج نصف دونم من الأرض حول بيتها، إنني في عذاب مقيم، لم اكن أعرف كل ذلك من قبل، هل الاستعمار نعمة؟ هل الهزيمة تحمل الكثير من روح النصر ومعانيه؟**

**هكذا اصبحت أعيش في تيه بعد مايقارب العام من الأسر، صراع نفسي وعقلي لا حدود له، وديجة زوجتي هي أكثر ما يهمني، والوطن؟؟ ومن أنا حتى أفعل شيئا مهما للوطن؟ لكنني صرت أعتقد أن الوطن هو السكان، ه الناس الذين يعمرون أرض الوطن، فإن كانوا سعداء وفاهمين واعين، فالوطن سيكون بخير، أما إذا تخلف الناس وأهملوا، فسيصبح الوطن قطعة ارض جامدة لا تتحرك، مهيأة لمن يعبث بها او يعمرها ويحييها، وعيت يا عفان فجأة على حال العالم، لكثرة المواقف والكتب والقراءة فيها، وأحاديث ريتشي وتنوعها وتكرارها وإجبارك على تتبعها، لترى نتائج تعلقها بك، لكن شعورا غريبا من قبولها بدأ يتسرب إلى ذهنك، تراها أحيانا انسانا بريئا كطفلة او كزهرة طيبة الرائحة، تنجذب لها دون تكلف، يقلقك هذا الشعور، هل ستنافس زوجتك ديجا؟ هل من الممكن أن تحل مكانها يا ترى، مستحيل هذا التفكير، أنت أسير، وهي عنصر من صف أعدائك وآسريك، أضحكاتها لك كتكشيرة الأسد (ولا تظنن أن الليث يبتسم)؟، بدأت تقلقك الكثير من الأمور التي لم تفكر يوما الخوض بها، صرت تعرف أن تربط بين ما يدور في رأسك ومشاعرك، وبين ما يجري لك وما يلزمك، ولشعبك الغرّ، نعم أدركت كم كان شعبك جاهلا غرّاً بقراءاتك ومن كلام ريتشي وتفسيراتها، والعرب البؤساء، خذلوا الفلسطينيين وفرطوا بفلسطين المقدسة مجانا، وعدوهم بتحرير أراضيهم، والفلسطينيون قعدوا ينتظرون وفاء العرب بوعودهم، ويا للخيبة، هربوا وتركوا أهلنا تحت رحمة الغزاة الصهاينة، ويا بؤس ما فعلوا، ويا بؤس شعبنا الساذج الذي صدق وعود الغير، آلاف قلة من اليهود يمتلكون مدنا واراضي واسعة، وهاهي الالاف من البيوت العربية كاملة الأثاث والتجهيزات ما زالت فارغة، بعد أن أجبر أهلها الفلسطينيون على هجرها، وهاهي لا تجد أعدادا كافية من المستوطنين الصهاينة لكي يعمروها او يشغلونها، لهذا نقلوا العجوز الرملي لمدينة اللد، ولجأ من تبقى من المسيحيين إلى كنائس وأديرة مدينة الناصرة، والعرب الآخرون اختبأوا في أزقة اللد القديمة، فأصبحت مدينة اللد وعكا السجن الكبير، لا يريدها اليهود، ولا يتوفر عدد منهم ليقبلوا الإقامة في منازلها التاريخية المتلاصقة، وبازقتها الترابية القديمة، هذا عدا عن أن كل القرى التابعة لمدينتي اللد والرملة بقيت كلها فارغة، هكذا قالت ريتشي، أما يافا فقد أسرتها مدينة تل أبيب، ثم بدأت في ابتلاعها، مع ان أغلب بيوتها ما زالت فارغة، بعد أن نهب الصهاينة كل شيء في تلك البيوت، فأثرى الآلاف منهم على حساب الفلسطينيين الذين هجروا منها، فكيف تركها السذج، ولماذا لم يتنبهوا ويعودوا حتى بالمناوشات والمواجهات؟؟.. شعب فلسطين يعتاد يوما بعد يوم على أن يبقوا لاجئين، تنوعت طرائق تعذيبك يا شعبنا المسالم واشتدت، فحولت ريتشي حواسك يا عفان إلى أدوات تسجيل دقيقة، تحتفظ وتخزن كل ما تسمع وكل ما تقرأ وما تقوله ريتشي لك، ثم وكل ما يجري لك، تفهم الكثير مما يقال لك، ألست الخروف؟ هكذا ترى تبريرك لتسمينك، والاهتمام بك، إنسان حقير ضعيف يكره الخراب والضرر، يأملون أن يحولوك ولو لجاسوس ساذج أبله، اوان لريتشي أهداف لست متأكدا من ذاتيتها ومركزيتها، هل هي جسدية فقط؟ لا بد أن هناك سرا عميقا تخفيه عنك!. . . إنها ليست بهذه البساطة ترعاك لحاجات جنسية فقط، أو هل هي يائسة من العثور على من يفهم ماتكتنزه من أفكار؟، تقول إنها أصبحت يسارية علمانية مؤخرا، أو هي مدربة لتحتفظ بك يا سلوم كقطعة أثرية أو ذهبية لحين الحاجة، وأحياناً تحسّ أنك نعجة لا خروفاً، لكنك لاتدرك نية الراعي الذي يطعمك ويسقيك، أليست ريتشي أفضل من أي ذئب؟ ها أنت تعاني نتائج الجهل العربي الراسخ، الناس بعد الحرب العالمية الثانية انقلبت حياتهم في كل العالم نحو الأفضل، إلا عربنا، وانت منهم، فما زالوا في ضلالهم يعمهون، ثم ما زالت ضحالة التفكير في الرؤوس الصغيرة.**

**فصل 23**

**يلح المحقق في أسئلته عليك**

* **اعترف، اعترف بسرعة، إعترف وإلا نزعت عنك جلدك، ستعترف رغماً عنك، وكلما اعترفت أسرع، كلما خف عذابك، أيها العربيم الجوييم، لماذا أتيت لنا ولأرضنا ولحدودنا؟ من أرسلك، ومن شجعك؟ هل الذي أرسلك أردني أم فلسطيني؟ قل الحقيقة وأرح رأسك، سنحميك نضمن سلامتك إن اعترفت وأرحتنا، وإلا فسنحطم كل مفصل في جسدك، تكلم حتى تسلم، أخبرني أنك كنت تنوي الاعتداء على حدود دولة إسرائيل. سنرأف بك ونتسامح إن أخبرتنا ماذا كنت تنوي فعله؟ ومن هم الذين جندوك وأرسلوك للتجسس على أرضنا في إسرائيل، او لعلك كنت تحاول الإضرار بمنشآتنا؟**
* **كنت خارجاً (أشخ) في أرضنا يا سيدي، تلك كانت مهمتي، وأنا بكامل حريتي**
* **أكنت تتسلل لتقتل أو تسرق أو تخرب في أرض إسرائيل؟ ومن الذي شجعك او أرسلك؟ نحن لسنا مجانين ولا بلهاء، حتى نصدق ان شابا مثلك يتقدم على الموت بلا حافز قوي، او نية تخريبية.  
  - كنت مريضاً، ولا أريد أن تحس زوجتي ولا أهلي بمرضي، فابتعدت حتى تتحسن حالي، فوجدت نفسي محاطاً بالمسلحين.**
* **لماذا لم تدل رجال إسرائيل وأفراد جيش الدفاع على المكان الذي خبأت فيه سلاحك؟**
* **سيدي إنني لم أكن أقوى على حمل جسدي الهزيل وقتها، فكيف أقوى على حمل سلاح؟؟ لم يمض على زواجي سنة وشهور قليلة، فهمّي الأهم أريد أن أعيش مع زوجتي الصغيرة التي لم تبلغ سن الرشد بعد، ولم يصدف أن وثق أهلي بي حتى يسمحوا لي بمجرد لمس السلاح، بسبب صغر عمري، وضآلة جثتي.**
* **مادمت عربياً فأنت كاذب ومخرب، خذوه فغلوه، ثم اصلوه من العذاب ما يجعله يقرّ بكل ما نريد.**

**بعدها بشهور أربعة، كانت المجندة ريتشي في زيارة مفاجئة له قرب غروب يوم من أيام فصل الربيع، بدأت زهور المرج في المعسكر تبرز رؤوسها، بألوان مختلفة وبعضها بروائح زكية منعشة، برغم الحكم بسجني مع الأشغال لعامين وشهرين، وعدم صبري على غيابي عن زوجتي، واملي في أن أتحرر، كنت أستمتع بزهور بلادي، وأتعجل قدوم فصل الربيع والدفء، حتى أرى وجه ارض فلسطين أخضر ومزهرا، كنت أقف منكمشا أحسّ بقليل من برد، مرت سيارة إسعاف مسرعة، يعلو صياح أبواقها وبنغمات حادة متواصلة ملحاحة، رفع سلوم يده ليضع أصبعين في أذنيه، لضيقه الشديد من سماع أصوات زامور الإسعاف، في الوقت الذي كانت ريتشي تراقب حركات سلوم ونظراته، تقترب منه بتباطؤ وتخابث، أدرك أنها عسكري يراقب عمله في الحقل، ولا شك انها مكلفة بمهمة مراقبتي، قلت في نفسي**

**(صدر الحكم علي وانتهى، فلا وجبات جديدة من التعذيب، لقد شبعت عذاباً، ومل المعذبون مني، يريدونني أن أخبرهم بأنني جاسوس، جاسوس؟ المصيبة كانت، كيف أقنعهم ببراءتي؟، جاسوس؟ وماذا يفعل جاسوس ريفي مثلي؟ ولمن سأتجسس؟ كل حياتنا تآمر، عشناها وما زلنا نعيشها في تسلط، كنت أتفقد أرضي وأشجارنا، أثناء نوبات الشخاخ ، ولماذا لا أسأل العسكري أي سؤال، في أي كلام؟، لساني لم يتكلم مع احد منذ مدة، فلماذا لا أستخدمه اليوم، ولو سبب لي متاعب او ازدراء، حين تكون في السجن، ولست حرا، فماذا يضيرك أي شيء سيء؟ فلأسألها عن سيارة الإسعاف مثلا، أريد شخاص أتحدث إليه بشكل طبيعي وحسب ما يخطر ببالي، طز طزين قول ثلاثة، شو بدها تعمل؟ أكثر مما حدث لي لا أتوقع شرا جديداً)**

**بفضول ولهفة يتوجه بسؤال ريتشي عن سبب مرور سيارة الإسعاف في ذلك الوقت، وقرب موقعهم، تحني المجندة ظهرها، تطأطئ رأسها، تحاول إهمال سؤاله، والانشغال عن صوت المنبه الحزين الملحاح، مستغربة السؤال من سجين، وربما للتفكير بإجابة السائل العربي الأسير، تتفقد رباط حذائها، ثم ترفع جسمها ببطء، تحني ظهرها للخلف، ترفع رأسها صوب السماء متأملة، تتكئ على الجدار المعدني خلفها، لتريح نفسها، كان عمله وقتها قرب زنزانته المعدنية، تستند بلا اهتمام، ولما لم تجب على سؤله، يبادرها عفان قائلاً**

* **أنا شماق (شمك)، أنا خافير، كلمات تعلمها من اللغة العبرية التوراتية القديمة. فتجيبه ريتشي**
* **نحن لسنا أعداء مثل الآخرين، نحن خافيروم** **חברים ، ونحب أرض إسرائيل.**

**لم يستطع مواصلة الحوار معها، فصمت وتركها تتصرف حسب رغباتها، تغادر ريتشي المكان، وتقول له**

* **واصل عملك وسأرجع لك ثانية.**

**واصلت عملي داخل معسكر الاعتقال، منشغلا بتسوية حوض زراعي، ريفي أنا وأحب الأرض والزراعة والغناء، سمعتني مجندة أخرى أدندن بغناء ريفي، لأنني أحب الغناء الشعبي الفلسطيني؟ يهودية فلسطينية ترعرعت في فلسطين، أوقفت رفيقها المجند الأشقر، وخاطبتني بعربية عامية ، إذا كنت تعرف تغني سنخرجك ساعتين في ساحة الملاعب الواسعة، تشاهد الشباب والشابات يلعبون ويلهون، سرعان ما طلعت معي تلك الأغنية التراثية لأهل الساحل الفلسطيني، الأسر علمني قلة الخجل، وعدم المبالاة، وإذا لم تستح فافعل ما تشاء، وهناك مثل فلسطيني يقول: (البلاد اللي ما تنعرف فيها شمِّر واخْرَ فيها)) رفعت صوتي دون تردد وغنيت**

**سلّمْ عَلايّْ سلّمْ عليّ لما قابلني وسلم عالاي،**

**ولدي يا ولدي ســـالاّم علاي ،**

**رايحة العروسة على جنينة والورد قال لها يا زينة**

**لون الخدود ضاوي علينا وحابيبي سلّمْ علايّ،**

**سلم علاي لما قابلني وسا لّلم عالايّ،**

**لم يمهلني رفيقها الأشقر حتى التقط انفاسي، فعاجلني سائلا**

**- سويت سويت أي حلو، سنج مور بليز أي غني كمان؟**

**- لا يا خواجة، عندي شغل، عملي المقرر لا بد أن أنجزه اليوم، لازم انهي شغلي، حتى لا يتم معاقبتي بحبسي في الساحة الصغيرة حول زنزانتي.**

**- هل تريد الخروج لساحة الملاعب الحلوة والمعشبة يا טיפשי أبله؟**

**- لا! لا أريد، كله سجن، مادمت داخل هذا المعسكر، فأنا سجين، حتى مع حريتي في المشي، وفي الملاعب، النتيجة واحدة، ثم أنني لا أقيم هنا برغبتي.**

**كنت على مقربة من غريفتي الزنزانة وقتها، سمعت صوت كنار عودني على سماع صوته، فاطرقت بكل حواسي لجاري العصفور، منذ حللت في تلك الغريفة، كان يحطّ عادة على شجرة كينا قديمة زرعها الفلسطينيون قبل تهجيرهم، عشش العصفور عليها ربما، أو إنه يحبها ويربي صغاره بين أغصانها، اعتدت أن اراقبه واتوقف لأستمع له، واعتاد أن يراني مسالما اتأمله، أجلس تحت الشجرة او قربها حين تتوفر لي الحرية والوقت، أحرص على أن أضع له علبة ماء، حاولت مرة أن اثبتها له في جذغ الشجرة حتى لا تقع، ثم انأى عنها، حتى يطمئن ويشرب كلما اراد، واتفقد ماءه يوما بعد يوم. غالبت الطير غناءه بمحاولة تقليد صوته، علا صوته في صفير حلو اعتادت اذناي على سماعه. تذكرت أيامي الماضيات، وما كنت أفعله للعصافير والحجل والسمان.**

**أنا أبو العصافير، ويل لي، كم أكلت من العصافير وما شابه من الطيور، كنت أصيدها بأساليب عدة، إما بالفخاخ او أنصب شركا للأم او الذكر، فالتقطها مع صغارها، وخاصة طير الحجل، وأحيانا أصيدها باقفاص خاصة في شهور الشتاء، حيث تجوع الطيور وتقترب كثيرا من عمران المدينة والقرية والناس، تبحث عن فضلات أي طعام، نضع لها الحب داخل القفص الكبير، وننتظر دخول خمس منها أو اكثر، ثم نغلق الباب عليها، حيث يكون مشبوكاً بخيط طويل، نسحبه فيسقط الباب، ليقفل القفص، فنهجم لتأكيد حبسها. وها أنا اليوم سجين، صرت أعرف معنى السجن والأسر والظلم، نعم إنه ظلم، اليوم أتذكر كل ما كنت افعله لطيور بلادي وها انا الان اعاني من الحبس، والذي قد يؤدي إلى الموت،**

**في قريتي يختلف الوضع، فكيف لي أن آكل اللحم في القرية؟ لا يوجد في بلدتنا جزار، ولا نجد لحم دجاج كافٍ، ولا حتى كل اسبوع، أو حتى كل شهر، في الأعياد فقط، كنا نأكل لحما كثيرا ونشبع، يذبح كثيرون من أهل القرية أضحيات او نذوراً. ومع هذا أظلّ أبا العصافير.**

**أيها الشقي اليتيم، يا عفان الهامل (الداشر)، ليس داشرا كما هو شقيقي دعيس، لا يرده أحد، إنه يكره المكوث في أي بيت، اعتاد على (الصياعة) والتشرد على الرغم من أنني لا ألومه، لعدم وجود أمٍّ لنا تلمّنــا أو أحد يرعانا ويراعينا في البيت، كنت إما أعاقبه أو اهزأ منه أو انصحه، على أمل أن يرتدع عن شذوذه ومكوثه خارج البيت معظم الوقت، ومن يلومني انا وشقيقي؟ لا اب يحمينا، ولا أم ترعانا، فكيف ينحبس طفل في بيت قديم مظلم كبير؟ عشنا في ذلك البيت واعتدنا عليه.**

**كنت افزع أحياناً من بقائي وحدي في بيتنا، أفكرأن شياطين تخرج من جوف الأرض او من الجدران او من زواياه البعيدة المعتمة، ثم تبدأ أعين تلك المخلوقات ترقبني وتبرق وتلمع وتشع حتى أجد نفسي أرتجف، فبحركة مفاجئة أقفز مرعوباً خارجا من البيت هارباً مشردا، لا ادري أين أن أذهب أو أختبئ، ولا أحد حولي أشكو له او اختبىء خلفه، وأنا أنظر خلفي حتى لا تتبعني بعضها لتذيبني او تحيلني إلى شيطان مثلهم، أو تمسخني عجلا يعيش مع البقرة في الرواق (الراوية) أسفل مصطبة عيشنا.**

**تخاطبني المرأة الصهيونية فلسطينية المنشأ والولادة**

**- اوكي سلوم، انت إسمك سلوم يعني (بيس) سلام**

**- نعم انا اسمي سلوم، أحببت هذا الإسم، ولو ان اهل بلدي يلقبونني عفان، إن اسمي سلوم يعبر عن حبي للحرية والسلام وعدم الكراهية، تترجم اليهودية فلسطينية الأصل ما قلته لزميلها الأشقر، يهز رأسه، ثم يتمتم بلهجة محطمة، عربيم قواد، عربيم ابن كلب، لاحظت أنه يعرف كل مسبّة نكرهها. فتعود المرأة تخاطب عفان قائلة**

* **يقول صديقي، هل تعرف ترقص أيضاً يا عربيم؟**
* **أتريدينني أن أرقص أيضا؟ هل رقصة من فرح أم من الألم أم رقصة الديك الذبيح؟**
* **لا أفهم ما تتكلم عنه، لا أفهمك عربيم، إنك تقلقني، ظننت انك טיפש غبي.**
* **لا تقلقي ولا تنشغلي، و لا يهمك**

**قال عفان في نفسه، علمتوني الفلسفة والتقلب ياأولاد الموت، قرأت وسمعت عن كل شيء يدور في الحياة وفي عقولكم الحاقدة، ومن الكتب العربية المهجورة والمسروقة من بيوت أصحابها الذين اضطروا لهجرها.**

* **ماذا تقول (ما أتا أوميرقانوف؟) أنت سعيد שמח فريلخ ، يالله عليك غني عربيم. أراب عدو خراب قانوف، انت ضرر كبير،enemy Harmful.**
* **أنا لست خراب، ولا قانوف، أنا سلوم peace بيس، أنا فلسطيني أحب الحياة مثلكم، نو خراب، ولا (إيراب ِA rab)، صرت أفهم كل تعابيركم، انا لست ارنب راب، اسمي سلوم ياخواجات**
* **مو مهم، كلكم شماك حقير בזוי ، قاسلانوم، (احنا) نحن لا نصدق عربيم. قال عفان في نفسه، افهم افهم انكم لا تصدقون إلا كهنتكم، عرف انهما مازالا يتكلمان لغة عبرية اوربية قديمة، يخاطب نفسه قائلا، لا يهمني ما تقولون، سأعيش كما أريد، فيغني ويعلو صوت سلوم اكثر من غنائه الأول**

**يا ديرتي مالك علينا لوم لا تعتبي لومك على من خان،**

**احنا روينا سيوفنا من القوم، يا ديرتي ما نرخصك باثمان.**

**لكنه تذكر فقال في نفسه، (طز) ولاعمرنا عملنا حاجة تستحق تذكرها ضد هؤلاء الدخلاء! ! ! . . . . ثم انتقل إلى لحن فلسطيني تراثي مألوف، فعلا صوته اكثر واكثر من ذي قبل:**

**لاطلع عراس الجبل، واشرف على الوادي،**

**واقول يا مرحبا، نسّـم هوا بلادي،**

**رفعوا البيارق عالجبال، وتبشري يا بلادنا،**

**مش ممكن نصير خافيروم يا خواجة، يضحك سلوم عالياً**

* **إيش هذا غناء سلوم؟ ايش انت تقول؟**
* **إنت طلبت مني أغني، وتلك كانت عينات من الأغاني التي أعرفها.**
* **أوكي أوكي، هذا هذيان، عربي مجنون وأهبل، أنت ممكن جوعان، يالله هذا ساندويتش لحم تركي، وواحد شراب شوكولاته، عشان تجرب اكل يهودي حلال، يخاطب سلوم اليهودية الفلسطينية**
* **إذا صديقك الأوربي شخص مهم، انا عايز أتسلى مع شخص عربي غير أسير، إن كان يوجد أحد منهم هنا في هذه المستوطنة، أي مواطن فلسطيني من الذين بقوا في بلادنا، حتى أتسلى وأنا أتكلم عربي معهم؟ مللت السجن، ودون أن أجد عربيا فلسطينيا أكلمه، فتجيبه**
* **أنا تربيت هنا في أرض إسرائيل، هي مو بلادكم، هي بلادنا، هيا كلمني أنا أفهم عربي كويس. ثم تكمل المجندة كلامها، عندنا يهود من أصل عرب كثير، ودروز وشركس ومسيحيون وشيوعيون كمان، كله يتكلم عربي. أنا يهودية عملت مع إنجليز أربع سنين قبل دولة إسرائيل، أنا أحاول أتكلم عربي كويس، ممكن قليل، ممكن كثير.**
* **طيب إنت ليش ما تساعديني، أنت فلسطينية وأنا فلسطيني مثلك (لايك يو) ، إنت اسمك إيش يا خواجاية؟**
* **أنت إيش عايز مني، ولماذا تريد ان تعرف اسمي؟.**
* **أنا ممكن أغني لك كل يوم ياخواجاية، أتا ممتاز (قود)**
* **أوكي أوكي ، أنا أحب أسمع غناء فلسطيني، مصري، لبناني، تقدر تغني ليلى مراد، تعرف انها يهودية؟**
* **أنا احب اروخ عند زوجتي ديجا، ساعديني انت ورفيقك الأشقر.**
* **إنس هذا كلام، انا هنا إسرائيلية في الجيش، لا أخون بلدي، أنا ضابط، احمي إسرائيل من العرب الجبناء.**

**ازدادت صدمة سلوم، إذ تذكر انه أسير سجين، ولا قدرة له على مقارعة سجانيه، او مواجهتهم بمنطق او بكلام يغيظهم، فندم على تعامله مع المجندة وصديقها، لم يجب سلوم بكلمة، ولم يهتم بهما بعد ذلك.**

**رفع عفان رأسه، وفرد كتفيه، وعاد ينبش حول حوض زهور، وكأن شيئا لم يحدث. يبتعد المجندان وهما يضحكان ويشيران لسلوم، يمد المجند يده خلف صديقته ملامسا ظهرها، وينزل كفه إلى اسفل، على إليتها، يحرك كل ضفة للأعلى وللأسفل، ثم يسارا ويمينا، يضم أصابعه، مرة على اليسرى وثانية على الأخرى، ثم يرفع يده قليلا ويدخلها ثانية داخل بنطالها من الخلف. وما زالا يسيران مبتعدين، يتضامان ويتجاذبان، تضع رأسها على كتفه اثناء مشيهما، يشير لها لمكان بعيد.**

**بعد انقضاء ما يقارب سنة وشهر على اسري، أصبح من حقي أن أرسل رسالة لك يا ديجا، ستكون مفاجأة لك، متى يأتي الوقت وأنعم بذلك الحضن الدفيء الأمين، لا أضمن الكيد ولا أثق بالعسكر، وأخشى أن أزيد من عذابك برسالتي، لقد عرف الصليب الأحمر بسجني بعد مرور عام، زاروني وطمنوني بأن الإفراج عني سيتم خلال اقل من عام، سأحتمل!. . . لا أريد أن أزعجك، لأنني اسير عند عدو، ولا أثق بالعدو الصهيوني، وأخشى أن يحصل لي مفاجأة غير متوقعة، مادمت عند عدوك فأنت مجهول النهاية، أو قد يصيبك المزيد من الإحباط ومرارة الألم، آمل أن يتاح لنا أن ننعم بالحياة معاً من جديد، ستكتشفين المساحات التي تغيرت في عقلي وخبرتي، كله رادّ إليك يا خديجتي، سأمتعك بأساليب حياتية لم تحلم بها فتاة في القرية، علمنني كثيراً وتناوبن عليّ. وكلّه رادُّ إليك يا ديجة، وسيصب في بحورك في النهاية، اليهودية العربية المغربية ساعدتني كثيرا وعلمتني أكثر.**

**فصل 24**

**بعد عشرات المرات من جلسات التحقيق والتعذيب، وفي الجلسة الأخيرة للطبيب النفسي قلت**

* **لا أذكر طفولتي إلا بالشقاء، حين بلغت الثانية عشرة، تخلص مني أهلي، استأجرني شخص لكي أعمل عنده (قطروس) وأظنها مفردة من اللغة التركية وتعني العمل مقابل الطعام والإيواء واللباس. كنت نحيفا قصير القامة، وما زلت قصير القامة كما ترى، لكنني كنت شبه مومياء بسبب الجوع والمرض والإهمال، عظام وجلد ملتصق بها، لا أدري كيف عشت، لا بل تمنيت مرارا لو انني مت في طفولتي، أرضنا كثيرة، ونتاجها كثير، لكن أهلي كانوا المستفيدين من ناتج الأرض التي خلفها والدي رحمه الله، فقرروا إبعادي نهائياً عن أملاكي وبيتي عندما بدأ عقلي يتفتح على حقوقي، وبدأت أعرف أن لنا أملاكاً واسعةً وأراض كثيرة، أبعدوني كي يستريحوا من مؤونتي، وربما حتى أموت بعيداً عنهم، ولشدة ضعفي وهزالي، أعتقد أنهم توقعوا موتي خادما من التعب والمرض، لم أتضايق ولم أتمرد ولم اتشاءم من الرجل الذي حملني كالطفل إلى قريته البعيدة في جبال القدس الوعرة، أطعمني فور وصولنا وأشبعني، اكلت الجبن والحليب والفلفل والبصل والبنادورى والأرز. أحسست بقوة وبحماس للعمل، أوكل لي رعاية أغنامه، وبقرتيه، فأخلصت في عملي وأحبني الرجل، من طبيعتي أنني لا أتكلم كثيراً ولا أشكو، ولا أطلب كثيراً، وكان الرجل يخاف الله، وكلما طبخوا لحماً او دجاجاً أو عدساً او مجدرة أوصى أن تحفظ حصتي، كأنني أحد أفراد الأسرة، لم أتذمر من أنني أعمل مجاناً أو سخرة مقابل الغذاء والمنام والكساء، يشتري لي ملابس بسيطة ساترة مرة في الصيف وأخرى في الشتاء، لباس خشن رخيص، لكن ما يهمنى هو ستر جسمي وعورتي، ثم الدفء أيام البرد. لم أشعر بالظلم عنده، بل أحببت البقاء هناك، حضر اثنان من كبار السن بعد أربع سنوات لاسترجاعي لقريتي وبيتي وأهلي، تمنيت وقتها لو لم يحضرا، ولولا ذلك لتزوجت في تلك البلدة الجبلية الجميلة ببساتينها وغاباتها، تمنيت أن أبقى عاملا أعيش مع نفس الأسرة حتى أكمل السادسة عشرة من العمر. وكأنني واحد من تلك الأسرة الجبلية السعيدة، بعدها كنت سأطلب من سيدي ان يعمل على تزويجي من نفس القرية.**

**حين يختلي سلوم بنفسه يتذكر قائلا**

**كيف سمح لي الضابط المحقق، أن اسرد تفاصيل دقيقة عن حياتي الماضية وطفولتي التعيسة! ! !...وماذا يهمهم من كل تلك المعلومات؟ صبر واحتمل ثرثرتي عن ماضي حياتي؟**

**أضفت قائلا، عرف أهلي أنني نجحت في عملي خادما وراعيا في بيت أحد الفلاحين ميسوري الحال، فأراد كثيرون بعدها أن يستفيدوا مني، ويسخروني لخدمتهم، ويسخروا مني كي أعمل لهم بعد إرجاعي لمنزلي، وللعيش مع خالي الكفيف جسار وأخي دعيس، وبعضهم يقول، (سأزوجك إحدى ابنتي، على أن تأجرني ثماني حجج)، تذكرت عملي الذي أحببته في منزل فلاح القرية الجبلية غرب مدينة القدس، أدركت عنده ظلم الأهل، والأقارب عقارب، وتذكرت حكمة دأب شيخنا حامد على تكرارها (وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهندِ).**

**أخيرا تأكد المحققون وبعد أكثر من عشرين جلسة من التحقيق، على مدى اربعة شهور، اقتنعوا أنني إنسان بسيط مسالم أخطأت دربي، فوقعت في الأسر، ولمحت لي ريتشي أن مراقبي الهدنة بعد انتهاء التحقيق، أدانوا جنود إسرائيل بدخول المنطقة الحرام، وكان المفروض أن يتصلوا بمراقبي الهدنة للعمل على إرجاع الفتي لأهله، أو لرجال الأمن الأردني كي يمسكوا بالفتى لمحاكمته، فقرروا الاستفادة مني، وحكموا علي بالسجن والأشغال لعامين لإيقاع المزيد من الظلم على الفلسطيني فوق كل ما لحقه من ظلم وتهجير، غير عابئين بلوم مراقبي الهدنة لهم على عبور المنطقة الحرام، وابلغ مندوب الصليب الأحمرعفان، بأنه سيقوم بالاتصال بالسلطة الأردنية، ثم بأهل عفان (سلوم). ويبلغهم عن وجوده حياً، وستنتهي محكوميته خلال سنة او سنتين.**

**بعد ثماني شهور من السجن، تأكدوا من تصرفاتي السلمية، وصبري على الأسر أملا في التحرر والعودة لزوجتي خديجة، أضاف مدير المعسكر لي خدمة بعض البيوت والتعامل مع رباتها اليهوديات المحتاجات، في المعسكر المسور والحصين، إن ضعف جسمي وقدراتي ويتمي من الوالدين، وتحكم أقاربي بي في كل شيء في طفولتي، حالت كلها دائماً دون تمتعي كغيري من شباب قريتنا بمنافع القوة والفتوة في طفولتي.**

**لم أفكر بمصيري، وبما أستطيع فعله في الأسر، وكل همي كان أن أعيش لأعود لزوجتي اولا، ولبيتي العريق الكبير في قريتي، ثانيا، ثم لتفقد ارضي ولأقوِّم سلوكيات شقيقي، فالصدمة من أسري وخلاصي من عذابات التحقيق، أنستني أسئلة كثيرة تخطر في بال الأسير والسجين، حمدت الله أولا أنني لم أعد أخضع للتعذيب المهين والمؤلم والمطول، إذ صدر حكم قضائي علي بالسجن والعمل لعامين وشهرين، فاستسلمت للعمل داخل المعسكر، وأنا معتاد على الخدمة المجانية مقابل الطعام واللباس والسكن، أردت أن ترتاح أعصابي من كل ما مرّ بي، حمدت الله أن حياتي سلمت، وأصبح عندي امل في العودة إلى زوجتي ديجا، وخاصة بعد صدور الحكم العسكري بحجزي لعامين، إلا أنني بقيت أشغل عقلي متى وكيف الخلاص من هذا العذاب والسجن، ديجة لا تفارق مخيلتي لا بل هي ماثلة أمام عيني في الليل والنهار، عند الأكل وأثناء العمل، وحين تخاطبني أي امرأة وتسخر مني أو تستصغر شأني في أسري، أشكو أمري لله ثم لخيال ديجة الذي لا يبرحني، بقيت أتوقع أن يتحرك اهلي لتخليصي او السؤال عني بواسطة الصليب الأحمر أو اي منظمة دولية أخرى. صرت أتساءل دائما: لماذا لم يبلغ أهلي الفريق الدولي من المراقبين الدوليين على خط الهدنة بين إسرائيل والأردن في الضفة الغربية عن غيابي؟ لماذا لم تسألي عني يا ديجة؟ لماذا لا يتظلم والدك لمختار القرية؟ ولماذا لا يتساءل مختارا القرية عن شاب خرج من قريته ولم يعد؟ ثم إن هناك مركز أمن أردني في بلدتنا على الحدود، يراقب المار والداخل والخارج، ويمنع أي فلسطيني الاقتراب من خط الهدنة، فلماذا لم يسألوا إن كنت في أرضي أو في المنطقة الحرام؟ ولماذا لم يثر المسئولون في مركز الأمن موضوع غيابي عن البلدة؟ ولماذا يتسامح العالم والدول الكبرى والأمم المتحدة مع جيش إسرائيل؟ مسموح له أن يتخطى جنوده خط الهدنة ويهجموا عليّ ليأسروني، في حين أن أي فلسطيني يقترب من خط الهدنة، ويعرف عنه رجال الأمن الأردنيون، سيلقي القبض عليه ويتم حبسه، لماذا لم تهتم حكومة بلادي بالسؤال عني، وتطمين أهلى انني على قيد الحياة؟ حتى النساء حين تضايقن وخرجن يرعين حيوانات الأسرة، او لجز العشب لحيواناتهن قريباً من الخط، تم حبسهن وعقاب أهاليهن، من قبل رجال الأمن الأردنيين، لماذا وكيف جنودنا يحمون حدود إسرائيل؟ ويمنعون اهل البلاد من استغلال اراضيهم قرب خط الهدنة؟؟ هل جنود إسرائيل ملائكة يحمون أهلهم ومكتسباتهم؟ وهل المدن الفلسطينية التي استولوا عليها والقرى والمزارع والحيوانات والمصانع والأرض والسماء والهواء والماء حلال لهم حرام على أصحابها؟، والفلسطيني العربي شيطان رجيم، ومخرب مدمر؟ أصبح جنود الصهاينة أحراراً في أرض ليست لهم، ولم يطأوها من قبل، لماذا لا يتم اتهام جيش الدفاع الإسرائيلي بأنه هو الإرهابي؟. لقد اصابتني صدمة كبيرة حين تساءلت ريتشي قائلة، لماذا لم يسأل أهلك عنك؟ كأنني كنت في حلم وصحوت، حين سمعت سؤالها تذكرت حياتي كلها، وعرفت قسوة اهلي وسذاجتهم مثل كل العرب، العالم كله والحظ والزمن انقلب ضدنا، تقول ريتشي،**

**- كان بإمكان أهلك الاتصال بحكومة بلادهم، وحكومتهم تتصل بمراقبي الهدنة من الأمم المتحدة، وهؤلاء سيعرفون عن مصيرك بسهولة. جننت يومها، واقتربت من ريتشي قليلا، أحسست أن الله أرسلها وسخرها طبيبا لروحي وملاذا لي، لأستشيرها فيما يعسر عليّ فهمه أو استيعابه، متجاوبا مع كل ما تريد، متوقعاً منها أن تدلني على ما ينفعني.**

**زاد حقدي على أهلي لجهلهم او لؤمهم، وطالت ليالي سهري أفكر كيف يمكنني أن أوصل أخباري لأهلي، عن حياتي ووجودي. وما يهمني هي زوجتي. ومع هذا أكملت ريتشي قائلة، يمكنك أن تكتب رسالة مختصرة لأهلك، وتسلمها للضابط المسئول عن المعسكر، وهو سيحولها للحكومة المركزية في تل ابيب، ومن هناك يوصلونها لمندوب الصليب الأحمر، وهذا يسلمها للصليب الأحمر في الأردن، وذاك يحيلها للحكومة الأردنية، ثم ينزل الخبر بتسلسل لأهلك، لكنها سخرت من هذا قائلة، ست شهور على الأقل حتى تصل رسالتك، ومع هذا كتب سلوم الرسالة ونقلتها ريتشي لضابط المعسكر، وكان قد مر على أسره أكثر من عام كامل.**

**المصائب تأتي بالجملة أحياناً، وأولاً من الأقارب ، لم تتح لي فرصة اللعب كغيري من أولاد القرية، لم يكن يخطر ببالي أن أكلم بنتاً أو أمازحها في طفولتي، كنت أعجب بكل امرأة ألمحها وخاصة إن كانت متوسطة الطول ممتلئة قليلاً وقوية الحركة ، وأكثر ما كان يجذبني المرأة قوية الشخصية، وقوية العضلات تحمل ماء الشرب من نبع العين على رأسها ، فأتخيل والدتي رحمها الله ، وهي تأتي بالماء للشرب ، ثم تذهب لبئرنا عند أطراف القرية، وقرب الموقع الذي قتل فيه والدي، لإحضار ماء لحيواناتنا، اضطررت أن أعمل في الحقول والبساتين مكرها او مضطراً، في أرضنا وفي أراضي الناس الآخرين، اعتاد الناس أن يستغلوني في كل شيء، على أمل أن أظفر بوجبة دسمة، فأفجأ بأنها طبخة عدس مجروش أو حب العدس سليما يسبح في ماء كثير مع الملح وقليل من خبز، أو وجبة عصيد مجروش القمح، أما خالي الكفيف فكان يضغط عليّ للعمل مقابل قطعة لحم صغيرة توضع بين أصابعه، لكنه لم يكن محروما من بيتضتين مشويتين أو مقليتنين بزيت الزيتون من دجاجاتنا.**

#### **صدف أن مرّ ولدان من أقاربي وأنا في الخلاء في أرض والدي التي تبعد حوالي كيلومتر عن القرية، كنت في الحادية عشرة من العمر، ادعيا أنهما يريدان مساعدتي، لعبنا ربع ساعة أو نصف ساعة، ثم أقنعاني أو اضطراني لمرافقتهما لنسرق فواكه وخضاراً من البساتين المجاورة، شاهدنا أحد أصحاب البساتين فاختبأنا بمغارة لنأكل ما حصلنا عليه، بعدها اقترحا أن نتبادل ممارسة الجنس مع بعضنا، رفضت الفكرة حتى لو تم تقطيعي، لكنني كنت الضعيف، أجبراني على مشاركتهما التبادلية، قضى الاثنان وطرهما مني ولما جاء دوري، احتجا بأننا تأخرنا، وأنهما يسمعان أهلهما يبحثان عنهما، ووعدا أن يكون دوري في البداية بعد يوم او يومين، فارقا المكان مسرعين، وخرجت وحيداً تائهاً مغلوباً، لم أفكر بالعودة للعمل في حقلنا الذي تركته، فلمن أشكو وماذا سأفعل؟ عدت لبيتي خجلا من نفسي واعتكفت فيه لأكثر من يومين، لم يقف الأمر عند هذا الحد بل أبلغ الشقيان سواهما من الشياطين ما فعلوه بي، فكثر الحائمون حولي يفتعلون المواقف لقطف ثمار الجهالة والخسة، لكنني صمدت وصممت على الحياة المستقيمة، كرهت الشر والأولاد السفهاء وكرهت العبث وعدم الأمانة، بعدها وافقت على العمل بعيدا عن قريتي، مقابل الطعام والسكن (قطروسا خادماً) في قرية بعيدة عن أهلي، فسلمت من الدناءة واعتداءات الغير، بعد عودتي لبيتي بصحة جيدة، وبنشاط وثقة، صرت أختال بين شباب القرية مفتخرا بشهامتي ونظافة أخلاقي وجسدي، وعرف جميع أهل القرية ابتعادي عن الأشرار والمتطفلين، لكن ولكي يستغلني أهلي، زوجوني مبكرا فور بلوغي ما يقارب سن السابعة عشرة، والزواج يتطلب التكاليف، فاشتروا أجزاء كبيرة من ارضنا، لتغطية تكاليف زواجي، ومع هذا سعدت بديجة الشابة التي تصغرني بسنتين او ثلاثة، وأدركت أن الله معي، حيث يسر لي هذه الزوجة الصالحة، احببتها وصارت كنزي وملاذي، أحبها كثيرا وتحبني، مع اننا لم نتحادث ولم نتقابل ولا تعارفنا قبل زواجنا.**

#### **نسيني الأشرار، فاستداروا على أخي دعيس ، حاول بعضهم زيارتي في منزلي مساء لكسب ود زوجتي أو إخافتنا ولنيل ما يريدون، لكن أوان الضعف ولّى، وهدفي كان حماية زوجتي خديجة حبيبتي من تغول اللؤماء، والذين لا يعرفون الشرف والعفة، زوجتي عفيفة بريئة طاهرة، لا تعرف الخيانة ولا الغدر، امرأة شابة وربما طفلة، ولن أسمح بالاقتراب منها حتى لو كلفني ذلك حياتي، فجهزت العصي الثخينة والسكاكين الطويلة والخناجر المسنونة، أهدد بها كل من تسول له نفسه بالتحدث في أمر لا أخلاقي معي او مع زوجتي، او حتى مجرد محاولة دخول منزلنا بنية سيئة، لم أقرر أن أتحدث في هذا الأمر مع خالي الكفيف، ولا مع اي من الأهل، لأنني صرت أشعر بأنني رجل وعليّ ان أحمي نفسي وشرفي.**

**فصل 25**

**- هلا سألتني يا سالومي عن حالنا حين كنا في المغرب؟ تقول المجندة مغربية الأصل.**

**- المفروض أننا أعداء، وأنا أسير سجين، فلا أجرؤ أن أسأل انسانا مسئولا عني. فأنت تراقبين حركاتي وسكناتي وتصرفاتي، حسب المهمة الموكولة لك، أنا أعرف حدودي، واعرف الواجب الملقى عليك، ثم لا حق لي بسؤال كهذا**

**- عمي رفض مغادرة المغرب، فعنده متاجر ومصانع ومزارع، أما والدي فقد باع أملاكه لشقيقه، وهاجر مع عائلته إلى اسرائيل، إنه نادم على فعلته، وكان عمر ابنته راشيل عشرون عاما حين تركت بلدها الأصلي عام 1947، كانت ريتشي تعلم أن فلسطين بلد جميل كالمغرب، لكن المغرب واسع وأكثر امناً، وإن عائلتهم قديمة هناك، ومنذ طرد الإسبانُ كل العرب واليهود من الأندلس، كان الإسبان يكرهون اليهود أكثر من كراهيتهم للعرب، المغرب حمت من وصلها من اليهود ورحبت بهم، وما زالت أرض العرب كلها، ملجأ آمنا لكل مضطر او محروم من الأمن، ولكل من يريد أن ينعم بالحرية، تقول ريتشي، أراد والدي أن أتعلم قيادة السيارة حين بلغت سن السادسة عشرة عام 1945، برغم صغر سني، لأساعد والدي في قضاء حاجات الأسرة، او القيام بخدمات البريد لشركة والدي مع عمي في تجارة الحبر وصناعته والورق.**

**فوجئ عفان مرة حين شاهد ريتشي تقود سيارة جيب عسكرية، بريطانية الصنع، قديمة من مخلفات الجيش البريطاني، لسرعة التحرك داخل المعسكر، والكشف على العمال والورش. قال لها عفان**

**- إن الإنجليز ساعدوا اليهود في كل شيء على حساب ا لفلسطينيين، حتى انهم تركوا سياراتهم الميدانية لكم، فأجابت بعصبية وضيق**

**- لقد أمضى أجدادنا اعمارهم يساعدون بريطانيا، ساعدناها حتى انتصرت على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وساعدناها في القضاء على طموحات محمد علي التوسعية، وساعدناها في الحرب العالمية الثانية حتى انتصرت على النازي، فكيف لا ترد لنا جميلنا، إنها لم تخدمنا بربع ما قدمنا لها من خدمات، إننا لا نعترف بفضل أحد علينا، إن عقولنا ومفكرينا وأموال اغنيائنا هي التي نفعتنا، ثم إن اختراعات علمائنا وضباطنا هي التي بنت المجد لكثير من دول العالم قبل ولادة دولة إسرائيل، إن الخدمة الوحيدة التي قدمتها بريطانيا لنا هي عدم السماح للفلسطينيين بحمل السلاح، ولم تسمح لهم حتى بحرية التدرب عليه خلال فترة انتدابها على فلسطين، فبريطانيا كانت مضطرة لتنفيذ توصيات ضباطنا اليهود الذين كانوا يحملون الجنسية البريطانية ويعملون مع الجيش البريطاني والشرطة في فلسطين وبريطانيا. تنزع ريتشي طاقيتها عن رأسها، تنظر لها وتتأملها، ترى بقعة خفيفة من غبار عليها، تنفضها بأصابعها الرقيقة الجميلة، تضم شفتيها وتمطهما للأمام، لاحظت انني انتبهت لفمها الممطوط، فأصدرت عن قصد صوتا كأنها تقبل الهواء، تنفخ ثم تضع فمها على القبعة، وتعيدها على رأسها، بعد أن ضمت ذيل شعرها غير الطويلة، وأدخلتها تحت قبعتها، واقتربت من مرآة السيارة وصارت تدوزن قبعتها على رأسها، ثم صوبت نظرها لي، قلت لها**

**- لا أنكر انني عرفت الكثير منك ومن الكتب والصحف التي دأبت على قراءتها هنا بعد أسري، وقع كتاب (نقل الأديب) بين يدي، قرأته كله وكررت قراءته، استمتعت بما احتوى من طرائف وبلاغة، وهو مختارات جمعها الأديب الفلسطيني محمد إسعاف النشاشيبي من امهات الكتب الأدبية العربية القديمة،**

**- هل تذكر لي شيئا خفيفا مما قرأت في هذا الكتاب؟**

**- من تلك المختارات: اتى شيعي وسني إلى أبؤ نواس فقالا: أي الناس افضل بعد رسول الله، فقال: افضلهم بعده يزيد بن الفضل، فقالا، ومن يزيد بن الفضل، فقال: رجل يعطيني كل سنة ثلاثة آلاف درهم. وطرفة أخرى**

**حكم الغناء تسمّعٌ ومدامُ ماللغناء مع الحديث نظام**

**لو أنني قاض قضيت قضيةً إن الحديث مع الغناء حرام**

**وطرفة ثالثة: قال المنصور لبعض أهل الشام، إلا تحمدون أن دفع عنكم الطاعون منذ وليناكم، فقال الشامي: إن الله أعدل من أن يجمعكم علينا مع الطاعون.، ابتسمت ريتشي قليلا، ونظراتها بعيدة عن موضوع الأدب والتراث وحكايات ابو نؤاس، فيضطر سلوم أن يغير الموضوع قائلا**

**- لكن قولي لي يا ريتشي، ما رأيك في قرارات الأمم المتحدة، بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، ولماذا يعطوا اليهود وطنا قوميا لليهود في فلسطين، ولإنشاء دولة يهودية جديدة؟ مع ان الشعب الفلسطيني لم يعترض على استقبال المهاجرين اليهود من جميع انحاء العالم، لم نفكر بقتل اليهود او الغدر بهم، لم نعاديهم بجدية ولم نطاردهم، بل إن فلسطين واسعة للجميع، وخيرات فلسطين كثيرة، ولولا بريطانيا ومن ورائها فرنسا ودول اوربا واميركا الظالمة، لبقي العرب واليهود كلهم فلسطينيون، نعيش مع بعض ونختلط ونتاجر ونتجاور، كما هو الحال والتعايش بين المسلمين والمسيحيين لقرون طويلة، فلو فكرت كل طائفة دينية عمل دولة لها، فمن حق المسيحيين إذن أن ينشئوا دولة مسيحية لهم في فلسطين.**

**تعدل ريتشي طاقيتها العسكرية على رأسها ثانية، لتثبتها جيدا وبالشكل المطلوب عسكريا، تشد يديها على طوليهما إلى اسفل جانبيها، وتشد عضلاتها بوقفة عسكرية، وبدون صبر تريد ان تقاطعني لتوقفني عن الكلام، برز ثدياها مشدودين نافرين، ودفعا قميصها العسكري، اتسعت فتحة القميص من الأعلى، لأنها لم تشبك الزرين الأخيرين، وقعت عيناي على هلال مشرق، أنار شيئا من ظلمة روحي.**

**- قل غير هذا الكلام يا عفان، نحن شمس الشرق، وسيتغير كل الشرق العربي والإسلامي، بعد قيام دولة إسرائيل، فلا تتعجل انت وأمثالك، إن إسرائيل منارة وحافز لكل متخلف، إن اليهودي إذا حل بأرض غير أفكار سكانها وطبيعة الحياة، وطرق عيشها.**

**- مع انني لا أفهم أبعاد كلامك، لكنني ارى التأثير العسكري فقط، حيث ارى أن لا جيش عربي يجرؤ على مواجهة جيشكم الصغير الجديد، وحكمتم ارضا دون أن يواجهكم اي جيش عربي، ولا استطاع أحد أن يوقف زحفكم على مدن وقرى ليس من حقكم حكمها، حتى ولا حسب قرار 148 لتقسيم فلسطين إلى دولتين، وما زلتم تهدمون اماكن العرب وتقيمون مدنا ومستوطنات يهودية لمسح آثار الفلسطينيين العرب في بلدهم فلسطين. تزم ريتشي شفتيها وتهز رأسها بتثاقل وعدم رضا، ثم تقول**

**- هيا يكفيك عملا هذا اليوم، تهيأ لتعود لغرفتك، يظهر أنك تعبت كثيرا.**

**وأنا في طريقي لغريفتي، يستفزني الماضي القريب، ويعتصرني ألم التهجير الخالي من أي معنى او سبب له، وامام مرأى ومسمع كل العرب وكل العالم، ويشهدون على ذبح شعب فلسطيني كامل، والسكوت على إلغاء تواجده فوق أرضه على مدى التاريخ المعروف للإنسانية، وأتذكر بعض المواقف والمشاهد من حياتنا في فلسطين قبل الهزيمة.**

**في فصل الربيع وفي معظم شهور الصيف، نبرّد أجسامنا وأرواحنا من عرق العمل المضني، وننسى المشاكل اليومية، مادامت الأنسام العليلة تداعب وجوهنا وشعورنا، لا نكشفها إلا في نزهاتنا وأجواء حريتنا، أما إن كان حولنا صبايا فنتفنن في محاولات التقرب منهن، يقفزن ويركضن في الخلاء بحرية، فيثيرنا ذلك ويهيجنا، لكننا كفلاحين نلتزم الأدب ونتجنب المضايقة، فنكتفي بالحلم ونتمنى الكثير، بكلام او دون كلام، نتصور كيف تتسلل هبات الهواء العليل إلى صدروهن، وحين تتنبه الصبايا لنظراتنا وأفواهنا مفتوحة مشدوهة، ينتعشن ويروق لهن ذلك، فتعلو ضحكاتهن تعبيراً عن تلك الأحاسيس الحبيسة، يشعرن أنها لذيذة، وكأنهن في نشوة من سكر، او رجفات متعة شهوة، والضحكة تتوالد من الضحكة.**

**أنا أسير غريفتي الصغيرة، وغريفتي نفسها أسيرة المعسكر الكيبوتس، وريتشي بعد أن تم ترفيعها لمساعد ضابط، اصبحت هي وثلاثة رجال يتحكمون في المعسكر، والأسلاك حول المعسكر، والبوابتان والحراس يتحكمون في كل من هو داخل المعسكر، لم أعد أخشى زيادة العقاب عليّ، فكل الحواجز المادية والبشرية والاستخبارية مسخرة لمراقبتي أنا وأمثالي من العمال العرب والسجناء والمقهورين، ولا أجنحة لي حتى أحلق في الفضاء هاربا من هذه الأجواء التي اعيشها بالرغم عني، لكن تهاون ريتشي معي، ورضائي باقترابها، أصبح يزودني بصلابة وبشيء من اللامبالاة، لست متأكدا من أنني أصبحت انجذب لها، لكنني لم أنس أنني كاليتيم حين يضطر للتجاوب مع أي عطف او حنان من أي مصدر، لكن الأهم صرت أحسّ أنني أفضل حالا بكثير من المسجونين العاديين والأسرى الآخرين، فها انا اخاطب امرأة يهودية ندا لند تقريباً، واستمتع بأوقاتي وبحاجاتي انتقاما لأسري في بعض الأوقات، أتعامل مع الأشجار والأزهار والرياحين، واشاهد طيور بلادي وأستمع لتغريدها ومناجاتها، واراقب ركض القطط وكسلها وحتى أنني صرت أستأنس بفأري الذي اعتاد على عطفي عليه بطعام او ماء نظيف.**

**كنت أعجب بطاقيتها الحمراء، كنت أرى الطاقية جميلة، وتذكرني بطربوش خالي الأحمر، كنت أغني له حين يخلعه عن رأسه، (غطي راسك هالمنفوش، طربوشك احمر منقوش)، فطنت ريتشي لعدم اكتراثي بتكتيكاتها العسكرية، كنت مرة في طرف ملعب الكرة الطائرة بعيدا قليلا عن المساكن، هبت نسمة هواء خفيفة لطفت الجو، والشمس تجري لمستقر لها قرب الغروب، وانا أحب وقت الغروب، انظر للشمس وهي راحلة تصفرّ فيعتريني حزن لا يخففه إلا وجود ديجة زوجتي، أو ان الشمس تعلن تضامنها معي فيظهر عليها الحزن لغياب زوجتي عني، تذكرني بهموم الوحدة والعزلة والفقد، فأتذكر الإيمان وصلابة الرجال، وبرغم تأثري وانقباضي، إلا انني كنت أنتظر ساعة الغروب كل يوم تقريبا، أتوقف عن فعل اي شيء اقوم به وقتها، او أخرج من غريفتي أتامل انسحاب الشمس البطيء، وابتعادها حتى اختفائها عن عينيّ، أصبحت أرى إنها تجسد ديجا في حرماننا كلينا من الاستمتاع بالاقتراب وبأحتضانها، ديجا غابت عني طول هذه الرحلة المشئومة وها قدر مرّ عام و أكثر قليلا، محروما من مشاهدتها او تلمسها، فكلما رحلت الشمس أحس وكأنني أفارق خديجة لحظتها.**

**حين خرجت من بيتنا القديم يوم وقعت في الأسر، أتذكر كيف تبعتني ديجا وهي توصيني ألا أبتعد كثيرا عن البلدة، وتطلب مني أن اعود مبكرا، حتى تجهز لي شوربة عدس، او مرق فريكة القمح، وهي تتأفف وتلومني لأنني لم اسمح لها بمرافقتي، واوصتني بالحرص على الماء الذي حملتني اياه، للشرب منه او لتنظيف يدي ومؤخرتي، أحرجتني وهي تقترب مني وتريد أن تضمني بعينيها، فقبلت جبهتها وأدرت ظهري مسرعا، وها أنا اودع شمسي كل يوم أستعيد مشاعر خديجة كل يوم حين غابت عني.**

**مدت ريتشي يدها تطلب مني الاقتراب، وكأنها ندمت على تشنجها، لأنها لاحظت عدم اكتراثي، فاتجهت عيناي للأفق البعيد صوب الشمس الموشكة على الغروب، تقع عيناي على ملامح وجه ريتشي المتوسلة، مشيت خطوتين مستجيبا لدعوتها مقتربا وببطء، تسند ريتشي ظهرها على الجيب العسكري، فبرز نهداها أكثر واتسعت فتحة قميصها لكن بميل، بحيث ظهرت قبة إحدى ثدييها بارقة، سمراء مشرقة تجسد شروق هلال خجول، زادته صفرة أشعة الشمس بهاء، واصفى من بشرتها الخارحية. وقفت بجانبها، فبدت وكأنها تفكر، وفي الوقت نفسه تحرك قبعتها في الهواء، تنتتفخ الطاقية ثم تضمر، وكأنها قلبها الذي ينبض، ينبسط وينقبض، تكرر تلك الحركة وأنا لا ادري ماعليّ أن افعله، منعزلين في المعسكر، بعيدا عن غريفتي، مدت طاقيتها أثناء تحريكها امام وجهي، كأنها تهش الذباب عني أو لتخفي وجهي أو نظراتها، أو لتبرد أعصابي، تحرك نهداها للأعلى ثانية ثم هبطا، استنشقت نفسا عميقاً، في جهد غير طبيعي، في شبه حيرة لا تركز على شيء معين، أو كأنها شربت مسكرا خاصاً، مدت يدها الأخرى واسندتها على السيارة،اقتربت من السيارة فضمتني برفق لها، طاوعتها بلا إرادة، كدمية بلا مقاومة، ينتابني خدر وتيه وخبل ولسان عييّ، إنه الوطر الخارق الخانق.**

**تفطن ريتشي شيئا خطر ببالها فجأة، فتقفز كالشبح تبتعد عن السيارة، تتخذ من طاقيتها ملهاة وسبيلا للبوح بما يساورها من أفكار، تلوح بها وفي مشية عسكرية تعبيرا عن ثقة، ثم تترى عليها حركات خفيفة في رقبتها ونظراتها فتتراخي، تتراجع وتقترب من سيارة الجيب العسكرية، وأنا متصلب أنتظر خطواتها التالية، ونسيم عليل يومها يداعب شعرها، فتحة قميصها ازدادت اتساعا، لكن حركات اضلاع صدرها بدت جلية، حين يمتلئ قلبها بالدم وعند دفعه لكل مكان في جسدها، وحمرة على محياها تنطق بالدم الأحمر القاني، فأتساءل في خبث قائلا، ماذا يريد ذاك القلب الناشط يا ترى؟ وهو مستمر في انبساطه وانقباضه، تظل طاقيتها وسيلة تعبير وكأنها تريدها أن تنطق بما يدور في خلدها، فتحرك طاقيتها للأمام، ثم تلوح بها للخلف، تتقدم بعدها صوب كرسي القيادة مترددة، وطلبت مني أن اركب بجانبها في السيارة، لأعادتني لغريفتي، عند وصولنا أنزل في صمت، بينما ظلت تنتظر حتى فتحتُ الباب، ثم أدارت محرك السيارة، فقالت، اتركك لتستحم بعد عمل يوم طويل، وسأعود لتفقدك بعد ساعة او ساعة ونصف تقريباً، أصبحت أنتظر قدومها كل مساء، وكأنّ أمري مفروغ منه، وتحت أمرها ويدها كلما أرادت، تخرجني من زنزانتي أو تحضر بسيارتها العسكرية لتعيدني لها، غير مسموح لي بالمشي في طرق المعسكر وحدي، بل يجب أن يراقبني عسكري أو يحرسني أثناء عملي قريبا من غرفتي أو بعيدا داخل المعسكر. وبرغم انتظام الحياة وتحسنها، إلا أنني كنت افتقد الحياة في تلك الحياة**

**فصل 26**

**تعلمت القليل من اللغة العبرية، لكن كل اهتمامي ظل مركزا على زيادة ثقافتي، وللتسلية في اي قراءة باللغة العربية، على امل التصبر والصمود حتى انتهاء محكوميتي، أخلصت في متابعة الكتب المتنوعة التي أحضرتها ريتشي لي، لم أكن أخبرها انني أذاكر وأراجع كي أتعلم المزيد كل ليلة تقريبا، حيث لا أنيس لي إلا الكتاب، ثم إنني قابلت أشخاصاً من اليهود كانوا غير سعداء برحيلهم إلى فلسطين، أو يعبروا عن ندمهم لمغادرة اماكن نشأتهم الأولى، وصادفت يهودا ولدوا ونشأوا في فلسطين العربية لم يكونوا راضين عن العداء مع الفلسطينيين، وأخبرتني ريتشي أن يهوداً فلسطينيين وعرب، كرهوا اليهود الوافدين من أوربا وامريكا بسبب استعلائهم عليهم وغرورهم.**

**سأعود لك يا ديجه، إن الله معنا يا خديجة، أرجو لك السلامة والصحة يا حبيبتي، يا زوجتي التي قضيت معك عاماً واحد وشهوراً قليلة، قبل أن أقع أسيراً بطريق الخطأ في يد الغزاة وغدراً، سرقوني كما سرقوا وطننا الجميل يا ديجا، آه لو تعلمين كم أحسّ براحة حين أتذكر أنهم لم يسرقوك أنت أيضا يا زوجتي الغالية وابنة قريتي، برغم أننا لسنا أقارب في الأصل، إلا أنك وأهلك صرتم أقرب الناس لي، إحساسي ينبئني أنني سأعود لك، أرجو أن لا يكون هذا الإحساس خادعاً، أعلم أنك تنتظرين عودتي ربما، أو سماع أخباري، فهل أنا موجود في نظرك يا ديجة؟ أعرف أن المرأة العربية الريفية لا تقطع الأمل، ومن المعروف في عاداتنا وتقاليدنا أن الزوجة تنتظر غياب زوجها سنوات طويلة، حين يغيب لغاية متفق عليها او لتحسين حال أسرته، او إذا سجن، خاصة نحن اهل فلسطين، فكثيرون من شعبنا الفلسطيني مسيحيين ومسلمين يسافرون لأمريكا، ويتركون زوجاتهم وأولادهم، حتى يجمع الزوج المسافر ثروة تكفيهم بقية العمر، وتنتظر الزوجة صابرة راضية بنصيبها، حتى لو مات أو قتل، والزوجة العربية تنتظر سنوات حدادا على زوجها واحتراماً، إنني لست قلقاً من هذه الناحية، أعرف وفاءك وأعرف طيبة أهلك، ومحبتهم لي، لكن للأسف لن اعود لك بثروة، أنا أسير ضعيف، وسأخرج صفر اليدين إن سلمت وتم تحريري، لا أدري كيف سأواجهك بفقري وخلو يدي من المال؟ ومع هذا أتألم حين أتصورك وحيدة، لا تدرين أين تجلسين أو مع من تقضين أوقات فراغك، الحمد لله أن والديك أحياء، أنت شابة حرة، أتمنى لو تأكدت أنني تركتك حاملاً يا حبيبتي، سيكون وضعك أسهل كثيراً لأنك ستنشغلين برعاية نفسك أثناء فترة الحمل، وسيكون الكثيرون من أهلك ومن أهلي معك، ثم ستهتمين بطفلنا أثناء غيابي، ستناغين الطفل قائلة هيا ننتظر بابا، بابا سيحضر معه حلوى وفلوس وملابس وألعاب جميلة، ربما لا يفهم الطفل ذكراً كان أو أنثى كل ما تقولين له، بعد سنة من عمره أو عمرها، لكن يبدأ في إدراك أن له أباً مثل غيره من الأطفال، وليس مثل طفولتي، مرّ على وجودي في الأسر ما يقارب السنتين، وثقتي بالله ثم بنفسي أن يتم الإفراج عني خلال شهور حسب الحكم الصادر ضدي، اراد بعضهم قتلي، قالوا لنريحه ونستريح منه، هنا في مكانه وفوق أرضه وبجوار خرائه، لكن سلم المتعوس ليرى ويتعلم ويعيش كل ما مرّ به وما سيمرّ، آه لو تعرفين تفاصيل ما مرّ بي يا ديجة، أشك انك ستقبلين بي زوجا او رفيق عمر.**

**لم ينفعني عقلي ولا حرصي ولا تقاليدي ولا حتى ديني هنا في الأسر، فالعقل لا يبدع ولا يزدهر إلا في جو من الحرية، وجسدي استجاب لأسر إضافي، إنها ريتشي وحاجاتها ومن شابهها، لم أتقبل ظروف حياة الأسر يوما ما او من الممكن أن أعتادها، ولم أقطع الأمل في التحرر أبداً، إحساس غريب في داخلي بأن قدرة خارقة ستتدخل لإنقاذي من الموت البطيء، لا يسألني أحد عن حاجتي ومحروم من التحدث عن شيء اسمه ماضي أو مستقبل، وما شأن الرغبات الجسدية الأخرى؟ يبدو أنها لا ترتبط مباشرة بالعقل، سواء كان المخلوق إنساناً أو حيوانا، نعم لم أتعلم في مدارس ، ولكني أتقن قراءة القرآن وأعرف تفسير معظم نصوصه التي تثقفنا بها عند شيخنا حامد، وكل نصوص القرآن تدعونا للتأمل والتدبر والصبر، وأحفظ الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، فأملي بالله قوي، آه لو تعلمين كم زادت ثقافتي في الأسر، صرت أعرف براءتي وحقي في الحياة الحرة الكريمة، وامور أخرى لا يمكن حصرها او التصريح بها، هل ساعيش لتنعمي بمناغاتي لك يا زوجتي ديجة؟ تنام بعض المشاعر والغرائز وتتنحى جانباً أملا او انتظاراً، ربما اضطرارا او قناعة العقل بتأجيلها أو تقييدها، كثيراً ما خطرت تلك التساؤلات في رأسي، وخاصة بعد أن بدأت الأرملة وأطفالها وخادمهم الآخر يعلمونني العبرية والفرنسية والإنجليزية، وريتشي، أرادتني أن أتعلم كل شيء تعرفه، لتصل إلى كل ما تريده من جسدي ومن وجودي، وجدوا أن تعليمي اللغات التي يتكلمونها تسهل عليهم التفاهم معي، وكأنني سأبقى لهم طول العمر، لتنفيذ طلباتهم التي تتزاحم على هذا الجسد يوماً بعد يوم، وهذه مخاوف إضافية، وقد يسبب هذا تأخير إطلاق سراحي أو حتى إلغاؤه، ومن سينقذني ويخلصني من الأسر، إنه قرارالحاكم العسكري، والذي يمكنه تعطيل حكم المحكمة؟؟ الطعام مختلف الألوان والمذاقات متوفر لي كل يوم، والاستمتاع بلا رغبة صادقة مني تختلف في تأثيرها على نفسيتي واستسلامي.**

**أصارحك ياحبيبتي أنني بعد زواجي حين كنا أنت وأنا في بيتنا، كنت أحسّ أنني أصبحت ملكاً غير متوج كلما هل المساء، وأغلق الباب علينا، ومليكتي ديجا تتجلى بلباسها الريفي الفلسطيني المطرز أو لباس العرس الأبيض شبه الشفاف، قبل بدء طقوس النوم، تتلألأ على جنبات ثوبك الفلسطيني عروق الحرير الذهبي، كأنها أعمدة لقصر أندلسي في غرناطة، حسبما أبدع المهندسون العرب وغير العرب في تصاميم بيوت رفاهية للسادة المترفين، لن أترك أملاكي خاوية خالية معزولة مثلهم، سأملأ قصري بأطفال عرب، حتى يخلدوا ذكري، ونتباهى بقصورنا وخلفنا طول الزمان، وحين شاهدت مرة صورة لإحدى تلك الجماليات في صورة ضمن كتاب يحمل عنوان "العلاقة بين العرب المسلمين واليهود على مدى العصور" قلبت صفحاته في منزل أرملة الضابط، ومع أنني تعلمت القليل من العبرية الدارجة، والقليل من الإنجليزية والفرنسية، ولم يتح لي أن أقرأ في الكتاب إلا جملا عربية منحوتة على الجدران او أبواب القصور، ثم بعض الترجمات التي استطعت معرفتها من الإنجليزية، لقلة معرفتي بها، أما الشروح فكانت بالعبرية، ثم ترجمات لبعض الأجزاء إلى الفرنسية.**

**لباس ديجة زوجتي تزيد ضوء سراج البترول الوحيد في منزلنا الكبير إشراقاً، سأظل أحلم وأحلم وأعيد ما مر بي، متذكرا كل لحظة قضيتها معك ياحبيبتي ديجة قبل أسري، إنك زهرة فواحة بالنسبة لي، تتفتح مع كل طلوع الشمس، وتزداد إشعاعاً بعد غروبها، أحس بحاجة ملحة لشمّها ولثمها حتى واحتضانها، برغم قصر المدة التي عشناها سويا يا خديجة، لكنني لا أتوقف عن الحلم والتذكارات.**

**حين كانت ديجا تجلس بجانبي، تواصل تعلم التطريز الذي بدأته في النهار، أو هي تريد أن تريني أنها تهتم بذلك الفن، لتوفر علينا شراء ملابس فلسطينية تراثية، مطرزة وجاهزة، لا تتكلم إلا إذا خاطبتها، وتخجل حتى من إظهار مشاعرها، لكنني صرت ألاحظ تشوقها لنداء الفراش الذي فردته على المصطبة وجهزته، بعد صلاة العشاء كطقس لكل يوم.**

**أحب رائحة الزهور البرية، ويبدو أنني أخطأت حين أبلغت (ريتشي) عن ذلك، لأنني شممت رائحة العطر الذي يفوح منها وكأنه زهور من جبال أرضنا البرية، صارت تكثر منها كلما قدمت لاصطحابي، لكن أنفي بدأت تعتاد على روائحها القوية الثمينة، والتي اخبرتني عنها انها فرنسية، أحسست بضيق نفس في البدايات، وبالاختناق كلما اقتربت مني ، تسألني (ريتشي) هل تعجبك رائحة عطري يا شلوم؟**

* **سامحيني أنا اسمي سلوم وليس شلوم.**
* **لا يهم يا شلوم لا تهتم بالاسم، المعنى واحد ولا تتوقف عند هذه النقطة، وبدلاً من أجابتها، حاولت الابتسام.**

**حين أدعو زوجتي، تقف ديجة أمامي طائعة مختارة، زوجتي الفلاحة تخجل حتى من أن تعبر عن تعلقها بي، لسان حالها يدلّ على أنها تريد أن تصدر المبادرات مني، مع انها تلقي أحيانا برأسها على صدري، ملصقة فمها قرب فتحة قميصي، أشتم روائح حليب البقرة وغبار التبن الجاف وعلف الماشية بعد إطعامها للحيوانات في البيت.**

**وهنا في أسري أسمع ريتشي تقول**

* **سأعلمك، وأعلمك وأعلمك، فقدراتك العقلية كبيرة، واتساع مداركك تسمح بأن تصبح متحضراً ومدنياً، سأعلمك الكثير الكثير.**
* **هل ستعلمينني العبرية والإنجليزية؟ ألا يكفي انك تعلمينني سباحة الأعضاء؟ لا تنسي أن أرملة الضابط الأوربية الشقراء، حرصت على تعليمي الفرنسية أيضا، فوجئت ريتشي، وتغيرت ملامح وجهها، ربما هي الغيرة.**
* **ماذا تقول؟ ماذا تعني بكلمة الشقراء؟ وهل تذكرني بأنني لست شقراء، لأنني من أصل مغربي؟ ألا ترى نفسك عربيا أسمر؟**
* **لا أفهم ما تقولين يا حضرة السيدة ريتشي، أرجو أن لا تحاولي إلصاق تهم جديدة بي،**
* **أعرف يا سالومي أعرفها جيدا، إنني أفهمك وأفهم كلامك الذي ينم عن ذكاء فطري، كنت أظنك إنساناً ساذجاً غير قابل لتعلم أي شيء في البدايات، كما كنا نسمع عن العربي، لكنك أصبحت تفـتـنني كل يوم بصمودك، تصرفاتك، صبرك، حكمتك، مرونتك، تواضعك واحترامك الطبيعي العفوي للمرأة وبفهمك، أمور ساحرة كلها فيك، أنا الآن أخاطبك كامرأة، أي امرأة عادية، بغض النظر عن اصلي او ديني او طائفتي او لوني أو عملي ووظيفتي، نحن النساء نبحث عن الرجل الذي يتحلى ببعض مواصفاتك، عقول الكثيرين من الرجال وأفكارهم ومشاعرهم سطحية أو خبيئة، لا تغرنا المظاهر والتصرفات الخارجية والتمثيل الأجوف، أصارحك إن نومي أصبح قليلا يا سلومي.**
* **ممَّ تشتكين؟ وما الذي يسبب لك الأرق؟**
* **إنك تغيظني، بمخاطبتي بهذا الشكل، وربما تقصد في كلامك أشياء لا أفهمها أنا أيضا بلا شك.**
* **سامحيني إن قلت لك إنني لا أصدق تعلقك بأسير عربي فلسطيني له دين مختلف عن دينك، أنت يهودية منتصرة، وأنا فلسطيني عربي مسلم من شعب مهزوم، فما الذي يقربنا؟ وكيف يمكنك مساعدتي؟ حتى لو طلبتُ منكِ أو حتى لو أردتِ مساعدتي؟**
* **إنني لا أريد أن أساعدك، بل إنني أحاول مساعدة نفسي، يعتورني ندم.**
* **ندم؟ ندم على ماذا؟ أرجو أن لا أكون انا في الوسط، لا أفهم ما تقصدين!**
* **ندم كبير، ربما غباء في أهلي، حضر أهلي هنا إلى فلسطين، لنساهم في بناء دولة إسرائيل بفرح واحتفالات ونحن نشكر الله الذي أكرمنا، ووهب لنا أرضاً ودولة دون حروب ومعارك وخسائر تذكر، لكنني أنا نفسي واجهتني صدمات كثيرة**
* **لي تعليقان على كلامك، هل ستغضبين؟**
* **قل يا سلوم قل ما في رأسك؟**
* **قلت انك شيوعية لا تؤمنين بالأديان، وها أنت تقولين ان الله اكرمكم ووهب لكم ارضا دون حروب ولا معارك ولا خسائر تذكر؟**
* **ثم ماذا؟**
* **هل أشفقت على فلسطينيين؟ أو هل شاهدت قتلى وجرحى؟ أو هل ساهمت في قتل فلسطينيين أبرياء؟**
* **ليس من هذا كله، إدّعى إسرائيلي يهودي مصري أنه يحبني، وكلانا نفهم اللغة العربية، ونقترب في التقاليد، لكنني فوجئت به يستغلني ويستولي على راتبي، ليرافق اليهوديات الشقراوات، وينفق كل ما في جيوبه على لباسهن وشرابهن، مقابل ماذا؟ مقابل تعريهنّ والإغراءات التي يتقنّها لتفتن عينيه.**
* **ثم ماذا حصل؟**
* **لا تستعجل! بعدها تعلق بي جندي في جيش الدفاع الإسرائيلي من أصل روسي، وتطورت علاقتنا، فأصر على الزواج، لتكون علاقتنا حلالاً، وحسب الشرع اليهودي.**
* **ثم ماذا؟**
* **قلت لك لا تستعجل! لم يكن أفضل من اليهودي المصري الأصل، يبدو أنه أراد أن يجرب التعامل معي كيهودية عربية سمراء، أظهر ترحيباً كبيراً بي حين وافقت على الزواج، لكنه اعترف لي بعد ذلك بأنه لا يتقيد بمبادئ الديانة اليهودية، ولأنه شيوعي، ويصرّ على الحرية بلا قيود، فهو (هومو) يمارس الجنس مع الشباب من أمثاله، ويمارسون معه كذلك، ويطلب مني قبول ممارسة الجنس من الخلف، بعد أن يئس من رفضي لرغبته هذه، ألمح لي إنه لا يمانع أن يشاركه صديق له في زوجته بحضوره، وبالمثل يفعلها مع غيري، وأنا لم أقبل كل ذلك.**

**يسكت عفان ويغض طرفه، يستغفر الله، يحرك كفّ يده اليمنى، ويقلبها أسفاً مستنكراً، ثم يده اليسرى كذلك، وهي ترقب ما يفعل، وما سيقول، يهمهم في نفسه، دون أن تفهم ريتشي ما يقوله.**

* **يكفيني عذاب الأسر يا ريتشي، دماغي يكاد يتفجر بعد شكواك، أتمنى أن تساعديني للعودة إلى ديجا زوجتي يا ريتشي.**
* **يخرب بيتك وبيت زوجتك، لكنني أرى أن صحتك ونشاطك وحتى عقلك كلها تتحسن وتقوى منذ ألقينا عليك القبض متسللآ عبر حدود دولة إسرائيل.**
* **وصفك لوقوعي في الأسر ليس صحيحاً، فلو أردت التسلل أو التخريب فلن تلاقيني، لأنني لست غبياً حتى أفعلها جهاراً نهاراً، وهذا الموضوع كشفه التحقيق وانتهى أمره، واقترب موعد إنهاء محكوميتي، وأعجب من عودتك العزف على هذا الأمر اليوم.**
* **لا تغضب يا سلوم أرجوك، كنت أمزح معك، وكلامك صحيح، لكن تكرار لقاءاتنا ثلاث مرات أو أربع أسبوعياً، هو الذي تعودت عليه، ولا أتصور نفسي كيف ستصبح حياتي لو أعادوك إلى أهلك؟**

**- ثم ماذا تريدين أن تقولي لي إضافة لما سمعته عن بعض الرجال الذين احببتهم؟ هل حملت أطفالاً من أي من الزوجين السابقين؟**

* **من المصري، لكنه تسلم الطفل الذكر بعد أن تنازلت له عن رعايته ، فأودعه لدى الدولة لتقوم بتربيته، سأحضر لأخذك من بيت الأرملة غداً قبل ساعة من الموعد المحدد. أفيدك أنني كنت فتاة ساذجة مسالمة، وووالدي وأسرتي ما زالوا محافظين متمسكين بالكثير من التراث العربي المغربي، لكن ما إن فتحت عيني ودخلت سلك الجندية حتى انهالت علينا أفلام السيكس الدانمركية والمجلات الأمريكية والصور العارية، والإغراءات للشباب في كل زمان ومكان، فأبعدونا عن أهالينا ومعتقداتنا، وكثرت الإغراءات والتجارب وإشباع الجسد بالطعام والشراب والمتع ، كل ذلك غير حياتي نوعا ما، وكل هذا يعمل على تناسي كل من كانوا حولي هناك في المغرب، وحتى إن رجال الدين أقنعونا أن جنتنا المضمونة هي الدنيا ، فصرت أحاول أن أقنع نفسي لكي أفكر مثل الكثيرين من الغربيين أن لامحرم في الحياة، ما دمت لا تكسر القانون، ونحن شعب الله المختار، والله سيسامحنا عن أي شيء نفعله، وهانحن استعدنا أرضنا المقدسة لنبني الهيكل ولنعمر الأرض، وننشر السلام في كل مكان في هذا العالم.**

**احتار سلوم ماذا يقول لها ، فقد أصيب بحرج وجرح، أحس بهوان وهو ينكمش أكثر من أي وقت مضى، ينظر للسماء، هبت نسمة لطيفة من الشمال، الله، اللاه قالها بصوت مرتفع، ثم غمغم في نفسه، (ريح الشمالي يا نسيم بلادنا) بعدها رفع عقيرته مغنياً العتابا: جبل الشيخ يا عالي جبلنا، ودم رجال في ترابك جبلنا، مادام سـلّوم مقيم في جبلنا، على العدوان مردود النقا) اوف اوف، زهر القرنفل يا ربيع بلادنا، ثم قال لها**

* **لا شك أن هذه النسمة مرت فوق عمامة جبل الشيخ.**
* **وماذا قلت وأنت تغمغم من قبل؟**
* **أشعر أنني آثم وحقير حسب مذهبي يا سيدتي.**
* **ماذا تقصــــد؟.**
* **أحسّ أن الليلة ستكون عاصفة مرعدة مبرقة.**
* **تعني كالليلة العاصفة التي وجد (كنج أرثر) نفسه بها قبل موته بعد أن قسم مملكته بين ابنتيه اللتين تنكرتا له.**
* **ما معنى (كنج أرثر)؟**
* **اسمع يا سلوم، مع انه يعنيني كيف تفكر، لكنني لست رباً لك، ولا يعنيني أن أخلق منك بشراً سوياً كاملاً أو أصحح مفاهيمك واعوجاجك. فهيا أصحبك إلى قصرك الليلة، ياويلنا لو عرف أهلي اني أقضي ساعات من الليل معك، الليلة بالذات اريدها في قصرك، أعني زنزانتك، لقد هيأت الظروف وأبلغت والدتي وزميلاتي أنني في زيارة عند أصدقاء آخرين في الكيبوتس، ووالدي ما زال يحلم بأنه سيعود للمغرب يوما ما، ودائما يقول: إن غداً لناظره قريب**

**فصــل 27**

**منذ أن أضيف لواجباتي العمل في حديقة الأرملة الشقراء، صرت أجد مأكولات غريبة نوعا ما أوً عادية كما تطعم العائلة، أشكال ومذاقات لم أعرفها من قبل، وصعب عليّ حتى تعلم نطق اسماء بعضها أو التعرف عليها، هل يساعد الطعام على الإحساس بقيمة الحياة؟ أو تنوعها، أو إثبات استمراريتها على الأقل؟ تزداد أمنيتي بأن يتسارع الزمن، وتسرع الأيام زحفها والساعات بعد مرور عام على اسري، حين أصل إلى زنزانتي أدخلها مستسلماً، شبه مغمض العينين، لاأريد رؤية التفاصيل الدقيقة حولي وفي داخلها، قد نعتاد على أشياء نكرهها، كالسجن والمرض والهزيمة والمخيمات حين تطول الإقامة بها، أو لايكون لنا خيار، لاحظت اهتمام الأرملة الشقراء بي، وبسبب مذاقات اطعمتها، صرت أقضي معظم النهارات في منطقة حديقتها، إنه ثراء الغذاء الذي يتوفر لي لتدجيني على أعمال إضافية أخرى، بالإضافة لري الأشجار أو الأزهار، وتعهد نباتات الخضار المتنوعة، أو تشذيب العشب وإروائه وحتى مسح الغبار عن الأضواء الكهربائية على جدران السور وقرب مدخل الفيلا، الفيلا بناء عسكري بريطاني، مثلها كانت تبنى لكبار ضباط المعسكر الإنجليز وعائلاتهم، أعرف جيدا أنها هي الأخرى تحاول تدجيني، تلك المشاعر كانت تجعلني أحسّ بمضاعفة الأسر، أحاول أن أخفي نفسي عن نفسي، شعور بدونية خاصة لا يمكن البوح بها، كل ذلك كان يدفعني لسرعة إقفال باب الزنزانة فور دخولي بها، حتى أخلو لنفسي محاولا تخليصها مما علق بها، أو مما اقترفته بغير حق ولا رغبة ولا انتقام، أحاول التهب مما آلت إليه حالتي، أشعر بنوع من خدر او بلادة، فأغفو أثناء تفكيري بين التاسعة والعاشرة مساء أيام البرد، وبين العاشرة والحادية عشرة في أيام الصيف والحر، سيحضر الحارس في السابعة من صباح اليوم التالي، يلقي لي شيئاً من طعام للإفطار، ويطلب مني الاستعداد لقدوم جندي بسيارته لنقلي إلى مكان عملي لذلك اليوم، وبعد ما يقارب الشهر على تخصيصي لتلك الأسرة، أقنعتها بأن لا يحضر جندي لنقلي لمكان العمل حول منزلها، لأن المسافة تقارب نصف كيلومتر، وأريد أن أغدو لها ماشيا، أغادر زنزانتي في السابعة صباح كل يوم، وبعد أيام قليلة من عرض رغبتي لها بالمشي، أبلغوني بالموافقة على أن أذهب للعمل عندها ماشياً، كان بي شوق للعمل المنتج، مع انه يذكرني بعملي أثناء طفولتي قطروساً عند الفلاح الجبلي، دون أجر طبعاً، وتستمر الأسرة التي أخدمها في إطعامي مما يأكلون، بل صارت المرأة الشقراء الكهل تعطيني بعضاً من ملابسهم المستعملة، وقالوا خذها معك لك ولزوجتك حين تنهي محكوميتك، (فقلت متى يا رب يحدث ذلك؟، وسأطبق الكثير من الجماليات التي اضطررت لتعلمها هنا على حياتي مع ديجا؟، ومع . . . هذه الشقراء، مما علمتنيه) لم أتوقع الصدق والوفاء منهم، حول الإفراج عني، أعرف أن العسكر والمنتصر يفعل ما يروق له فقط . . .. ، فكيف به إن كان عدوا؟؟؟.... لم أعد أعدّ الأيام ولا الشهور، فأنا أتوقع الأسوأ دائما، سواء كنت في زنزانتي أو أثناء سيري لعملي في مساحة محدودة من المعسكر، أو حتى وأنا في لحظات حميمة تلبية لحاجة الغير، إنني أسير في مستوطنة جديدة لخليط من يهود من مختلف أرجاء العالم، جاءوا هرباً أوطمعا إلى بلدي فلسطين، بعد أن عجزت منظمة الأمم المتحدة عن حمايتنا، ووقف العالم اصمّاً ابكمَ اعمى بليدا متآمراً على تضييع حقوق شعبي، لا بل شجعت الدول الأقوى خطط الصهاينة لمحاولات طمس هذه الحقوق، باستخدام كافة أساليب الزيف والكذب والادعاءات، ليثبتوا عدم وجود شعبنا على ارض فلسطين، لم أكن أعرف الكثير قبل أسري عن قضية فلسطين، لكن الأسر أتاح لي أن أعرف فظاعة الظلم الذي ألمّ بشعبي العربي الفلسطيني، إنني لست مهجرا ولا لاجئاً وارض والدي ما زالت حرّة، ولو عدت حيا لبلدي، سأعيش عيشة راضية، لأنني سأعمل في أرضي بطريقة حديثة كما يفعل هؤلاء الغرباء، لكن حزني على وطني هو الذي يزيد من أرَقي، بمثل ما يؤرقني بعدي عن زوجتي ديجة، السجن والأسر يحبس جسمي وحريتي، وريتشي والشقراء تعملان على أسر مشاعري، واستغلال تلك الطاقة ا لتي خلقها الله بنا، نحن الرجال.**

**أتذكر المثل القائل، (علمني كيف اصيد السمك بدلا من أن تتصدق عليّ وتعطيني مما عندك من السمك) ليت العرب سلحونا ودربونا بدلاً من إرسال جيوشهم الهزيلة، لتمنى بهزائم مخزية وغريبة، ولتسلم ما كنا قادرين على أن نحميه وندافع عنه حتى بدون سلاح لو أبلغونا بعدم نيتهم الصادقة لتثبيتنا على ارضنا، خسر الفلسطينيون مناطق واسعة من فلسطين بعد دخول الجيوش العربية، وكأنها أدخلت لتضمن تسليم الجزء الأكبر من فلسطين للصهاينة، إنه الغدر، خيانة، جهل أو مؤامرة، لا أدري كيف اصفها، ولا كيف أتقبلها انا وشعبي على مدى التاريخ والقرون القادمة، ومن سيكون مهيئاً للتكفير عن هذه الخطايا العربية، ليت الشعوب العربية كلها تطلع على ما قامت به جيوشهم ومساهماتهم سواء كانت مقصودة او تقصيرا، لترجيح كفة الصهاينة في الصراع عام 1948 وما بعدها. والنتيجة هي مزيد من العذاب لي ولشعبي في قادم السنين، كان المفروض أن تحمي جيوش العرب المجاورة لفلسطين المدن الرئيسة مثل يافا واللد والرملة وحيفا وعكا وبئر السبع، والتي كانت تخلو من اليهود وقتها، وباتفاقيات مخزية، وبانسحابات ذليلة، ضاعت هذه المدن وقراها التابعة لها، وسهولها الخصبة وحقول البرتقال، وحرمنا أريج أزهار الليمون، هذا ما سمعته من اليهود أنفسهم، يصفون تراجع الجيوش العربية ذليلة بانسحاباتها من جبهات القتال، بضغط اممي دولي، أو بخسارات تمثيلية في جبهات القتال، دون نية صادقة لدخول الحرب، ودون أن يحفظوا حق أصحاب الوطن الأصليين، او لضمان بقاء الفلسطينيين في منازله حتى لو تحت الاحتلال، وعلى الأقل في المناطق التي كانت جيوش العرب الفاشلة تتمركز بها، إن الصهاينة لم يكونوا يفكرون باحتلال اللد والرملة، وهما العمق الاستراتيجي لفلسطين، ولا إمكانية لديهم لاحتلال بئر السبع، لولا هرب جيش عربي، بل كان همهم ضمان الساحل ومدن الساحل، فتم تسليم اللد والرملة للجيش الصهيوني، دون قتال، وهي المنطقة الاستراتيجية الواسعة الممتدة بين الساحل والجبل، وما تبع ذلك من سكان القرى التابعة لهما، وكان عدد القرى في تلك المنطقة وحدها ما يقارب المئة قرية، فمناطق شرق مدينتي اللد والرملة كانت كلها اراض عربية غير محتلة، لا مطمع لإسرائيل بها، في تلك الظروف لصغر جيشهم، وقلة عددهم، هذا ما سمعته من الصهاينة انفسهم، ولطالما عابوا عليّ وعلى شعبي العربي، حتى ريتشي التي صارحتني بكل تلك الأقوال، صرت أكره التطلع للخلف وللتاريخ، ومن المفروض أن نستفيد من دروس الماضي، لنبني لمستقبل أفضل، لكن ما يجري بعد كل ما جرى يزيدني يأساً من الحاضر، وأظن أننا لا مستقبل لنا عبر أجيال كثيرة قادمة.**

**لا يثق الغربي بالعربي مهما أخلص النية ومهما كان صادقا، حتى وانا أعمل ملتزما بما اوكل لي من أعمال داخل المعسكر أكون مراقباً، وبطرق مختلفة، إما من أصحاب الحوض الزراعي، أو يمر شرطي أو عسكري كل نصف ساعة للتأكد من وجودي، حتى في اللحظة التي تحضر فيها ريتشي لاستلامي من منزل الأرملة الشقراء، لتعيدني إلى قفصي، تأمرني بالسير أمامها، وهي ممسكة بسلاحها، وعلى مرأى من الأسرة أوالحارس والطباخة الأثيوبية، نسير أمتاراً وهي في هدوء وتثاقل، ثم تأتيها نوبات مرح أحيانا، حيث تتقافز أمامي وخلفي وبجانبي مغرورة وفي سعادة، وحين نصل سيارة الجيب العسكرية المتوقفة بعيدا عن الفيلا، اركب في الكرسي الخلفي، فتصحبني لعمل جولة مراقبة حول أسوار المعسكر، لضمان الأمن فيه، تخرج يدها من جيبها وتصر على وضع حلوى من أي نوع في فمي، أقاوم يدها، وأصرّ على أن أمسك الحلوى بيدي أولاً، كي أتأملها، تغضب وتعيد كلماتها قائلة، ألم تتعلم أن تثق بي سلوم؟؟ ثم تضيف، هذا حلو يعطيك الطاقة والقوة، وتأثيره سريع المفعول، وما إن تبتعد السيارة ما يقارب المئتي متر عن باب الفيلا، حتى تطلب من سلوم أن يزحف على أربع، كي ينتقل للجلوس بجانبها، تمسك عجلة القيادة بيدها اليسرى وتلقي بيدها اليمنى على يد سلوم اليسرى أو فخذه سائلة**

* **هل تخشاني يا سلوم؟**
* **لا أخشى إلا الله، وأخشى أي شخص يضع أصبعه على الزناد ليقتلني، أما أنت فقد اعتدت على مشاكساتك لي يا حضرة المجندة العجيبة ريتشي**
* **العجيبة؟ وما ذا تقصد بالعجيبة؟ وما لأناملك غير ثابتة، عصبية أم ماذا؟**
* **أنت عجيبة جداً، وحركة أصابعي أظنها طبيعية، أو هي حركة لا إرادية، الخيارات أمامي محدودة يا ريتشي! اسمعي! . . . أنت ريتشي العجيبة!**
* **لكن حرارتك مرتفعة يا سلوم، فهل تعاني من حمى؟**
* **لا أدري ولم أعتد على مراقبة جسمي، ولا أعرف لا حرارة ولا بروداً**

**تنسى ريتشي نفسها، أو هي تتصنع النسيان، وتبقي أصابع سلوم محشورة في قبضة أصابعها الناعمة، ثم بعد دقائق خمس او حولها تقول**

* **أصابعك الأربعة تزداد حرارة.**
* **ولماذا تهتمين بحرارتي، وكيف تعرفين عن تزايدها؟ فهل أناملك ميزان حرارة (ثيرموميتر)؟**
* **كلا ولكن عرق كفك بلل أصابعي، وأحس بأن أصابع يدك زلقة.**
* **أخشى أن تكون حرارتك أنت هي التي بللت كفي، يا سيدة ريتشي.**
* **حين تخاطبني (بكلمة سيدة) أحس بضيق بارد، ثم حين تصمت أشعر بحرارة تجتاج جبهتي.**
* **آآه يا ريتشي لو تعلمين مدى اشتياقي لأهلى وقريتي والأشجار التي زرعها والدي وورثها لي، ثم الأشجار التي زرعتها أنا الآخر، أتمنى أن اطمئن عن نموها ونجاحها،**

**تجفل ريتشي كأن حشرة لسعتها، تخبط مقود السيارة بيدها اليمنى، تحس بألم من قسوة الضربة، تنظر لكفها تتأملها، تنفخ زفرة طويلة، تهدئ سرعة السيارة بشكل مفاجئ، وتثبت عجلة القيادة بطرف ركبتها وفخذها، وتسرع أصابع يدها اليسرى بفك الزرين العلويين من قميصها العسكري، بينما يحسّ سلوم أن أصابع يده اليسرى تحت ضغط كماشة فولاذية ساخنة، تسرع أنفاس ريتشي وتعلو، تبطئ السيارة ويهدأ ضجيجها، ثم توقفها كليا، تتوجه بجسدها كله صوب وجه عفان (سلوم) بعصبية ترفع يديها السمراوين الرياضيتين الممشوقتين مثل قوامها، تهدئ نفسها، ثم تسأل انا احكي كلام عن موضوع، وأنت تتكلم عن موضوع آخر؟ هل أنت مسحور، ديجا، ديجا.. خبلتني بديجا، آآه لو اقدر اصل لها، لأراها أو أتحدث لها أو .. . .**

**- أو تطلقين النار عليها.**

**- كلا سلوم انا توقفت كليا عن اطلاق نار، انا اكره لون الدم. أنا لا أقوى على زيارة مستشفى، حتى لا أرى المرضى والمظلومين، ولهذا وقع كل اهتمامي عليك لأنك أسير، ولأنه ثبتت براءتك من أي نية للتخريب. أنا أريد أن أكفر عن سيئاتي التي اقترفتها في حياتي مع أمثالك من الفلسطينيين، أتعاملي معك بطريقة إنسانية، أحاول أن أكفر عن شعبي الذي اضطر لظلمكم، إنها لحظات حساب الضمير، إن الكثير من الواعين اليهود، يشعرون بالذنب بسبب الظلم الذي أذقناه للفلسطينيين، ولأن العداوة مستمرة، فنخشى منكم ومن انتقامكم، لاشك انكم ستكونون قساة كما هي عادة المسلم حين يتحكم، وكذلك أي مهزوم حين ينتصر ثانية، إن رؤساءكم وحكامكم يظلمون شعوبهم، فكيف لو تحكموا بشعبي اليهودي؟.**

**- وما هي أكثر سيئاتك التي تقلقك؟**

**- سلوم (بليز، بليز،) رجاء، لا أطيق التحقيق معي.**

**تضع يدها اليمنى على فخذ سلوم المتحجر المتصلب، وقد اكتسبت عضلاته صلابة بسبب تواتر عمله في الأسر وبسب نشاط العمل في حدائق الزهور.**

**كانت زوجته ديجا حين تنأى عنه، يبتكر حجة أو يطلب منها طلباً لتحضره له، لم يكن يشعر ببرودة ليالي الشتاء الطويلة في ذلك العام، بسبب دفء قلب ديجا ودمها، يقول لزوجته خديجة**

**- قربي السراج يا ديجا كي أقرأ لك شيئاً، هل تختارين الليلة أن نقرأ القرآن أم في كتاب ألف ليلة وليلة؟ تدير ديجا وجهها صوب الباب، ألا تحس بالبرد يا سلوم؟**

* **وماذا في رأسك يا ديجا؟**
* **كلا أردت أن أحضر بعض الحطب نوقده، نتدفأ وليزداد الضوء في منزلنا الواسع، ونغلي ماء لأجهز لك الشاي أو القهوة مثلما يفعل والدي ووالدتي، وبعد أن تبتعد قليلاً عنه تقول، لو طلبت منك ان تسمعني آيات من القرآن فهل ستقرؤه غيباً أم ستحمل القرآن لتقرأ منه؟**
* **فهمت ما تعنين، ستكون الليلة هي الخامسة بعد المائة ونحن في كتاب ألف ليلة وليلة، هيا عجلي في الحطب وسأشعل بعض العيدان الصغيرة ريثما تحضرين قطعاً ثخينة من خشب الزيتون الجاف، سيدفئنا خشب زيتوننا، كما جاء في كتاب الله، (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا، فإذا أنتم منه توقدون) صدق الله العظيم، وخاصة وأنت بجواري يا زوجي خديجة، فكيف بنا لو شربنا الشاي الساخن بحلاوة زائدة ونحن ملتصقين؟.**

**عودتني خديجة على أكل الخبز المحمص على النار في أوقات متأخرة من ليالي الشتاء الباردة. بعد زواجنا بعشرة شهورتقول ديجة**

**- بدأت أحس أن بطني صارت تكبر، لأنك تشجعني على كثرة الأكل، وأنت تسخن قطع الخبز وتناولني إياها مع كؤوس الشاي الساخن، والحمد لله على حليب بقرتنا والجبن، لأنهما يمكناننا من أكل المزيد من الخبز المحمص.**

* **أخشى أن تكوني حاملاً وتظنين أن بطنك تكبر من كثرة أكل الخبز؟**
* **هذه أمور لا يعلمها إلا الله، والدتي والداية قالتا الله أعلم، وربما ما زلت صغيرة.**

**يتناول سلوم أعواد الحطب من ديجاه، ويبقى يدها أسيرة بين أصابعه، يجذبها مع الحطب صوبه، فتضحك وهي تجلس ملتصقة به، فتقول له ببساطة الفتاة الريفية الحيية**

* **عودتني على الالتصاق بك يا سلومي، حتى والدتي لم أكن أقترب منها هكذا قبل زواجي منك.**
* **مع أنني أحب أن تأتينا بطفل نحبه سويا، لكنني أخشى أن تنشغلي به أو بها عني، وقد تصيبني الغيرة.**
* **يا عيبك يا ابن العمّ، وهل يغار الرجل العربي من نسله؟ يسكت سلوم محرجاً من كلامها، تتابع عيناه الناروهي تزداد اشتعالا، يجذبها كي تقترب من النار مثله، لكنه لم يستطع أن يوقف تعليقه على حديثها، فقال**
* **إن اول شيء سأخسره هو حرماني من مص الثديين، فستصبحان من نصيب الطفل، خجلت ديجة، ولم تعتد على التحدث عن مثل هذه الأمور الخاصة، وإنما تفعلها خفية وتسللا، كثرة احترامه لها شجعها على مخاطبته بشيء من صراحة وممازحة. تقول**
* **هل نستطيع احتمال نارين يا ابن عمي؟.**
* **لم أفهم ما تقصدين.**

**أخبرته قبل تلك الليلة، أن والدتها أوصتها وعجائز أخريات أن تتثاقل، ولا تظهر رغبتها الجسدية، ولا تستهل التحبب للرجل، وكلما تمنعت كانت الحاجة لها أكثر، ويزداد ترابط الزوج مع زوجته، وحتى يشعر أنه هو مديرها وموجهها وعلى مسئوليته، وقلن لها، إنها طريقتنا التراثية، أي لا تكوني سهلة مطواعة للرجل كالدمية، دعيه يعمل طويلا لإرضائك وتسخينك، وهي أعمق أثراً من الصراحة في إبداء الرغبة الحقيقية في التفاح، أو في الفواكه الأكثر لذة ، حتى لو كانت المرأة تحس بحاجة أو نفسها تتوق لطعم الفاكهة.**

**تقول ريتشي، أتمنى لو أستطيع أن آخذك معي إلى كافتيريا المعسكر، او دكان سبينيز، برغم حريتك، وحريتي خارج وقت الوظيفة، إن الذين يراقبونك كثيرون. حتى أنا نفسي مراقبة، ويحظر النظام على أي يهودي أن يتفاهم مع أي عربي، وعليه ألا يكلمه إلا للضرورة القصوى، أو لإنجاز عمل يهم دولة إسرائيل وشعبنا، كالحارس مثلا أو أي عامل من العرب الذين احتاجتهم حكومة إسرائيل وقت العمل. فما رأيك أن تنتظر هنا عند حوض الماء، حتى أذهب بالسيارة لأحضر مشروبا باردا لنا؟**

**فكر عفان (سلوم) أن الخيار الآخر، هو ألقاؤه داخل غريفته، فطلب منها أن تتركه في زنزانته، فانتهرته وسارع بالنزول من السيارة، ابتسمت له قائلة، لن اطيل الغياب يا صديقي سلوم. حاول الابتسام، وقال اوكي ريتشي، ستجدينني جالساً على ذلك الطوار الحجري منتظراً عودتك.**

**ليلة زواجي من ديجا، وجدتُ صعوبة في أكمال عملية واحدة مما هو متوقع من أي زوج، لم أيأس، ولم أغضب حبيبتي التي سلمتني قيادها، وفي اليوم الثالث نجحت وأحسست بمعنى طعم التفاح الفلسطيني ولذته، طارت كل الحواجز والهموم مع الطيور النائية، وبدأت حياتي الجميلة تتناغم مع تغريد طيور بلادي التي حولنا، بدأت مرحلة تحريرعقلي وأعصابي من كل هم أو نكد مر بي في طفولتي، وخاصة كلما أحتضنت ديجا أو احتضنتني في أي مكان في البيت، أو حتى تحت شجرة في حقولنا، ومرة قرب المغارة التي انهارت على والدي فقتلته، لماذا فعلتها يا عفان في موقع وفاة والدك مقتولاً؟ أردتَ يا عفان أن تعرِفَ روحُ والدك أن نسله أصبح رجلاً متزوجا منتجا، لعلّ روحه تسعد في عالمها الآخر، ثم لتعرفَ أنه سيكون له أحفاد، وتمتد أغصان سلوم عفان في مسارب الزمن ودهاليز أعوامه، كنت أحب أن أشعر بجمال ديجا، تعمدت إثارتها كي يعلو صوتها، غنجا او شاكية تطلب مني التوقف في إلحاح، وعلى مسمع روح والدي، قرب موقع وفاته، وددت أن أكتم صياحها بكفي، لكنني أنا نفسي في موقف جنوني، سعيد بسماع صرخات ديجة، لا بل سيطر عليّ إحساس بأن أزيدها كي تزداداستغاثة، في أرضنا، نظراً لعدم وجود أي مخلوق حولنا يزعجنا اولا، ثم للتأكد من إرضاء نفسي بأن روح والدي سعيدة مع سعادتنا، وأن روحه تسمع أنغام تمتعنا، أحسست بلذة طعم التفاح يومها بشكل لم أشعر مثله من قبل، أحسست أننا في الجنة، ولا نريد أن نفارقها، كان الأمر وقتها بيدي، حلّـق سلوم النهم في سماوات لا حدود لها، حتى لم يبق في جسده رحيق دافئ، ينهض بعدها لاهثاً مطمئنا يدور حول ملهمته، باحثا عن اي تصرف يرضيها، متنفساً بعمق وسرعة، حتى بدأ فرط السعادة بدأ يعيد الترطيب إلى حلقي، داعيا ربي أن أكون زرعت نبتاً في أرض خصبة، وقرب الصخرة الضخمة التي مزقت جسد ابي وحرمته الحياة، وحين تأملت الصخرة وجدت أنها ثلاث قطع ممتدة امام عيني، وديجة تسند رأسها مشعث الشعر، على فلقة الصخرة الأصغرمسترخية، تتردد الفلاحة غضة الإهاب في النهوض عن الأرض، أو انها لا تقوى على النهوض، اوحتى فتح عينيها، حنيت ظهري فسرعان مااحتضنتني زوجتي خديجة وطوقت رقبتي بذراعيها، فرفعتها حتى اعتدلت قامتها، ذكرتها بأن الناس كسروا الصخرة التي سحقت جسد والدي إلى ثلاث قطع، وكانت تستند برأسها على القطعة الأصغر، والتي لا يقل وزنها عن طن.**

**حين أغمر ديجا في حضني، تحس بلهفتي وحماسي ، يأتيها المرح الطفولي، تنسى أنها امرأة، تتلوى الطفلة وتتمعج بمطلق حريتها، وأحس بمذاق هذه التحركات الجاذبة، وإذا صدف وأفلتت من بين ذراعي، تتراقص وتتمايل رافعة حشرجتها ضاحكة شاكية، وبثرثرتها غير المفهومة، لكن أناملها تتلمسان كل مكان في دلال، أو تعض أي جزء من جسدي يصل له فمها، عند لحظات جنوننا لايخطر ببالنا رغبة في أي طعام أو شراب، حتى لو كنت عائدا لتوي من العمل الشاق، وامعائي خاوية من الجوع، أنسى كل هذا وأبدأ بالتنعم بأجواء الجنة التي وعدنا بها.**

**فصل 28**

**في بدايات اهتمام ريتشي بي، لم تكن تسمح لي بالنزول من السيارة قبل أن تتحدث شيئا عن نفسها، أو عن كرهها للحرب والقتل، وعن تعاطفها مع الفلسطينيين الذين حرموا من ديارهم، وإنها تغيرت كثيرا بعد انضمامها للحزب اليساري قبل سنتين، بل تواصل فتح مواضيع عن الحياة والملابس والرغبات والهوايات، وايام اهلها في المغرب قبل هجرتهم لدولة إسرائيل، وتأتي على مقولة، إن من السهل أن نتعايش عرب ويهود في فلسطين، دون عداوات ودون حروب، المهم خلق جيل جديد مثقف يؤمن بالانفتاح على الآخر، وقبوله، والأهم هي الحياة في امان واطمئنان، والمجال مفتوح لكل عاقل ومفكر ومجتهد، لكي يصل للموقع الذي يطمح له إن استطاع، بالديمقراطية، والحرية هي التي تسهل كل أمور الحياة.**

**سلوم هو سلوم الطبيعي، لم أكن أهتم بكل ذلك الكلام، لأنه صادر من عدو، ولا يقول العدو كلاما يهمُّ الأسيرَ او المهزوم، هدفي الأول أن تنتهي مدة محكوميتي، لآنجو من السجن الكبير في المعسكر، او هو الكيبوتس لا أعرف الفرق ولا يهمني معرفة ذلك الفرق، تواصل ريتشي أحاديثها عن مواضيع حياتيه والزواج والحب، أصغي مضطرا بلا كلام ولا تعليق، وأحاول أن يكون مظهري حيادياً غير متأثر بما أسمع، لا بل حاولت مرات عدة أن يظل دوري سلبياً، مستمعا مستمسكاً بطباعنا العربية وبشرفنا وديننا، يظهر الضيق عليها والغيظ، لكنها صبور، امرأة صبور، وبأناة تبطئ السيارة العسكرية البريطانية القديمة نوعا ما، وتكرر النظر في مرآتها، تتأمل وجهها، ثم تتجه بنظرها صوبي، تتأمل ملامحي، أغض بصري وأتظاهر بالنظر لحذائي مع أنهما قديمتان، أشغل نفسي بنفض غبار عن ملابسي، وبعد أكثر من شهر، توقف السيارة فجأة على جانب الطريق، فتحت الباب الخلفي وهي تشهر مسدسها، طلبت مني النزول، قدرت أن ساعة الموت قد حانت، لم أعد أهتم بالموت، لأنني كنت أتوقعه في أي وقت، حين تكون ملك عدوك او كارهك، فعليك ان تتخلى عن الخوف، ولو تظاهراً، سبق وتعرضت للموت كثيرا من قبل ثم نجاني الله، وآخرها حين نجوت من رشاشات البولندي والألماني والفرنسي، أما اليهودي المصري والعراقي فلم يظهرا استفزازاً ولا تعطشاً لقتلي، ورئيسهم الأمريكي، كان يراقب المواقف ببرود، لكن لم يسمح لأحد من أولئك الموتورين التخلص مني.**

**لم يخفني مسدس ريتشي حين أوقفت سيارة الجيب فجأة، لكن ما عليّ إلا أن أطيع أوامرها، فهي تنفذ أوامر تصدر لها من مسئولين أعلى منها، سألتني إن كنت بحاجة لشيء قبل أن تفرج عن أوامرها، لكن وجدت يدها ممدودة للخلف قليلا، تطلب مدي يدي صوب يدها، تشاغلت وتظاهرت بعدم اهتمامي بالأمر، ثبتّ نفسي بالإمساك بكلتا يدي بالأنبوب في مؤخرة السيارة، تهربا من يدها، أرجعت يدها خلف ظهرها أكثر من ذي قبل، ثم أمرتني بالتحرك للجلوس بجانبها على الكرسي الأمامي، ومسدسها مازال في حالة تهديد بيدها اليسرى، المسدس في يدها معبأ وجاهزٌ لإطلاق النار، ظننت أنها تقوم بتمثيلية لتبرر قتلي، وربما إن إطلاق الرصاص محظور في تلك المنطقة، وستنفذ خطتها وأنا بجانبها وفي طريق أبعد عن تلك النقطة، ثم ماذا ستفعل بجثتي يا ترى؟ هل ستلقي بها خارج المعسكر للذباب والحشرات والديدان؟ تذكرت ما فعلوه في قرية دير ياسين، وقرى أخرى في شمال فلسطين، نساء وأطفال وعجائز كانوا ضحايا تعطش أفراد العصابات الإجرامية لدمائنا، وهذه التصرفات الإجرامية اضطرت الكثيرين إلى ترك ديارهم وأملاكهم هربا حتى لا يلاقوا نفس المصير، سلوم يدعو ربه مهمهماً (اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه)**

* **هل يخيفك المسدس يا شلوم**
* **نعم يخيفني، أكره جميع أنواع السلاح، لكن اسمي سلوم وليس شلوم، ثم لم يعد ينفعني الخوف، ولا ينجيني من مصيري المكتوب، لكن إن كانت صدرت لك الأوامر بقتلي فأخبريني قبل ذلك بدقيقتين لسببين، أولاً لأصلي ركعتين مفوضا امري إلى الله وأستغفره، وثانيا حتى أقول لك كلاماً توصليه بطريقتك إلى زوجتي ديجا، ولخالي الكفيف.**
* **ديجا، ديجا، زوجتك ديجة، لا تتوقف عن ذكرها برغم كل المعاناة التي حصلت لك بسبب غبائها، وعدم اعتراضها على ابتعادك أثناء مرضك، أستغرب لماذا وكيف تنسى النعيم الذي أنت فيه هنا ولا تذكره، لم تعرفه في حياتك ولم تجربه، سألتك هل تخاف السلاح ؟**
* **قلت لك نعم، وهل يوجد شخص لا يخاف السلاح؟ حتى من يحملون السلاح يخشونه، قلت لك إنني أكره كل أنواع السلاح.**
* **وأنا كذلك يا شلوم**
* **سلوم يا خواجاية ريتشي، سلوم**
* **ريتشي شاهدت من الآلام والقتل ما يجعلها تتمنى أنها لم تخلق، لكن ريتشي تقول لك إن لم تحاول المخالفة والهرب فأعدك أن لا يقتلك أحد.**
* **وهل تضمنين لي أن أعود إلى زوجتي ديحا**
* **هذا مالا أضمنه، ولا أملك قراراً ولا سلطة لمثل هذا**
* **إذن ما الفائدة، وما الفرق بيني وبين من مات واستراح، ما دمت أنني سأظل أسيراً، الموت راحة في حالة دوام السجن.**
* **الكل مشغول، الكل خائف، حكامكم وحكامنا لهم كثير من المصالح المشتركة، والشعوب حطب للنيران ووقود، حتى يصبحوا رماداً تذروه الرياح، أو غباراّ يملأ العيون.**
* **لو بقيت في السجن حتى الثمانين من عمري ، فسيبقى أملي الرئيس أن لا أموت قبل أن أرى ديجا وأرتاح قربها.**
* **وهل تضمن أن تظلّ ديجاك تنتظرك؟ وهل صدقاً أنّ لك خالاً كفيفاً؟ وكيف كفّ بصره؟**
* **الله اكبر، خديجة أعرفها، فلاحة بنت اصول، لا أشك بها وأضمن ان تنتظرني لو غبت عشر سنين او عشرين، ثم خالي جسار الكفيف هو الذي ربانا أنا وأخي بعد موت والدي وموت والدتي.**
* **يخرب بيت أمك، رحماك يا رب، طفولة بلا أم ولا أب، وما زلت حياً؟؟، هل أنتم مخلوقات من نار او من نور، او من كوكب آخر، أو ان ربكم يحقنكم بدواء ضد الموت، وعلى هذا فان أجسادكم من أفضل انواع الفولاذ؟**

**أردت أن أضحك، لكن ثقافتي المحدودة لم تنجدني بجوابٍ شاف يرضيني. فقلت،**

**- أنت متعلمة فابحثي في التاريخ بنفسك عن جواب لسؤالك. لكنني أعتقد أن العربي قد يخسر، ويخسر كثيرا، لكنه لا يشعر بالهزيمة ابداً، ولا يعرف الاستسلام النهائي.**

**- أوكي سلوم أوكي، شت اب، أسكت أحسن، ستوب توكنج، الأحسن أن تسكت، المهم إن أردت أن تحيا سليما من الأذى، فلا تفكر أبداً بالتمرد والهرب، فأرض هذا المعسكر ومن ثم أرض إسرائيل مزروعة بالجنود والألغام، وفي كل مكان، بل كل إسرائيلي ذكرأ كان أو أنثى هو جندي، ويعمل على حماية مكتسباتنا، وتدمير أي حشرة أو حيوان أو عملاق أو فلسطيني يفكر في إنكار حقنا في أرض إسرائيل.**

* **لا يعنيني ما تقولين يا سيدة ريتشي، ولا أتمنى أن أعرف المزيد، ولم أسمع بذلك من قبل ولن أشهد، وعلى كل حال لم يكن لشعبي الفلسطيني رؤساء ولا زعماء ذوي سلطان أو قوة أو سيطرة، وهكذا استغل الإنجليز هذا الخواء، وربما هذا هو السبب الرئيس للضحك على شعبنا والاستهتار بكثرته وذكائه، هل تفهمين ما أقول، كان شعبنا بلا قيادة موحدة ومقبولة من غالبية الشعب، مما سهل على ناكري الجميل من الصهاينة أن يستغلوا عدم وجود قيادة حكيمة أو مركزية لشعبنا توجهه وتنصحه وتقوده**
* **(سيدة ريتشي؟) ماي قاد، يا إلهي! وبعد كل الدلال الذي أنت فيه وتقول لي (السيدة)؟ قلت لك أنا ريتشي، ريتشي فقط بالنسبة لك، جندي مجندة في جيش إسرائيل، ألأنني أعاملك بلطف تتغافل عني؟، صديقي سلوم حين أقرأ كتب التاريخ، أستنتج من كل ما أقرأ أن الله والعالم والزمان ضدكم أيها الفلسطينيون، الله يفرض على العالم وخاصة المسيحيين أن يعترفوا أننا شعب الله المختار، والله لا يحارب معكم، مشايخكم وحماتكم غرروا بكم، حتى تتحقق نبوءة كهنتنا ووعد الله لنا، ولا تطلب مني أن أوضح لك المزيد مما جرى ضدكم، لأنك لن تفهم ولن تصدق ما قرأته أو سمعته عن إهمال رؤسائكم لشعوبهم ولفلسطينكم التي تحاولون منافستنا عليها.**
* **وهل هذه محاضرة ماقبل الموت يا ريتشي؟ وما فائدة سماعها إن كانت رصاصة الرحمة على وشك الانطلاق، فالموت رحمة أحياناً، لكن الشيء الذي لا أملكه، أنني لا أستطيع وقف اندفاع دمي على هذه الأرض المقدسة فلسطين، وسيلطخ الملابس التي سلمتموها للأسير عفان، ولا أضمن أن يرشق قطرات منه على أي جزء من ثيابك أو جسدك، إن كنت على مسافة قريبة.**
* **برغم سذاجتك، وخشونة كلامك وصلابته، إلا أنك محاور متزن هادئ مريح، أعطني يدك أحسّ ضغطك وحرارتك، وأثر الرهبة على نفسك ونبضك، ودعني أؤكد لك أن كل من يعيش في دولة إسرائيل يتقدم، ويزداد ثقافة وعلماً بالحياة وضرورات المستقبل، ولن تصدق سرعة تطور المرأة الإسرائيلية من أصل يمني أو عراقي او مصري، وأنا نفسي أكاد لا أصدق نفسي، حضرت شبه عمياء، لم أكن أتقن إلا العربية والفرنسية والقليل من العبرية القديمة الميتة، ابنة تاجر صغير، وما زال بعض من أهلي منشغلين بأعمالهم عن العالم، لا يفطنون أن الحياة في إسرائيل هي ارقى وأسمى من اي حياة في أي بلد غيرها.**

**فصــــــل 29**

**ويل لي، لا أجد من أبثه شكواي يا ديجة (كنت إنساناً شبه ساذج جاهل)، واليوم لا تصدقين يا زوجتي، هل ستغارين من حديثي عنها؟ ولماذا نساؤنا لايتطورن مثلها؟ إنهن كالنار، يحرقن الأخضر واليابس في حياة الرجل، حين أعود لك سأخبرك الكثير عن ريتشي، لها أهل وحكومة قوية، وليست ضائعة سائبة، والأهم من ذلك أن نساءهم يحببن حكومتهن، وحكومتهن تحببهنّ، يفهمن معنى الحكم والتحكيم، يفتخرن بزعماء إسرائيل ويثقن بتصرفاتهم، كل امرأة تتمتع بالدعم والتشجيع في الجيش أو في الدولة، واليهوديات عربيات الأصل يشاركن في الانتخابات التي لم يسمعن بها قبل تهريبهن إلى فلسطين المغتصبة، قالت لي المغربية إنها أصبحت لا تقل فهماً عن أي امرأة أوربية عاشت طول عمرها في جو حر وديمقراطي. لا أدري كيف ولماذا سلطوهن عليّ؟ يتناوبن على مراقبتي والتحقيق غيرالرسمي معي، أو ترجمة أقوالي، تعلمت أشياء مهمةً وكثيرة منهن، هل أنبئك؟ لكن مهلاً، أعتقد أن السذاجة نعمة أحياناً ، ثبت لي أن سلاح الضعف قد يؤتي أكلاً أضعاف القوة والندية أحيانا، إذا كان في زمانه ومكانه، لهذا اتسعت سلطات أمهاتنا وجداتنا باعترافهن بالتبعية والولاء للزوج العربي، وقبلن عن طيب خاطر حكم الرجل وأوامره ونواهيه، حسب تراثنا العربي وتاريخنا القديم والحديث ، جربت مثل ذلك الاستسلام بالتظاهر بالضعف، والطاعة دون نقاش، وأداء العمل بأفضل من المتوقع، فكسبت كثيرا من الاعتبار، وتحسنت أوضاعي في الأسر، تشبع الحيوانات البرية في حديقة الحيوانات، والطيور الحبيسة في أقفاص المنازل، وتتمتع بالعلاج والدفء والأمان، وبالرغم من كل ذلك، فإنها سرعان ما تقفز إلى الخلاء والغابة والفضاء، في أي لحظة تتاح لها ذلك، أو إن تمكنت من فتح سدادة سجنها بمجهودها.**

**تعلمين أنني نشأت برياً يا ديجا، لا أم لي ولا أب، ريفي بسيط، فاعتدت أن أتعلم كل ما يلزمني بنفسي من الألف إلى الياء، وساعدني ورعاني شيخنا حامد، كانت عصاه وعقابه ترعبني، فأحفظ وأكتب أكثر مما يطلب، وها أنا هنا أزداد تعلماً كل يوم، هنا مجندة مغربية، وثانية عراقية، وأخرى مصرية، وحتى امرأة اوربية شقراء بشرتها كثيرة الطيات؟ هل تحول أسري وتغذيتي لكي أصلح لكل شيء؟ الأنني قوي أم لأنني ضعيف؟ هل لأنني قصير أسمر؟ ومن هي التي تنبهت للمرة الأولى واكتشفتني وكشفت للغير عني؟ ولماذا لا يحصل ذلك بين العرب أنفسهم في بلادهم وهم أحرار! آسف حين يكونون أحراراً، لكن أستدرك هنا، أنني لا أتوقع حرية في بلاد العرب على زماننا وكما شاهدت هنا، أوفي حياتنا، تساؤلات تذهلني وتحيرني، أرى نفسي عاجزاً عن متابعة التفكير، لكن مهلاً، ربما الغريب للغريب قريب، سمعت أنه حين يلتقي غريبان أو أكثر في بلد آخر يتفقان ويتفاهمان، وربما يحصل أكثر من ذلك، وأغلب ظني لأنني عربي غريب ضعيف، وها أنا أعمل كل يوم على مدار العام في الحدائق، العائلات اليهودية تتناقل أخبار عملي واجتهادي، يطلبونني لخدمة حدائقهم، إنها حدائق صغيرة، حول بيوت كبار الضباط والمسئولين، أرسلوني مرة مقيداً داخل سيارة شبه مظلمة، لا أدرى أين أتجه، وإلى أي مكان محمول، وصلنا لمنزل ضابط يهودي كبير، يقيم في منزل عربي ليس قديماً، لا شك أن العربي كان غنياً جداً، فهو بيت واسع وكبير كثير الغرف، وله ساحة فيها أشجار برتقال وليمون وورود وزيزفون ودفلى ونرجس وياسمين، كلفت بنكش الأرض وإرواء المزروعات، وبعد الانتهاء طلبت مني ربة البيت التي لا تتكلم العربية أن اغسل الشرفة والأدراج العريضة، منزل إذا قورن ببيوت قريتنا أسميه قصراً منيفا، لكن أين هاجر ذلك الفلسطيني العربي صاحب هذا البيت؟ هل يقيم في غرفة حقيرة او خيمة أو بيت من صفيح كما شاهدت وشهدت عام 1948 وما بعدها حتى اسري؟ أو هل حمل معه مالاً كافياً يشتري بها أرضاً ويعمر منزلاً متواضعاً يستر نفسه فيه وأهله، لا شك أن تلك العائلة العربية كانت كبيرة، ربما كان صاحبه هو الجد، يشاركه ابنه المتزوج، وأحفاد شباب اربعة أو خمسة، وإلا لماذا بنوا بيتاً به خمس غرف للنوم، ما عدا الصالتين، الواسعة البهية المزخرفة للرجال؟ وأخرى أصغر منها للنساء، حتى فرشه وسجاد الأرضية عجمي من أفخر السجاد الإيراني، واضح أن عمر السجاد لا يتجاوز السنوات العشر، لكنه جميل، والله إنه جميل، لم أر مثله في حياتي، لم تمزح ربة البيت اليهودية معي، كغيرها، لا بل ظلت عابسة مكفهرة الوجه حقود، كرهتها من أول لحظة، خاطبتني بجلافة وتسلط، تعرف أنني أسير سجين، يفعلون بي ما يشاؤون، يحبسونني، يشتمونني، يعذبونني وبعضهم يفرض تقربه مني دون رغبة مني، ودون مخافة من الله، ولا من أي قوة فوق الأرض، تعرفين يا ديجا أنني مسالم، أحترم من يحترمني، وأتعاون مع من يتعاون معي، أتعايش مع كل الناس، مخلص في عملي، في نكش الأرض هنا وتمديد خراطيم المياه لإرواء الأشجار، فكري مشتت، ومثقل بالهموم والتساؤلات التي تحيرني، أسائل نفسي إلى متى سأستمر على هذه الحال؟ وإن أرادوا بقائي، فلماذا لا أستطيع أن أحضر زوجتي خديجة؟ وكلانا فلسطينيان، ومن حقنا أن نقيم في أمان على هذه الأرض، أو لماذا لا يحق لي أن أعودها، أتمنى أن أتعلم كيف أنتقم لأهلي منهم كشيطان رجيم؟ هل تذكرين حين كنت أقرأ لك حكايات ألف ليلة وليلة؟ كنا نعلق على بعض المواقف الجنسية والحميمية وحيل شهرزاد او العبيد واللصوص او ما شابه، ونضحك أو نحاول أن نطبق بعض تلك الحيل، وهذه اللحظة أضحك وحدي بعد أن ذكرت طرق الشيطان، إذ ذكرتني بحكاية، ربما كانت خيالية سمعتها من عجوز في بلدتنا.**

**تقول الحكاية، ركب بدوي ناقته لرحلة طويلة عبر صحراء واسعة، أحس برغبة جنسية عارمة، ربط نفسه بحبل خلف مؤخرة الناقة وفعل فعلته الشائنة بناقته، بينما هي واقفة، صارالبدوي يلعن الشيطان نادماً بعد انتهائه، فبرز له الشيطان فجأة منتفضاً في وجهه وقال له موبخاً: هل يستطيع أكبر شيطان في العالم أن يفعل بمثل ما استطعت فعله؟ لعنك الله أيها الإنسان.**

**إحداهن تصرّ على التعلق بي، تحاول طول الوقت أن تنفرد بي، اووووه، لو أستطيع أن احدثك عن الطرق التي تغريني بها، وعما تفعله معي، وتعلمني طرقا، ولا مليون امرأة عربية تستطيعها او تفطن لها، كنت أهابها وانفر منها في البداية، مع انني أحاول دائماً إخفاء رغبتي هذه.**

**إن خرجت من الأسر يا خديجة، يعدك عفان بن نومان أن يبدأ كل نهار بالغناء لك، وأتذكرهذه اللحظات الصعبة أن يعلو صوتي مغنياً: طلوا احبابنا طلوا نسِّم يا هوا بلادي**

**انا وديجا فرحانين بين التلة والوادي**

**سنعمل على زيادة غنماتنا يا شريكة عمري، وسنشتري بقرتين أخريين، والحمارة ستولد لنا حمارا او حمارة أخرى، حتى تركبينها، او تنقلين الماء للبيت ولدوابنا من بئرنا القريبة من موقع مقتل والدي، رحمه الله. أما البقرة التي تبيت معنا في البيت نفسه تملأ أنفاسها وروائحها الأخرى جو المكان، لكن ما إن تقترب مني ديجا مع ضوء سراج البترول الذي لايكاد ينير على نفسه، تغالب عيوننا خيوط الظلام، فتجذبني أنفاس ديجة، وأنسى روائح زفير البقرة وروثها، فأحس بأن أنفاس خديجة وكأني استنشق رذاذ ملطف هواء ناعم معطر، في قصر والدي العتيق، أزداد تقرباً لذلك العبق، وما هي إلا ثوان نصبح كأننا جسد واحد، ونغيب، نغيب عن عالم البيت والعمل والظلام، والحب يملأ قلبينا بنور الألهام، ليس لبيتنا الكبير الواسع إلا باب واحد، وكوة صغيرة مرتفعة فوق الباب، حتى لايطالها لص أو متسول أو متطفل، مع انها ضيقة لا تسمح إلا لطفل بعمرلا يزيد عن خمس سنوات بالعبور منها، هكذا كانت معظم بيوت الريف في بلادنا، لذلك كنا ننام دون أن نحس بأرق او قلق او مخاوف، وبعد كل ما مرّ بي هناك وهنا، أؤكد لك يا خديجة أن الحب مسكر ومسكّن للهموم والآلام.**

**فصــــل 30**

**في الأسبوع السابع لأسري، يقودني أحدهم إلى ضابط إسرائيلي برتبة مقدم، يريد أن يطلع على عقلية الأسير الفلسطيني، وهي جزء من التحقيق ولتحطيم معنويات الأسير، أو لاستمالتي للعمل معهم، يبادرني الضابط مخاطباً**

* **عربيم مجرمون كافرون، كنتم تعملون ضد الله في أرضنا لقرون عديدة، وعندما شاء الله أن ينتقم منكم، ألقى في قلوبكم الرعب، ثم شتت شملكم، وفرق صفوفكم، انتظرتم العون من جيرانكم العرب، فشارك أهلوكم في تعذيبكم، وتخلوا عنكم، وقتها عرفنا أن الرب معنا بحق، وانه ناصرنا عليكم وعلى كل عربكم، لم تستطيعوا حتى إثبات أنكم شعب واحد، شعبكم الفلسطيني كأنه شعب لقيط مستورد من فضلات المجتمعات العربية، فالمناطق المجاورة للبنان استعانت باللبنانيين، والمناطق المجاورة لسوريا استعانت بالسوريين، والمناطق الجنوبية من فلسطين استعانت بالمصريين، ثم اضطررتم الاستعانة بقبائل الأردن، وعند الشدة تخلى كل حكام العرب عنكم، مكتفين بالمحافظة على مصالحهم فقط، بينما نحن نعمل بهدوء وثقة، وبتوفيق من رب إسرائيل، نتقدم وأنتم تتأخرون، نتفاهم ونتجمع ونزداد قوة وعزما، بينما يزداد الفساد فيكم وبينكم والخلاف، المهم أن الله نصرنا عليكم وسلمنا الأرض المقدسة دون عناء يذكر، ألقى الله الرعب في قلوبكم فوليتم الأدبار، هاربين تاركين بيوتكم وأملاككم لشعب إسرائيل، فهل استطاع شعبك تجميع ألف رجل على الأقل ليواجهوا قواتنا القليلة في أي موقع عام 1948؟؟. . .، مع أن أغلبنا كنا غرباء عن فلسطين، وكل من استنجدتم بهم تركوكم وفروا ساخرين مما يحل بكم، انكمش كل داخل حدود بلده، حتى أنكم لم تجدوا سلاحاً تواجهون به أسلحتنا الحديثة، أدركنا وقتها أن عربيم جبان وجاهل وخائن. هل تفهم سلوم؟ عربيم جبان وجاهل وخائن.**

**عجب عفان من هذه المحاضرة المختصرة والمذلة، كلام الضابط الإسرائيلي الذي يتكلم العربية الفصحى ولو بلكنة أفحمني، زادني ضعفا وإحساسا بالقصور، تملكني حقد على نفسي وعلى قيادات شعبي الذين كانوا مختلفين متصارعين على كراسي الزعامة، سألت نفسي، لماذا لم يكن لنا زعيم فلسطيني شعبي يوجه الرأي العام، زعماء القبائل والعشائر كانوا عبئاً واكثر ضررا على حياتنا ومصير شعبنا، ثم تذكرت كيف أخطأت وتجاهلت تعليمات رجال الأمن وشرطة الحدود، لكنني تذكرت أنني فلسطيني وهو عدو الصهيوني، والذي يحتل ارض أهلنا في فلسطين، سرعان ما استعدت توازني وعزيمتي الداخلية، أدركت انه يريد أن يحبطني ويجعلني استسلم لما يريده مني، قلت في نفسي، لو كنت أعلم (ياإبن الكلب) لاشتريت سلاحاً، ولو كان عندي نية تحديكم، لتسلحت فعلا، ولكنت حريصاً، وحين برز لي رجالك فجأة، كنت سأواجه الموقف بسلاحي، وسأقتل معظمهم، او كلهم، ولن أفكر بالاستسلام، سأدافع عن ارضي ونفسي وعرضي حتى لو قتلت في ذلك المكان، لكنني كنت أعزلاً، ولا مجال لأن أفعل شيئا ولا أن أهرب، والآن الوضع أسوأ، تذكرت أنني أسير مستضعف لدى عدو لئيم، ومن الطبيعي أنه سيتبع أسوأ السبل لإذلالي، وتحقير شأني، حتى أستسلم وأصبح أداة طيعة ربما في أيديهم، لم أدر ماهو المطلوب مني حتى أتكلم أو أجيب، اعترتني مذلة ورجفة رهبة وحيرة، بقيت متصلباً أنتظر أي إشارة أخرى منه، ولماذا دعوني لمقابلة هذا الشخص المنفوخ غروراً، فالرهبة من العقاب وعذاب التحقيق تجمد لساني، ثم بسبب الإعياء من كثرة السهر الذي يضطروني إليه، ولكثرة تكرار الأسئلة وتكرار إجاباتي، حيث لا يدعوني أرتاح ساعتين على الأقل، إذ يفاجئني محقق جديد، ويبدأ بتكرار نفس الأسئلة التي سئلت بها من شخص قبله، ويدون كل إجاباتي، وكم كلت يداي وهما مربوطتان معلقتان مشبوحتان للأعلى وبانفراج تارة، وخلف ظهري تارة، وللأمام تارة، وضربات على مؤخرتي او ظهري أو اي مكان في جسدي، ثم يطلبون مني أن أكتب إجاباتي المتكررة، وقد سبق وكتبتها عشرات المرات من قبل حسب أوامرهم، فماذا يريدون مني بهذه الطريقة؟ هل يمكن أن يهمل كل واحد من المحققين ما حصل عليه آخر قبله من إجاباتي؟ أو هل المقصود إرهاقي وإجباري على الاعتراف بما لم افكر فيه؟ أو حتى تختلف إجابتي فتقوم قيامتي، أتساءل مع نفسي، اين هي الإنسانية؟ أين هي الرحمة؟ ألست إنساناً مسالماً؟ وكنت داخل ارضي في فلسطين وبلا سلاح، ولا نية بعداء؟ وهل مجرد وجودي في ارضي هو جريمة كبرى؟ أما وجودهم في أرضنا هي نعمة لهم ولنا! ! ! أو نقمة علينا؟؟**

* **ماذا تريدني أن أقول يا خواجة، لا كلام عندي ولا تعليق، لم يكن لدي إلا أصابعي وعضلات يدي للأمساك بالفأس والمسحاة. لاحظ استسلامي وضعفي وعيّ لساني، فتنحنح ثم قال**
* **والآن قل لي هل تفضل أن تبقى في أمان عندنا، تأكل من طعامنا وتشرب من مائنا أم تريد العودة لأهلك الفقراء؟ أم ماذا يدور برأسك؟**
* **الطيور وكل الحيوانات لا تحب الحبس يا خواجة، حتى لو شَبِعَتْ ورَوِيَتْ.**
* **لكنك عربيم جوييم، ولست طيراً، وهناك الملايين من الحيوانات تعيش حياة صحية في حدائق الحيوانات محمية، وتخدم سيدها الإنسان.**
* **يا خواجة الماء التي نشربها سوياً هي من أرض فلسطين، أو من السماء، والخضار والفواكه لم تصنعها أيدي بشر، بل من نتاج الأرض.**
* **أرض إسرائيل**
* **. . . . . . الله أكبر، وسبحان الله.**
* **ماذا تقصد؟ إن دورنا أن نبقى أقوياء، ونذلل كل من يعترض علينا بجيش الدفاع الإسرائيلي الشجاع القوي، ولنحمي أرض إسرائيل التي أعادنا الله لها، وأعادها لنا، إننا لا نهاجم أحداً، إن جيشنا هو جيش دفاع، وكل من يفكر الإضرار بنا نضربه استباقاً، دفاعا عن حقنا في الحياة والسلام، لن نسمح لأي كان أن يصبح قوياً يهددنا أو قريبا منا، وسيبقى جيشنا القوي جيش دفاع، يهاجم ويحطم كل من يفكر بمهاجمتنا قبل أن يتحرك، أي إن هجماتنا هي دفاع استباقي.**
* **الحياة دول يا خواجة، اكفهر وجه الضابط، فسأل لماذا تقول خواجة؟**
* **آسف إنها مفردة نخاطب بها أي ناطق بغير العربية، يقول عفان في نفسه بصوت غير مسموع "قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون"**
* **دينكم دين حقد وكراهية يا عفان، إنني أكره دينكم**

**- لكننا كنا نعيش في فلسطين مع يهود عرب ومسيحيين عرب في سلام وكجيران، واليهود العرب عاشوا قروناً طويلة وما زال الكثيرون منهم يعيشون في كل بلد عربي، وفي كل الدول الإسلامية، ولا ندري ماذا جرى، وما هي الأخطاء التي قام بها العرب والمسلمون والفلسطينيون لتقولوا عن ديننا إنه دين كراهية وحقد، أنا لست على علم واسع بالتاريخ، لكن الذي أعرفه، ودرسناه على يد شيخنا حامد، أننا لم نكن نتوقع حربكم الظالمة ضدنا، اليهود الذين أحسن العرب والمسلمون معاملتهم، قلبوا كل التفاهمات والعلاقات التاريخية التي كانت سائدة بيننا وبينكم لقرون طويلة، انتصاركم علينا سبّبَ تشريد شعب فلسطين.**

**- سنظل نحلم بالهيكل، وهو موجود داخل السور في ا لقدس القديمة، وسنصل له خلال سنوات قليلة، لتصبح القدس عاصمة اسرائيل ولا نريد أي فلسطيني بيننا إلا إذا قبل عن طيب خاطره أن يكون خادما لنا.**

**- القدس، القدس ، القدس حبيبتي، ، القدس وجودنا وماضينا ومستقبلنا، بدون القدس لا توجد فلسطين، ، وبدون القدس سيضيع شعب فلسطين، القدس رمز وجودنا، ونبع قوتنا وعنوان حريتنا.**

**- إخرس أيها الأسير الحقير، يظهر أنك عرفت أن مدة الحكم عليك بالسجن ستكون قصيرة، فصرت تتجرأ ان تقول أشياء لم نتوقعها منك أيها القزم العربي، فإذا كنت ايها الصعلوك الفلسطيني الأسير تقول هذا وانت رهن القيود، فكيف بباقي الفلسطينيين الأحرار؟؟**

**- إننا لم نطرد أي مستوطن مسالم حضر لبلادنا، فلماذا قمتم بطرد معظم شعبنا من ارضهم؟**

* **لم أكن اتوقع شابا صعلوكا مثلك يخاطبني بهذه الجرأة والفهم، انطلق لسانك يا عربيم، عندما عرفت ان مهمتي سلمية، هل نسيت أنك أسير، إنني باحث وأكاديمي، أعمل لصالح جيش الدفاع الإسرائيلي، ولو كنت عسكرياً لقطعت لسانك الذي يجرؤ على التحدث بهذه الطلاقة والتحرر.**
* **سألتني فأجبت بما عرفت من قبل، وبما خطر بفكري وفي حدود معرفتي البسيطة، وحسبما شاهدت مما جرى في بلادنا من تسرع في العداوة وتفضيل خيار الحرب، والاستعداء على السلام، وإهمال التفاهم والتعايش والجيرة والاشتراك في الأرض والماء والهواء.**
* **لم أكن أتوقع منك أيها العربي الحقير هذا الوعي واللغه، وهذا يدفعني للمزيد من رغبتنا في تعاونك معنا، لكنني أعتقد أنه يلزمك المزيد من الشهور في الأسر لتعيش وتشبع وتتحسن صحتك، ألا ترى حالتك وجسمك الهزيل القصير؟**
* **أعرف يا سيدي أعرف، لكن التعذيب الذي يمارس ضدي هو الذي برى بدني، وأضعف كياني، ويظهرني كما تصفني، وهو مستمر عليّ كل يوم تقريباً، وما دمت لاحظت أثره عليّ، فهل تتوسط ليخففوا عني نوبات ا لتعذيب؟ لا أعلم متى سيتوقف، إن كان هناك قضاء وعدل في دولة إسرائيل، الجسد فانٍ يا خواجة، آسف يا بيك، كلنا سنموت، قال الله تعالى في قرآننا (ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأي أرض تموت).**

**ينهض الضابط وهو يهزّ رأسه، يحاول إخفاء غيظه، وعيناه زائغتان، يتأمل البساط البلاستيكي على أرض الغرفة العسكرية، يدير وجهه بسرعة ثم ظهره بحركة عسكرية، ينادي على الرقيب العسكري والحارس الواقفين أمام باب الغرفة قائلاً**

**- أعده إلى زنزانته، وليستمر التحقيق معه، لكن اعلفوه جيداً، حتى نقرر ما يلزم إجراؤه على هذا القزم الأسمر.**

**كان الجو أثناء سيري إلى بستاننا ممتعاً ، أحسست بأن كل شيء حولي جميل ، برغم المغص والألم من تفاعل شربة المسهل والوحدة ، إلا أنني كنت أتعجل الوصول لأرضنا المزروعة بالتين والزيتون والعنب، وفي العادة أصل بستاننا الغربي في مدى نصف ساعة حين أكون ذاهباً للعمل بها، لكن بسبب استمتاعي بمشاهد الطبيعة الجميلة في بلادي فلسطين يومها، رغبت في تطويل الطريق، كي تسهل انزلاق الفضلات في بطني إلى الأسفل، سرت في نصف دائرة متعرجة قوسية، لا بخط مستقيم، أصعد فوق الصخور المنخفضة، وأهبط للأراضي المنبسطة، ألتف حول الأشجار البرية، وأحاول تفقد النباتات العطرية في ارض بلدي، أبحث عن شجيرات الزعتر والميرمية والزعتمانة، أحدد مواقعها، حتى أقطف حاجتنا منها في طريق عودتي بعد الظهر، شغلتني الطيور المتنوعة عن هم بطني الذي كان يقرقر ويوجعني، طيور مختلفة الأشكال والألوان، وهذا أبطأ من تقدمي وأطال الوقت لوصولي، سبحان الله، تنبهت يومها لجمال كل شيء حولي، وكأنني خارج في نزهة او للاستمتاع في حديقة حيوان أو في منتزه قومي عظيم، أتأمل ما أرى وأتوقف عند كل شيء أمرّ به، حتى أنني تنهبت لألوان بعض الصخور الرمادية والبيضاء والصفراء والزهرية، حمدت الله على نمو الزعتر والميرمية والزعتمانة برية في بلادنا فلسطين، لأن جميع شعبي يحبون هذه النباتات العطرية المفيدة طبيا وصحياً، أحسست برغم مرضي يومها، أن أرضنا هي جنة الدنيا، ولا أريد أن تنتهي رحلتي حتى ولو مع شدة ما أعاني من مغص، بقيت امني نفسي بإنهاء مهمتي، والعودة لديجا زوجتي بحزمة من الميرمية الطازجة، وكمية كبيرة من الزعتمانة والزعتر، ومنيت نفسي بأقراص من الزعتر في اليوم التالي، تخبزها لنا ديجا، او تساعدها والدتها على ذلك، ولا شك أن خالي سيفرح كثيرا بهذه الأكلة الشعبية الفلسطينية، وأنسابي أهل ديجا سيسعدون بتوفر الزعتر الأخضر الذي سأقطفه من بين الصخور في أرضنا او فوقها، لننعم بأكلها على مدى يومين أو ثلاثة، وما أطيب قرص زعتر صغير في الصباح مع كاس من الشاي او اثنتين، ومثلها في المساء، توافق انبهاري يومها لكثرة ما عثرت عليه من شجيرات مع حركات الطيور يومها ونشاطها في تلك المنطقة، وتذكرت شقاوات طفولتي، فظلت أنظاري تتبع حركات طيور بلادي البرية، ونشاطها وتغريدها، وحرص الأمهات منها على أعشاشهن أو الآباء، لقد وجدت أعشاشاً ثلاثة أثناء تلك الرحلة، بعضها فيه بيض، والبعض بفراخ صغيرة، قررت القيام برحلة لأرضنا كل أسبوع خلال ذلك الشهر، لعلي أجد بعض الفراخ قد كبرت، لنولم عليها انا وديجا، تداخل الطبيعة وتمازج لذة الاكتشاف بالألم أبطأ حركتي ، فوجدتها فرصة لإطالة مشواري لأقضي ساعات ثلاثاً أو أربعاً في هذه الأجواء الرحبة، قبل أن أعود لمنزلنا، وأكون قد تخلصت من كل الفضلات المخزنة في أعماقي، لقد مارست تلك الحاجة ثلاث مرات في الطريق، ولم يزعجني أحد، لا بل ظللت أشاغل نفسي، وعيناي تواصلان تأمل الطبيعة الساحرة حولي، حتى طبيعة الأرض كانت باهرة كثيرة التنوع يومها وتتمازج مع مشاعري، بعضها جبلية في أماكن، وأخرى بحقول ومنبسطات سهلية متداخلة متشابكة وتشكل بانوراما عجيبة أمام ناظري، لم أنس ديجا أثناء الطريق، تمنيت لو سمحت لها أن ترافقني لتسعد هي الأخرى بهذا الجمال الرباني في أرض بلدتنا، قررت أن يكون موعد عودتي قرب صلاة العصر أو بعدها بقليل، حيث تكون ديجا زوجتي قد جهزت لي حساء العدس المجروش الساخن، تخطيت شجيرات بلوط قديمة وسريس برية مقزمة غير مثمرة، أتمهل أسفل الأشجار المعمرة، عصفور كناري يفزع مني طائراً، وطير ملون الريش يهوي على شجرة، أو ربما حيث عشه هناك، غراب ذكر يطارد أنثاه ، وقبرتان ترقصان أو تتسابقان، أو هما يرومان أمراً لا أفهمه، هدهد يهز رأسه المتوج، يطير على ارتفاعات قليلة فوق الأرض، يتنقل باحثا عن دودة او حشرة يقتات بها من هذه الأرض المعطاء، غير خائف ينتقل من صخرة إلى صخرة، أو من (حبَلَة) إلى حَبَلَة، يطلب رزقه، رف لا يقل عن عشر من طيرالكركزان الملونة بالأزرق الجميل وخيوط دقيقة من البياض الفاهي، تخالط لون زرقة ريشها، ربما متأخرة عن أمثالها من الكركزان في عودتها إلى مواطنها الأصلية، لأنها تحضر عادة في فصلي الشتاء والربيع، تفرخ ثم تعود لبلادها، ربما أن هؤلاء العشرة اعتدن على أجواء فلسطين ففضلن البقاء والعيش الآمن بها، كل شيء مثير هذا اليوم، شاهدت بقعة من عشب ما زالت يانعة الخضرة، تحتمي لصق صخرة أو أمام فتحة مغار، أهم بدخول الغار، وحين أستنشقت رائحة الرطوبة، ازداد إحساسي بالألم مضاعفاً، أكره الكهوف، وأنا عدو لكل من يحب المغارات، أخفي عن زوجتي ديجا وعن كل الناس ما خفي من حياتي، وما جرى لي مرة في كهف.**

**فصـــل 31**

**بعد جولة في الحياة وقوفاً**

**أُرْجِعْتُ لغريفتي قرب غروب شمس يوم من أواخر الخريف، فيه شيء من برودة، أحسست برجفات برد، غرفتي تخلو من كل أنواع التدفئة، تبرد مع هبوب أي ريح باردة حولها وتحتها وفوقها، وسرعان ما أتشنج من شدة البرد بها، أقوم وامارس رياضة القفز، علني اشعر ببعض الدفء، اوآكل الكثير من السكر والحلويات التي احصل عليها من بيوت العائلات التي اخدمها، وحين أتعب ويغلبني النعاس، اندس في فراشي الخشن طلبا للدفء، وعلى العكس تسخن الغريفة في الصيف بسرعة، إنها علبة معلقة في الهواء، تستند على قوائم معدنية قوية، لم أتأملها ملياً من قبل، إنها من مخلفات بريطانيا، لا بارك الله في بريطانيا، )اللهم ارهم اياماً عصيبة تفرقهم وتشغلهم عن أملاكهم وأهاليهم(، عملت بريطانيا على سجن الشباب الفلسطيني وتعذيبهم وقتلهم، لمجرد مطالبة أحد بالتحرر ورفض استعمارهم، أو لو وصلهم نبأ بأن فلانا من الناس اقتنى بندقية أو مسدساً، حتى ولو كانت بندقية صيد، فلن ينجو من تعذيبهم والسجون، ومصادرة سلاحه، ثم وتحقيقات مطولة وشروط مثل ضرورة إثبات وجوده اليومي لدى مركز الأمن، ومراقبة دقيقة، فرقت بريطانيا الغادرة الناس شيعاً، ومناطق متنافرة متنافسة، لا تكامل بين أي محافظة وأخرى ولا تعاون، ولم تفكر يوما ما بإقامة حكومة وطنية مركزية من أهل البلد، وفي عاصمة فلسطين بالقدس، بل أبقت القطيعة بين المحافظات والعزلة، حتى في القرى عينت خادما وجاسوساً لهم اسمه المختار، ليخبرهم عن كل شيء في القرية لو حصلت شكوك او تمرد، وصار الوضع الاجتماعي والحياتي والتنظيمي في فلسطين أسوأ بكثير مما كأن أيام الحكم العثماني، وكل هذا بدون حياة سياسية او حزبية او فكرية لتنظيم المجتمع بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، بل ثبت الحكم البريطاني الخلافات العشائرية والعائلية، فقربوا بعض العائلات التي قبلت أن تتعاون معهم، وعاكست عائلات كبيرة أخرى، وقاومت نفوذهم الديني والاجتماعي في فلسطين، مثل الصراع بين عائلة الحسيني التي تعارض الحكم البريطاني، وعائلة النشاشيبي التي قبل بعض أفرادها التعاون معهم ومع الصهاينة، كان هذا في القدس عاصمة فلسطين، ومثل ذلك تم في حيفا ويافا ونابلس والخليل، فعاش الشعب مقطع الأوصال، والعلاقات بين المناطق والمدن الفلسطينية تكاد تكون مقطوعة، ولا يربط أي محافظة بمحافظة أخرى إلا بعض الحاجات الاقتصادية كالمتاجرة وتبادل سلع المناطق، أو لمصاهرة لعدد محدود جدا في أي مجال، وندرة من زيارات لأقارب او موظفين صدف وعينوا خارج محافظتهم.**

**هذا بعض ما كنا نعيشه ايام حكم بريطانيا لفلسطين، إنّ عصبة الأمم المتحدة قد انتدبت بريطانيا وأئتمنتها على تدريب أهل فلسطين على حكم أنفسهم، ولتطوير أهلها بنشر العلم والمدارس، والتوعيات الأخرى، بعد تخلصهم من نير الحكم العثماني البغيض والطويل، فأول ماكان المفروض في المندوب السا مي البريطاني أن يعود شعبنا الفلسطيني على الولاء لسلطة مركزية، وليتعلموا ممارسة الاستقلال، لكن ما الذي فعلته بريطانيا؟ ادار فلسطين حاكم بريطاني، يساعده ضابط بريطاني في كل محافظة، وكان المندوب السامي البريطاني يهودياً، ومعظم الموظفين المهمين، كانوا من اليهود المهاجرين، وبكل وقاحة لم يعينوا ولم ينتخبوا شخصا وطنياً يمثل عامة الناس في دولة ناشئة اسمها فلسطين، كما كان يتوقع اهلها ويأملون، حتى انهم لم يعينوا مستشارا رسميا للحاكم البريطاني، ليقدم له الرأي حول هموم المواطن الفلسطيني، فظلت البلد بلا حكومة ولا وزراء ولا انتخابات ولا حديث عن مركزية المشاريع وتناسقها، وأهم ما فعلوه تمديد طرق مواصلات بدائية للسيارات، ليتمكنوا من وصول القرى والمدن حين يتمرد اهلها على سلطتهم.**

**سلوم يمد يديه ويفردهما عالياً في الهواء الطلق، ينظر حوله في ساحة معشبة تتخللها أحواض من الزهور مختلفة الألوان والروائح، وشجيرات قصيرات حول المنطقة، يأخذ نفساً عميقاً، ويريد أن يغني لبلاده فلسطين الأسيرة مثله، لكنه لم يرفع صوته عاليا، بل حدث نفسه،**

* **كل شيء في فلسطين جميل لو نعم الناس بحريتهم، الحرية الحرية! آه ما أجمل الحرية وما أغلاها!، في سجني عرفت معنى الحرية الأعمق، سلوم يتعفن في سجن الأعداء، فمفردة عفان تليق بي أثناء الحكم الظالم، سلوم مقتنع بأن الحرية هي أكبر كنز لأي شعب، فانا الفلاح الفلسطيني احب الأرض، أرض بلادي فلسطين المقدسة، احتمل أي شيء كي أبقى حياً على ظهرها، بلدتي وبيتي الذي تعيش فيه زوجتي ديجة قطعة من الجنة، فلسطين كلها جنة كما يبدو لي، باركها الله فصارت جزءا من الجنة، فلسطين حاضنة المسجد الأقصى، وكل ما حوله مبارك، (المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) كم أنت جميلة يا ديجة لأنك فلسطينية، أحبك واحب بلدي فلسطين، بريطانيا خائنة الأمانة، وفي عهد الانتداب زادت قطيعة مناطق بلادي فلسطين عن بعضها، لماذا لم نكن نسافر لمناطقها البعيدة عنا، لنرى هذه النعم والخيرات الطبيعية، والأشجار والحيوانات والطيور والزهور.**

**أقف حائرا أمام غريفتي، أتنبه لنفسي فأرى أن الغيوم تتكاثر وتتكاثف، تهمي زخة من مطر خفيف مفاجئ، يرافقها نسمة هواء قوية نوعا ما، تحنى رؤوس الأشجار والأزهار، تطايرت العصافير من كل اتجاه مرتبكة تبحث عن مأوى لها بسبب نزول مطر اوائل نوفمبرعام 1952، لم أقشعر من البرد يومها كعادتي، بل نسيت الخوف من البرد، ومثل مشاعر كل عربي، نرحب بالمطر لأنه يأتينا بالخير، حتى لو أتى لنا بالبرد مثل هذا اليوم، لا ننفر من المطر إلا بعد أن نملّ منه، وبخاصة في أسابيع اربعينية الشتاء الأخيرة، حيث ينفذ المخزون الغذائي، لا يخرج أحد من البلدة، ويقبع كل فرد مع أسرته، او يجتمع الرجال في المضيف مساء، يشعلون النار بها يتدفؤون، ويطبخون القهوة او الشاي عليها. أنسجم مع زخات المطر، ومع رائحة غبار ارض بلادي، والصادر عما خفّ من التراب المرحب بالماء، رائحة خاصة منعشة ونادرة، تداعب أنفي ومشاعري، أحسست بانتعاش وقوة وصمود، أرفع ظهري ورقبتي التي تحمل رأسي عالياً، متباهيا مختالا ببلادي وارضنا، وبأمطار الخير والبركة، مستمتعا بمطر هذا العام حتى وأنا في السجن، مثل هذا المطر المبكريجعلني أحسّ بشيء من التغيير والأنس.**

**مع صغر غريفتي إلا أنها أفضل بكثير من زنزانة الاعتقال الأولى والتحقيق، بها كوة واحدة صغيرة، يسهل علي مشاهدة الطبيعة عبرها، والحركة خارجها ولو انها مرتفعة عن مستوى قامتي، لكنه يسمح لي بمواصلة مشاهدة سماء بلادي وطيورها، ولو عبر فتحة ضيقة، ويمكنني مشاهدة الأشجار المعمرة العالية في الأفق البعيد، والتي زرعها الآباء الفلسطينيون والأجداد قبل إكراههم على مغادرة أرضهم ووطنهم العزيز على قلوبهم، آه ما أحلى كلمة الوطن، ولحسن حظنا أن التهجير لم يصل لبلدتنا، صرت أحلم وأنتظر العودة لبيتي القديم المعمر، والذي بناه جد والدي كما روى خالي لي، وكم اتحرق شوقا للعودة للتجوال في بستاننا البعيد، بين أشجار التين والزيتون والقليل من اللوز والمشمش والخوخ والعنب، أرضنا يختلط السهل فيها والجبل، حتى وأنت تصعد الصخور لا تشعر بالملل، أو حين تعبر شلالاً أو تقف على حافة بئر أثرية لجمع ماء المطر ولو شحّت ماؤه، وهناك مواقع عديدة فيها ينابيع طبيعية، نروي منها بعض الأشجار خلال شهور الصيف في قريتي، أو إن طال الجفاف، مثل نبع بيارة الشبيركة أو نبع بيارة خلة الفول ، او نبع بيارة عجنجول أو بيارة دار حماد، وما يخفف عني ويسريني في محبسي هو مشاهدة نفس الطيور التي كنت أطاردها أو أصيدها في طفولتي، في أرضنا وحول قريتنا وحتى فوق سطوح منازل بلدتنا الصغيرة.**

**لا أدري كيف ولماذا أشفقت عليّ العسكري الصهيوني ريتشي! أمر يحيرني، أهو بسبب إتقاني لعملي واجتهادي ومسالمتي؟ مما جعلها ترأف بحالي؟، أو هي عرفت وتأكدت من براءتي؟ حتى أنها أحضرت لي كرسياً سفرياً صغيراً، ليكون داخل الغريفة التي القوني بها، حتى تنتهي مدة محكوميتي سنتين أشغال داخل ا لمعسكر على الأقل، يمكن طي ذاك الكرسي، اعتبرته نعمة تكميلية يتيح لي أن أستريح عليه، بدل من أن أظل قابعا فوق السرير، او الجلوس على ارضية الزنزانة، نحن القرويين لا نكره الأرض، بل نحب الجلوس على ارضية بيوتنا، لكنها تلك البعيدة هي بيوتنا، وهذه زنزانة معلقة فوق الأرض، ريتشي تتكلم العربية بلسان فصيح ومثقفة، تراقبني وتشرف على عملي بالتعاون مع مدير الزراعة، إنه كبير في العمر منعزل ربما كان مصري الأصل أو يوناني من مواليد الاسكندرية، لا يحب التحدث معي في أي أمر، سوى ما يلزم لتحسين النباتات والاهتمام بها في المعسكر، أما ريتشي فهي مكلفة بأمور عسكرية أخرى لا أعرفها.**

**إعتدت بعد زواجي من خديجة أن أجد متعة بالتحدث مع أي امرأة، وكأنني صار معي شهادة حق التحدث مع النساء، أعبر عن شوقي وترحمي على والدتي التي لا اذكرها مثلا، ولأن معظم نساء القرية كن يذكرن لي بعض تصرفاتي في طفولتي، وهن يراعينني، فمن طبيعتي اعتدت على وجودي مع نساء مختلفات في القرية في سنوات طفولتي الأولى، إن الكثيرات من نساء بلدتي ساعدنني في طفولتي بسبب يتمي، لكنني حين كبرت كنت شديد التمسك بالتراث، فلا أجرؤ على التحدث مع الصبايا بعيدا عن أعين الناس، إجتنابا للشبهات كما كنت افهمها، لكن بعد زواجي، وجدت أن التحدث مع المرأة متعة وحاجة ضرورية، فكنت أتناقش مع زوجتي ديجا حين لا تكون مشغولة في البيت او مع الدواب، وصرت أجرؤ على التحدث مع اي امرأة في القرية، لأن الكل يعرف انني متزوج، ولا اقصد سوءا او إغواء لها، فكان التحدث مع ريتشي الصهيونية المجندة بديلا جزئياً، لكنه تبين لي بعد ذلك أنه أصبح سلاحا ذو حدين، فيه فائدة لي بتحسين ظروف السجن، لكنه استولد قيودا والتزامات لم أحسب لها حسابا، وفي الوقت نفسه أجد أن لحديثي معها اثرا عميقا على النفس ومريحا للعقل أحياناً، لكنني أخرج بعد كل لقاء تائهاً، وكأنني مضيّعٌ، فبعد أن نقلوني من زنزانة السجن المضغوطة إلى الغريفة الكرفان الصغيرة، بدأت ريتشي تهيئتي بشكل تدريحي ومبرمج كي أعتاد على وجودها حولي، او اقبل أن أتفاعل معها، ولا أنكر انها كانت تضطرني بالاقتراب منها دون وعي مني ولا رغبة، لكنني سرعان ما وجدت نفسي كرجل يرتاح لانثى بشكل ما ولو بحذر شديد، وحين تطورت علاقتنا، كنت في البداية أجبر نفسي على احتضانها وتلمس بعض المواضع في جسدها دون وعي مني، كحاجة اي مخلوق حيوان كان أو إنسان. حتى اعتدت على ذلك، وابتليت بها، وما أكثر الأمور الحياتية التي علمتني إياها تلك المجندة الصهيونية ريتشي، طبعتني وغيرّت فيّ الكثير، نعم إن السلام والقليل من الأمان غير اشياء كثيرة في نفسي وشخصيتي، صحيح كما يقول بعضهم، (إن الحب يجلس أحياناً على غير الكرسي الذي نتوقعه) ثم أوصلتني للكثير من الثقافة، وزادت من قدرتي على الصبر واحتمال ما أنا فيه، وخاصة فيما يتعلق بطرق تعامل الرجل بالمرأة، وأثر ذلك بالنفس والحياة والسلوك والمفاهيم، وبما يروق للمرأة في الرجل، وكم هيجتني في أوقات كثيرة بسبب كثرة المجلات التي كانت تحضرها لي، أغلبها مجلات أزياء للنساء النحيفات على البحر أو للسهر أو لغرفة النوم، ثم مجلات إباحية، وهذا كان أكثر همها حسبما أظن، في أوقات نسيت فيها الكثير من القلق والحذر، لم تيأس مني ومن محاولة تشكيلي لكي أكون ظلاً لها، لكن ديجة وتصرفاته زادت عنصر ثباتي وقوتي، فالمرأة حين تخترق العقل، تأسر القلب والروح، وتجرف ثبات الرجل أوتحرفه إلى طريق معين، ولو في الخفاء.**

**جهدت ريتشي في مرات كثيرة لإغرائي بنسيان العودة لقريتي وديجاي، لكنها ووجهت بصدودي وتصلبي، قالت لي أكثر من مرة، إسرائيل بحاجة لريتشي، وريتشي نفسها بحاجة لعفان، لم اجبها ولم أتجاوب مع قولها هذا، بل كأنني بآذان صماء، تذكرت المثل القائل، (إذن من طين وأذن من عجين) لم أعد أفكر في أسباب تعلقها بي، لكنني صرت أنتظرها أحيانا مع مجلاتها والكتب الأخرى التي ارحب بها، ثم صرت أتطلع لتصميمات أكثر إغراء في كل مرة، كانت تثير خيالي كثيراً حين تبلغني أنها اشترت ذاك التصميم النسائي أوالقماط أو اللجام أو القميص واسع القبة وبلا أزرار.**

**امرأة سمراء نحيفة طويلة، وطولها يضفي عليها هيبة وإغواء، وخاصة حين تلبس قميصاً مشدوداً على بدنها. ثدياها يدفعان القميص، كأنهما يريدان تفجيره والنفاذ منه، ويأخذ قماش القميص شكل صدرها والحلمتين الساحرتين لعيني الرجل، ريتشي كانت تعلم جيدا طبيعة الرجل وربما ترقب عينيّ، وعن وعي وإصرار عرفت أن تلك المغريات تثير هذا العربي الأسير وتهيجه، حتى مع إنكاري انها عبثت بمشاعري، لكنني ادمنت مراقبة رشاقة خصرها وإغواء صدرها، صارت أفكاري تحلق بعيدا وحائرة، كتحليق طيور بلادي في السماوات فوقنا بلا هدف، تخلق جوا سحريا يضفي على الواقع جمالا وخيالا، وتسرح روحي مع هذه الإشعاعات لتنعم بما خلق الله للإنسان، تحدث طيورنا أصواتاً غريبة تجعلك تتذكر طفولتك أحياناً، أو تتحفز وتجفل أحياناً حين تلكزك وانت في خلوة صوفية واستجلاء، تستطلع الجمال حولك لتتأكد من سلامة حواسك، تسرح روحك بعيداً، وأنت تتابع ماترى مجنحاً خفيفاً، وكأنك صقرٌ حوّامٌ يبحث عن فريسة يهوي إليها، وفي أحيان أخرى، ترى نفسك ريشة في مهب نسيم سريع الحركة لكنه عليل، إغواءات تسرح بك فتغيب عن واقعك، تكاد تنسيك معظم ماضيك، بعد أن أدمنت مداركك وأحاسيسك اطمأنت نفسك قليلا، واتسعت ثقافتك وزادت قراءاتك في الكتب والمجلات، وممارسات ريتشي معك، تخاطب المرأة الصهيونية قائلا**

**- ماذا يعجبك في هذا العربي القزم؟ أو هو مجرد رغبة في إحراز انتصار جديد على عربي ساذج؟، أو انها تجارب على عربي كأنك تريدين الوصول لقناعة ما، او للخروج بنتيجة بحث معين؟ أنواع مختلفة قد تندرج تحت الترهيب والانتقام وبعدها الإغواء؟**

**ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، تثاقلت لكنها وضعت يدها على كتفي وناولتني الكرسي المطوي باليد الأخرى، وطلبت مني أن أفتحه وأستريح عليه، ثم قالت**

* **اختلفت كثيرا يا عفان، أنت إنسان مختلف تماما بعد اليوم، حتى أسئلتك وأحاديثك أصبحت بطعم معمق، تساؤلاتك ذكية تعجبني، اختبارات كثيرة اجتزتها بنجاح أيها العربي الأسير، لا أنكر انني مكلفة بأمور لا أبوح بها، لكنك أسرت هذا القلب بصفائك وأناتك وشفافيتك، لا نية سوء ولا مراوغة عندك، إنسان نظيف نقي همك الأمان والسلام، عطشت قلبي كثيرا لصفاتك ومازلت، صرت أقرب المخلوقات لهذا القلب، بل صرت الأمل الأمثل، حتى إن غرفتك الصغيرة التي مضى على تثبيتها في مكانها أكثر من خمسة عشر عاماً، أي من الجيش البريطاني، برغم صغرها إلا أنني صرت أميل للراحة في الانحباس بها بسببك.**
* **أعرف يا ريتشي أنك كنت في مهمة رسمية للوصول إلى شيء يبتغيه رؤساؤك، ويظهر أنك أصبحتِ بمهمتين بعد التغيير الذي ادخلتيه على حياتي، أعرف أنك تراقبينني، أحترم حكم القضاء والنظام والحدود المتاحة لي، ولكن هامش الحرية الذي تسببتِ بتمتعي به، جعلني أقف مشدوهاً بما يتاح لي، وكبشر طبيعي لا بد من تجاوب واعتراف وتقدير، واول الآثار على حياتي هنا، قررت أن لا أفكر مطلقا بتخريب للأمن او لإنسان في حياتي، وأوقفت كل نفور منك، وصرت أعود نفسي على قبول وجودك قربي وحولي، أنا هنا أدفع ثمن غلطتي حسب قانونكم، مع انني مازلت أصر على أنني بريء، ووجود جيش الدفاع في أرضي هي غلطتكم وليست غلطتي، كنت في أرضي، ولو وجد عدل في الدنيا، لتمت محاكمة من ألقوا القبض عليّ وسجنهم، لأنهم تجرأو على دخول ارضي بلا استئذان، ومع هذا آمل أن يأتي اليوم الذي أتحرر فيه، وأعود لزوجتي ديجا، لكن لن أنسى المرأة اليهودية العربية التي عطفت عليّ، ولم يهن عليها أن تراني في جحيم العذاب والسجن والوحدة والألم، فمن باب رد الجميل، ترين أنني أحاول أن أكون إنسانا حضاريا قدر ما أستطيع.**

**لم أشعر بقلق وأنا أخاطبها ولا خوف، بل أبقيت رأسي مرفوعا، وعيناي صوبها، أتأمل ردة فعلها.**

**تطيل ريتشي نظراتها المتنقلة في عيني، واستعراض قامتي القصيرة بالنسبة لها، نظرات تحمل معاني لم أفهمها، جعلتني أجرض بريقي، لكنني حاولت التماسك وابتلاعه، ولأهيئ نفسي لكلام ما، لكن ريتشي غادرت المكان دون أن تتفوه بكلمة، تنفست الصعداء على إثرها، والقيت بنفسي على الكرسي القميء، وكأنني أحس بإنجاز ما، أو هي استراحة المحارب، لكنني فطنت فأوقفتها قبل ابتعادها، قلت**

**- شكرا يا سيدة ريتشي على محاولتك مساعدتي، او احترام مشاعري على الأقل، وأنا الأسير، وعدو حسب قانونكم، على فكرة هل عندكم قانون إسرائيلي، او هي قوانين بريطانيا؟**

**- أنصحك أن لا تقول لي (السيدة) ولا (المجندة) مع إخلاصي لما أقوم به ، فأنا ريتشي فقط ، هل فهمت؟ ريتشي فقط! هل يريحك السرير العسكري في الكرفان؟ ربما استطيع تدبير غيره إن كان تالفا او متعباً لك.**

**بعد أن اطمأنت لي بأنني إنسان مسالم، وأدخلت إلى روعي انها لا تحقد علي ولا تريد أن تنتقم مني كعدو، بدأت أحسُّ بأنها صارت تتصرف بشكل غير رسمي معي حين تعيدني لغريفتي، نقف نصف ساعة خارجها، وبدون تخطيط نحس بحاجة للراحة فندخل الغريفة، قلت لها مرة**

* **عام 1946 سمح سائق الشاحنة الإفريقي لابن خالتي أن أصحبه إلى مقر عمله في معسكر بريطاني قرب اللد وصرفند، كان عمر ابن خالتي عشرون عاماً أو يزيد ، وكنت ولداً وقتها، أي في حدود أربعة عشر عاماً ، كان بإمكان إبن خالتي أن يبيت ليلة أو اثنتين كل أسبوع هناك، يومها أحسست بلذة العمل، أكلت لحم الكورند بيف من المعلبات والطعام الذي يصرف للجيش البريطاني، لأن ابن خالتي كان يعمل مساعدا في مستودعات التموين ٍSpennys، ثم أكلت السجق للمرة الأولى في حياتي، وأكلت الجبن الصفراء ماركة كرافت المعلبة في علب زرقاء مختلفة الأحجام، وحصلت على الكثير من الشوكولاتة أيضا، لكن بعدها ظهرأنني أكلت كثيراً، فآلمتني معدتي وأمعائي، وأصبت بمغص، خشيت أن أموت ليلتها.**
* **ولم تمت حتى تزوجت ديجتك يا سلوم، ثم وشربت إبسوم صولت (ملح إنكليز) كما تسمونه لتنظف لك تلك الأمعاء الخربة.**
* **وهل يوجد في أمعائنا كلنا إلا الفضلات ياريتشي، وإلا ما لزوم المرافق الصحية؟ في المدينة والمعسكرات؟**
* **إنك تضيع وقتي باستطراداتك، مع أن معظم ما تقوله لا يعنيني، إلا أنني أجد نفسي مستمعة لك أيها العربي، وماذا يفعل العرب الريفيون بفضلات أمعائهم؟**
* **لقلة الطعام أو لعدم تنوعه لا يتبرزون كثيرا، ربما مرتين او ثلاثا أسبوعيا ،وعند أطراف القرية بعيداً عن العين خلف صخرة أو بجوار شجرة، وتحت أشجار الصبار الكثيرة حول القرية، ويقولون أنها تصبح سماداً للأرض بعد أن تجف وتتحلل.**
* **يكفي! يكفي! فهمت! فهمت! لا تعمل لي محاضرة في فنون الخراء الريفي الفلسطيني وأشكاله وألوانه وليونته وصلابته. إننا نخشى ونحذر كل شيء فلسطيني.**

**ترفع قبعتها العسكرية عن رأسها، فتنفلت أنشوطة شعرها، ويتهدل شعرها الذي كان معقوداً ومحبوساً، ولفت نظري منظر شعر المرأة في سن الشباب حين نفضت رأسها يميناً ويساراً، فتماوجت خصلات شعرها البني الغامق جدا إلى كل اتجاه، ودارت رأسي مع حركاتها وحلقت عيناي فلامست جدار غرفتي التي يمكن ترحيلها أو شحنها إلى مكان آخر، انتبهت وكأنها استفاقت من حلم، وبعفوية الأنثى امتدت يدها تسندني بيد عسكرية قوية مدربة، وهي تتلمس رأسي، فدوختني رائحة عطر منعش، فهمت منها انها تحب الحرية والانفتاح، تفتح زرين إضافيين من قميصها العسكري حين لا تكون في حضرة من هم أعلى منها رتبة، أظنها تتعمد أن تفعل ذلك، قالت إنها تحس بحرارة الجو دائماً، حتى في أيام البرد، وأنا أكاد أرتجف وقتها، وأتمنى لو أشتكي لإعطائي المزيد من الملابس لأحس بالدفء، تسألني هل تحس بحرارة يا سلوم؟**

**- بصراحة أنا أحس ببعض البرد، ونحن في الخريف، لاشك ان شتاء هذا العام سيكون باردا جدا.**

**- سأعمل على تدبير ملابس دافئة لك، فلا تقلق.**

**- حياتنا في النهاية هي نتيجة مصادفات يا ريتشي، قد تواجهنا تفاصيل صغيرة في بدايات أي طريق، نتوقعها تافهة أو حتى لا نتوقعها، لكنها بعد ممارسة سريعة او مضطرين، نجد أنها تصبح هي التي تسيّرنا، وربما أبعد من ذلك. تمد يدها مطمئنة وهي تقول**

**- سأعود لك بعد قليل.**

**وما هي إلا اقل من نصف ساعة حتى عادت ماشية على قدميها، إذ سلمت سيارتها العسكرية التي تركبها اثناء العمل، وبدّلت ملابسها العسكرية وفاجأتني بملابس مدنية جميلة ومرتبة فيها قليل من إغواء، وأول ما لفت نظري ثدياها المتورمين الصلبين المندفعين.**

**بعد مكوتها ما يقرب الساعتين قالت**

* **اتمنى لو يتاح لي العيش في هذه العش الصغير. ولتعلم انني اتيت متخفية عن أي بشر حولنا، تأخرت قليلا، وتخلصت من ملابسي العسكرية والسيارة حتى لا نلفت انتباه المسئولين، ويظهر ان حبي لعربي أسير وتصرفاتي اصبحت كلها ضد مصلحة دولتي إسرائيل، ومن المؤكد الحكم عليّ بالسجن بعد أن تنتهي محكوميتك وتتحرر، لو شهد أي إنسان عليّ.**

**فصل 32**

**أقف أمام باب غريفتي في المعسكر، كي أرتاح من عناء عمل ذلك اليوم، وكارها للانحباس داخل الغرفة الضيقة، سمعت صياح غراب في الخارج، فتذكرت اتحادي مع زوجتي ديجا في الخلاء في إحدى المرات، وتحت شجرة كرمة، صاح غراب بصوت قوي وقريبـ أجفلت خديحة وانزعجت، فازددنا تلاصقا وانكماشاً، صغرت خديجة وهي تحاول ان تختفي، تقول لا شك أن الغراب سيفضحنا، صارت تزحف قليلا قليلا حتى اندسسنا تحت أغصان العنب المنخفضة، وعلى الأرض الخشنة، وقصدنا الاستمتاع بحرية في الهواء الطلق، بعيدا عن البشر والفلاحين في بستاننا، كنا في نشوة واستمتاع مع اننا كنا على الأرض الخشنة دون فراش، قالت لي ديجا،**

**- أهو مثل الطعام ثلاث مرات في اليوم يا سلوم؟ ولا تريد أن تفوتنا الوجبة حتى ونحن في الخلاء؟ جسدانا تخدشا في كل مكان، ألا يكفي ما نقوم به في البيت؟، ابتسمت وأحسست وقتها، زاد حماسي، وتناسيت أن جسدينا تخدشا في كل مكان من خشونة تراب أرض فلسطين الجبلية، سمعت الكبار يقولون، إن النساء يشتكين من فرط الحب، ونفسهن في المزيد منه، حتى لو علا صياحهن والشكوى، قلت لها بعدها،**

## **- حتى إذا شبعنا كالطعام، فسنهضمه ونحس بالجوع ثانية، بمجرد بذل نشاط او مشاهدة سفرة فيها طعام مغرٍ، أو مختلف الشكل او اللون. كنا أنا وديجا نحاول تعلم أشياء بسيطة بسذاجة وعلى قدر طاقة عقلينا، ونجرب كل ما يخطر ببالنا لنجعل تعايشنا ذا قيمة يحسن من نوعية الحياة، ولأعوض الكثير الكثير مما فاتني وحرمت منه في طفولتي ومراهقتي، لكن أهم ما كان يغريني بالحياة هو تجاوب ديجا كثيرا مع طفلها سلوم الذي لم ير يوما أبيض في حياته قبل زواجهما، ومما ساعد سلوم على تحقيق معظم محاولاته ونجاحه في دمج عقليهما، وزوجته ديجا شابة مراهقة، والمراهق يحب المغامرات عادة بطبيعته، عشقت طيشها وتصرفات مراهقتها، ولم أحاول ان أعقلها، بل بقيت اتصرف لزيادة جنونها، وانجذابها للمزيد من التفاح الحلو، كنا كلانا مادة خام، لا نعرف من الحياة إلا ما نجربه، وما نفعله، فلا خبرة لكلينا، ولهذا لم أردعها يوما عن أي جنون او انحذاب لي، ولأن الفتاة الفلسطينية الريفية تتزوج مبكرا قبل اقترابها من بلوغها الثامنة عشرة من عمرها، فتدخل عالم الزواج كالعمياء، ولا يكون لديها أية خبرة، فزوجها هو الذي يفتتح الطرق والمشاريع، ويتدربان معاً على خطوات تشغيل أدواتهما والأوقات. لم تنس ريتشي أن تدربني على المألوف وغير المألوف، ثم على الإشباع الأطول وما بعد الإشباع.**

**خطر ببالي مرة أن أسأل ريتشي**

**- هلاّ ساعدتني يا ريتشي لأعرف مصيري؟ وهل سيطلق سراحي فعلا؟ أم انهم يخططون لتحويلي يهودياً؟ أم سأبقى سجيناً أو أسيراً حتى أموت؟ أو هل ستتم محاكمتي ثانية بعد انتهاء محكوميتي على ما اقترفت، أوربما يتم التخلص مني بالموت لا بالتحرر؟**

**- أفهم قلقك، وأعرف معنى الوطن والحرية، ومع أفتخاري بإسرائيليتي إلا أنني ما أزال أحس بمعنى الارتباط بالأرض والماضي والطفولة، عشت في المغرب أياماً حلوة حين كنت طفلة، وما زلت في داخلي أعتبر نفسي يهودية عربية مغربية، لم يضايقنا أحد في موطننا الأصلي، و يمر عليّ وعلى أهلي شعور بالغربة أحيانا هنا، ولا أدري كيف استطاع حكماؤنا الصهاينة تجميعنا، أو إقناع والديّ وغيرهما بالرحيل عن وطننا المغرب، وحين تركت المغرب للدراسة في فرنسا عام 1944 كان عمري 15 عاما، ثم اغروا والديّ للهجرة إلى فلسطين عام 1947بعدها انتصر اليهود على عرب فلسطين وعلى كل العرب، مما أدهشنا وحيرنا، وصرنا نحاول تفسير ما حدث، غير مصدقين، وبقينا نتوقع وما زلنا نتوقع أن العرب سيهجمون علينا يوما ما ويقضون على كل يهودي، عربي او غربي، نعرف أن العرب ينهزمون أحياناً، لكنهم يحقدون ولا ينسون، فيستعيدون قواهم ونشاطهم ووحدتهم، ويعودون للمهاجمة ثانية والانتقام، ألم تقرأ قصة حرب البسوس؟ او حرب داحس والغبراء، فالعربي غوغائي عاطفي إنفعالي، قد يثور في أي لحظة، وقد يكون ذلك دون ترتيب مسبق، حتى لو كان يعرف انه ذاهب الى الموت المحقق، وأصارحك أننا عام 1948 حاولنا مصادقة بعض الأسر العربية الفلسطينية ليحمونا من الموت، ولكي نختبئ عندهم، لو انتصرت جيوش العرب على جيوش العصابات الصهيونية،**

**- هل كان لكم بيت في المغرب؟**

**- وهل هذا سؤال يا سلوم؟ نعم وكانت لنا تجارة ناجحة، كنت ألعب مع البنات والآولاد العرب المسلمين في حارتنا، كنا ثلاث عائلات من اليهود تسكن في تلك المنطقة، وأمهاتنا ولودات مثل النساء المسلمات، ولي أخوان وأختان، والعائلات اليهودية الأخرى كانوا ينجبون ثلاثة أطفال على الأقل لكل أسرة، كنت ألهو مع من هم أصغر مني أو أكبر، دون تفريق بين مسلم ويهودي، غير عابئة بالعمر ولا باختلاف الدين، وكم خالفت نصائح والدتي وغافلتها وابتعدت، وزرت بيوت معظم جيراننا المسلمين والمسلمات، وربما ثلاث مرات أو أربعة أسبوعياً، حتى سن الرابع عشرة، تعلقت بعدها بفتي عربي يكبرني بعام واحد، سحرني ذلك الفتى، وأحال أيامي إلى احلام وجمال ومتعة لم ولن اقدر على وصفها أو إرجاعها ثانية. كان أسمرَ مثلنا، لكنه كان يحب الثقافة والعلم شجاعا شهماً سريع الحركة والبديهة، وبقينا أصدقاء حتى آخر يوم لي في المغرب، كان يشجعني على الدراسة وعدم إهمال الدروس وأنا أنصحه بمثل ذلك، ونتوافق على هذه الرغبة بمثل ما كنا نتفق على الحب والالتصاق والخلوات، لا أنساه، ولن أنساه، فهو الذي افتتح طرق المتعة لي، وهو الذي دربني وعلمني خطوات الحياة الحقيقية الأولى، وبعد سفري إلى فرنسا للدراسة الجامعية، تراسلنا وتوطدت علاقتنا أكثر، لكنه لم يستطع اللحاق بي، قال أنه سيدرس في المغرب او تونس، وسينتظرني حتى أنهي دراستي، وفي العام 1949 قطعت دراستي بطلب من أهلي، وحضرت إلى فلسطين، بعد أن درست عامين في الجامعة فحصلت على دبلوم في علوم الصحة، سرعان ما انتظمت في جيش الدفاع الإسرائيلي بعدها؟ أراد عفان أن يقول شيئا**

**- السنوات عندنا نحن العرب تمر ولا ندري بها، ويبدو أن العرب لا يعيرون الوقت والسنوات الاهتمام الكافي كغيرهم من الشعوب الأخرى.**

**- هل تكرهني يا . . . . ســـلوم! أو . . . كيف تحس نحوي؟ أو كيف تنظر لي؟**

**- ولماذا تفاجئينني بأسئلة غريبة أحياناً؟ كيف أكرهك؟ أنا لا أكرهك ابداً، إنني أحاول.**

**- تحاول ماذا؟ اكمل، أكمل، ماذا تريد أن تقول، ماذا تحاول ان تقول او تفعل؟**

**- كنت أخشاك وما زلت، لكن خوفي يخف تدريحياً ويتناقص. أحسّ بقلق لكنني لا أدري سببه، فقد غذيت بعد عام 1948 بالخوف من كل يهودي، وخاصة يهود إسرائيل، فلم نر من الهاغاناة وشتيرن والأرغون إلا كل ظلم وعداوة وغدر، ولا أظن انك لا تدرين ما فعلوه من فظاعات لشعبنا الفلسطيني، فكيف تظنين أنني سأحس بعد كل ما عانى شعبنا من ظلم؟؟؟ مثل مذبحة دير ياسين ومذبحة الدوايمة ومذبحة قبية، وسمعت ان كثيرين من يهود فلسطين والعرب، عبروا بأمانة وضمير حي عن عدم قبوله ما فعل الإسرائيليون بالفلسطينيين من قتل وإهانة وتهجير قسري، لكن أحدا منهم لم يعترض عمليا ولا حتى قولا على أي تصرف، بل اكتفى بوصف ما كان يجري بأمانة، مراقبا سلبيا، لا يجرؤ أن يفعل او يقول شيئا ضد تلك التصرفات الصهونية الظالمة والمتحكمة، ثم إنني لا أدري الإجابات على اسئلة كثيرة تدور في رأسي، كنت إنساناً بسيطاً قانعاً محدود الرغبات، وأستطيع أن أقول أنني ازددت تفاهة في نظر نفسي بسبب ظروف سجني، صرت أؤمن بالحظ، صرت أحب أن أقرأ كل شيء يصل لي، لكنني صرت أحب الحياة اكثر وأكثر، صرت أحب جسدي، صرت أتمنى أن أعيش بحريتي وعلى ارض آبائي وأجدادي، صرت احسّ بالسخرية من التاريخ والصدف، وإلا فكيف بمائتي الف يهودي، يقهرون مليون عربي فلسطيني مواطنين على ارضهم وبلادهم؟؟؟ هو سر، ثم ليس هذا فقط، بل معجزة بحق، ثم كيف استطاعوا ان يخدعوا او يهزموا جيوش سبع دول عربية، إنها أسرار من الصعب اكتشاف تفسيرها، او كيف حدث كل ذلك، كأنها أسطورة أو حكاية خرافية، او حلم كابوسي، ما جرى في فلسطين نعم كأنها قصة خيالية ألفها طفل حالم، او سردها عجوز خرف قبل موته، ولكن هناك سيول من أسئلة وأماني ورغبات مكبوتة برزت مؤخرا، لا تجلوها إلا أمواج عاتية، تقلب وجه الأرض، وتحيل النيران إلى رماد. أو حتى تصبح الجبال كالعهن المنفوش.**

**لكن دعيني أسألك، هل ستقولين لي ما الداعي لسؤالك المركب؟ تعرفين انني سبق ومللت من اسئلة التحقيق والتهم الباطلة، وهل مطلوب منك أن تناقشيني بدقائق فكري وأعماق مشاعري؟، أو انك مكلفة بمهمة خاصة ستحققينها، وما زلت تحاولين تدجينني لفعل ما؟ تضحك ريتشي عاليا، وتقول لي ساخرة من أفكاري**

**- لا تقلق يا سلوم لا تقلق، لا أتوقع ضررا لك بعد الحكم عليك بالأشغال لعامين؟، ألانت صيغة كلامها أكثر، فقالت، أتمنى أن أعرف ما الذي تفكر فيه، وهل ترى بيننا تقارباً؟**

**- ريتشي، إنك تسألينني أسئلة محيرة، وبماذا سيفكر اي سجين في العالم؟؟ لكن دعيني اقول لك باختصار يا سيدتي، ما دام مر أكثر من عام وشهور ثلاثة عليّ بعيداً عن ديجا وبلدتي، وها نحن في بداية فصل شتاء ثانٍ، فأنا أسير تعاطفك معي منذ صدر قرار الحكم قضائيا، لا أنسى أنني أسير لدى دولة عدوة، لكن تصرفاتك تخفف الكثير عني وأراك أعدل الحكماء والحاكمين، لكن يا خسارة!**

**- شلوم، سلوم، ماذا تعني، ما معنى كلمة ياخسارة؟**

**- آسف يا سيدتي إن كانت كلمة واحدة تثيرك، سأسحبها وأتوقف عن الكلام.**

**- أنت تضعني في تيه يا سلوم، إنني أحضر للتفاهم مع سلوم العربي، ووجودك حولي يذكرني بصداقتي لجارنا العربي المغربي،كان مغامراً وديكا قفازاً مثلك، كنت أعشق طيشه وبساطته، كان يشغلني كثيراً عن أهلي، وأحاول إخفاء علاقتي به، كانت أيام كلها عسل كما تقولون، حلاوة لا تشبع منها ولا تشرق بها، وديجا الساذجة (أعنيى ديجاك) هي وأمثالها من الرجال والنساء عدوك وعدوي وعدو الحياة والنشاط، فلا تبتئس لفراقها، والله يخلق البدائل، والعقل السليم لا يتوقف عن البحث عن حياة أفضل.**

**- لا تقولي ذلك ياسيدتي عن خديجة.**

**- قلت لك لا تخاطبني بكلمة يا سيدتي، أوكي أوكي، دعني اغير اتجاه كلامنا، هل تحب السفر يا سلوم؟**

**- لا أفهم ما تعنين؟ وماذا لو كنت احبه او أكرهه؟ وأنا الأسير وبجناح كسير.**

**- أعني حين يطلق سراحك، هل ترغب في السفر إلى أوربا؟ عرفت أنك لا تفضل البقاء هنا، وأعرف أنك تريد أن تذهب للعيش مع ديجادك، لكن . . .ماذا لو حصلت لك فرص ذهبية لترى العالم الأوسع؟**

**- نعم ديجا هي أملي في هذه الحياة، ولا أمل لي في عيش آخر حتى لو اتيحت لي مغريات أخرى، فخياراتي محدودة، إن كان في الحياة بقية، إنني أعرف مؤهلاتي وإمكانياتي، أخشى أن لا أكون قادرا على تدبير حياتي في بلدتي وفي بيتي العتيق، فكيف أفكر بالسفر للخارج، وانا لا أملك دولارا واحداً يزيد عن حاجتي الأساسية؟ فلا تقلقي فلن أتعب أحداً بمشاكلي، ولن أكلف شخصاً كي يساعدني، بل لا أتوقع مساعدة أكثر من التحرر من الأسر، لهذا لا أحب مغادرة قريتي لا لسفر ولا للاغتراب.**

**ليلتها طال سهر سلوم قلقاً، يفكر بكلام اليهودية مغربية الأصل، قالت الكثير من الكلام الغريب، أفكار محفزة مثيرة تحتاج إلى تمعن وتفسيرات، حتى أن كلامها أحيانا يصبح فلسفيا عقلانيا لم يسمع مثله من قبل، في داخلها مصفوفات من الطلاسم مقلقة وتحد لعقله، قالت لي مرة، إن الملك الرابع للوركاء تموز حصل على الخلود النصفي، أما الملك الخامس للوركاء، فهو جلجاميش، فقد أضناه البحث عن عشبة الخلود، وعندما ظفر بها سرقتها منه الأفعى، ومالي أنا في عشبة الخلود، وديني أبلغني (كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)، وقال ايضا عز من قائل (منها خلقناكم واليها نعيدكم تارة أخرى) صدق الله العظيم.**

**أدرك سلوم أن مسئولي المعسكر وسلطاته يعرفون عن تعلق ريتشي بسلوم، لم يصل إلى أذني خبر عن اعتراض أحد في المعسكر عن علاقتنا، الكل يظن أن ريتشي مكلفة بعمل وطني واستخباراتي، أو يعتقد ذلك، لتعرف سراً خفياً ما من سلوم أو عنه، أو لتسخيره جاسوساً، أو ليقدم معلومات تفيد دولة إسرائيل الفتية، هل ريتشي هي الأفعى؟، أو أنا هو جلجامش المسروق؟ هل يمكن أن يسعد سجين؟ أهل تدوم النعمة على إنسان ما حتى لو أراد؟ في معتقداتنا نحن المسلمين أن الواحد يسعد بنسله من الذكور والإناث ثم الأحفاد من بعده، كأغصان الشجرة، حين يراهم بصحة ونجاح، ثم بما يتركه من علم أو اختراع او أملاك أو تضحية وطنية تاريخية لهم، وهذا أكبر همنا.**

**استطاعت ريتشي أن تستصدر أمراً بإبقاء سلوم شبه حر داخل حدود المعسكر، الممتد ميل عرضاً وميلين طولاً، وكانت الكرفان الصغيرة وسط ساحة مراقبة من الغادي والرائح، لكن دون بطاقة تعريف، مكتفين بلباسه كسجين ورقم مطبوع على ظهره، حتى لا يستطيع مغادرة المعسكر، يواصل عمله في الاهتمام بحدائق المعسكر وبممراته، وبجمع أوراق الأشجار المتساقطة، ولا يغيب طويلاً عن خدمة الأرملة الشقراء، تسأل عنه كبار الضباط حين يتأخر، تذكر سلوم حين قطع أبو عيدة رأس يهودي من ساحة معركة باب الواد، وحمله متباهياً ممسكاً بشعره الأشقر الممشوط جيدأً، كان القتيل رجلاً وسيماً وجذاباً، طويلاً وقوياً، وأخشى أن تكون تلك الراس لزوج الأرملة الشقراء، كنت طفلا وقتها، كرهت الفكرة، إذ ابلغنا شيخنا حامد إن التمثيل بالقتلى محرم في الإسلام شرعاً، وأعلم أن ذلك مخالف للدين والأخلاق العربية، عرفت أن الكثيرين من كبار المسئولين الإسرائيليين يعرفون قدر زوجها وتضحياته، من أجل تثبيت دولة إسرائيل، فأمروا أو وافقوا على تخصيص معظم وقت سلوم العربي للعمل في بيتها وحديقتها، لتهدأ بالا بتحكمها بعربي فلسطيني بدل قتلهم لزوجها، لكنهم أخبروها بأن سلوم يقوم بأعمال أخرى داخل المعسكر كله، وحسب حاجة إدارة المعسكر وليس لبيت واحد، فوجئ سلوم بضابط صغير يركب سيارة جيب بريطانية قديمة يطلب منه أن يترك عمله ويرافقه لمكتب إدارة المعسكر، تمادى سلوم في أفكاره التشاؤمية أثناء انتقاله خلال عشر دقائق، فوجئ بالأرملة الشقراء هناك، سألت عن حاله بعد قرار توسيع أماكن عمله، قال لها**

**- إن الأمر سياّن بالنسبة لي، فأنا أسير ومحكوم، تعرفين يا سيدتي أنني أطيع وانفذ ما يطلب مني، هزّت رأسها ونظرت له ثم تنفست بعمق، ثم اصطحبته لمنزلها بنفس السيارة. لم يفهم مغزى ذلك، لكنها ظلت تحرص على أن لايعرف مجتمع العسكر عن رغباتها الخاصة، بعدها لاحظ عليها راحة نفسية أثناء العودة إلى بيتها، وسرعان مااستنشقت نفسا طويلا، ونزعت قميصها الخارجي بأكمام، وبقيت بلباس صيفي فرنسي متحرر يكشف كتفيها وأجزاء عليا من ثدييها لسعة فتحة العنق، بعد عملي في حديقتها وحول بيتها، طلبت أن تحدثني وهي متمددة على السرير في غرفة نومها، عن الحديقة والنباتات التي تحرص على تدليلها، فاحت رائحة عطر فرنسي جاذبة، تعلمت الكثير من المعاني والترميزات من ريتشي، وجاءت هذه بأرستقراطيتها تزيدني . : تزيدني؟ تزيدني ماذا، لا أصنف الفائدة او العلم الذي استفدته، او اضطررت له، لكنني أؤكد انني لست شبقاً.**

**وفي خلوة أخرى معها بعد أسبوعين، تسحب سيجارة من علبتها، أمام بيتها، وتشير له بمتابعتها، ثم تسأله هل تحب العمل عندنا؟ ينظر عفان في ملامح وجهها، ثم يدير وجهه صوب الحديقة فشاهد طيرا يحط على شجرة قربهما، فيقول،**

**- لا يهمني مكان عملي يا سيدتي، بقدر ما يهمنى متى أنهي زمن محكوميتي، فأنا عربي أسير، وكل عربي عندكم هو أسير، سواء كان في معسكر لخدمة منزل أو في زنزانته أو حتى أو حتى لو سمحتم له بالعيش في بيته وارضه تحت سماء فلسطين، او في حضن ما فسيظل شعوره انه أسير، حين سمعت مفردة حضن، أسقطت سيجارتها على الأرض على غير عادتها، فانحنى يريد التقاطها فسبقته وداست عليها، وأخرجت سيجارة أخرى لتدخينها، سألته باللغة الإنجليزية (هل تحب البقاء في عملك هنا؟) فأجابها (جود! .. جود هير!.أو أي مكان مادمت سجينا It is good here, while I am a prisoner)، وبعد أن نفثت دخان سيجارتها الجديدة مرتين أو ثلاثاً، زاد اشتعالها، قالت له**

**- طردت ثلاثة أشخاص من قبل، واحد عربي درزي، والآخر عربي رفض العمل في جيش إسرائيل، ممن تخلف من العرب والثالث يهودي مصري، ليتك تعرف الإنجليزية أو الفرنسية يا سلوم، حاولت تعلم لغتكم العربية لكنها صعبة جداً وفشلت، أخبرك بأن طفليّ الإثنين يحبانك ويريدان استمرارك في العمل عندنا بشكل يومي، استمرأ سلوم المعاملة الحسنة التي كان يحظى بها، وبرغم أنه كان يأكل وحده، لكنها كانت تدعوه للجلوس على طاولة السفرة داخل المنزل، ويطعم مما تأكل الأسرة. وبعد عمل أربعة أسابيع أثبت فيها صدقه وإخلاصه في عمله، قالت له بصوت متواضع خفيض**

**- أحتاجك بعد عصر الغد، ولداي سافرا في رحلة كشافة إلى شمال دولة إسرائيل، وسيبيتان ليلتين خارج البيت، واريدك أن تساعدني في إعادة ترتيب أشياء في منزلي، ولقد أبلغت الإدارة عن حاجتي لك، وسأكون بانتظارك.**

# **- المهم أن لا يعترض أحد على تغيير برنامجي، فهل تكلمت مع ريتشي؟ وتعلمين انها هي المسئولة عن تحركاتي وحياتي هنا.**

**- لاتقلق، سيبلغها آمرها الأعلى رتبة منها بما هو مطلوب منك.**

# **فصل 33**

**صحوت إلى نفسي من سكرتي فوجدتها ملتصقة بي، تأملتها فشاهدت عينيها تناجيان عينيّ، أقترب وأتجاوب معها، أهمس بكلام غير مسموع، حبيبتي ديجه، عطشان أنا يارفيقة عمري، ستنجبين لنا أطفالاً نربيهم ويكونون امتدادنا في الحياة، أغصاناً نفتخر بها إن أحسنا تعهدها، أنا فارسك الذي تعهدين، أفتقد صراخك وحركاتك الصبيانية النشطة، أين ذهب ذلك العنفوان يا صبيتي، طعم قبلاتنا مختلف هذا اليوم، أفتقد روائحك التي اعهدها، العطر الذي يداعب أنفي هذا اليوم مختلف جداً، والصوت أخشن وارخى وأبرد، جسم جميل وفن متطور لم أعهده من قبل، الاسترخاء بعد الجهد نقلني لإغفاءة لذيذة، وبينما انا في أحلامي، تنبهت على أثر حركة منها، فوجدتني بجوار ريتشي وليس بجوار زوجتي ديجأ، تفاجئني ريتشي مازحة**

**- جميل ما فعلناه قبل قليل أيها القزم العربي، لكم سعدت بذلك الحماس والشوق المتدفق، حارق أنت يا عفان، أذبت كل أشواقي للحياة في أتون نيرانك، أظن أنك لن تستقر ولن تهدأ مادامت ريتشي هنا، يالحظي الذي ساق لي إنسانا أنصهر في حرائقه، دون تردد ولا وجل، لا ألومك حين علا لهاثك مرافقا وموازيا لصياحي، لم أكن أعي نفسي ولا أملك القدرة على ضبطها، ليلة عربية مجنونة، استمتعت فيها بمذاق عربي غريزي، ويعسر وصف مداه وعمق تأثيره على أعصابي ونفسيتي حتى ومفاصلي، آمل أن لا يظهر كثرة الشرب اضطراب في مشيتي العسكرية خارج زنزانتك.**

**- ريتشي لقد ضللتيني كثيرا، أردت أن أقول دللتيني كثيرا في الأسر فضللت، احسست ارضاً خصبة، وترحيبا لم أعهده من قبل وجذبا، سيدتي لا تلوميني، فأنت من قادني لهذا الجحيم، أرجو أن ترحميني، والاّ تستغلي المزيد من سذاجتي، انا بشر، ولست جمادا، حاولت المقاومة والصمود، لكن الصبر والمقاومة لها حدود، فهل إصرارك على خوض الحلبة كالصراع مع الأسود، أم من أجل البقاء لك هو ا لمقصود؟**

**- دعني أطوقك واضمك لصدري الولهان ثانية يا عفان، تدفئني بأسئلتك ا لكثيرة المتذاكية، وتزيدني تحرقا بمحاولاتك التثاقل والاعتذارات، إخلاصك في كل ما تفعل يحشرني في عينيك، فيضيق الطوق حولي، هذه البراءة المتوقدة لم اعهدها هنا، تذكرني بصديقي المغربي المسلم، حين كنا في سنوات المراهقة، فأينا المراهق ياترى؟.**

**- أنشد استراحة المحارب؟ لقد ايقظتني من سباتي وغفلتي، رحماك يا رب، سامحني واغفر لي، أنا أسير ضعيف علق بحلاوة محرّمة لشهور بسبب الأسر، فكلما وقعت عيناي على صدرك الناهد يا ريتشي تتراخى ضوابطي وصبري، أشعر أنني على وشك أن أنسى واقعي، أجدني كأنني أعود إنسانا حرا، أو طفلاً يريد التشبث بصدر أمٍّ عامر بإكسير الحياة، لك صدر عربي شامخ دائما ومتعطش، يشعرني بالجوع المتواصل والعطش، حين أستطفل بفمي، لا أملك إرادة التحكم بأي شيء، أتشبث بحبل الحياة بكل حواسي وأصابعي وفمي، أعود طفلاً يتيما محروما نهماً** **بلا إرادة، وارتعاشات الأغصان تنزع الاتزان مني والحكمة، وخشية اليتم أصبح أهوجً مفترساً، ما إن ينبلج هلال أبلق، وصبح أمان في نظري يشرق، أتحفز لأخوض عباب البحر الأعمق.**

**- أيها العربي الوغد، كلامك البسيط يفتت أصلب الصخور، تفانيك في أداء الأشياء بمشاعر أمينة تزلزلني، تجرفني الأمواج إلى شواطئك الحمقى، أراك ايها المسخ رجلا فوق كمال الرجال، أتمنى أن تظل حبيبي.**

**قبل ذلك وجد عفان نفسه مضطراً أن يشاركه الشراب، يحتسيان البيرة للمرة الثانية، وبعد العلبة الثالثة، يحصل جلبة ونشاط في نهوض ووقوف وجلوس، في حلبة تدريبات أرهقت عفان يقول لها،**

**- أتوق لفنجان قهوة بعد كل ما جرى.**

**تسرع ريتشي في ارتداء كامل ملابسها المدنية.**

**هذه الريتشي العجيبة، حتى بلباسها الكامل أراها فاتنة، عربية سمراء طويلة، تعادل ما نقصني فيما مر عليّ من حياتي الشقية الماضية، ولولا أنني تزوجت ديجا واحببتها، لتطايرتُ مع عصف هذه المغريبة اليهودية، لكنها ديجة التي لا أنساها، ومصيري عائد لها، أعتقد أن الزمن سيلفظني عن أرض فلسطين المنهوبة، لأعود للظلام العربي السارق لأعمارنا، أؤكد أنه لم يمر عليّ في حياتي يوم أفتخر به.**

**في وقفة استعداد عسكرية، تطلب مني الانتظار دقائق قليلة، كنت ما زلت مسترخيا على ظهري فوق فراشي الذي تحسن كثيرا في الآونة الأخيرة، كانت الساعة بعد الحادية عشرة ليلاً، سيطر النعاس عليّ فور خروجها، تغيب قريبا من الساعة وتعود ومعها مغلف من طعام ومسليات، وفنجانان من القهوة كبيران، تسألني إن كنت أريدها حلوة او سادة، سألتها كيف تحبينها؟ قالت دون سكر، قلت لها حلاوة نشاطك وكرمك تغني عن السكر، مازلت منتشيا اتصرف بعفوية لم اعتد عليها من قبل، كأنني طفل ولست أسيرا، تضحك ريتشي وهي تتأملني، تذكرت البيرة وما فعلته بي، تحاول كتم صوتها وسرورها، تريدني أن أظل منتشياً، تشجعني على طيشي وثرثرتي، بينما عيناي ملتصقتان بجسدها المشع وتناسقه، وأمور اخرى نسيتها، أو لا أتقن التحدث عنها، لكنها ظلت تحفزني لأزيد من شقاوتي والاسترسال، نتحدث عما لم أسمع مثله في بيئتنا الريفية الإسلامية من قبل، وحتى بعد شرب فنجان القهوة، زادني الطعام تراخياً، نعاس يهدّ قواي، ويثقل لساني، نهضت لتودعني، وقالت، سأريك الكثير في قادم الأيام، وسأعلمك بما لم تفطن له جواري هارون الرشيد، ولا محظيات سلاطين آل عثمان.**

**صحوت صباح اليوم التالي على قرع قوي على باب غريفتي، فوجئت بأن الساعة صارت عند التاسعة والنصف، مع ان المفروض أن أنهض عند السابعة، عسكري ينتهرني ويستعجلني بلهجة آمرة، هددني بفرض قيود وعقاب عليّ، لم أتفوه بكلمة واحدة، كنت ما زلت شبه عارٍ كما تركتني ريتشي، أسارع في ارتداء ملابس السجن والعمل، يأمرني العسكري بالمشي أمامه متشفياً وحاقداً، وسلاحه موجه صوبي، لكزني بضربة مؤلمة، مع انني كنت أظن انني ارتحت من العقاب والعذاب بعد انتهاء التحقيق، وصدور الحكم عليّ، اقف بباب غريفتي أنتظر الأوامر، مصدوماً محتاراً ماذا عليّ أن افعل، فاجأني بضربة غل وحقد أخرى، بحذائه دفعني بغلٍّ قوس ظهري، كدت افقد توازني وأسقط على الأرض، عسكري صهيوني طويل أشقر لا يتكلم العربية، ظل يتلفظ بكلمات حاقدة (حيوان، عربيم حيوان، بل حشرة، أنتم حيوانات، نستخدمكم او نقتنيكم لخدمتنا او لنقتلكم) طلب مني سرعة التحرك، ولأنني صرت أعرف الكثير من العبرية الدارجة، يقول لي، هل أنت هنا لتأكل وتنام وترتاح، إمض أيها الحقير إلى الأعمال الشاقة، ألست سجيناً وأسيراً وعربياً، نحن سادة الشعوب كلها، نحن نسخر العباد لخدمة مصالحنا، الله ميزنا على جميع البشر، فأنت في معتقدي أقرب ما تكون إلى الحيوان، نطعمك ونسقيك ونستغلك أقصى ما نستطيع، ولماذا يحاول البعض من اللصوص الفلسطينيين التسلل لأرضنا ومدننا ومستوطناتنا ليزعجونا أو ليسرقوا ما نعمره. خاطبته بعبرية بسيطة**

## **- لماذا تضربني يا خواجة؟ وهل سمعتني ارفض العمل؟ ألا تريدني أن أذهب للعمل المطلوب مني؟ وها أنا جاهز لأنفذ طلبك.**

## **- لكنك تأخرت اليوم، وهل تحسب أننا نسجنك لكي تشبع نوماً؟ أحسست بشيء من جرأة أو هو عدم صبر، قلت له**

## **- اولا دعني أسألك هل اتيت لتعاقبني فقط أم لتوصلني لمكان عملي وتدلني على المطلوب مني؟**

## **- أنا وغيري سلطة عليك وعلى كل عربي، حتى ونحن نستخدمكم فلا نحس بوجودكم، نريد عملكم ولا نريدكم، لا يحق لكم الحياة على هذه الأرض، حتى في السجن أنتم غير موجودين. أثارني ولأنني اعتدت على العقاب ومقاومة الإهانة، صارت دمائي تغلي في عروقي، واكتسبت خبرة وصمودا**

**- لكن قل لي يا خواجة، وهل أنتم الذين بنيتم البيوت القديمة التي تسكنون بها في اللد والرملة ويافا وحيفا وعكا؟ وهل أنتم الذين غرستم بيارات البرتقال التي عمرها عشرون او خمسون عاما والحمضيات كلها؟ ودولتكم لم يمض عليها اربع سنوات؟ وهل أنتم بنيتم سور القدس أو سور عكا؟ ومباني القدس القديمة ومدارسها وكنائسها ومساجدها؟**

**- أيها الوغد ولك لسان تخاطبني، تحرك بسرعة، وخذ هذه ضربة قوية أخرى من حذائي في ظهرك وعلى كليتيك، تحرك بسرعة وإلا قتلتك اليوم، أخرج حافياً لتعمل في الشوك والشمس الحارة والجفاف، ويكفيك القليل من الطعام والشراب، لكي تبقى حياً فقط، ولا تلبس حذاء، عليك عزق قطعة الأرض البعيدة خلف تلك المباني القديمة، والتي ما زالت بوراً، سنزرعها هذا العام، ستتعهد أنت بكل ما يلزمها، وسأذيب كل ذرة شحم في جسدك، ألا تشعر أن صحتك تحسنت بعد أسرك ومن أطعمتنا وتدليلنا لك، أحذرك أن تخبر أحداً في المعسكر أنني ضربتك أو أهنتك، كل مصائب الدنيا ستقع على رأسك، إن بقيت لك رأس فيها عقل أو حواس.**

## **لم أكن قد صحوت جيداً من النوم قبل إهاناته. لكن أول ما فكرت به بعدها أنني تمنيت أن ألتقي هذا المغرور في مكان منعزل، لأريه جنون هذا الفلاح الفلسطيني. لم أكترث باستعجاله، فنظرت يميناً ويساراً أبحث عن حذائي، فتنبه العسكري الإسرائيلي وقال،**

## **قلت لك ستخرج حافياً، وكلامنا قوانين وأحكام، نحن المنتصرون، ونحن جند الرب، نحن نقرر ماتستحقون، نهين أمثالك إن اضطررنا على إبقائك حيا على أرضنا.وضعت قدمي بحذائي غير عابئ بكلامه، واسندت ظهري إلى الجدار، أمرني أن أمشي، فأسرعت لمكان عملي.**

**إن أكثر ما أغاظني هو اتهامه لي بأنني عربيم غشاش ومخادع، والراحة والنوم ليس من حق العربي، وليس أمامي إلا العمل الشاق او الموت. لم يتركني إلا بعد أن راقبني لأكثر من نصف ساعة وانا أعمل في حقل عام في المعسكر. هددني قبل مغادرته، بأنه سيعود للتفتيش على عملي، وإن لم يعجبه شغلي، فالويل لي مما سألاقيه على يديه أومن المسئولين الآخرين.**

**مرت ريتشي بسيارتها العسكرية قرب موعد الغداء، رفعت يدها تحية لي، دون كلام، ودون أن تغادر عجلة قيادة السيارة، كنت مستاء وفي حالة نفسية سيئة للغاية، داخلني شك انها هي التي ارسلت ذلك العسكري لإهانتي، وربما لأزداد تشبثا بها، وددت أن لا أراها وألا تكلمني، ندمت وأحسست بالخجل من نفسي والندم مما جرى ليلة الأمس، وزاد من إحباطي ما لاقيته من العسكري الصهيوني الحاقد صباح اليوم الذي تأخر نومي فيه بسببها، ومن السهر وشراب البيرة، وربما ندمت هي الأخرى مثلي على ما جرى بيننا ليلة الأمس، بدا على وجهها الإرهاق والنعاس والكسل، لكنها نادتني للتقدم صوبها، لتحدثني عن قرب، ماطلت وخشيت أن أسمع كلمة سوء، فخاطبتني مهددة إن لم أحضر صوبها، فستنزل من السيارة مضطرة مع انها متعبة، أسرعت لها قبل أن تغتاظ، قلت لها**

* **مسالم انا وأحترم نفسي، ولعلمك إنني لا أتهرب من نتائج أي عمل اقوم به، فأنا مستعد لتحمل نتيجة اي خطأ فعلته، فهل تشعرين بأنني تماديت او اقترفت ذنباً كبيرا أستحق عليه العقاب؟ تقهقه ريتشي، تمد يدها وتجذبني بكسل صوب صدرها النافر المشدود، أحسست بشيء من نفور، خشية الاصطدم بصدرها، سرعان ما تراجعت للوراء صامدا قالت**
* **أوووه، ما أجمل ذنوبك، رحماك يا رب، إنني ذاهبة إلى مهمة رسمية، أيهما تفضل أن أناديك؟ عفان او سلوم الوحش هذا اليوم؟ احسست براحة نوعا ما، فابتسمت، واشرت بيدي قاصداً ان لا فرق عندي، تواصل كلامها، لم أستطع التخلص من طباعي العربية المغربية، إنني حرة وانتهازية احب الحياة، أنت مؤهل لأن تكون رفيق روحي وهذا الكنز، نظرتْ للأسفل صوب صدرها.**

**أبتسم ساخرا من نفسي، اقول لها،**

**- أنا؟ لا اله الا الله، كل اهل بلدي يعتبروني الماعز الأجرب، كانوا يحتقرون شأني، وفي الأسر والسجن تنفخين ذاتي؟**

**- ها أنا أكشف الغطاء عن عينيك، فافتحهما واستعن بي، وعش عمرك الذي يتاح لك طولاً وعرضا يا أسيري العربي.**

**- سأشكو لك مما عانيت صباح هذا اليوم من عسكري جلف، أهانني وهددني كثيرا.**

**- ليس الآن يا عفان، ليس الآن، سندع مثل هذا لأوقاتنا الخاصة، الآن وقت وظيفة وعمل رسمي، ولا نسرق وقت عملنا لمصلحتنا الخاصة، زيارتي لك ليست شوقا، بل هي جزء من واجبي اليومي، لأكشف على عملك، ثم علي أشغال ومهمات أخرى هذا اليوم، لا تغضب ولا تحزن، سأدعمك ما استطعت. أعادت تشغيل السيارة وابتعدت.**

## **يبتسم عفان ويتمتم في نفسه، الحياة أخذ وعطاء، (خذ وهات) لست مغفلا ولست خائناً، الظروف تتحكم بتصرفاتنا أحيانا أو عادة، مادام أني خسرت حريتي، فلا خسارة ولا خيانة بعد ذلك مهما فعلت، سامحيني يا حبيبتي ديجا، لم أقصد أن أخونك، إنني أسير مستغل ومسيّر، لكنني في الوقت نفسه أحب أن أتهيأ وأتدرب للقائك، إن كان لنا نصيب بلقاء، وها أنا أتعلم أي شيء يتاح لي، ولا أنسى أن أخبرك بأنني ما زلت في وطني فلسطين المأسورة مثلي، وإن ما يؤنس وحشتي هو خيالك الذي لا يفارقني، خسارتي هي ابتعاد جسدينا عن بعضهما، وأصارحك أنني بدأت أنسى عذابات التحقيق والإهانات والآلام التي قاسيتها في الشهور الأربعة الأولى، إنني عربي مكروه منهم، اليهودي يكره كل الناس من غير اليهود، العرب هم جوييم، غرباء لا حقوق لهم بالمقارنة مع المواطن اليهودي، لست متأكداً إن كان هذا في صلب التوراة أو هي تعاليم الصهيونية حديثة النشأة، يستغلون نصوصاً توراتية قديمة عفا عليها الزمن ربما، ويحاولون تطبيق السذاجات والخرافات التي في توراتهم المؤلفة على حياة الفلسطينيين، وبسبب الظروف التي اتاحها الزمن الحاضر لهم، القوة هي التي تفرض القوانين ونمط العيش في أي زمان ومكان يا ديجا، وإنهم الأقوياء المنتصرون هذه الأيام، أصابهم الغرور فلا تستطيع أن تجادل أياً منهم في حق المواطنة، حتى أنهم يتنكرون للتواجد الفلسطيني العربي على أرض فلسطين لأكثر من ألفي عام، أمور قد لا تفهمينها يا حبيبتي خديجة، عرفت الكثير هنا وأنا بين أيديهم، وتعلمت الكثير، وربما سنتحدث عما عرفت حين نلتقي، الكل يتمنى لو فنيَ كلُ العرب أو أحترقوا أو ابتلعتهم الأرض، مع أن الأرض أرضنا، والهواء هواؤنا، والطيور هي طيور فلسطين أينما توجهت، والمغربية التي انزرعت في هذا الكيبوتس، هي عربية ايضا، لا شك أن الله ساقها حتى تقف بجانبي، يهودية لكنها غير صهيونية ربما، تعتز بأصولها العربية أحياناً، وتعرف جيدا أن أجدادها رحّلوا من الأندلس مع العرب المطرودين من إسبانيا.**

## **لم أعهد ديجا تطلب المزيد، كما حصل ليلة الأمس التي كانت أعجوبة بالنسبة لي، لم أحلم يوما بأنني سأستوعب التدريب الذي تلقيت في مباراة ساخنة ليلة الأمس في الأسر، زوجتي ديجا سرعان ما تنسحب من حضني بعد لمسة حب سريعة، نشبه نزوة ديك دجاجاتنا، فتغفو أو تحلم أو تقوم للغسول أوالاستحمام بعدها، وتحثني على سرعة الاستحمام، وتشاورني إن كنت اقوى على الحمام فور انتهائنا، حتى أكون مهيئا للصلاة، ولكنني كسول من هذه الناحية، وغالباً ما أؤجل الاستحمام لصباح اليوم التالي، لأنني ارغب في الاسترخاء بعد اندماجي اللذيذ مع زوجتي خديحة، في دولتهم الحديثة الحرية واسعة للنساء، فأكثر من واحدة هنا تريد استغلال هذا الشاب الأسير الأسمر، ويظهر أنهن أسررن لبعضهن عني، وبعضهن يردن نسلا وأطفالا حتى تصرف لهن مخصصات عالية، لأن الدولة تشجع الإكثار من النسل، لزيادة عدد السكان، وبعض رجالهم الذين يتكلمون اللهجة الفلسطينية كذبوا على نساء عربيات، وأوهموهن انهم غير متزوجين، فقبلت بعضهن الزواج على انه شاب عربي، يعمل في وظيفة حكومية، ولا يسمح له بالعودة لبيته إلا مرة كل اسبوع، وبدأن بإنجاب الأطفال لدولة إسرائيل، هكذا قالت لي ريتشي، ظلت تشعرني بأنها تهتم بي، وحتى بعد التعذيب كانت تخفف عني الكثير من الآلام، وما زلت عاجزاً عن فهم دوافعها، أهي تستغل وحدتي وأسري وحاجتي؟ أهي محرومة أو هي صادقة فيما تقول؟ ألأنها عربية؟ وتدينهم لا يقف عائقاً أمام الحب أو او مصالح الجسد، لكنني أعاني من صراع نفسي حاد، فأنا أعيش هذه الأيام بين الأمان والقلق، وبين الإعجاب والحذر، بين ضغط الرغبات، وبين الأخلاص لزوجتي ديجا، ذكرت لي مرة انها ترغب في أن أفتح لها قلبي وأتمسك بها رفيقة عمر، أو بأي أسلوب يفضي إلى بقائنا معاً، لم أظهر أي رد شافٍ، بل سكوت وحيرة وتأجيل، خوف وشك وأمل، أين أنت الآن يا ديجه، كثيرون من أهل بلدنا تزوجوا اثنتين وثلاثاً، وهذه المراة اليهودية ليست ساحرة الجمال، ولا شقراء، بل كل من شاهدها، سيعرف أنها عربية، تقول إن الدين وطقوسه شيء، والحب والعلاقات البشرية واليومية والحياتية شيء آخر، تعدني أن لا تتدخل في أمور ديني، مقابل عدم التدخل بأمور دينها، تعرفين يا ديجة أن شخصا من أهل بلدتنا متزوج من امرأة يهودية، وتعرفين أنها ما زالت تعيش معه في قريتنا ومنذ مايقارب عشرين عاماً، لم يختلفا، لم يكن يتدخل في معتقداتها، يعيشان متفاهمين متقاربين، فهل الرجل صياد؟، وبعضهم صيادون ماهرون وآخرون متوسطون والأكثرية لا خبرة لديهم مثلي، ولا قدرة لهم حتى على التمثيل، خديجة أولاً، وهل تفرحين إن قلت إنني مشتاق إلى ابني أو ابنتي إن كانت جنيناً في بطنك قبل وقوعي في الأسر، وربما ولدتِ قبل عودتي، فلأي منكما ستكون الأولوية في الحب، أهو النسل الخلف فلذة الكبد، ام والدة الطفل زوجتي؟ فهل عليّ أن أختار؟ وماذا لو فاجأتك باليهودية المغربية كزوجة ثانية؟ . . . بصراحة لا أستطيع تصور الموقف يا ديجة، فأنت عندي أغلى من روحي، ومستعد أن أضحي بحياتي كي أبقيك عزيزة مكرمة، مع ان ريتشي تقول أنها لا تعارض أن أبقى متزوجاً من ديجة، لا شك أنه سيكون امراً صعباً عليّ، وعليك، هل تعرفين يا خديجة؟ لقد استفدت رجولة وخبرة وصبراً وحكمة، يصعب عليّ أن أتخلى عنك يازوجتي الحبيبة، أجد نفسي في دوامة، قلق أنا، وما أحوجني إلى البوح بهذه المتاعب وأنا ملتصق بصدرك مطوقاً بذراعيك، أشتم رائحة عرقك، وتلامس شفتي الأديم الطاهر الأمين، وأنا أهمس لك بما يدور في خلدي، وما أحس من متاعب وشكوك وأحلام.**

## **فصـــل 34**

## **تتلبسني أفكار غريبة في الأيام الأخيرة، أتخيّل زوجتي خديجة تداعب طفلنا إن كنت تركتها حاملا قبل أسري وتلاعبه، فأدعو الله أنها كانت حاملا قبل أسري، ذكراً أو أنثى لا يهم، تعلمت هذه الفكرة هنا في الأسر، وجدت كل الآباء والجنود والنساء من اليهود لا يفرقون بين الولد والبنت، ليسو مثلنا العرب والمسلمين، نفضل الولد بكثير فوق البنت، كلهم يعتبرونهم سواء في الحب والحاجة والاحترام والاهتمام، وحتى في الإنفاق والمعاملة والمدارس، ويقولون البنت تخلف أُمّاً أوتخلف أباً في المستقبل. يضطرب قلبي فرحاً وأنا أتخيل خديجة وهي تراقص طفلنا وتداعبه وتعلمه الكلام، وكلمة أب أو بابا أول الكلمات، (بابا سافر بعيد، بابا سيعود، بابا سيحضر معه هدايا كثيرة، بابا يحبك، بابا يحبني، أنا أحب بابا، بابا يحبنا كلنا، وكلانا نحب بابا، بابا سيعود، بابا مسافر، بابا راح يجيب فلوس، هل عرفت أين بابا؟ طيب قل لي أين بابا؟ . .) أكاد أفقد عقلي عندما تتردد تلك الكلمات على لساني، فهل سأبقى أسيراً بعيدأً عن سماع هذه المفردات بنفسي بدل تخيلها؟ وماذا لو فكرت بالهرب من هذا السجن؟، صرت أعرف ما يكفي من العبرية لتدبر حاجاتي ونفسي في الطرق والأسواق لو صادفني أحد وسألني عن وجهتي، أو لو احتجت شراء شيء ما من أي متجر، أو . . . لكن لو واجهتني دورية إسرائيلية؟ فماذا سأقول؟ أأخفي نفسي؟ أم أهرب؟ سيطلقون النار عليّ، هل سأنجو يا ترى؟ وإن أمسكوا بي وصارحتهم أو اعترفت لهم بظروفي وبمشاعري، فهل تحن قلوبهم، وهل سيقدرون طول مكوثي في الأسر، وهل سيقدرون أن لي زوجة تنتظرني، وطفلة لم ترني ولم ارها بعد، أتوقع عقوبات أقسى بكثير مما مرّ بي في بداية أسري، بل ربما يتم عزلي في منطقة نائية بها يهود متدينون ظالمون، ويكرهون كل ما هو غير يهودي، سأنال العقاب والعذاب والمقالب، وسأعاني من شرور الوحدة القاتلة، وستطول إقامتي في الأسر سنوات عشر أو أكثر وأنا مستعبد إن لم يتم قتلي تعذيباً. ولن يكون هناك ريتشي لتقديم أي مساعدة لي، أو كيف لها أن تعرف أين مصيري؟ صرت أقلب فكرة الهرب في رأسي، فكرت أن أرتدي ملابس نظيفة أو لائقة تساعدني على التخفي، ستبقى عليّ مهمة تحتاج إلى مجهود كبير، وهي معرفة موقع المنطقة التي أعيش فيها، وكيف هي الطرق التي سأسلكها في طريق عودتي وهربي إلى بلدتي وأسرتي وزوجتي، لكن لماذا لا أصبر وأحتمل، ولماذا لا أدعي أنني واحد من العرب الذين تخلفوا هنا، كنت مختفياً خوفا من الاعتداء عليّ، فبعد أربع سنوات على خطف معظم فلسطين من أهلها، أرى عشرات الآلاف من العرب استقروا وسمح لهم بالحياة في بيوتهم، او في قرى مسالمة، اليهود أبقوهم لحاجتهم الماسة لأيدي عاملة لتعمير الدولة الجديدة، والتي لا يزيد عدد سكانها اليهود عن ربع مليون حين أعلنوا دولة إسرائيل في 15 مايو أيار 1948.**

## **إن مندوباً من مراقبي الأمم المتحدة زارني قبل أسبوعين، وأبلغني أنني لم أعتبر مجرماً ولا معتدياً ولا قصدت الإضرار بأحد، وسيعملون على إبلاغ حكومة الأردن بوجودي حياً، وسيتم الاتصال بالجهات المختصة في تل ابيب لترتيب إطلاق سراحي حين تنتهي مدة محكوميتي، ويتبعها إجراءات دولية مطولة واتصالات بين الدول وبين المندوبين وبين المراقبين وعلى جميع المستويات في النظام الإسرائيلي الجديد.(فصبر جميل والله المستعان)، كما قال يعقوب جد بني إسرائيل.**

## **أسأل صاحبة البيت الذي أخدمه في ذلك اليوم عن الساعة، فتخبرني انها حوالي الثالثة مساء، أي قرب موعد انتهاء عملي، كنت أقف بين زهوري، أعتبرها زهوري وعلى أرضي، تعبت بها ورعيتها، تقدمت فشممت رائحة وردة تفتحت هذا اليوم، أحسست بجمال الحياة والكون والأرض بمرافقة تلك الرائحة، تتنبه لي المرأة الشقراء فتسألني.**

## **- هل يعجبك وضعك الحالي؟ (إنت مبسوط هنا كويس؟)**

## **تذكرت طفولتي، وقبل أن أجيبها فكرت في نفسي، كنت الهزيل كما قالوا لي، الطفل النحيل والمنبوذ، تحملني في طفولتي أي امرأة أرادت أن تفعل خيراً أو لأي هدف في نفسها، أو يستغلني الأقوياء في العمل او في الكهوف، قلت لها**

## **- لايقارن أي وضع هنا بحريتي كما كنت في قريتي. بين أهلي أتحرك حسب رغبتي ، أعمل وأرتاح متى اردت، أنام وأنهض بحريتي، أشرب الحليب الطازح صباح مساء أو أي وقت أشاء، ومن يديّ ديجا زوجتي أشرب الماء حين تناولني الوعاء الفخاري،**

## **فتجيبه الأرملة الصهوينية الشقراء**

## **- كنت تشرب الحليب صباح مساء كل يوم، ومن يمنعك أن تشربه اي وقت هنا؟ وكم من مرة شجعناك ان تدخل مطبخنا وتفتح ثلاجتنا، ولم أسمعك تطلب طعاما او شرابا أو قهوة أو حلوى.**

## **تمتد يداه الاثنتان خلف رأسه نزولاً إلى عنقه، تتحول أصابعه لتطوق عنقه من الأمام، يضيق تنفسه، يهاجمه ألم حاد أسفل بطنه، فتنتقل يده تسند بطنه، تستغرب الأرملة الشقراء حركاته غير المفهومة، لكنها تقرأ تعابير الألم والامتعاض على ملامحه.**

## **- أتريدني أن أحملك لطبيب المعسكر يا سلوم ، أو أطلب من المسئول مساعدتك؟**

## **- نعم؟. . .لا لا، نعم؟ . . كلا، أنا بخير، شكرا**

## **أدخلتني المنزل كي أشرب نوعاً من العصير، كانت الأرملة الشقراء تجهز نفسها لتغادر منزلها وقتها، فبدأت تخلع ملابسها لتبدلها بملابس للخروج، فظهرت وجأتها وشعر كثيف احمر أسفلها، تكلمني وأنا مبهور وهي تنزع ملابس البيت، غير عابئة بوجودي، التصقت المرأة [[2]](#footnote-2)بالمرآة أكثر، حين لاحظت انني اهرب بنظراتي صوب المرآة، تتحرك في المنزل بهدوء وأناة، أنزلت سروالها الخارجي فبانت جأبتها، تعمق قلقي لحظتها وجئشت[[3]](#endnote-1)**

## **- أنت محير أيها العربي الأسمر، قالت هذه الجملة، ثم بدأت تهمهم لنفسها، تعيد ارتداء ملابس خاصة، ثم تتجه صوب السيارة لتركب بجانب السائق الذي ينتظرها، لكنني لم أفهم كلمة واحدة من همهماتها بلغة غريبة عني.**

## **يتحرك سلوم خارجا من تلك المنطقة، يسب ويلعن نفسه وأخطاءه الماضية وذنوبه، يقول: لعن الله الشهوات والحرية الزائدة، إنهما توصلان الإنسان إلى قلة الحياء وعدم المبالاة، إننا نعاقب الأنثى في القرية لو بانت ركبتها، نحن اشرف وافضل بكثير من هؤلاء اللمم، كيف اتوا لنا بهذه المخلوقات؟ ومن جميع الأشكال والألوان؟ يعود سلوم لمواصلة عمله وقد قارب وقت انتهاء العمل اليومي، تنبه يومها لبدء تساقط أوراق أشجار التين الهرمة، وأوراق الكرمة التي زرعتها أيادي الفلسطينيين قبل تهجيرهم القسري.**

## **قالت له ريتشي مرة قبل صدور الحكم المخفف عليه، أنه مالم يأسر العرب إسرائيلياً فسيطول مقام عفان عندهم، (وربما لن يطلقوا سراحك قبل مرور سنوات أخرى بعد إنهاء محكوميتك، أنك تنتج أضعاف ما نطعمك، دولة إسرائيل بحاجة لكل العرب الذين تجرأوا على البقاء ضمن دولتنا، حتى تتمكن حكومتنا من جمع الملايين من اليهود من كل أرجاء العالم ليعمروا الدولة، كما قال كبار السياسيين ومفكرو صهيون، ولنصبح دولة يهابها كل العالم، هكذا سمعت كبار المسئولين وكبار الضباط يقولون، وبلغ عدد اليهود في فلسطين نصف مليون أو أكثر قليلا عام 1952، يطرق فتقع عيناه على حذائيه الصيفيين القويين، احضرتهما ريتشي له، لكنهما تقادمتا من الحر والعمل، يقول في نفسه، (هل تريدني ريتشي أن أبقى أسيراً؟) تلمس حذائيه، رفع إحدى قدميه وثناها، فلمح تهرؤاً في النعل، ابتسم ثم حاول أن يعبس، قلب نعل الفردة الأخرى فوجده سليما، لكنه بدا ممسوحا، نزع حذائيه وعاد لمواصلة عمله حافياً، سحّ عرقه من جبينه وتحت إبطيه وبين فخذيه، وعند الرابعة أعاد ارتداء حذائيه، شاهد ريتشي تهل من بعيد، كأنها نخلة لداوية أو ريحاوية تداعب شعرها نسائم المساء، وزخارف على ملابسها كأنها بلح طازج متموج الألوان قرب نضجه، أرهقني توجس ممزوج بمشاعر إنسانية، أشارت له بالتوقف عن العمل، وترك ادواته في موقعها، اكتشف أن ريتشي تراقبه، تسأله عن سبب خلع حذائيه، رفع قدمه بحذائها المخروق، لامته واتهمته بالجنون، قالت له، نحن مكلفون بكل ما يلزمك للعمل، ومحظور عليك العمل بلا حذاء واقٍ لقدميك، سأعمل على تبديل هذين الحذائين لك. ناولته علبتي بيرة، شرب إحداهما دفعة واحدة وتجشأ بهدير راعد متعمداً، تجاوب صداه مطولا، لم يقبل بعدها أن يركب السيارة معها.**

## **أردت أن أعود لغرفتي ماشيا، لكنها اضطرتني لركوب سيارة الجيب، وحين اقتربنا من ساعة الساحة العامة، تزداد حرارتي مع التفاف عقرب الثواني البطيء، والفضاء ما زال يضيء الكون، وحرارة الشمس ما زالت مؤثرة عند الساعة الرابعة. ظلت ريتشي صامتة في الطريق، وقبل أن أتوجه إلى غريفتي تقول**

**- محظور عليك المشي بمثل هذا الحذاء اولا، ثم لتعلم انه حسب التعليمات يحظر عليك المشي بحرية في شوارع الكيبوتس. تدعوه لتناول علبة البيرة الثانية وصار يشرب منها قليلا قليلا، ولأنه ليس معتادا على شرب الكحول أثرت به العلبة الأولى التي شربها عند حديقة المرأة الشقراء، تجذبه ليجلسا على طرف السور، يبدو عليه حزن او هو كتئاب، تحاول ان تشفيه من حالته النفسية، لكنه بدأ يثرثر و يقصّ عليها عما قرأه عن صراع أهل يافا مع عصابات تل ابيب، طال جلوسهما لما يقارب نصف الساعة، أنهى شرب علبة البيرة الثانية، تحدثه فلا يتجاوب معها، فلعنت نفسها لأنها اعطته علبتي البيرة، تقول ريتشي لنفسها وعلى مسمعه، أصيب سلوم بهستيريا، وضعت يدها على كتفه، هز كتفيه وأشار لها بعدم اهتمامه، ماداً يده نحو فمها ثم أنزلها قبل وصولها للأسفل، اضطرت أن تربت على ظهره تهدئه، أما هي فلم تكمل شرب علبة واحدة، الإرهاق بدا عليه والحيرة، هوى إلى الأرض وصار يتمرغ في التراب، تمسك ريتشي بيده فينتشها من يدها ويبعدها، حاول أن يقول (أسير إسرائيلي مقابل أسير عربي) بعدها لم يعد ينطق هذه الجملة، تسيل دموع من عينيه، وينساب مخاط من أنفه، تأثرت ريتشي جدا ترثي لحاله، وتأكد لها أنه يمر بأزمة نفسية حادة، وربما يحتاج لطبيب مختص، دون أن تفهم ماالذي دار في نفسه، ضربت كفاً بكف قائلة (ورطت نفسي، انهيار عصبي) صار يحك شعره بكلتا يديه كأن به جرباً، لا يعي ما يفعل. فاجأته بركلة قوية غير موجعة بعرض قدمها على لحم قفاه عله يشد مفاصله، ولتوقظ الوعي فيه. صدر صوت مدوٍ من مؤخرته، أغلقت ريتشي أنفها وابتعدت قليلا، (اووه... خنقتنا يخرب بيت أهلك.) تقول له.**

**- سيشفى البولوني من نوبة المرض التي ألمت به ويحضر لك بعد ساعة.**

**- كلا! كلا! أنا في عرضك، أرجوك لا أريد أن أراه، ضربته كفاً آخر بيدها على مؤخرة كتفه، وطلبت منه أن يعيد شدّ حزامه.**

**- حلوة أنت ومرة، أريد منك تفسيرا: أن ما يحيرني هو لماذا ترك اليهود وغيرهم من الأجانب بلادهم وجاءوا إلى بلادنا فلسطين، ما السبب يا ترى؟ هل صحيح يعتبرون ان فلسطين والقدس أماكن مقدسة؟ اجابته بصوت هادئ منخفض وكأنها تخاطب نفسها**

**- لا تصلح إلا أن تكون حيواناً منزلياً للتسلية يا سالومي، ودعني أتأكد من مشاعري، فيم تفكر لو تصالحنا؟**

**- القدس، القدس يا ريتشي، القدس حبيبتي، إذا حلّ السلام ستكون اول رحلاتي إلى القدس، القدس هي حياتنا، هي مسرى رسولنا العظيم محمد، القدس وجودنا وماضينا ومستقبلنا، بدون القدس لا توجد فلسطين، ، وبدون القدس سيضيع شعب فلسطين، القدس رمز وجودنا، ونبع قوتنا وعنوان حريتنا.**

**- أنت قلت بدون القدس لا توجد فلسطين، وانا أقول، الآن لا توجد فلسطين، فقط إسرائيل وجزء من اردن، حتى مع وجود القدس، لا توجد فلسطين، إن ما تبقى هو أردن.**

**- نظرتك ناقصة يا ريتشي، الأقصى والمقدسات تحت ايدي أهلها الفلسطينيين، حتى ولو كان الحكم الاردني هو حاميها، لكن شعب القدس الأصلاء من المسلمين والمسيحيين يحرسون مقدساتهم، ويحرسون مقدسات اليهود، وستظل القدس رمز قوتنا، ما دمتم تعتمدون القوة والقهر.**

**- إذا كنت ايها الصعلوك الفلسطيني الأسير تقول هذا فكيف بالمفكرين والأدباء والمتدينين والمتعصبين الوطنيين من الفلسطينيين؟؟ أين تريدنا أن نذهب، هجرنا بيوتنا واوطاننا في اقطار عربية وضاعت املاكنا لأننا اخترنا الإقامة في إسرائيل، وهل هذا كلام الناس من أهلك وغيرهم؟.**

**- أنتم وكل من يؤيدكم لا تفهمون مشاعر الفلسطنيين وعقلياتهم، أخطأتم كثيرا حين استقويتم وطردتم اهلنا وشعبنا، هل تسمعين المثل الشعبي الفلسطيني الذي يقول ( الدار دار ابونا , وجاء الغرباء يطحونا،) اي جاء الغرباء ليطردونا.**

**- إذن ما العمل؟ وما رأيك في المستقبل؟**

**- القدس هي حاضنة اديان التوحيد الثلاثة، اقترح ان ترجوا من الجزء الذي اقتطعتوه من مدينة القدس لنوحدها، ونعطي الحرية لكل من أراد التعبد فيها من الأديان الثلاثة، لا يمكن أن يقبل الفلسطيني العيش على أي أرض بدون القدس، وأتمنى أن يفهم الصهاينة هذه الحقيقة، لا تغرنهم القوة، وستظل القدس عاصمة فلسطين، ورمز وجود الشعب الفلسطيني، في حياتهم وفي مماتهم.**

**- اووه سلوم، انت لست سهلا، حسبنا أنك سوف تتطور لتصبح مسالما وداعما لنا.**

**- لكنني سمعتك مرات عدة تعلنين أنك لست راضية عن حكم الصهاينة، لو صار سلام ممكن نلتقي وسأرحب أن أرافقك للتجوال في القدس الموحدة، وفي أول رحلة لي وبحريتي.**

**- أنت إنسان عجيب سلوم، عجيب جدا، لم أتوقع منك هذا الوعي والتعصب، ظننتك انك ستكون قرداً مدجناً، يتبع كل خطواتي؟**

**- قرد! . . . أعترف يا ريتشي أنني أشبه القرد المربوط، لكنني لست مدجناً. عشت في القيود طويلاً، تطبعت على أوامر تلقى علي، ومنذ فتحت عيني على الحياة، وهدرت الكثير من الأيام هنا، سارقاً ثماراً لا حق لي بها، بدأت أصحو، الرحمة، ارجوكِ الإنسانية؟.**

## **- ومن يساعدك إن اشتدت الحبال عليك في الزنازين؟ اكفهر وجهه وامتعض، فأجابها**

## **- آآآآه، اخخخ، العرب لم يصحوا بعد من هزيمة 1948، فكيف سيفكرون بالقبض على أسير إسرائيلي حتى يتم تبادله لآطلاق سراحي؟**

## **- لهذا لاأريد ولا أتمنى أن يأسر العرب إسرائيلياً. حتى تبقى عاملا تعمر أرضنا، أو تزرع الأشجار والأطفال والراحة في أرضنا.**

## **قهقه عفان لحظتها، قهقة هستيرية في سخرية وحيرة، جلجلت ضحكاته وتتابعت، مختلطة مع قرع يدها المضمومة على لوح الصاج المثبت على سلم قريب، ثم ارتمى على الأرض ثانية كطفل يتيم، دموعه تسحّ، يضحك، ويبدو ضحكه مخلوطا ببكاء وحزن، تذكر عفان موقفا من طفولته، هكذا كان يفعل حين يرى الأطفال الآخرين في موقف مرح وهم يمزحون مع إحدى الوالدين، أو مواقف تدليل من أمهاتهم، ينظر لخاله الكفيف وقد لا يجده قربه وقتها، وماذا يعوضه عن الحنان غير البكاء؟ في مثل حالات الضعف تلك، خدعه الولدان الشقيان، فعلا به ما أرادا، ثم أخلا بالاتفاق، أدرك وقتها مرارة اليتم أكثر من أي وقت مضى، وكره أولاد الأقارب الأشقياء، لهذا سهل عليه تقبل اهتمام ريتشي به ربما، تقلب على الأرض بعدم وعي وربما انفلات أكثر، وصار ينوح بألحان النساء اللاطمات المعزيات، وبلغة اللطم على الخدود بلا وعي أو توازن.**

**ألطُمي على خدودك واندبيه والحزن معاكي و وراكي لا تلوميه**

**مهما عملتي ومهما شقيت ما يفيد، غاب الغالي عن عيونك لاتنسيه**

## **هل تريدني أن أساعدك في مزيد من اللطم على وجهك، أم بضربات أخرى على قفاك.**

## **- كلا كلا، يا . . يا ، يا ، يا ست ريتشي،**

## **أنا المغلوب يا وطني فعد لي، وكن لي ساعدا يحمي قفايا،**

## **أرجوك إلا قفاي، لا أطيق أن يمسها أحد إلا إذا طلعت روحي. تضحك ريتشي كثيراً، وتعلو ضحكاتها هي الأخرى، فيتجاوب مع ضحكها وتعلو ضحكاته بشكل متواصل، تريد أن تتكلم فتضحك، ويريد أن يتكلم فيؤشر لها ويقهقه، يظهر أنه بدأ يدرك إفاقته من نوبته، فكلما سألها بكلمة واحدة فقط ومتكررة (ما بك) يواصل انفجاره ضاحكاً، وهي الأخرى تضحك عالياً دون تفسير أو معرفة لماذا يضحكان، ترجع خطوات للوراء، تحس بتعب وضيق نفس، تستند على شجرة قريبة وبدأت هي الأخرى تنهار على الأرض. ثم قالت أخيرا بصوت متعب متقطع**

## **- لا أريد أن أقدم لك مزيدا من الضربات على قفاك، حتى تبقى خزائنها وروائحها ملكك وحدك.**

**فصـــل 35**

* **وهل قررتم ابتلاع بيوت الفلسطينيين ومزارعهم التي طردوا منها بشكل نهائي يا ريتشي؟ وهل هناك أمل في أن تسمحوا للمسالمين منهم بالعودة إلى ديارهم، عملوا وتعبوا وعمروا، وأينما تذهبين في فلسطين تجدين مزرعة أو قرية أو مدينة أو مصنعا او مسجداً أو كنيسة، عفان خاطب ريتشي متسائلا بعد أكثر من ستة شهور من توطد علاقتهما واهتمامها به.**

**- موسى نجانا من فرعون وهامان وجنودهما، وعشنا في صحراء سيناء تائهين، وتعذبنا وتشتتنا في نواحي الأرض كلها مطاردين منبوذين متهمين، ثم إننا لا ننسى الإسبان كيف ظلمونا، ولا ننس شكسبير الذي خلد عيوبنا وأساء لنا، ولا ننسى النازي وكم عمل على إبادتنا، ثم وصلنا أخيرا لعودتنا لهذه الديار العزيزة على قلوبنا، وكم اجتهد اول مندوب سامي على فلسطين لأجلنا، ومن قبله وعد بلفور، ثم موشي شاريت وبن جوريون وشامير وباقي حكمائنا أعادوا لنا بلادنا وأرضنا بحكمتهم وخططهم، لممارسة حقوقنا كاملة على أرض إسرائيل كاملة. عليك أن تنسى اسم فلسطين وشعب فلسطين، يا سالومي، ما فات مات، الزمان لا يعود للوراء، ما تخسره لن يعود لك، عليك أن تعمل في موقع آخر لتعوض ما خسرت، ثم أنت تتكلم كلاماً أكبر منك، فهل أنت عسكري فلسطيني متخفي، أو جاسوس صامت تدعي السذاجة والصبر حتى يتم إطلاق سراحك، بعدها . . . لا أدري ماذا ستفعل؟ جميع الكتب المسيحية واليهودية تعترف بأن هذه الأرض هي أرض إسرائيل، وحتى في قرآنكم ودينكم نصوص تثبت أننا شعب الله المختار والمدلل، وفي قرآنكم نحن الشعب الوحيد الذي أنزل الله عليه المن والسلوى، وتم ذكر معظم احداث بني اسرائيل المهمة في قرآنكم.**

* **لكن القرآن يقول أنكم ضالون، ضللتم وخالفتم أوامر الله، ونواهيه، وغيرتم طرق الإيمان ومطالبه، ثم إن جميع المسلمين لايعيشون في دولة واحدة، وجميع المسيحيين لا يعيشون في دولة واحدة، فالدين لا يوحد الشعوب، فاليهودي الروسي هو روسي، فكيف سيصير إسرائيلي، واليهودي الأمريكي سيظل أمريكي، وولاؤه لأمريكا؟.**
* **ربما إن ثلث قرآنكم نصوص تظهر اهتمام الله ببني إسرائيل لتمجيدهم، وهذا يظهرفضلهم على العالم والحضارات، وأهميتهم وقوتهم وجبروتهم، ومع الدلال الذي يسره الله لهم، ثم إنكم تطلبون من الله في كل صلاة أن يصلي على نبيكم محمد، كما صلى على إبراهيم جدنا وآل إبراهيم، وأن يبارك على محمد كما بارك على إبراهيم جدنا وآل إبراهيم، اليس كذلك؟**
* **نعم نقول هذا عند كل صلاة في دعاء الصلاة الإبراهيمية بعد التشهد (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم....... )**
* **وماذا يعني ذلك؟ أليس هذا اعتراف إسلامي صريح حسب دينكم، بأننا موجودون ومدللون ومفضلون دائماً، ولا تسألني أن أبين لك كم بلغ مدى اعتماد حكامكم القدامى على اليهود وحكمتهم، حتى أن الأحياء منهم في العصر الحاضر ما زالوا هكذا، حكامكم يستعينون بالمتعلمين والخبراء اليهود لإدارة بلادهم والاقتصاد، وفي الطب وسك العملة وصنع المجوهرات والزينات التي يعشقها الحكام المسلمون وزوجاتهم وبناتهم وجواريهم.**
* **لم يكن الرسول محمد ضد الديانات السماوية اليهودية والنصرانية، لكن كثرة غدركم للمواثيق والعهود، جعله يفرض على اليهود أحكاماً قاسية، مع انه دعا لحماية المسيحيين وأهل الكتاب واقرهم على ديانتهم، ما داموا لا يحاربون الإسلام.**
* **لا يعنيني ما تقول، فآيات القرآن تثبت عظمة شعبنا اليهودي وتاريخه المجيد على مدى العصور، وباقي التصرفات والنجاحات التي دأبنا على تحقيقها على مدى العصور، هي اجتهادات شخصية وذكاء يهودي.**
* **لا أملك إلا أن أقول: (لكم دينكم ولي دين)، وأنتِ أدرى بما يحيق بي وبأهلي وشعبي بسببكم.**
* **لسنا الآن في مجلس خصام، لبيان من الأفضل فينا، أنا مغربية مثقفة بتراثكم ودرست مع المسلمين في بعض المدارس، وحفظت الكثير من القرآن، عندما كنا ندرس اللغة العربية والبلاغة، لكن يا سلوم أذكرك أن قيدك هو الذي سيمنحك الحياة، وما دمتم مقيدين وضعفاء سنسمح لكم الحياة والأكل والشرب والزواج أو. . . إن لكم الاغتراب.**
* **لا أفهم ما تقولين**
* **لست أنا الذي أقول ذلك سلومي، لكن نصوصكم وما تحفظونه، ثم حكامنا وفلاسفتنا وكهنتنا وحكماؤنا يقولون ذلك وكتبنا المقدسة، ونعرف كل حركة أو همسة تجري في قصور أولياء أموركم ، فأميراتنا اليهوديات، وبنات إسرائيل الجميلات الموجهات والمدربات يقضين الليالي والسهرات في أحضان الرؤساء من أهلك وفي مخادعهم، فنعرف أسراركم ونحصل على ما نريد لشعبنا ودولتنا، مقابل تعهد حكمائنا بعدم تدميرهم، او تأليب شعوبهم عليهم، ليبقوا في قصورهم ومناصبهم ومع أموالهم.**

**ما إن طلعت شمس اليوم التالي، حتى بادرت بالنهوض نشيطاً صباح يوم فلسطيني صيفي، أقف أمام النافذة الصغيرة، وأطل برأسي، فأستنشق هواء فلسطين الصباحي المنعش، كان الجو لطيفاً، يغمر الندى أطراف أغصان النباتات، ويعبق الجو بأريج الزهور البرية والمزروعة حول بيوت العائلات، تلوح أمام عيني شجرة نخل عالية، عليها الكثير من الرطب الذي لم ينضج بعد، وبرغم حرارة الصيف، إلا ان الجو رائق ومنعش هذا اليوم، إنه يوم فلسطيني بامتياز يظهر قدسيتها وطيب أرضها وهوائها، وبهاء سمائها وأنسامها، وظلال أشجارها كثيرة الأصناف، لا بديل لنا عن فلسطين، وسأعيش وأموت فيك يا فلسطين، وحتى لو طردوني أو شردوني أو دفعوني للهجرة، فلن أغادر أرضك يا حبيبتي.**

**كنت أعمل على إرواء حوض من الزهور في معسكر الاعتقال، كانت تلك الزهور تعيش برية في سهولنا والجبال، تنمو على جوانب الطريق إلى حقولنا البعيدة ، وبين الصخور ،وعلى سفوح التلال ، وحتى بين مزروعاتنا في سهولنا، عندي إحساس أنني سأعود يا ديجا، سأعود لك ، سأعود حراً إلى بيتي وبلدتي ، لكن ريتشي حيرتني، لا أنسى ديجا ولا أخي ولا خالي ولا حمواي، لم يعد أحد يضايقني هنا في الأسر، وعيون المراقبين ومتابعاتهم لي تتم عن بعد، لكنني لا أنسى أنني أسير أو سجين، أو . . قل . . عدوّ. مع ان سلوم لا يكره أحداً ، الكره كريه أمام الله وأمام النفس.**

**تلتف حول معصمي، لأول مرة في حياتي أجمل ساعة، كيف فكرت ريتشي بشراء ساعة لي وأنا في الأسر؟، هل هو لتنظيم ساعات عملي؟ أو هو لشطب ماضي حياتي؟ ديجا ما تزال رقم واحد في حياتي، ورقم اثنان ، ورقم ثلاثة وبعدها تأتي أرضي وبيتي، وبعدها يأتي أهلي وبلدتي، ثم من يأتي بعد ذلك؟ الساعة تحيرني، أنني مرتبك، رب ارحمني واغفر لي وألهمني إلى ما تحبه وترضاه، أول مرة تزين مرفقي ساعة، أعتقد أنها جهاز تجسس عليّ! . . . . لكنها تعطيني الوقت وتشعرني بمروره البطيء، أرش الأزهار بالماء فتعطر الهواء بروائحها، تمتلئ رئتاي بأريج أزهار فلسطين وشموخها، عارضة جماليات ألوانها البهية، تحاول ريتشي أن تكون مثلها حين تزورني، مع خيرات هذه الأرض يعمر الإيمان قلبي، أنظر للساعة مراراً، يا إلهي، أصرّت ريتشي على أن تضبط حزام الساعة بنفسها على رسغي، مددت يدي اليمنى، لأنها اليد التي أسلم بها وآكل، تبتسم بأدب ورقة، وبدون تعليق ولا كلام أحنت جسدها، اصطدمت رأسها بكتفي، تسقط قبعتها العسكرية، سرعان ما حاولتُ التقاطها ، أوقفتني عن تناول القبعة الساقطة، قالت دع رأسي ترتاح من حملها ، أبقتها على الأرض فهي نظيفة وجافة، عنيدة في قراراتها، تناولتْها من يدي قبل أن أرفع ظهري، أمسكتها بأسنانها، تنناول يدي اليسرى، وأنا شبه مبهور، تخدرت ذراعي كلها، أما لساني فبقي معطلا لحظتها، وثبتت الساعة الجديدة على رسغي الأيسر.**

**تذكرت صديقي العزيز مهاب من قريتنا، ظل عقله مشغولاً بالسفر، وعيناه تنظران إلى البعد والإغتراب، قال**

* **أتمنى أن أخرج لأرى دنيا غير هذه الدنيا، ليتني أعرف فتاة أجنبية للزواج منها كي أعيش نمطاً أكثر تحرراً من بيئتنا الجامدة. سخرت منه وضحكت طويلاً، لكن تساءلت في نفسي، ذاك الشاب الذي تربي بين والديه، وحالتهما الاقتصادية جيدة، فما الذي جعله يصادق عفان؟ كان مسالماً طيباً مستقيماً، قال لي، احببت أن أكون صديقك لأنك إنسان هادئ متزن بعيد عن الشقاوات ومخالطة الأشرار، بقيت صامتا، لم أعتد على الصدق والوفاء من الناس، لكنني هنا لا أحسّ برغبة الألتصاق بالمرأة الأجنبية التي في متناول يدي، فما الذي جعله يتمنى الزواج من امرأة اجنبية، اكثر تحررا من المرأة العربية؟؟.**
* **هل تحسّ بسعادة يا سلوم هذا اليوم؟، تسألك ريتشي**
* **لم أحلم بالحصول على ساعة جديدة ولا حتى في بلدتي، فكيف احصل عليها في الأسر؟؟. . . في بلدتنا نادرا ما يحمل أحد ساعة، لأننا نتحرك حسب حركة الشمس، الصبح او الظهر او العصر او المغرب، إنني قلق يا ريتشي، أحسّ بمرارة الأسر، وأخشى أن أظلّ أسيراً طول عمري حتى لو انتهت مدة محكوميتي.**
* **بيديك وبتفكيرك تتحررك شلوم**
* **وهل سيأتي يوم قريب أتحرر فيه، وأعيش في أمان واستقرار؟**

**تطاطئ ريتشي وجهها صوب الأرض، لا تحني رأسها، لكن عينيها التصقتا بموقع أبعد من مكان وقوفنا، تفطن وكأنها تذكرت شيئا، تفرد كتفيها وترفع رقبتها عالياً، كأنها في طابور عسكري، ثديان غير مترهلين يدفعان قميصها المحزوم تماماً على مقاسها، في تحدٍّ وثقةٍ ومكابرة، تسألك بحزم وبصوت مرتفع شبه آمر**

**- هل أعجبتك الساعة؟**

**- جميلة مثل قميصك الجميل، متقن التفصيل على جسم جميل.**

**- برغم بساطتك وكونك فلاحاً فلسطينياً وأهلك يعادوننا، لكن بديهتك ومخزونك الإنساني يفتنني.**

**- الظلم والظروف، الظلم والظروف يا ريتشي، تغير الإنسان تحسينا او تراجعاً.**

* **هل يتغير الإنسان أو يتقلب؟ فيجيبها بعد ثوان من التفكير**
* **الحياة غالية، وكل مخلوق ينشد الأمن مع الحياة، فتجيبه بلهجة جادة**
* **عقدتني ببديهتك، عليّ أن أعود إلى ما هو مطلوب مني.**
* **هل تعلمين انني صرت أعشق حديقة الزهور هذه، وكأنها تدعوني دائماً للالتصاق بها.**
* **سأعود لك يا سلوم، سيكون عشاؤنا مختلفاً هذا المساء، فلا تأكل أي شيء قبل عودتي.**
* **لاتنسيْ أنني لاآكل أي شيء محرم.**
* **الشيء الوحيد الذي نتفق فيه مع المسلمين، فنحن لا نأكل لحم الخنزير مثلكم، فلا تقلق، وبرغم أنني إسرائيلية، لكنني ما زلت عربية الدم والفكر والجذور.**
* **وماذا عن انتمائك؟**
* **المغرب أرض عربية ولها أهل كثيرون، وربما ليست بحاجة لي، وما زال يهود كثيرون يعيشون فيها ومسيحيون جنباً إلى جنب مع المسلمين. فهل تتمنى شيئاً محدداً يا أسير؟**
* **أن أتحرر**
* **قريباً إن صبرت وتأملت ما أقوم به لك.**
* **الليلة؟**
* **يعتمد على مفهوم أي منا، أو حين نتحد، لكن أحب أن أؤكد لك، أن مراقبي الأمم المتحدة أوصلوا رسالة لأهلك تنبئهم بأنك حي ترزق ، ويواصل الوسيط الدولي جهوده لإطلاق سراحك، هكذا أبلغني مسئول المعسكر.**
* **ربما بسببك، لولا جهودك ما حلمت بسماع هذا الكلام.**

**يا إلهي مرت الساعات الخمس ببطء، ولولا أنني منشغل بعملي، لمللت عمري كله هذا اليوم، ستحضر ريتشي بعد نصف ساعة، صرت أحسب الزمن بالدقيقة وليس بالساعة فقط، (يعني لازم تشتري لي ساعة مجنونتي؟؟؟، ماكنا سالكين من غير ساعة، وماشية ايامي، يعني لازم احسب أوقات السجن بعد اليوم بالدقيقة؟؟؟) الساعة وريتشي وجهودها مؤثرة جدا، سيعرف أهلي بوجودي على أرض فلسطين، أنا مستعد للحياة ، سأراك يا ديجة، بعد شهر، بعد شهرين، بعد ثلاثة، بعد سنة لا يهم، المهم أن الأمل تجدد وانزرع ثانية في عقلي، وأصبح من المؤكد بأنني سأعود لك ولو بعد سنتين، سأعود لك ولأهلي ولأرضنا ، سنتحدث كثيراً وسنلتصق كثيرا، هناك وحدنا وبين أهلي وأهلك، وعلى أرضنا الحرة، وبعد أن تعلمت فنون الحياة والحب والثقافة الحقيقية والحديثة، وسنخلف بناتٍ وصبياناً.**

**منذ حملت الساعة صار للزمن عندي قيمة ،صرت أوقت زمن الريّ، زمن الوقوف في الشمس، زمن مرور دوريات التفتيش والرقابة، وزمن المسافة التي أقطعها من غريفتي حتى أطراف المعسكر، وزمن حضور آمر لتكليفي بمهمة جديدة أو إضافية، الزمن الذي مضى بعد أن شربت الماء آخر مرة، الزمن الباقي على عودة ريتشي، الزمن الذي امضيه معها ليلا، لكن الساعة زادت من حيرتي وقلقي، أنا قلق وفي حيرة، ريتشي إنسان محيرة، مخططة وعجيبة ، أأنا قردها المدجن؟ أم كلبها الأثير المدلل؟ كلا! . . . كلاّ!. . . لا أعرف جوابا يرضيني، فعليّ أن أسألها إن أتيحت لي الفرصة، الجواب يختلف كيف تفكر هي لا كما أفكر أنا، أتذكر بيتين من الزجل الشعبي، نتغنى بأمثالهما في حلقات السامر والسحجة او الدحية في الأفراح وعلى ضوء قمر نصف الشهر.**

**أحبابي قوموا العبوا والموت ما عنّــــه (أي لا بد منه، او لا مهرب منه)**

**والعمر مثل القمر ما ينشبع منّــه.**

**فصـــــل 36**

**في ذلك اليوم كان مكان عمله على طرف المعسكر، في قطعة من الأرض كثيفة الأشجار، ينظم قنوات للأشجار والشجيرات، نظر يمينا ويساراً، لم ير سلوم أحدا مارا او قريباً، علقت بندقيتها على شجرة صغيرة كثيفة، وبدأت بإنزال بنطالها، فقال لها**

* **أرجوك ليس في النهار أو وقت العمل، وعلى الأرض الخشنة، سيدتي ارجوك، وقد يشاهدنا أحدهم، يسرع بالتقاط بندقيتها الجديدة تشيكية الصنع، لامعة انيقة ومخيفة مثلها، يوجهها صوبها، قائلاً:**
* **إن لم تتوقفي . . . . لم يتذكر كلمة تهديد أخرى يقولها، لكنه أكمل إنني أهددك. أرادت أن تعيده إلى صوابه، وتضيع عليه مبادرته بالسخرية، قابلت تهديده بسخرية، ومدت يدها أسفل صرتها،**
* **صوّب هنا، لست بلهاء ولا جاهلة حتى أثق برجل، ولا أريد أن اقول أسير، مخزن البندقية فارغ من الطلقات، واصلت فك حزام بنطالها، خلعت حذاءها وانسحبت من البنطال حملت بنطالها لعلها تجد مكانا تعلقه فيه، لكنها ألقته على الأرض ثانية، ثم عادت واستدارت بوجهها صوب عفان، عدلت سروالها الأسود الصغير الدقيق الشفاف.**
* **كلمة السر يا سلوم المحروم**
* **الحديقة والتفاح وشجرة الفلفل يا ريتشي، إنني غارق بالعرق والغبار والأملاح، رائحتي وملابسي مقرفة.**
* **فعلناها خطفاً من قبل أيها الحيوان، قلت لك سأثقفك بكل ماوصلت إليه في حياتي، قذارتك في الحقل والعمل الجاد، هي الإغراء، هي الجاذبية، هل التي أفقدتني صوابي، أريد أن البي حاجة هذا الجسد المجنون، الآن وأنت بكل قذارتك وبدون استعداد، أريدك مادة خام دون تحسين ولا رتوش،كما فعلتها معك في المرة الأولى بلا كلام ولا مشاورة، إنني أجد متعة كبيرة باغتصابك، وبتكرار فعلتي ا لأولى، وأنت تحاول الصدّ هذا اليوم.**
* **أكره الخطف والخوف، عودي لرشدك سيدتي، لا شك انك شربت الكثير من الكحول، هل فقدت عقلك؟ عودي لأسر ملابسك، لم تنفذ كلامه، شاهد أصابعها تفك أزرار القميص العسكري، تعرف نقطة الضعف فيه، حين يلمح صدرها، لكنه بآلية واصل إلحاحه عليها. . . كلا ! كلا! عودي لعقلك واتزانك العربي المغربي، أين ذهبت تكشيرتك العسكرية؟ أين احترام وقت العمل وشرف الشعار العسكري؟ استجيبي لدعائي اليوم، تذكري ضميرك يا عسكري، هل شربت كثيراً من الكحول ياريتشي؟، إعقلي يا امرأة. تسقط البندقية من بين يديه، تقول له.**
* **لا أضمن العيش يوما آخر، يومنا هو عمرنا، والفكرة هي بساط الحياة، وتيار النماء النابض قوي جارف يا سلوم، أحب الطبيعة والحرية وتحطيم القيود، إنني ابنة المغامرات، احب أن افعل اشياء عجيبة وغير مألوفة، لا أهتم بقيم زائفة، جناتنا هي اوقات متعتنا.**
* **أوكي، أوكي، ارجوك، خذيني لغرفتي، أشعر بخجل، تلعثم في الكلام حين برز نهداها، اهتزا قليلا هي تحاول لفظ قميصها بعيدا، وزهور الحوض الذي نقف فيه تتلألأ وهي تتراقص، ريتشي تحاول الثبات، والنبات تحركه موجات ناعمة من نسيم عليل، عيناي تتراقصان، تارة تتجه صوب صدرها، واخرى للجهات الاربع، فأرى الزهور والجمال يتراقص مع النسيم العليل، وجسدي صار يستقبل موجات غريبة، تخف بي كفراشة تتطاير فوق نباتات الحقل الغارق في الجمال والبهاء، تتمرد العصافير، وتنطلق حرة لكل الاتجاهات، وأشعة شمس ما بعد الظهيرة تضفي على جسد ريتشي العاري في معظم مناطقه ألوانا تختلف في عمقها وشفافيتها، فتسلب أنظاري وتوقعني في دوامة ملونة تغمق أسفل ابطيها، وتشف وتكاد تتلألأ فوق كتفيها، وأكثر ما أفقدني البصيرة والتوازن، اهتزاز ثدييها وجمال الدائرة الغامقة حول الحلمتين بعد أن استباحتهما أشعةالشمس الساحرة، عيناها تتأملان عيني، ومن بين أغصان الشجرة المظللة، تبتسم ريتشي وتندمج مع الهواء والشمس والفضاء، تمد ذراعيها في الهواء الطلق، فيستندان على غصنين من أغصان شجرة قميئة وارفة الظلال، وكأن ريتشي تجامع اريج الزهور وعبق الجو وأغصانه، تدعو أنسام الحياة وتتحداها، تقترب وتقترب، وكأنها تلعب بأعصابه، لقد بدأ النسيم يفقد اتزانه، تزداد حركته وتحركنا، وعينا سلوم مبهورتان بهذا البهاء، يريد أن يصونها من السقوط على الأرض، لا شك أنها مخمورة، تتقدم صوبه بخطى ملوكية واثقة، لكن ظهر فيها قليل من ترنح، قال لها متأهباً مرحبا، أعيش ويضمني كل شيء منك يا ريتشي وحتى هاهنا، تسرع لضمه وكأنها تريد إيقافه عن الشرح، تطوق رقبته وخديه**
* **اندفاعك في الشبق يشعرني بالاختناق يا ريتشي، أعترف بأنني ما زلت ساذجاً، لكنني بشر، ولا أقوى على رد القضاء. فترد عليه بصوت مبحوح غير مترابط**
* **أغار من ديجا، محظوظة زوجتك ديجا، كلك لإسرائيل إلا عقلك وقلبك، لم أستطع تطهيرهما وتغيير مساراتها من أثر ديجا بعد، أيها العربي النجس!**

**تجذبه بعنف وتحتضنه ثم تهبط به على الأرض الخشنة وهي متمسكة بكل جزء في جسده غير العاري، عازمة على أن تقد قميصه، إن استعصى عليها فك الأزرار.**

* **أنت سكرانة يا ريتشي ، أما أنا فأصبحت قرداً مدرباً، هل تعلمين ان القرد يتمنى أن يعود لغابته ، بعد أن أنهكهما عملهما الجاد، وقف سلوم يحاول تثبيت جسمه معتدلا، وبدأ يدخل لملابسة الرطبة المملحة. تقهقه ريتشي، وتقول**
* **كم أنت دنيء وخبيث، كنز مخبوء، لكنني أعرف أنك حيوان بالفطرة، تنشط بثمن الغذاء الذي يقدم لك. اليوم أردت أن ازف اليك النبأ الذي يسرك بلا شك، سيصل النبأ عن حياتك هنا إلى أهلك خلال هذا الشهر، سأعمل جهدي لتعود إلى ديجاك. لكنك لم تجبني إن كنت تقبل أن ترافقني زائراً إلى المغرب عبر أوربا لو حضرت زائرة لعاصمتكم الجديدة عمان.**
* **إسرائيلية وتحضرين لعاصمتنا، ولماذا الحرب إذن؟ ترتدي ريتشي سروالها العسكري الشورت ببطء وتمايل، ثم تجيبه**
* **ما أكثر البلهاء عندكم**
* **وأرضي وديجا وبقرتنا، وأخي وخالي الكفيف؟**
* **ومالي من كل هؤلاء أريدك رفيق طريق، حارساً للكنز، مثل عفريت خاتم علاء الدين، أو أن تكون مكملاً معوضا عما فاتنا، أوعما أنت بحاجة إليهً.**
* **لكنك لم تخبريني كيف ستصلين لعاصمتنا عمان؟ متسللة أوهاربة؟**
* **بجواز سفر أوربي**
* **ألا تريدين أن يكون لي ذرية؟**
* **وأنا؟ ، ألا أصلح أن أحمل لك سندا وذرية؟.**
* **هل تكرهين الأطفال العرب؟**
* **إلا إذا صحبوني لتربيتهم بآداب تراثي، وعلى ترابنا المقدس.**
* **لا ندري تراب من هو المقدس؟، ولا أينا في صدق التقديس أولى.**
* **لا أفهم ما تقول، ولا أريد أن أعرف ماذا تقول**
* **الأيام صعبة على الناس جميعاً يا ريتشي**
* **الحياة حلوة، قلت لك حياتنا هي جنتنا، الحياة حلوة**
* **وماذا عن المستقبل؟ هل المستقبل مظلم؟**
* **لا يهمني أن أتشاءم، مادمت اعيش وألبي أكثر حاجاتي، فلا أشقي نفسي بالتفكير بمستقبل بعيد قد لا يأتي.**
* **أهلي يتشبثون بماضيهم، وبالساعة الحاضرة، همهم الثواب واستمرار التناسل.**
* **حتى لو خسروا وهزموا وجاعوا؟ فيجيبها عفان**
* **الفقر والخوف والهزيمة كلها لا توقف الحياة، قد تعطلها او تؤخر المسير، لكن الأمل موجود دائماً.**
* **الأمان هو المهم**
* **أحس بحاجة شديدة لاستعمال المرحاض،آه منك يا ريتشي، لقد فعلناها بأمان او بدون أمان، الله يلعن الشيطان، فماذا تقولين.**
* **ألا ترى أنني مازلت نصف عارية؟**
* **سأساعدك سيدتي، سأساعدك، هل تنتظرين حتى أساعد نفسي؟ أحتار أين أذهب الآن.**
* **وهل تريدني أن أغادر لثكنتي ؟**
* **استري نفسك ياولية، هكذا نقولها بلهجتنا الفلسطينية، لكن هل تعلمين انني أشتهي كأساً من الشاي الحلو مع الميرمية.**
* **لا تذهب بعيدا بأفكارك، ثم ما ضرورة ال مريمية، مريمية، شعب ساذج وعنيد، ألا تتمزق أمعاؤكم من المريمية؟**
* **ليست مريمية ، إنها ميرمية ، أوكي إن لم تتوفر الميرمية، سنجهز الشاي بالزعتمانة**
* **يخرب بيتك، فيجيبها**
* **أنت بيتي هنا**
* **كلب**
* **عو، عو، صرت تفهمينني أكثر**
* **سأريحك بمشروب أفضل ايها المتخلف، كما كان الإنجليز يفعلون لأغنيائكم والوجهاء، وكما تفعل اليهوديات بكباركم والزعماء، مشروب مريح خفيف يا سلوم، يجدد نشاطك ويوحي لك بأفكار ونضج ورواء..**
* **أمل ان لا تكون شربة ملح انجليز من فضلك، إلى الحمام، لا توقفيني أكثر أرجوك، دعيني أذهب قبل أن أنفجر.**
* **قد يحضر البولوني أية لحظة.**

**لم يسمعها وهو يحاول أن يجد مكانا سهلا، بينما يبتعد خلف شجرة، يقرفص فيخرج صوت انفجار أسفله، وحين عاد وجدها مجندة بلباسها العسكري الكامل، لكن أبقت بعضا من أزرار القميص غير مزررة، لتظهر تقويسة الثدي الأيسر بارزة، أدار وجهه إلى جهة أخرى، يعشق ذاك المكان جدا ويثيرة، لا يمل من طول تأمله، صار يحاول أن يهذي بأي كلام ، بينما واصل إعادة تزرير بنطاله.**

**- علمتني الجنون يا امرأة؟ ليس من طبيعتي تلك التصرفات، صدف ووقعت في مطبات تشبه ما جرى لي اليوم، استغل الأولاد سذاجتي وضعفي.**

**تبتسم ريتشي، وتقول،**

**- مادمت تعيش ويطول عيشك، سترى الكثير من الغرائب والمصائب. لك كل ما تجنيه او عليك.**

**فصل 37**

**تكر الأيام ومواجعي تتعمق في نفسيً، أزداد تشوقا لحريتي وديجاي كل يوم، وكلما اجتاحتني النوبة أحس بقلبي يسرع في دقاته، وكلما تذكرت اقتراب موعد إطلاق سراحي، تزداد جروحي تعمقا، لا أدري لماذا أحسّ بهبوط أحيانا، وكأنني تائه لا أرى طريقي، او لا رغبة لي في النظر حولي، لماذا لا تزداد سرعة دوران عجلة الزمن، لأعود إلى أهلي، هل هناك تشابه بين نظرات رتيشي للمستقبل، ونظراتي؟ او هي مفارقة أننا نعيش في قلق، وكأننا ننهب أقصى ما يمكننا، أو نحاول الغياب عن الواقع التالي، بالحضور المضطرم والمضطرب، هل نحرق أنفسنا أولا قبل أن نحرق الأيام، او تحرقنا الأيام؟ إنني اتمرد على نفسي، وعلى واقعي، وعلى نصيبي، وعلى سجاني، انا حرّ حسب اعتقادي، ومن هو الذي اصطاد الآخر، هل الصهونية ريتشي هي السابحة الماهرة، او انني الصياد الكسول البريء، يأتيني رزقي من حيث لا أحتسب؟ هل حقا إن جنة اليهود هي في تمتعهم في الدنيا، وماذا عنا نحن ا لمسلمين؟ هل نعمة أو هي نقمة؟ وماذا عن خديجة، ألا تنتظرني؟ هل سأتذكر ايامي هنا، ولحظات السرقة مع ريتشي؟ كيف سأكون صادقا مع خديجة؟ هل تفكر في أي سوء ياترى، ستجد انني مختلف جدا، عما تعرف، واعرف جيدا، ان لا مجال لها لتخون زوجها وشرفها، والكل في القرية يراقبها، واهلها يحرصون عليها كي لا تسيء لسمعتهم، فماذا عني أنا؟ هل السجن عيب؟ يقولون إن السجن للرجال، فهل هذا القول صحيح؟ ولماذا نحتاج السجن، هل لأننا شجعان؟ لكنني لم اكن شجاعا يوم اسري، او هل لأننا قتلنا شخصا من أهلنا او آذينا احد الناس؟ وماذا لو سرق أحدهم، وسجن، هل نعتبره شهماً، انا مسجون، وأسير، سجن وأسر معاً، لكنني لص، سرّاق، سرقت وما زلت أسرق، وزوجت لا تعلم، وايماني حين انهى اي سرقة ، يجعلني اشعر بندم، وبفشل في حفظ الأمانة والصدق، فهل ألوم زوجتي ديجا لو فعلت سوءا؟ إنني متوّه، ومشـوّه التضاريس، يظهر أن الفلسطيني إنسان لم يخلق للحياة والاستقرا والأمان، ولماذا كل ا لعالم يعادي الفسطيني، وماذا فعل اليهود للعالم حتى يحبوهم، ماذا فعلوا لأوربا حتى تهب كلها تدعمهم بالمال والرجال والسلاح والعلم والمعرفة، دماغي تكاد تتفجر، ليتني بقيت ريفيا بسيطا ساذجا، أعرف القليل عن الحياة وضروراتها، اهمها زوجتي وحيواناتي وارضي وإن رزقني الله بأطفال، وغير ذلك لا طاقة لنا في القرية على احتمال المزيد من المهمات والهموم والأحمال.**

**حتى ريتشي الآسرة الإسرائيلية قلقة من سير الزمن، تقول ريتشي إن الاستمتاع المطلق والأقصى هو زماننا الحقيقي وعمرنا، وما تبقى بعدها، او ما ينزلق غفلة عنا فهو اختلاس للحياة أو فقدان لها، وإضعاف للأمل، وربما خسارة لا تعوض. أن المكان ما هو إلا وسيلة صلبة للتحرك عليه، تخلده المتعة أ ويرسخه الألم، إحساس أوتطبيق، المكان جامد والحركة التي تتم فيه هي التي تعني الحياة، فليس المهم أين يتاح الإحساس لك؟ او أين تنتابك موجات الألم، والأهم هو شعورك بأنك تحيا سواء بإرادتك او مهما تيسر، وأنت والجو المتاح الذي تحاول استغلاله بيأس او برغبة أوللاستشفاء.**

**أيام عفان أصبحت مزيجا من الأمل والمتعة والالم، فيها علاج جزئي، لكن يرافقها آثار جانبية ونفسية سيئة معادلة للأمل أو تفوقها، لا ينسى أن في تعاقب الليل والنهار، مع الشك في النهايات، هي كقصاص تقصّ من عمره في معسكر الاعتقال الإداري. يقول في نفسه، سيأزف الموعد، لا شك أنه سيأتي، وهل أشك في مرور ثلاث شهور او حتى ستة، ومضرى من عمري عشرون سنة مرت كأنها يوم أمس، لا إنجاز فيها ولا ملامح ذكريات حلوة، بل مرت كل تلك السنوات في صراع وخوف وقلق، ولكنها مرت على اي حال، فهل لا يوجد في هذا العقل طاقة للانتظار والصبر لثلاث شهور او حتى ستة؟ أنها ستأزف، لاشك ستأتي لحظة إطلاق سراحي، لكن الشك في هل سيسمح لي بالعودة لزوجتي وبلدتي وبيئتي؟ عقلي يطمئنني بأنني سأعود إلى قريتي، أظن أنني سأعود، وأكثر من سيفرح بعودتي هي زوجتي، وربما طفلي، إن تركت زوجتي حاملاً، وماذا عن مشاعري حين أجد نفسي حراً في الساعات الأولى في بيتي؟ او اليوم الأول والنهار الثاني، فماذا سأفعل، بل ماذا عليّ أن أفعل؟ هل سيقتصر فكري على إسعاد زوجتي وإرضاءها جسمانياً، وهل غيابي افادني بثقافة جنسية فقط؟ وبفنون لا يعرفها الريفي؟ عقلي يوحي لي بأفكار لا طاقة لي على احتمالها، أهلي، ديجة، خالي، شقيقي، حماتي، حماي، غنيماتي القليلات، بقرتنا، صدر ديجا الذي على مقاسي، بصغره وحضنها الدافئ الأمين، أما مشاعر ريتشي فهي من اختيارها وملك لها، وجسدها الذي اعتدت على إرضائه كأنه صار جزءا من حياتي، بل أنا الذي صرت جزءا من حياتها، وهي تحرق طاقاتي، وتمتص رحيقي برغبتي أو بدونها.**

**الكرفان الغريفة نقطة ارتكاز عالم سلوم، في آخر الساحة الصغيرة حولها يقفان، محتاران لا يدريان ماذا يفعلان اكثر مما تم إنجازه، الشمس لم تغب بعد، ولكنها على وشك الغروب، تتمايل ريتشي وتتراقص بحركات بطيئة مع موسيقى أغنية قديمة لأم كلثوم (قل لي ولا تخبيش يا زين، أيش تقول العين للعين)، لقلق او لتجديد في روتين الحياة، قالت ريتشي لعفان بعد اكثر من ست شهور على اشتباكهما.**

**- تأكد للمحققين وللاستخبارات أنك بريء يا سالوم، وأنك لم تكن عندك أي نوايا عدوانية تجاه دولة إسرائيل وشعب إسرائيل، عندما أمسكوا بك عند حدود دولتنا، وأصارحك أننا نعلم أن خط الحدود غير محدد، لا دوليا ولا بين قادة الجيش الأردني وقادة جيش الدفاع الإسرائيلي، لهذا سينتهي حجزك الإداري عاجلا أم آجلا.**

**- ما دام أن خط الهدنة غير مرسوم على الأرض، فكيف لإنسان عادي مثلي أن يعرف أين يتوقف؟ كنت أتفقد أرضنا ومزارعنا، وليس هناك سور ولا علامات ولا خندق عازل، ولا حتى ألغام.**

* **أمور وتبريرات فنية في عقول المسئولين، لا ندركها نحن.**
* **لست متأكداً أنني أفهم ما تقولين، وأذكر أنك قلت من قبل، ثبت لهم أنني بريء من أي نوايا عدوانية، فلماذا لم يطلقوا سراحي بعد تأكدهم رأساً، لماذا لم يدعوني أعود إلى أسرتي.**
* **أقدر صعوبة الحياة عليك وعلى أهلك وناسك في قريتك ومن يعزونك، ولا أستغرب لهفتك ولحاحك لإطلاق سراحك، لكن المسئولين هنا لم يجدوا ولو شخصا واحداً من أهلك تحرى عنك، ثم إن حكم المحكمة كان قد صدر عليك بالحجز الإداري والأشغال لعامين، لكن قل لي ودعني أسألك ربما لمرة ثانية او ثالثة، ألا تنعم بطعام نظيف،وملابس جيدة هنا؟، وها أنت ترى أن العرب الذين تخلفوا ولم يهاجروا، فضلوا البقاء تحت حكم دولتنا الفتية إسرائيل، لم أسمع واحدا منهم هرب او هاجر بعد أن استقر الأمر لنا، ولو سألتهم لوجدت انهم سعداء ببقائهم في بلادهم، ولماذا لا تعتبر نفسك واحداً منهم؟؟ وستجد أنك تتعامل مع عائلات فلسطينية لا عساكر كما هنا؟، ثم ألم تكن ريتشي عونا لك في حياتك وبعادك عن ديجتك؟ ومع هذا تتمنى الرجوع إلى الفقر والعوز والشقاء؟، مستغربة عنادك وإصرارك على قناعاتك العقيمة،وربما استعدادك لسرعة نسيانك لي، وكأن لحظات حياتنا المائزة ماهي إلا بخار او غيمة عابرة، ناسياً كل التسهيلات التي تلاقيها في كيبوتسنا؟**

**- علمتني الصراحة يا ريتشي وحرية القول هنا، فاسمحي لي أن اصف حالتي، نعم لم أعد أشعر بالشقاء الجسماني بعد انتهاء شهور التحقيق والتعذيب، لكن الإنسان نصفان، نصفه لحم ودم وكتلة، والنصف الآخر عقل وذكريات ومشاعر، صحيح انني مرتاح في الاكل والشرب وبعمل خفيف وتلمس أسبوعي في حياتي بقربك، إن هذه السمراء العربية سخرها الله لحمايتي وجني عسل هذه العلاقة، لكن مشكلتي هي الارتباط والشرف، الريفي عندنا مخلص لأسرته وارتباطاته، إنني أفتقد إجابات مقنعة على أسئلة كثيرة تقض مضجعي، هل استطاعت ديجة خدمة خالي والحيوانات التي نقتنيها؟ هل تفكر بي وتحلم بضرورة تواجدي لها؟ هل بقيت مخلصة وأمينة لحبي لها وتعلقي بها؟ هل تقدر قلقي وشقائي هنا وسهري وأنا أحلم انها تعيش معي في كل حركة واي مكان؟ هل تركتها حاملا قبل اسري؟ وهل وضعت مولودا ذكرا او أنثى؟ وهل كلاهما مازالا على قيد الحياة؟، تساؤلات تنهال على رأسي كحبات المسحبة لا نهاية لها تقض مضجعي، الحياة هناك تعب في تعب، حياة الفلاح في بلادنا حياة شقاء، فإما للحراثة أو لزراعة الحبوب او لحصادها، او لإطعام الحيوانات ثم قيادتها للمراعي والحقول خارح القرية، لا كهرباء ولا خطوط ماء نظيفة ومتواصلة، وخدمات أخرى على الفلاح تقديمها للحيوان، مقابل حصوله على خيراتها وضمان لقمة العيش، لكن لا توفير ولا غنى. عمل متجدد مقابل ناتج قليل محدد، اعتاد عليه الآباء والأجداد، لمجرد الحفاظ على البقاء، إلا بعض استمتاع محدود في أوقات الفراغ، لكن دون تحديث او مجال لخلق أجواء عصرية طموحة، بساطة وقبول بالواقع والموروث والأجواء البسيطة، ورّث آباؤنا هذا الحب والوفاء للأبناء، للاهتمام بالأسرة وبالأرض والحرث والزرع، فيها حياتنا، وفيها مماتنا، لا نشكو ولا نتذمر، بل نتطلع كل يوم ليوم جديد، حين كنت اسرح مع الغنمات والبقرة كل يوم للحقول القريبة، كنت اشعر بطعم الحرية، وبجمال الطبيعة في بلادي فلسطين، اصعد التلال، وأتسلق الأشجار، أحلب البقرة أو شاة في الخلاء وأخلط الحليب بالسائل الأبيض من شجرة تين، بعد قطع غصن صغير أو قطع حبات من ثمار التين الفج، سبحان الله، هذه القطرات القليلة من شجرة التين تجمد الحليب فيصبح كالجبن، آكل منه بلا ملح ولا سكر، فازداد قوة وعزيمة وحماساً، وحين تأتيني لحظات الطرب، أغني لجبال بلادي وسهولها ووديانها، ولأزهار الدحنون والنرجس والزيزو والزعتر والميرمية والزعتمانة، ولغيمة المطر والريح الشمالي الذين يأتينا بالمطر عادة، وأقلد الكبار والمشاغبين من الشباب، فإغني للبنات أحيانا.**

**تتنبه ريتشي لغياب عفان عن عالمه في حضرتها، أنه في عالم غير ما هي فيه، ازداد تجمدها وانسحارها بعلامات الأمان والراحة على وجه عفان، لهذا تركته مع عوالمه المتخيلة يتحدث بانسياب ودون اعتراض او تساؤلات.  
كنت حين أشتهي كأساً من الشاي الثقيل، أتعجل لحظتها قدوم الغروب حتى أعود للبيت، تسرع ديجا بتجهيز إبريق من الشاي على الطريقة التي أحبها، وكنا غالباً ما نأكل خبز الطابون مع كأس الشاي الذي كانت تشاركني فيه خديجة، لم يكن لدينا ألا كأس واحدة في البيت، ونأكل الجبن البلدية والزيتون والزيت والزعتر المطحون، أفطن للتعب بعدها فتقترب ديجة تهدئني، تقع يدي صدفة او بقصد أحيانا على كتفها او فخذها، أجذبها فأميل والقي رأسي عليها، وحتى لا يأخذني النعاس بعيداً، تتململ ديجا، وتطلب مني أن لا أضيع الشوق للنوم، وتخشى أن أصاب بالأرق ليلا، فتقوم وتمد فراشنا، وتطلب مني أن أتمدد عليه، حتى تنهي غسل صحني الألمنيوم، كانا أهم ما نملك في مطبخنا، ثم طبقان عميقان من الحديد وطبق خشبي كبير نسميه (هنابة)، وكانت تلك الصحون الأربعة هي كل ما لدينا، وكأس واحدة من الزجاج للشاي، أشرب انا وديجا منها، وعندما يكون خالي موجودا، نسكب له في فنجائه الفخاري المخصص له منذ سنوات طويلة، وحتى إن زارنا ضيف من أقاربنا، نسكب الشاي له اولاً، ثم أشرب انا بعده، أو نستعير فنجان جيراننا، وإن كانت ديجة معنا فتشاركني فنجاني عادة.**

**مازال عفان مسترسلا في أحلامه وسرد ذكرياته، وريتشي مصغية محتارة فيما تسمع.**

**أنتقل بعدها للتمدد على فراشي، وقبل أن تتخدر أوصالي ويسيطر عليّ النعاس، أحس بها بجانبي، لا تستطيع المكوث طويلا في عملها، تسرع بإنجاز ما هو مطلوب منها حين ترى انني تمددت على فراش، سرعان ما تترك ما في يدها ولو غير منجز، وتفاجئني، بعدها نتلاصق ويمر الليل كأنه ساعة او ساعتين، أشعر بحرارة ديجا عالية دائماً، كم تحيرني لا بل تثيرني حتى لو كنت مرهقاً من التعب، أكثر ماكان يسحرني تلمس بشرتها الناعمة الملساء، دون أن أنظر لها أو أتأملها كما نفعل هنا يا ريتشي، بل يدي وأصابعي تكون مسحورة ومنجذبة لبشرتها في اي موقع من جسدها، وخاصة صدرها، او بطنها أو حتى بشرة ساقيها، وقد يسيطر النعاس عليّ من تعب النهار، لكن ما إن تلمسني أو تضمني لصدرها، يا إلهي، سرعان ما أصحو نشيطا كعفريت.**

**تقاطعه ريتشي قائلة**

**- ألا تريد أن تصل لموقف تتنفس فيه، ثم لتفطن إلى دنياك وزمانك هاهنا؟ ماذا جرى لك؟ هل انت متعب او لأنك عرفت أنك ستغادر ارض إسرائيل، أعرف أنك تفضل قريتك وأهلك على الراحة التي تعيشها هنا؟ مع ان كل ما يلزمك متوفر عندنا.**

**- إسمعي يا ريتشي ماذا يدور في خلدي، على الرغم من صعوبة المواصلات ايام الخلفاء الراشدين، إلا أن الخليفة عمر تحمل مشاق السفر ليزور القدس، وللتأكيد على حق أهلها العرب فيها، ولتأكيد حلم رسول الله (ص) وإسرائه للمسجد الأقصى المبارك، لتثبيت بقاء القدس عربية تابعة للنظام الإسلامي والعربي، ولكي تكون حرة يديرها أهلها الفلسطينيون، لكنني أستغرب الغفلة العربية، وأستهجن سكوتهم على احتلال الصهاينة لجزئها الغربي، ولهذا حمي الجيش الأردني القدس القديمة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة، لتظل تحت الحكم العربي.**

**تقاطعة ريتشي قائلة**

**- من أين لك هذا العلم يا سلوم؟ كنت اعمى وشبه جاهل حين أسرناك، وكنت لا تعرف إلا آيات قرآنية تحفظها عن ظهر قلب، وتكررها، ولكنك اليوم تحاضر وكأنك أستاذ في التاريخ.**

**- نعم! لا أنكر فضلك وفضل الحرية والكتب التي اوصلتيها لي، لقد قرأت كل حرف في كل كتاب وقع بين يدي، وأعدت قراءة بعضها مرات عدة، حتى عرفت الكثير عن تراث اهلي وتاريخ فلسطين. سأظل أذكر هذا الفضل ما حييت.**

**- لكن أجد لديك تطرفا عجيبا، وصرت أحسّ بالقلق من التعامل معك. ,اخشى انك عابث وممثل عربي تتقن الخداع والمداورة كما نعهده فيكم**

**احتارعفان بن نومان بماذا يجيبها، صمت وراح يفكر ويحلم، يقول لنفسه، (أتمنى لو كانت القدس كلها عربية فلسطينية، حتى أذهب انا وزوجتي ديجا لزيارة القدس الغربية الحديثة، بعد أن نتجول في قدسنا القديمة داخل السور بعد صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وسأسجد شكرا لله أنا وزوجتي، لأنني اصبحت حرا استطيع أن ازور اماكننا المقدسة، وأتعرف على الأماكن التي زارها عمر بن الخطاب وعلى كنيسة القيامة التي رفض ان يصلي بها، حتى لا يتقاسمها المسلمون مع المسحيين، او حتى لا يقيموا مسجدا على جزء منها، بل ابتعد عمر ما يقارب الخمسين مترا ثم صلى بعيدا عن الكنيسة المقدسة، فبنى المسلمون مسجدا في الموقع الذي صلى به عمر. ) تقطع ريتشي افكار سلوم قائلة**

**- فيم تفكر يا سسسس. . . لوم؟**

**- في القدس يا ريتشي في القدس**

**- وماذا لو لاقيتك هناك او وجدتني واقفة امامك حين تزور الأقصى او كنيسة القيامة؟**

**- أووه ، انت دائما تضعيني في مواقف محرجة يا ريتشي، مزاحك وتصيدك لي تشعرني بقلق دائما منك وحذر، مع انك ممتعة حين نخوض الحياة، فاسمعي ما أقوله لك ، إن لكل حادث حديث، لكن الأهم من المهم هو انني أسير هنا لديك ولدى حكومة الصهاينة، فليس من حقي أن اقول شيئا عن المستقبل، لكن لا أتصور أن في مقدرة أي إنسان أن يمنعني من الحلم، إنك قلبت حياتي، وحسنت الكثير من مستوى عيشي هنا في الأسر، لطفك معي، وتعلقك بي، اثر فيّ كثيرا، وهو الذي يقلقني دائما..**

**- سعيدة لصدق أحاسيسك وأمانتك في التعبير عن مواقفي نحوك، معظم الناس نكارون، ولعلمك فإن سحر قلبك وصفاء ذهنك النادر أحال حياتي إلى عذاب، ولن أجد بعد اليوم رجلا يوازنك، او يمكن أن يحل مكانك في هذا القلب.**

**- كثيرا مااستمتعت بعواطفك الساحرة يا ريتشي، وتاهت روحي في سلاسة جسدك المندفع نحوي بعفوية وانسياب، متدفقة شباباً وعنفواناً، أشبعتني بطعم ونكهة الحياة والجنس والحب والتجديد، قلبت حزني وحقدي إلى مشاعر إنسانية تعرف الواجب والحق والأمان لكل إنسان او حيوان، حتى انك حببتني في الحيوانات وزدت من حبي لطيور بلادي، بعد أن كنت أقسى الناس عليها، وبدل صيدها صرت أقدم لها الطعام مما تيسر من طعامي تقرباً إلى الله، وتعويضا لها وحنانا مني عليها، تعويضا عما فعلته بالكثير منها في ماضي حياتي، وأعلم (أن الله غفور رحيم)، سامحني يا رب، وسامحيني يا ريتشي، وأرجو أن يلهمني الله لفعل شيء إيجابي ونافع، أرد به بعضا مما قدمته لي في سنوات اسري القليلة لدى جيشكم الظالم، جيش الدفاع الإسرائيلي الظالم، سامحيني أن أقول ذلك عنهم، إنهم حشد من ضباط وافراد حاقدين تجمعوا من بلاد بعيدة، اتفقوا جميعا على كره الجنس العربي، والفلسطينيين، انا فلسطيني، وأعتز بأنني فلسطيني عنيد لا أتنازل عن حقي في بلادي فلسطين، وسيواصل أبنائي وأحفادي العمل على تحرير ارضنا، وتعليم الغزاة أننا قد ننهزم مرة ومرتين وحتى عشرا او خمسين مرة، لكننا لا نصبر على الضيم، ولن تهدأ لنا عين، سنستعيد كرامتنا يوما ما، طال الزمن او قصر، إلا إذا هداكم الله واستيقظتم، وأنشأتم معادلة ترضينا، هذه الأفكار وهذه اللحظات الحاسمة في حياتي ستقرر مصيري مستقبلا.**

**تسرح ريتشي بعيدا بعد سماع كلماتي، تهز رأسها وهي غير مصدقة ما قلت، ثم بصوت هادئ ممطوط تقول**

**- أرى أفكارك مشتتة ومبعثرة، لا تثبت على قرار محدد، فهل تستطيع أن تتصور او تلخص ما سيحدث لك؟ أو ما سوف تفعله لو تحررت؟**

**- تعبت هذا اليوم، وعلى أمل أن يهدينا الله لكلام يريحك ويريحني.**

**فصــــــل 38**

**أنت تعرف يا سلوم إن اسرائيل ولدت لتبقى، وجدت لتعيش وعلى جميع ارض فلسطين، وأكثر ما يهمنا هي مدينة القدس وموقع الهيكل بها، فكل فلسطين ستكون تحت سيطرة دولة إسرائيل، فلماذا لا تصحو وتوافقني لكي اوجه مركبك نحو الحياة المستقرة والمريحة لك ولأهلك؟**

**- رجعنا ثاني للقدس؟ لا بل أقول لك، إن القدس هي سر خلود شعب فلسطين، نعم استغفلهم الزمن والقوى الأجنبية والجهل والصهاينة فحرموهم من القيام بدورهم الوطني والمشرف، لكن كل طفل فلسطيني يعشق القدس، وكل فتاة وكل ام وكل رجل يفضل ان يموت دفاعا عن حياض القدس والإبقاء عليها حرة فلسطينية، كما ارادها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما أرادها الخليفة العادل عمربن الخطاب، وكما حررها الرجال والشهداء الذي سالت دماؤهم الطاهرة في القدس وحولها لتظل عربية خالدة.**

**- أووه، كم ان الحديث معك والمواجهة تزداد صعوبة ومرهقة، لا أدري إلى متى وكيف احتمل عنادك، وما يقلقني وجود أحساسيس عميقة داخلي تجذبني إليك، هل لأن اصلي عربية؟ او إن هناك أسرار أخرى لا أعرف عنها؟**

**- ههههه، صحيح كلامنا مضحك، وهل هذا سؤال؟ لو كنت خوجاية أجنبية لما اقتربت منك والتصقت، او لبقيت علاقتنا علاقة جسد ورغبات نفعية حسب الحاجة، لكن بدون حوارات وتبادل آراء، ثم لأنك عربية الأصل وتتحدثين لغتي وبثقافتي انسى فارق الدين بيننا، ولو لم أكن متزوجا فلربما حصل تبدلات في مبادئي، وانحرافات عن المألوف غير متوقعة، لكن تمسك كل منا بثقافته السياسية، هي الأشواك التي تحول دون اتحادنا، ثم لاتنسي شعوري بالظلم، واستدعاءاتي حول تشريد شعبي يجعلني اقف مقاوما للظلم الذي لحق ببلدنا وأهلي، بكل ما اوتيت من فهم ومعرفة وقوة وصمود.**

**- يا إلهي، ارحمني يارب، أنت نموذج الإنسان الفلسطيني الذي يتشكل حديثا، وهذا مصدر خوفنا وقلقنا في إسرائيل، فما الحل لمشكلتنا مع الفلسطينيين يارب؟، إنكم ترفضون الوجود اليهودي في بلادهم ا لأصلية فلسطين، آمل أن تتذكر ان اليهود كانوا في فلسطين قبل عام 1948، وحتى قبل الفي عام.**

**- مشكلتنا هو طرد شعبنا والحلول محله، لو بقينا في بلادنا، وكل بلد في ا لعالم يأتي لها المهاجرون، ولم نكن نعارض بشكل جدي وصول المهاجرين لفلسطين، فكيف يقبل عقلك أن نطرد شعباً ويحل مكانه شعب جديد؟ أمر لا يقبله اي عقل في العالم كله، حتى لو كان عدوا، المانيا هزمت وسحقت، لكن اوربا والغرب كلهم وروسيا معهم وأمريكا، لم يطردوا الشعب الألماني، ويثبتوا مكانه شعوبا دخيلة، إن زعماء الصهيونية منحرفون خارجون عن قوانين الإنساية المعاصرة، يريدون العدالة والحياة لهم، وينكرون حقوق الإنسان الفلسطيني، فلسطين كانت مأهولة بشعب له تاريخ وحضارة وجذور وطموح وآمال، فكل محاولة للقضاء على الإنسان الفلسطيني، هي مسار ضد عجلة التاريخ والمعقول، إن مشكلة اليهود والفلسطينيين هي الفكر الصهيوني، وإكراه المواطن الفلسطيني على الرحيل عن اراضيهم واملاكهم وبيوتهم.**

**- تذكر يا سلوم ان اليهود ليسو كلهم صهاينة، إن جميع اليهود ينشدون الحرية والأمان والاستقرار والحكم الذاتي، ونتمنى أن نظل في فلسطين مشاركين وغير منقسمين.**

**- أصارحك يا ريتشي أنني لا أحس بالتعب من العمل والسجن في الأسابيع الأخيرة كي أشكو لك، ولكن تنتابني أفكار وأسئلة كبرى تشوشني ولا أعرف لها علاجاً، كمثل (هل هناك حل لمشكلة الفلسطينيين؟ وهل هناك حل للنزاع بيننا؟) اتمنى أن يحصل الفلسطينيون على حقوقهم، نريد معجزات، نريد التفكير في حل عادل، وتبقين أنت وكل اليهود معنا في دولة فلسطين، ستتسع لنا كلنا، وسنتمكن أن نعيش في أمان أنت وأنا، ومن يهمنا من أهلنا.**

**- فلسطين، فلسطين، يا سالوم، فلسطين لم يعد لها وجود يا سالومي، إنها إسرائيل بدل فلسطين، خلاص انس فلسطين، فيه إسرائيل، وفيه أردن، وممكن أردن بكرة غير موجود، ونصير كلنا مع بعضنا كلنا نصير إسرائيل، أيضا ما في لاجئين، كله عند ملك أردن، أو السعودية والكويت وعند البترول، فكما اضطررنا أن نترك بيوتنا في الدول العربية وأوربا، ورضينا ان نعيش هنا في إسرائيل، الفلسطينيون الذين هاجروا، اختاروا أن يتركوا بيوتهم واملاكهم بأنفسهم، فليعيشوا حيث هم الآن موجودون، كما حصل لنا، وها نحن نعيش في أرض غير أرضنا الأصلية، فماذا في ذلك؟. . . ، المهم أن يكون للجميع أمان وعيش مقبول.**

* **كل ما قلته احلام، أنا أسألك ثانية هل سببت خسارة لك أو لأي واحد من أهلك؟ فلماذا سببتم خسارة لي ولكل الفلسطينيين؟ ثم لا أدري هل ما تقولين هي أحلامك أم أحلام بن غوريون، أو موشي دايان أو شاريت أو اي عصابة من عصابات صهيون؟**
* **يا ربي!. . أف... اففففف. . أتمنى أن أعرف كيف أتعامل معك ياسالومي، إن ما أتمناه، أن تعرف كيف تتعامل معي، أنا يهودية عربية، هل تفهم؟ عربية مثلك، وأنت ألست عربياً؟**
* **لكنني أسير وسجين، وشتان ما بين إحاسيسي وإحساسك!. .**
* **أين سجنك؟ تعمل في منزل أوحديقة وتذهب لغرفتك آخر النهار، هل كنت تريد أن تبقى نائما في بيتك صيف شتاء وليل نهار؟ أو هل تاقت نفسك للكسل؟ أو للخوف من عقاب الشرطة الأردنية لك ولأمثالك عندما يقتربون من حدودنا؟ أو حين تسرحون بحيواناتكم في المناطق العازلة بيننا وبينكم؟ ماذا كنت تأكل كل يوم؟**
* **زيتون وزيت وخبز وحليب وزبدة وزعتر**
* **ألا تملون من الخبز والزعتر والزيتون؟ وطول العام تأكلون الطعام نفسه؟ قارن طعامك القديم بطعامك هاهنا بأصنافه المتغيرة كل يوم تقريبا؟**
* **لا نحب أن نغير طعامنا، ونأكل من إنتاج أرضنا وعرق جبيننا، ولا نطمع في طعام غيرنا، ولا في أسلوب حياة الغير. راضون والحمد لله وقانعون.**
* **تأكل كل يوم صنفاً مختلفاً هنا، تتجول بحريتك، وتتكلم مع أي امرأة أو طفل، وها أنا أمنحك الحياة والراحة والأمان، أتناقش معك وأتمنى أن تفتح لي أذناً صاغية. وتسمي هذا أسراً؟**
* **أحب أن تعرفي أنني لا يمكن أن انسى العذابات التي مرت بي، والعقاب والسهر وشدة الحر والبرد والآلام التي عانيت منها طويلاً في الشهور الستة الأولى لأسري، ثم وحدتي في شهور الشتاء قارسة البرد، والحرية التي تتكلمين عنها هي مجرد سراب، أليست غرفتي والبساتين داخل معسكر لجيش إسرائيل؟ حتى وأنت مجندة وتعملين في هذا المعسكر فإنك أنت أيضا مراقبة ولست حرة في تصرفاتك؟**

**- هيا، هيا، كفى، كفى من فضلك، تحرك نشرب الشاي بدون ميرمية قرب باب النادي، أو نفكر بفعل أمر آخر غير الجدل والمخاصمة.ً**

* **ولماذا لا نحضره ونشربه هنا، لا أحب استماع الرطانات الكثيرة التي لا أفهمها هناك يا ريتشي، سمعت أكثر من عشرين لغة أمام ذلك المكان، ولا أريد أن أشعر انه محظور عليّ دخوله.**
* **سنطلب الشاي المثلج في هذا اليوم الربيعي الجميل**
* **إنه مرّ، أخشى أن يسبب لي مغصاً وإسهالاً، ثم ماذا لو قابلني البولوني يا ريتشي؟ أو بولوني آخر في النادي.**
* **ألم أقل لك أنه ينتظر الموت، أصيب بارتفاع مرض السكر الشديد، وبأمراض في القلب، ثم رفعت صوتها قائلة: وهل تريدني أن أضيع أمسيتي في الهرج والأوهام؟**
* **لا أشتهي المشي هذا اليوم.**
* **لانحتاج سيارة تنقلنا إلى النار، لا يسمحون لي باستخدام السيارة ليلاً أحياناً، والبشر يسيرون للجنة او للنار بأنفسهم وبأرجلهم.**

**صحا مع بزوغ فجر يوم السبت، لكنها بقيت تشخر متصلبة لا تحس به، عارية التضاريس، قال في نفسه سبحان الله، حين تكون المرأة كاملة اللباس نتمنى كشف كنوزها، وحين يتكرر عريها نشعر أن اللباس زينتها، حتى لو أعمانا الشبق. أسرع بالاستحمام، ففتحت عينيها على صوت سلوم يصلي الصبح بصوت هادئ خفيض ، (لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وهديناه النجدين ، وما أدراك ما العقبة ، عليهم نار مؤصدة). تطلبت ريتشي من سلوم أن يناولها جرعة ماء، دعته للاقتراب منها، غطت صدرها الجميل، وأبقت كتفيها ظاهرين، تذكر أنه تطهر وصلى الصبح، ويريد أن يكمل نهاره طاهراً. فقال لها ، أريد طعام إفطارنا هذا اليوم على طريقة المصريين، يعيش الفول والشاي الحارّ مع الجبن الأشقر، بالأمس قدمت لي الأرملة الشقراء علبتي جبنة كرافت تكفي الواحدة لشخصين، ولدي علبتي كورندبيف من مخلفاتك وخيراتك التي كنت تحضرينها لي، فلننعم بهذه النعمة صباح هذا اليوم الجميل،لكن دعيني أسألك، كيف حصل ما حصل؟إنني لا أذكر أين كنا آخر السهرة، استغرب انك تركت سريرك الوثير في غرفتك المكيفة، لترقدي في زنزانة الفلسطيني الأسير، ماذا أسقيتني حتى انني لا أذكر كيف رجعت لغرفتي؟ تبتسم ريتشي، وتهز رأسها، دون إجابة، لكنه يستدرك قائلا، إن لم ترغبي الشاي فمرحبا بالقهوة على طريقتك.**

* **تستطيع أن تجد عملاً ما في أوربا كي يأتيك دخل تنفق منه على نفسك لو وافقت على مرافقتي، ما دام ان الأمر اصبح بيد مراقبي الهدنة والوسطاء الدوليين.**

**قبلها بثلاثة شهور بحثت ريتشي قصة احتجازي مع ضابط يهودي من أصل فرنسي، ثم مع ضابط من أصل بريطاني، فأبلغاها أن على أهل سلوم أن يتقدموا بشكوى لمعرفة ما جرى له، أو تتقدم الحكومة التي تحكم الجزء الشرقي من فلسطين بطلب الإفراج عنه، لم تتوان ريتشي، اتصلت بمكتب الأمم المتحدة في القدس، دون أن تعلم أحداً من زملائها ولا المسئولين عنها، ولا حتى سلوم نفسه، وأبلغتهم بمكان احتجاز سلوم دون ذنب، لعدم العثورعلى أدلة تدينه، ولم يصدف أن حمل السلاح ضد حكومة إسرائيل،**

**قالت له قبل أيام**

**- ستتحرر قريبا يا عفان.**

**- تقولين مدة قصيرة؟ انني أسميها عمرا طويلا، أنا لم أعتد أن أمكث في بيتي يوما كاملا، دون خروجي لأي مكان يخطر ببالي، فهل تقولين عن شهور أربعة أو ستة ربما، مدة قصيرة؟**

**- أنت شاب يا عفان، ولم تواجه مشكلة كبرى أو حكما بسجن، إنك لم تكن مسجونا في الحقيقة، هو حجز احتياطي، على أمل أن يسأل عنك أهلك وحكومتك، لم ينقصك الحرية، ها أنت تتحرك وتنام وتلهو وتستمتع على هواك، وفي هواء بلادنا النقي وأجوائها ألتي تعشقها، آمل أن تكون ريتشي من ضمن مخزونات عقلك.**

**- إسمعي ياريتشي صحيح إنني شاب ومعرفتي قليلة، لكن مادام وقت الإفراج عني يقترب، فدعيني أسألك سؤالا يقلقني، التفكير بك يقلقني، صحيح إن مشاغل عقلي هي في بلدتي ومع زوجتي، لكن دعيني أتساءل على مسمعك، كونك امرأة متنورة ومثقفة وشخصيتها قوية، ما الذي يجعل امرأة بصفاتك تحتاج إنسانا ضعيفا مسجونا ومتزوجاً مثلي؟؟؟**

**حاولت ريتشي أن تبتسم لكنها تنحنحت ثم شرقت فلم تستطع الكلام لدقيقة أو أقل، أنزلت رأسها، ثم أدارت وجهها وجسمها لناحية أخرى، وبعد أقل من نصف دقيقة من سكوتها، تتنحنح ثانية، وتحاول ان تخرج كلاما، لم أفهم شيئا مما نطقت، ربما قالته بالعبرية، او باللهجة المغربية العميقة، لكنها أخيرا فردت كتفيها، واستقامت كجندي طلب منه الاستعداد**

**- سلوم أنت حبيبي، سواء اعترفنا معاً او أنكرت أنت، أعرف أن القلب لا يعرف المنطق والمعقول أحياناً، ثم لا يتسع لاثنين، فهل قلبك عليه أقفال يصعب فتحها، هل ما تبوح به أحيانا بأن أحاسيس ديجا زوجتك ومشاعرها متغلغلة في كيانك لدرجة الانصهار التام معها؟؟، أما راتشيل فقد لبت نداءات مشاعرها، وفعلت ما استطعت لجذبك، لأنها تعلقت بك، ولا تفسير لدي عن كل هذا، فظروفي وظروفك وعقليتي وعقليتك كانت هي العناصر التي خلقت هذا التفاعل والانجذاب، ومع انك تصرّ على تعلقك بديجاك، لكن حين نكون منسجمين، وفي اوقاتنا المتصيدة أحسّ بك، وأرى صدق مشاركتك لي، لهذا نشطت مشاعري الإنسانية فكرستني للتفاني في التخفيف عنك، ومحاولة شطب المصاعب التي مرت بك في حياتك، أو التخفيف من آثارها، إنني لا أنسى كل ماقلته لي وعلى عجل وربما في حالة لاوعي، عما عانيت في طفولتك ومراهقتك، واستغلال الفتيان لضعفك ومحاولات اهلك استغلالك، ثم طيبتك وإخلاصك في أي عمل تقوم به، هو من الأسباب الرئيسة التي أثرت في، ولا أنسى الظلم الذي ألحقناه بشعبك، حين حللنا مكانه، وأكرهناه على هجرة البلاد والأرض والوطن والبيوت، إن كل يهودي غير صهيوني، يحسّ بالظم الذي يعانيه شعب فلسطين، لكننا لا حل لدينا ولا نعرف كيف نعوّضكم، ولا كيف نبني الثقة بيننا، فأنا مجرد إنسان أحاول أن أرضي ضميري، كإنسان واحدة حاولت أن اعوض إنسانا واحدا من أهل فلسطين عما أحاق به من ظلم، وعلى أمل بناء حياة جديدة لك بصحبتي، أو جعلك شخصا مختلفا عما مضى، لا يعيقني الدين والعقيدة عن فعل ما يرضي ضميري، وفاعلو الخير موجودون في كل مكان في العالم، ففعل الخير لا يقتصر على دين إسلامي او يهودي او مسيحي او بوذي او هندوسي، الإنسان هو خالق الخير والشر والممارس لذلك، قبل ظهور الأديان، وعقله هو الذي يوجهه ويرسم له أعماله.**

**- نعم أشكرك على هذه المحاضرة القيمة يا ريتشي، أفكارك دائما نيرة، ومع طول تعاملي معك أبقى في حيرة من أمري، وعن دواعي كل ما تفعلين نحوي، بشجاعة وقدرة ساحرة، أنت ساحرة يا ريتشي، هذه القدرات المتوافرة فيك تجعلني أحس بالضعف أحيانا، تجعلني أبرر كيف انتصر الصهاينة القلة والقتلة على شعبي، فهل أنا عينة ونموذج من هذا الشعب الفلسطيني المهزوم المأزوم؟؟ كيف إن قلتكم غلبت كثرتنا، ونحن على أرضنا وفي بلادنا، وبين بيوتنا وأشجارنا التي تعبنا عليها نحن وأجدادنا، وحين أتذكر أهلي الذين هجّرتوهم في الخيام والكهوف والأزقة وعشش الصفيح والخيام، وأرى البذخ والحرية التي يتمتع بها اليهود الغرباء الوافدون في فلسطين، يزداد إحساسي بالإحباط والهوان، كل هذا وغيره كثير يزعجني، ويحيرني، وكمعادل موضوعي، برزت ريتشي وأهلها المنتصرون تتعامل مع شاب أسير فلسطيني قصير القامة اسمر، لم يدرس في أي مدرسة حديثة، وكل ما كان يعرفه عفان هو حفظ الكثير من القرآن الكريم، فدعيني أسألك ومع انك حاولت توضيح مواقفك لي من قبل وفي مرات كثيرة، دعيني أعيد السؤال عليك ثانية، هل اهتمامك بي هو لمجرد إحساسك بالشفقة على إنسان بريْ؟ هل هو شعور بالذنب إلى حد ما؟ او هو حاجة في نفسك وجسدك تريدين تلبيتها بأسهل الطرق وأرخصها؟ لا تقاطعيني أرجوك، لقد استمعت لك بصبر، فاستمعي لما يجول في خاطري، يظهر أنني كنت أقصر تفكيرا من آفاق عقلك المنفتح على العالم، حين ابتدأت علاقتنا الخاصة، كنت إنسانا ريفيا ساذجاً، ولا أنكر انني استطعت أن ابني شخصية ترضيك وترضيني، لبنة فوق لبنة بمعاونتك، لكنني مازلت أعتقد أن الدين يفرقنا، الدين حين يصبح مقياسا ونظاما للحياة، يوحي للإنسان بالنفور من الآخرين، حتى لو كانوا جيرانا او اصدقاء او أحبة او مواطنين، سامحي هذا القزم يتفلسف بعد عشرات الكتب التي قرأتها هنا، ثقافتي العقلية انبنت هنا في الأسر، فهل الأٍر نعمة؟ هل السجن مدرسة؟ وأجيب على نفسي بنعم، الأسر والسجن مدرسة، ثم دعيني أصارحك أكثر، تجتاحني مشاعر في أوقات خاصة أحياناً، ارى الحياة فيها سهلة وهينة وحلوة هنا، وأوقات أخرى أجدها عناء وتعبا وقلقا وخوفا، وصرت أعتقد أن الراحة قد تقود إلى الموت، لقد ازداد الصراع في عقلي كثيرا خلال العامين الأخيرين، وتضاعف هذا الشعور بعد أن طمأنتني بأن الإفراج عني سيكون قريبا، وإنتهاء مدة الحكم قد اقتربت، وحسب كلامك سيتم الإفراج عني خلال شهرين إلى أربعة.**

**- سأقاطعك بسؤال مختصر، ماذا تنوي فعله بعد فكاك أسرك؟**

**- أرجو أن تعلمي يا ريتشي أنه بعد شهور ثلاثة او أربعة من تواصلنا واندماجي معك ومع دروسك التي انهمرت على رأسي كالمطر، توقفت عن الإحساس بالعذاب الشديد، تناقص إحساسي بأنني مظلوم وبأن أنسانا عدوا يستغلني لمصالحه، صرت أشعر بنبض قلبك، وربما اقدره، وبرغم انني ما زلت أحاول إخفاء هذا الشعور، إلا أنني أعترف لك اليوم وسأعترف غدا، وأعتقد أن ساعات عمري التي قضيتها تحت رقابتك ورغباتك، خلقت مني إنسانا متوازنا، صرت أكره الحروب والعداوات، اكره الأسر والتعذيب والحبس، أكره رؤية الم الموت ومشاهدة الموتى، العالم واسع لنا جميعا، والأرض لاتضيق بالمتفاهمين والمتسالمين والمتفقين، أحب شعبي، ولكنني لن أكره الآخر، ولن أفكر بتبرير قتل الآخرين، او سجنهم اوطردهم او حتى الاعتداء عليهم، القوانين والعدل والمفاهيم هي الأساس في تعاملنا مع بعضنا. أشكرك ريتشي، وأتمنى أن أتمكن من العيش حرا في وطني كله وليس تحت سلطة كارهة لي، وقتها سترين العجب العجاب، لكثرة ما أستطيع فعله لأجل رد جميلك وحمايتك لي، ستظل أفعالك مؤثرة في حياتي وأفكاري أينما اتجهت، حتى وأنا في حضن زوجتي، ستبقى ذكريات ريتشي معي ولن تموت إلا بموتي.**

**بعد تلك الجولة المطولة من الحوار والنقاشك والتوافق والمعارضة بأيام قليلة، فوجئ سلوم بحضور وسيط دولي يسأل عنه، كانت ريتشي تنتظره أمام دار الأرملة الشقراء، وكان قائد المعسكر يرافق الوسيط الدولي، واستقدم شخصاً إسرائيلياً يعرف العربية، فكانت ريتشي حاضرة وتعرف أنهم سيحتاجونها، عند التحدث مع الأسير الفلسطيني سلوم، لم تفاجئها تلك الزيارة السريعة ، فهي أول من عمل على بدء مسيرتها، سمع سلوم من الوسيط كلمات إنجليزية وبعض المفردات العربية ، فهم منها أن الوسيط سيقوم بالاتصال برؤسائه المسئولين في الأمم المتحدة ليوصلوا الخبر لمراقبي الهدنة الموجودين في الأردن الجانب الآخر للمعادلة، آملاً أن يتم الإفراج عن سلوم خلال أسابيع قليلة، ارتاح سلوم بقية ذلك اليوم، وكاد يطير من الفرح، ركض متلهفا لريتشي بعد مغادرتهما، واحتضنها بحماس وفرح. وسرعان ماقالت ريتشي**

**- لم يسبق لريتشي أن شعرت بصدق عفان في نبض قلبه كهذه المرة، تجمدت مندهشة ويداها متهدلتان تارة، وهي تجد نفسها مطوقه بيدي عفان، تدعه يطفئ لهفته بعفوية، ويبرد أعصابها ويرد لها الكثير مما تتمناه.**

**فصل 39**

* **ألم تكتشفي براءتي إلا اليوم يا ريتشي؟ لكن دعيني أسألك بالسؤال الجوهري الذي يتردد في ذهني، هل أنت مقتنعة ببراءتي وببراءة شعبي؟ تعرفين لا أنا ولا شعبي فكرنا يوماً بالإضرار بأي جنس قريب أو غريب، ولا حتى بأي إنسان ، شعبي ما زال مسالماً يكره الموت والحروب والسلاح والظلم، فهل سيطلق سراح أرض شعبي وبيوتهم قريباً؟.**
* **وأنا أريد أن أسألك، هل أنت مقتنع ببراءتي يا سلوم؟**
* **لم أعد أعرف أين الطريق إلى الجنة، وأين طريق الجحيم، هنا قطعة مقتطعة من ارض فلسطين، وهناك ارض فلسطينية على الطرف الآخر صارت غير فلسطينية، أخطأ جيراننا العرب في إلغاء إسم فلسطين واستبداله بالضفة الغربية من الأردن، ساهموا بدون قصد في شطب فلسطين من الوجود السياسي العالمي بالانضمام للأردن، لماذا لم يسموا الجزء الذي حموه من فلسطين باسم فلسطين؟ ولماذا لم يطالبوا العالم بالاعتراف بدولة لفلسطين على ما تبقى من فلسطين أولا؟، بعدها فليتحدوا وليتفقوا وليفعلوا بنا ما يريدون، أما أفكاري بشأنك يا ريتشي، فلا أنكر أنك كنت لي رحمة في عالم صاخب بالظلم، تسوده الفوضى والأحقاد، وما ينتج عن ذلك من آلام، أحييتني بعد ممات، هل سمعت وقرأت عن طائر الفينيق، الذي صحا من رماد الحريق؟ أتصور نفسي طائرا قادرا على التحليق، أحلتِ الموت فيّ إلى حياة، لكن مهلاً، كنت حذرا جدا منك، وحذري ظلّ آسري طول مدة تعاملنا، لكن أعترف أن الشك يولد الخوف والنفور وربما الظلم، وبعد أن علمت بتحرري قريبا، وبصدق مساعيك ودعملك لي، هذا إذا تحررت فعلا، فتأكدي أنني لن أنساك يا سيدتي، ووقت الرسوخ والتأقلم لن يكون هنا، وأنا في الأسر، تعلمين أن في الطرف الآخر من هذا العالم هناك امرأة أخرى، لا أشك أنها تهتم بي، ظلمتها كثيرا باختفائي من حياتها، وأريد أن أعوض ديجا المؤمنة الصابرة عما فات، تصوري معي حزنها ووحدتها وشوقها وحرمانها، وربما تجهلين وفاء الفتاة الفلسطينية الريفية لزوجها، وحرصها على سمعة أهلها وشرفها!**
* **يحزنني أن تقول لي (يا سيدتي) بعد كل ما مر بنا من ايام وشهور واوقات اندمجنا بها حتى التفاني، اصرّ على أنني يهودية عربية، لو عرفت أن بإمكانك البقاء هنا على أرض أجدادك في فلسطين كما تقول، لتحولت إلى دينك الإسلامي، أنت رجل صلب أمين تذيب الصخور بثباتك وصدق مشاعرك، لم نكن نعرف عن الإنسان الفلسطيني كل هذه الصفات الطيبة، تسامح وانفتاح وحلم وصبر بلا حدود، إن كل الذين قدموا لفلسطين من اليهود قبل عام 1948 بعقود، يعرفون أن آباءك وأجدادك قبلوهم واستوعبوهم، وتعايشوا معهم، وحين ازداد الهروب من النازي، احتضن الكثير من الفلسطينيين بؤساء اليهود، والبعض آووهم في منازلهم، فاستقروا وارتاحوا وشعروا بالأمان، لكن بعدها قرر زعماؤنا الصهيونيون والعسكريون الأنانيون والقساة، التخلص من كل فلسطيني عربي على ارض فلسطين.**
* **ليس هذا فحسب يا ريتشي، وتعلمين حتى بعد أن قتلت العصابات الصهيونية الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، وشردوا اكثر من مليون من أهلنا، صاروا يدعون ملكية فلسطين كلها، وحاولوا حقن العسكريين، وإقناع العالم المتحكم في الشعوب، بأن تهجير الفلسطيني ليس ظلما، والتهجير القسري ليس ضد الحق الإنساني في العيش بأمان على ارضه، كما تنص عليه وثيقة الأمم المتحدة، فهو مبرر لشعب بلا أرض.**

**على مدى بضعة أنفاس مني، تقول ريتشي، لكم توسلت لهم أن يبقوك حرا في بلدك فلسطين يا سلوم، رفيقا لي، وأبا لطفلي الذي أصبح يداعبني في أحشائي، لكنهم رفضوا كل توسلاتي لآبقائك حرا وحتى لو معي، وزوجا لي، هددت بانسحابي من جيش الدفاع الإسرائيلي، ومن الحكم العسكري العنصري المفروض على هذه الأرض الفلسطينية، أبوا إلا أن يخرجوك قريبا لتعيش خارج هذه الأرض، وبحجة أنك أسير وأهلك ينتظرونك، لم يعبأوا بكل المساعي التي بذلتها حين أدركوا إخلاصي في سعيي للاحتفاظ بك، إنك لست الرجل الوحيد في هذا العالم، لكنك العربي الذي استطاع اكتشاف جيوب هذا القلب فأسره، وأودعت هذا الجسم طفلا عربيا فلسطينياً، وما زلت وستبقى نموذجاً حياً نابضاً بالصبر والمسالمة وهدوء النفس، وفي هذه الأسابيع الأخيرة الباقية على موعد مغادرتك أرض إسرائيل، تتنامى عقدة الذنب في نفسي، وتعذب روحي، أقول إن ا لغالبية منا لم نفكر أننا نعيش على أنقاضكم وفي بيوت العائلات الفلسطينية التي اجبرت على الهروب من فلسطين، وبعد تعلقي بك، إخلاصك قلب مفاهيمي وحولني إلى إنسان معجبة بشخص إنسان فلسطيني، تعويضا عما أصابكم من حيف، ولأداوي حيزاً من نفسي التي تشعر بالذنب، وجدتك شخصاً يستحق الحب، وأفضل بكثير من بين خليط عجيب غير متجانس من مدعي الدين اليهودي، كل له مصالحه واجنداته وأمراضه وأحقاده وجذوره، كرهت كل هذه التركيبة، إنني أفتخر بمعتقدات أمي واهلي ومعارفي، لكنني لا أتوقع السلام والأمن لهذه التجمعات، يخفون الكثير في أعماقهم، وحين تتعامل معهم، لا تكتشف أي أثر لأخلاق يهودية او دينيه، ليس غير الحقد والكراهية وحب الأيذاء، ليس عندهم أي تقدير لأي تراث لهم ولا لسواهم، ولتعلم أن حملي منك ليس صدفة ولا غباء، أنا التي قررت أن أحمل طفلاً عربياً، كان من الممكن أن أجد يهودياً عربياً من مصر أوالمغرب أو العراق، لكنني اكتشفت أن معظمهم مسوخ، شخصيات بلا شخصيات، لا يحترمون أحداً، ولا حتى أنفسهم، ولا يحترمهم اليهود الآخرون، ويغيظنا تعالي اليهود القادمين من أوربا وأمريكا، لا أدري ماذا سأفعل بعد ولادة جنيني العربي الخالص أماً وأباً.**

**سالوم مصاب بصدمة، ساقاه تكادان لا تحملانه، يحسّ بأنه على وشك أن يهوي على الأرض لهول الصدمة من الكلام الذي يسمعه، إنه الأسير الفلسطيني، وريتشي فرد من سجانيه، وهي اليوم تتكلم فيضاً من مشاعر ساخنة صادمة، والصدمة الأكبر تؤكد له أن جنينا منه ينبض في جوفها (ماذا أفعل يا ربي؟) لا أتوقع أنني سأكون قادرا على هذه الأعباء، في قريته لم يتمكن حتى من اقتناء بغلة، يركبها حين يريد العمل في أرضه البعيدة، على حدود أرضهم الغربية، ثم يعود للقول في نفسه "أخشى أن يكونوا قد احتلوا قريتي في غيابي!، وهي على الخط الفاصل، ولا يتطلب الاستيلاء عليها جهدا عسكريا كبيرا، فهل سارى قريتي ثانية؟ هل سأعيش بها مرة أخرى؟ هل سألتقي بزوجتي ديجة؟ آه يا خديجتي، لا أعلم كيف سأقابلك، وكيف سأعوضك، وكيف وكيف؟ ...... أما إن وجدت أنهم احتلوا قريتي، فكيف سيكون مصيري لو أطلقوا سراحي، سأكون في ورطة كبرى، ولن يقبلوا بقائي قرب ريتشي، ولن أجد ديجا في بيتي العتيق الذي ولدت فيه وتربيت"، بل لن أرى بيتي نفسه، ولن اكون قادرا على العيش في نفس المكان. لأن الصهاينة حين يحتلون ارضا، يقلبوا سافلها عاليها.**

**تقاطع ريتش أفكار سلوم،**

**- اؤكد لك أمرين قاطعين: أولهما إنك لن ترى هذا الطفل ذكراً كان أو أنثى، ولا أدري أين سيعيش طفلنا، والقطع الآخر، أعدك أن أخبرك عن جنس الوليد وعن المكان الذي سيعيش فيه بعد ولادته، ولكن ذلك سيكون بعد عام إلى ثلاثة أعوام، لأنني أنا وطفلي لانحتمل الكره على هذه الأرض، وأريد أن يعيش ابني اليهودي العربي الخالص في أرض بعيدة عن الظلم والحقد وإلغاء الآخر. فلا تحاول ان تلومني، أو تقنعني بغير ما أفكر فيه، ويظهر ان المثل القائل (إن الحب يختار أن يجلس على غير الكرسي الذي نتوقعه أحياناً) هو صحيح.**

**بقيا واقفين محتارين، كل منهما يفكر بما يهمه، ريتشي تتمنى أن يبقى سلوم عندها، أو يعملان ليرافقها للعيش والعمل في بلد آخر، وسلوم (عفان) يفكر بعودته لزوجته الشابة ديجة. وكل منهما غارق في حب متعمق على طريقته، حب يصعب آلغاؤه او التخفيف من غلوائه، تتوجه ريتشي صوب سيارتها العسكرية، وتفتح المذياع على موسيقى خفيفة، يسرحان ويناجي كل منهما عيني الآخر بلغة صامتة، قلب سلوم يخفق بشدة، عربي فلسطيني يقدر ما قدمت له ريتشي اليهودية العربية من جميل وحماية وحسن معاملة، فأثر بها وغيّرها بسلوكه وعفته، وأصبحت له ظلا دون ان يدري، وبرغم انها المتسلطة حسب النظام العنصري التعصبي الكريه، إلا انه استطاع باتزانه وحرصه على الحياة والأمان والأمانة أن يغير إنساناً جيء به ليكون صهيونياً كارهاً للعربي كجنس، إنه بين نيران تكوي قلبه من كل اتجاه، نار تلبية نداء الوفاء لرد الجميل، ونار ما اعتاد عليه من نداء الجسد وتلبيتها لأقصى الحدود، ونار ديجا زوجته، ونار الأرض والحرية التي تنتظره على احر من الجمر.**

**يسائل سلوم نفسه، أو ليست ريتشي في الواقع معادلا موضوعيا لفقدان ديجة في السنتين الأخيرتين؟ ألم يتعلم منها كل شيء يلزم للزواج والحياة والحب والجنس، ونهل على يديها الكثير من العلم واللغة والثقافة والمعرفة؟ فهل كل هذا كرم مجاني طوعي قامت به ريتشي أم ما هو القصد؟؟؟ هل رد الجميل هو أن يدير ظهره متجهاً لزوجته؟ ومهملاً كل لحظة التصاق ومنفعة عاش عليها خلف ظهره؟ فماذا عليه أن يفعل؟ إنها مشكلته الكبرى، إنه سيغادر دولة إسرائيل العنصرية، رضي أم أبى، مادام ان الجهود أصبحت دولية، فسيأتيه الفرج الذي كان ينتظره، لكن هل سيسعد قلبه فعلاً حين يلتقي زوجته ديجا؟ وهل ستحتمل أعصابه وضميره جفاءه لريتشي؟ . . . . وهل جزاء المعروف إلا المعروف؟ . . . . ولماذا لا نجد حلاً لشعبينا الفلسطيني والصهيوني، لنعيش بطريقة تحفظ للجميع كرامته، والأهم من ذلك هو دمه، نقاط الخلية التي حملتها ريتشي منه، من دمه وفي لحظات نادرة ولذيذة، وليست بطريق الخداع.**

**هل حقا ريتشي تحمل ابناً او ابنة مني؟ الله أكبر، وكيف سيرتاح ضميري أن لا أرى طفلي، ولا أدلله؟ . . . . وكيف سأرضى بذلك؟ . . . . ساعدني يا رب واهدني إلى ما تحب وترضى، اللهم ألهم حكماء الصهاينة ان يخففوا من غلوائهم، ويتوافقوا مع الفلسطينيين، الأرض واسعة، وتستوعب الملايين، أعرف ان مدينة واحدة في الغرب بها عشرة او خمسة عشر مليون من البشر، فكيف بوطن واسع ألا يتسع لخمسة او عشرة ملايين؟؟؟ألهمني يا إلهي حلاً لهذه المعادلة الصعبة، ثم أفرغ ْالصبرَ عليَّ والرشد والهدوء. يقول لها**

**- لك الله يا ريتشي، ليس أمامي خيار حتى لو قبلت البقاء هنا، تعلمين ذلك وقد قلتيه لي، وقرارات العسكر والناهبين نهائية وقاسية وصلبة لا جدال فيها، وحتى لو وعدتك بمشروع او لقاء آخر، تعرفين أن عليّ أن أرحل، نعم سأرحل إلى عالمي القديم، إلى زوجتي وقريتي وأهلي القساة، "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ، وأهلي وإن ضنوا علي كرام"، سأرحل، ومضطر ان أتجلد وأبقى رجلاً كما خلقني ربي، سأترك مصيرنا للتقادير. أنا عاجز عن اتخاذ أي قرار يريحك أو يرحني.**

**لا ادري كيف اتصرف مع ديجة؟ هل ستسامحني لي لو اعترفت لها بكل ما جرى معي في الأسر؟ هل ستعينني في حياتي لنعود لحياتنا الطبيعية مثل كل اهل بلدي، على ظلت محافظة على التصرفات والعادات التي عودتها عليها؟ او أدخل أهلها بها صفات جديدة وقد نضجت وكبرت، لقد تزوجتها وهي لم تبلغ سن الرشد بعد، كانت شبه طفلة، لا تعرف من الحياة الزوجية شيئا، ولا تعرف التعامل مع الرجل إلا كوالد او أخ، فهل ستعود لحياتنا التي كنا عليها قبل أسري؟ أو هل ستحقد عليّ ويقل حماسها في صدق التعامل معي؟ هل سأعود تعيساً بوحدتي وعزلتي؟ هل ستتطور الأمور إلى برود فخلافات ففراق او طلاق؟ وعندما يعرف أقاربي وأهل قريتي عن علاقتي بمجندة صهيونية، هل يغفرون لي؟ . . . . او سينبذونني؟ وإذا قاطعوني وكرهوني فأين أعيش؟ . . . . . ودولة إسرائيل لا تقبل فلسطينيا ولا عربيا أن يكون مواطنا فيها ولو أخلص؟ عنصرية الصهاينة تجعل على عقولهم أقفال توراتية بالية، . . . . لا يريدون إلا اليهود الحاقدين والمتطرفين، يعملون على بناء دولة عنصرية جديدة فريدة، ولولا انهم محتاجون للعمال العرب والمواطنين الفلسطينيين الضعفاء الذين ظلوا أذلة تحت حكمهم، لطردوهم او قتلوهم، يدّعون أن فلسطين هي لليهود فقط، لكن اليهود أجناس وشعوب مختلفون، لا يطيقون بعضهم ولا يثقون ببعضهم، ولا يمكن أن يأتي يوم يحبون فيه بعضهم بعضا، فماذا سيكون مصير دولتهم الجديدة؟ وبعد أن تذهب السكرة وتعود الفكرة؟**

**وأنا مالي ومال مصيرهم، قلقي على مصيري بين أهلي حين يعرفون عن علاقاتي بريتشي، قادني للتنبؤ بمصيرهم، لكن ما الذي يجبرني أن أخبر جماعتي عما مضى؟ احب الصدق، انا امين، احب الأمانة، لم اتعود على الكذب والخداع، لا أريد أن اكون كذابا مع زوجتي ولا منافقاً، احاضنها ونستمتع معا، وعقلي مع جسم اليهودية المغربية وحركاتها وفنونها؟؟؟. .**

**ريتشي تقف صافنة بلا حراك، تستمع لثرثرة عفان المسموعة وخواطره. يواصل سلوم كلامه.**

**- وما مر بي يجعلني أتصبر وأحتمل، في هذه اللحظات أتذكر كل ما مر بي، أحداث قلبت حياتي، وتملأ نفسي اضطرابا، لا يمكن شطبها من ذاكرتي، أرادوا لي الموت، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، فحنن قلب هذه اليهودية العربية، على عفان، وحولت الأشواك إلى بساط يسهل السير عليه،**

**لكنني أدعو الله أن أصل لزوجتي سالماً، وأدعو الله أن أجد طفلا مني تحمله وتحتضنه، فأحضن الاثنين طفلي وزوجتي ديجة، ولكن من يعلم؟ فهل سأصل سالماً، اطلق الصهاينة بعض السجناء الفلسطينيين غير المرغوب فيهم، لطردهم حتى لا يظلوا ضمن حدود دولة إسرائيل، طردوهم عند خط وقف إطلاق النار قرب قريتنا، وبدل من مساعدتهم وحمايتهم، فما إن ابتعدوا مائتي متر شرقي الخط الأخضر، حتى أمطروهم بسيول من الرصاص المنهمر على رؤوسهم وظهورهم، ولولا أن الأرض كانت جبلية وعرة، ارتموا على الأرض وتفرقوا زاحفين حتى ابتعدوا عن أعين جيش الدفاع الإسرائيلي (الشجاع طبعا)، واختفوا بين الصخور، ثم حضر مراقبو الأمم المتحدة، وأنقذوهم من الشرك الذي كانوا فيه، ومن يعلم فقد يقتلونني في الطريق، او يوم إطلاق سراحي، ويتهمونني بأنني حاولت التسلل إليهم داخل حدود إسرائيل، وليس كل مرة تسلم الجرة.**

**وقبل أن يواصل وصف أحاسيسه نحوها، قاطعته في حماس تقول**

**- أنت شكاك لاتفكر إلا بالخوف وبالشر والخطر دائماً، لا تحس الأمان دائماً يا سلوم.**

* **وأنت سيدة كاملة الشخصية يا ريتشي، تنعمين بكامل حقوقك، حرة ومكرمة في السر والعلن والواقع، أما أنا فعربي فلسطيني لا حقوق لي ولا أمان ولا ضمان، مهيأ للموت في أي زمان وأي مكان، وبأي أسلوب بشري مباشر او غير مباشر، ثم إن التوجس الذي أنهك جسدي وروحي حين ألقوا القبض علي لا تفارق مخيلتي، ثم ما تلا ذلك من ليالي التعذيب ونهارات التحقيق.**

**- هل تعلم أنني لن أحضر وقت مغادرتك لمعسكرنا؟ ولا أنكر انني أتمنى أن تبقى أسيراً أو سجيناً.**

**في مساء آخر يوم لي في الأسر سهرنا إلى ما يقرب الفجر، كانت متعبة جدا، وألححت عليها للراحة لكنها بقيت ساهرة، أصرت أن تضع رأسي على كتفها الأيسر، كم مرة طوقت عنقي بكلتا يديها، بينما كانت تسند ظهرها إلى جدار الزنزانة المعدني، ظلت عيناها سارحتين تتمعن دقائق الجدران الملونة باللون البني الفاتح، تنظر لي لثوان، ثم تتابع تأمل دقائق السقف المعدني، حاولت التحدث معها، لكنها فضلت صلاة الصمت، كان المسئولون عنها يعرفون علاقتها بي جيداً، وأن تلك العلاقة هي لمهمة خاصة، لكنها أخبرتني أنهم لا يعرفون أن زياراتها كانت لقضاء ساعات طويلة ليلاً، بل تلك العلاقة الوثيقة عن علاقتنا اعطتها كردتCredit وثقة بها، لأنها تحاول ان تستميل جاسوساً عربياً يمكن استخدامه بعد إطلاق سراحه.**

**الفصل 40**

**أمسية عابسة**

**مع أنني قضيت الليلة ساهرا، أستعيد كلمات ريتشي التي خاطبتني بها، كنا نقف في البداية أمام زنزانتي، تتكئ بكتفها الأيمن على طرف جدار الغريفة، وأنا واقف مشدوها متجمدا ومندهشا من خبرها الجديد، ومن كلامها وتأثرها الذي لا يمكن لبشر وصفه، لا شك ان صراعاً يجري في أعماقها، وأرادت ان تزرع ذلك الصراع في قلبي وعقلي، تبدو لي أنها بحر من الأسرار عميق، فيه حياة وحركة وأسماك وحيوانات لا نعرف عنها، ولم نرها من قبل، وفيها غموض وظلام لا يشبهه ظلام، امواجها تتلاطم في وحدة وقوة وتفجر، لا تعرف اين تتجه، ولا متى تتوقف، لكن البحر يظل ثابتاً لا يغير مكانه، تتمايل كعادتها راضية ام مغضبة، بحر لجي يكاد يغرقني، وانا الذي لا أعرف العوم حت ولو في بركة صغيرة، ولا أستطيع الغوص في الأعماق، وكل ما أملكه هما تلكما العينان اللتان تتجمدان أمام هذا الصاخب الغامض، ولا تجرؤان او تقويان على التقدم او التأخر، متصلب في مكاني وكأنني موثوق بجبل ضخم، تراكم حولي، ويكاد يصل إلى رأسي بركامه، أما ريتشي، فهي بحر عميق مليء بالأسرار والأخبار، يكاد جبل الهموم يغمرني، لكنه يجعلني مشدوها كالأبله، في أمسيتنا قالت كلاما كثيرا، ريتشي قالت لي ماليس لي به علم، تبهرني بكل كلمة او نأمة تصرفتها، بالاختصار أكدت لي انها حامل مني، حامل؟؟ الله أكبر، يا إلهي! إرحمني يا ربي، امرأة صهيونية تحمل طفلا مني؟ الله أكبر ثانية وثالثة، تذكرت أن لا فائدة من الشكوى او التذمر، لا فائدة من الخوف والقلق، ولا يفيد الشاة سلخها بعد الذبح، ومع كل تلك الصدمة والحيرة والقلق التي أصا بتني، لكنني أجد فيه لذة وليس ضيقا، حزن ممزوج بالفرح والحرية، سعيد لأنني شعرت انه مسموح لي أن أتحرر ليلتها، أتحرر من كل شيء، واتصرف بأي شيء، وأتأمل كل شيء، وأحلم بأي شيء، مرت تلك الليلة علي وأنا مفعم بالأمل، حتى بعد أن غادرتني ريتشي، وهي غارقة بمشاعر الحيرة والشلل، لكنني بقيت مفعما بحب الحياة والنماء، افكر بالخلاص من الأسر بأي طريقة، وحتى الساعة الثامنة من الصباح لم أصدق أنني سأصبح حراً طليقاً إلا بعد أن شاهدت علم الأمم المتحدة الأزرق، وسيارة جيب بيضاء ، وطاقية زرقاء على رأس الوسيط الدولي، وللاختصار، أغمضوا عينيّ، وقيدوا يديّ، ثم ألقوا بي على كرسي معدني، في سيارة جيب إسرائيلية، لم يكن القيد شديداً، ومع وجود مراقب الأمم المتحدة والصليب الأحمر، لكنني لم أستبعد احتمال الموت أية لحظة، وبعد أن سارت السيارة بنا قرابة نصف ساعة ربما وعلى طرق حسنة الرصف، بدأت السيارة بعدها تطفر على ارض غير مستوية وتتمايل، صرت أحسّ بعظام عجيزتي ومفاصل حوضي تتألم، لخشونة الكرسي المعدني الذي أجلسوني عليه، فكلما اجتزنا مطباً أو حجراً تألمت من الصدمة، وآلمتني عظام حجيزتي، والمصيبة أنني أكون غير متوقع ولا عارف بمرورنا فوق مطب، لأن عيني مغطاتان برباط قوي، فلا أدري إلا والضربة حاصلة بعد القفز. قلت بصوت مسموع:**

* **إلى أين تأخذونني؟ إإلى مقبرة أم لإطلاق الرصاص عليّ قرب الحدود، حتى يشهد مراقب الهدنة أنني قتلت متسللاً؟ لم يجبني أحد، وربما لم يفهم أي من الثلاثة كلمة مما قلت، أسمع دوي محرك سيارة مراقب الهدنة خلفنا، تقترب أحيانا منا، لكنها لاتسبقنا، هذا إحساسي، وبعد انتقالي لسيارة مراقب الهدنة، فكوا الرباط عن عينيّ ولكنهم ربطو يدي اليمنى بأنبوب في سيارة الوسيط، كنت قادراً على مطالعة الساعة، ساعة ريتشي، نعم هي من ريتشي اليهودية، نظرت للساعة في اللحظة التي فكوا الرباط عن عيني، فكانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعا ظهر يوم الأربعاء من عام 1954، وضعت لي ريتشي قيداً في معصمي، لا ينحلّ إلا بموتي، وديحا تنتظرني، بدأت أعمل على تغييب ريتشي، إن ما زال يحيرني ويثير التساؤلات في نفسي، هو لماذا لم تحضر ريتشي ساعة مغادرتي بوابة المعسكر، لكنها عرفت أنه قد ينهار أحدنا أو كلانا أمام المسئولين، الزمن يمضي ببطء ، مع انني أحبها إلا أنني كنت أخشاها كلما فاجأتني بزيارة، لم يكن الرقيب الدولي يعرف إلا كلمات عربية بسيطة، مثل مبروك، وأنت عربي، وسلامات، وكيف (الهال )، كان همي أن أصل لأهلي وقريتي وزوجتي، فلا أريد أن أصف نظرة مراقب الهدنة الباردة لي، بالاختصار ظلت ملامحه محايدة لا يكلمني، وكلما نظرت إليه أدار وجهه، إما إهمالا او انشغالا، او عدم مبالاة بما يفعل، وربما اعتاد على مهمة كهذه، او هو خبير مدرب للمواقف الصعبة ليجعلها مثل العادية، وربما عدم اهتمام بكل ما يجري، فهو يؤدي وظيفته في أي موقع وجد نفسه فيه، لكن ملامحه لاتدل على تعاطف معي، وربما لا يتمنى الحرية لي ولا الاحترام، وماذا يهمه بعربي فلسطيني أسير محرر، يحملون فكرا خاطئا عن شعبي، ومن يدري فربما مقتنع بوجهة نظر العدو الصهيوني، أما من ناحيتي، فلم يكن يعنيني تعاطفه، ولا يهمني رضاه او غضبه او حقده، إنني أحلق في السماوات العُلى، أتعايش مع أفكاري وآمالي وطموحاتي وأجواء حريتي، إنني مسافر للحرية وللحياة الحقيقية على ارضي وبين اهلي وبصحبة زوجتي ديجة.**

**برغم شعوري أنني ما زلت أسيرا، إلا انني أبذل كل جهد وفكر كي أنسى معظم ما مرّ بي، حسناً كان أم سيئاً، وهل في السجن حسنات؟ . . . إلا ما تتعلمه؟ أو تحذر منه؟. . . . أحس بخيوط سعادة تنساب في كياني، سأكون بعد ساعات في بيتي ومع زوجتي، ستكون ديجة لي أمام ناظريّ وفي حضني، أقول هذا ربما! ! . . . . وهل للعدو أمان؟. . . . ، وربما هو إبعاد وقتل على الحدود،. . . . وربما في المكان الذي اسرت فيه؟. . . . . يخامرني إحساس من قلق، برغم سعادتي أنني سأكون حراً بين أهلي وعشيرتي، إلا أنني لست مرتاحا، ولا أستطيع التنبؤ بالتعب التالي الذي يزيد من تنغيص حياتي، وبأي طريقة؟؟.. .، إنني أتوكل على الله، وأثق بهذا العقل وقواه الخارقة، وسأظل مخلصا في كل شيء أقوم به، هذا هو أهم ما يهمني، الإخلاص في القول والعمل والصدق في الفعل والأداء، بعدها لا بد أن يفرجها الله عليّ، ويجعلني اتمتع بحريتي، وأطبق كل خططي الجديدة التي في رأسي، بين ناسي وأهل بلدتي، وديجة لا شك انها ستتطور، وتتفاعل معي، لتظل بجانبي وعلى مستواي، صاعدين على مرأى من كل أهل بلدي، وسيعرفون الأسير المحرر عفان، كيف سيحقق أمورا كثيرة لم يتوقعها احد منهم، لا بل ستتأثر كل البلدة بما أحمله من أفكار ومشاريع، غيرة او حسداً أو نقلا بذكاء وتنافس حرّ ومفيد.**

**بعد اجتياز خط الهدنة لاحظت وسيطا دوليا آخر مع رجال أمن أردنيين ينتظروننا، اقتادوني دون كلام، وحملوني بسيارة عسكرية أخرى، أجد نفسي بعدها في مركز أمن في رام الله. قدموا لي وجبة طعام جيدة، وأخبروني أنه سيتم إعادتي لأهلي لكن لم يفصحوا متى سيتم ذلك، كنت أظن انهم سيتوجهون بي لأهلي وبلدتي، ولكن يبدو أن هناك إجراءات أخرى قبل ذلك، فوضعت مع السجناء.**

**كان آخر حديث لي مع ريتشي هو ما تم في الليلة السابقة لموعد تسليم سلوم لمراقب الأمم المتحدة،، صارت تتحدث كأنها في حلم أو كأنها تقرأ رسالة عاطفية.**

**- لا أنسى يا عفان انني دخيلة على هذه الأرض، انا وكل إسرائيلي هاجر حديثاً إلى فلسطين المقدسة، كانت فلسطين آمنة فجئنا لأهلها بظلم بياتاً وهم غافلون، إنني في حال من اليأس والإحباط يا سالوم، ولا يفيدني الشرح والتصريح، ولا تسألني ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد ستبقى رهن الزمن، ولن اقول لك متى.**

**رفعت رأسي قليلا، تلاقت أعيننا، حاولت الابتسام لها، لكن ابتسامتي شحبت فانطفأت ولم تكتمل، حين شاهدت مشاعرها تتجمد، ثم أظهرت شخصيتها العسكرية القوية الصامدة، أنصتت قليلا، أدارت وجهها صوب الأفق البعيد، ثم عادت لمواصلة كلامها.**

**(أعرف أنك ستنسى ريتشي يا سلوم، لكنني لا أعرف إن كنت ستبقى سعيدا مع زوجتك، إنني أعرف أنك متشوق للعودة لأهلك ولبيتك العتيق كما تسميه، والذي لم يكن يغيب عن خاطرك، لقد رفضت كل المغريات والمشجعات وقلبي، لا ألومك، سترزق ببنين وبنات ربما، اما أنا فسأحافظ على هذا الطفل الذي في جوفي، لأنه كان قراري، قراري وحدي، لأنك بقيت مصرا على مشاعرك الوهمية، وبعد أن خابت آمالي ومحاولاتي، إن رزقت بأطفال من زوجتك ديجة، سيكون لهم اخ أو أخت لا يعلمون مكانه، سيتربي بعيداً عن ظلم المحتلين، وأعدك، نعم أعدك يا سالوم أنني لن أساهم في زيادة عدد سكان دولة إسرائيل، ولن أسمح لنفسي أن أنجب طفلاً آخر، انا عربية يهودية، وطفلي سيكون عربياً خالصاً ولا أدري ماذا سيكون دينه، وأقسم لك انني لن أتدخل في إقناعه باتباع دين ما، إن عاش فسأحرص على أن يكون حراً كريماً مثل أجداده العرب، وابني (سلام) سيكون عربياً بخصاله، ولا أضمن ماذا ستكون لغته بعد نضجه.**

**ودعني أؤكد لك ياسلوم انني سأحجم عن إنتاج اطفال في أي مكان في العالم مهما انهالت عليّ المغريات، لا أريد أن أسهم بعد اليوم في إنتاج ابناء من بطني ليطردوا أطفالاً من فلسطين، ولا أريد أحداً من نسلي يحارب ويقاتل أناساً آمنين، قبلوا عيشنا معهم في البداية وبينهم، نشاركهم ارضهم وديارهم وسماءهم ومياههم، ثم غدرنا بذلك التعايش وتنكرنا لقبولهم بنا، وستنتهي حكايتي بموتي، وليتدبر العالم بعدي أمر العدل أو الطوفان.**

**الفصل 41**

**أين أنام الليلة**

**أبلغَ مركزُ الشرطة في القرية أهلَ عفّان عن موعدِ وصول ابنِهم الأسير، غابت تفاصيل كثيرة من رأس سلوم، لم يعد للزمان ولا للمكان ولا للكلام قيمة عنده، لم يكترث لكل ما حوله، ولا كيف عومل من قبل الأمن الأردني، وسواء قدموا له أكلا، أم لم يقدموا، فلم يخطر بباله مثل تلك الأمور، ولا فكر بحاجته لشيء، مرت الليلة الأولى قضاها ساهرا، وطوال اليوم التالي لم يبادر بكلمة واحدة، يجيب على ما يسألونه باختصار، غير مكترث بما يرضي أحداً أو يزعجه، في مركز المقاطعة وفي الجزء المخصص للسجناء والمحتجزين، يقتادونه لتحقيق، يرجعونه، يزوره أحدهم لاستفسار عن ماضيه وكيف عومل في الأسر، وقبلها زاره ضابط صغير نحيل، يؤنبه وكأنه يتشفى بأسره بعد إجابته على سؤاله الرئيس، (كيف وقعت في الأسر؟) قلت كلاما مختصرا، وذكرته بأن كل شيء عن حالتي موجود في التقرير الذي بين يديه، لكنه قال بصوت قلق، إنه باللغة الإنجليزية والعبرية، (أي إنه لا يقرأ اللغتين) ثم بحماس وتشفي، يقول الضابط النحيف القصير، (إنك تستحق السجن، فلماذا تقترب من خطوط النار وخط الهدنة؟ ولماذا تهاجم اليهود، وتعرف أنهم أعداءك، وكل هذا كنت اعزلا من السلاح، وأستغرب أنهم لم يقتلوك، وهناك مركز أمن في بلدتك، وتعرف أننا نحاكم ونسجن كل من يقترب من خطوط الهدنة مع العدو، بموجب قانون الطوارئ، والذي ندير به الضفة الغربية، والحكم فيه للعسكر دون محاكمات مدنية، فأنت تستحق السجن ثانية هنا في رام الله، لكن عرفنا أنك غير قاصد إضرار العدو، واقترابك من خط الهدنة كان خطأ وغباء او سذاجة منك، لهذا سأصدر موافقتي على تسليمك لأهلك)**

**ظل سلوم مصغياً للضابط القصير النحيف، حتى أنهى كلامه، دون أن ينبس بكلمة، وفي شبه لا مبالاة، فلقد مرّ في مراحل أصعب بكثير من هذا الموقف، وأدمن على اللوم والعتاب حتى والضرب والعقاب الشديد والحرمان والسجن، ولولا خوفه من فرض سجن طويل عليه في بلده، وفي منطقته، لسخر وابتسم أثناء كلام الضابط، لأنه أوشك ان يضحك ساخرا مما يسمع، حضر قبل الضابط عسكري آخر برتبة وكيل ضابط وحقق معه وسجل كيف تم إلقاء القبض عليه من قبل الصهاينة، وتقرير الأمم المتحدة بين يديه، وفيه كل شيء عن موقف وقوعه في الأسر، ومدة حكمه، وبراءته وإخلاء سبيله، وكلاهما كررا الطلب، بأن يصف ســلوم كيف تم وقوعه في الأسر، يفضي عفان (سلوم) بما يعرف باختصار وبغير اهتمام ولا رغبة، في عقله هدف واحد فقط، همه أن يعود إلى زوجته خديجه، وبأسرع ما يمكن، يريد أن يضمها بعفوية وشوق وقوة، ويتعامل معها بأحدث الطرق التي اضطر لها وتعلمها مع نساء الأسر، يريد أن يتأمل كل شبر وكل زاوية في بيتهما العتيق الكبير الذي اعتاد العيش فيه منذ طفولته، سيذكرها بأيامهما الأولى، بجهلهما، بغبائهما، بسذاجتهما ، وكيف اهتديا إلى الاتحاد ليلة الزفاف، واكتشاف مصدر الحياة ومنابعها واكتمال شروط الأسرة. لم يسجل الضابط أي شيء مما قلته باختصار، لكنه يهز رأسه وينظر ل سلّوم نظرة قاسية، او انها حاقدة. ومع كل هذا سلوم لم يعبأ به، وظل شارد الذهن، يتخيل لقاءه لزوجته ديجا.**

**تركه الضابط في حيرة، ولم يفصح له عن موعد إخلاء سبيله، لكنه ظلّ يقضي كل وقته يحادث نفسه ويناجي زوجته، سأقول لها**

**(كنت طفلة فعلاً يا ديجة، مع انني كنت شاباً تافهاً في منتهى السذاجة، اما الآن فلم أعد بليداً، ولن أكون وغداً، هل ستقتنعين ببراءتي؟ قلت لك لن أكون وغدا بعد اليوم، لكنني سأظل محافظا على وفائي لك، كل ذلك كان من أجلك يا ديجة، ستنعمين بكل المكتسبات، لم أضيع سنوات السجن في النوم والطعام والكسل، بل تفتحت للثقافة والتعلم وللحياة، وربما أجبرت على استغلال الوقت والظروف والكتب، ثقفت نفسي في كل ما استطعت الوصول له، وعدت لك بكنوز ستجعلك تفتخرين بزوجك، أنت واهلي ووطني. لقد اكتشفت أننا بحاجة للانفتاح والنظرة للعالم والحياة بعيون مختلفة عن الماضي والتراث العتيق، انفتح العالم أمام ناظري، أنا سلوم الجديد، سأغير حياتك وأهلنا وجميع أهل قريتي، هنا في هذه الرأس عالم مضغوط ومختلف، أحمل فيه مصابيح وشموعاً، لأشعلها في طرقاتك يا ديجا، وفي حياة مجتمعنا الصغير في القرية.)**

**عفان يتأمل كل ما حوله من سجناء وعساكر وسماء وطيور، ثم ينظر للأشجار القريبة من مركز الحاكم العسكري في رام الله، بجوار أعمدة الإرسال الإذاعي، لكنه منشغل بالتحدث مع نفسه، ،يتخيل زوجته ديجا وهي تقترب منه، أو بعد تفرق المستقبلين وأقاربه، وتحسّن وضعه النفسي حين نقوله من السجن لصالة حجز خاصة أقل سوءاً، مع وجود شرطي مسلح، مهمته مراقبة أوحماية المحتجزين ربما، سلوم ليس مع السجناء، لكنه كأنه في الأسر، حرية منقوصة، لا يستطيع الخروج للشارع العام، ولا مغادرة المكان، بقي تحت الأمر والقيود المحدودة، ربما مثلما كان في معسكر الأسر، يخاطب نفسه متخيلاً انه في حضرة ديجة زوجته**

**(سأحاول أن أنسى ما يقارب ثلاث سنوات قضيتها في الأسر، لا شك أن بهاءك قد زاد ونضج جسمك اكثر واكثر ياخديجة، سأفرك بصلاً في عين كل حاسد او كاره، سأحتضنك حتى لو كبرت جثتك، ها أنا كما ترينني بقيت نحيفاً قصيراً، إلا أنني سأكون قادراً على إسعادك لاشك، مَرَّ بيَ الكثير، وعلمتني أيام الأسر والغربه والنساء أكثر، نضجت كثيراً، أؤكد لك، عفان الساذج الذي عرفتِه لم يعد ساذجاً، ولا صيدا سهلاً، عفان صار رجلاً بإيمانه العميق، وبثقافته التي توسعت كثيرا، مازلت أحب تراثنا وأخلاقنا وأهلنا، لكن القفز عن التخلف والعيوب واجب وطني، أحسّ أنني سأكون الأنضج بين شباب القرية ، ولدي خزائن وكنوز من الحب والطموحات والفنون، وبصراحة أقولها لك إنه الأسر الذي فرض كل ذلك عليّ ، كل ما مرّ سيكون ثمراً ومطراً ووروداً لك يا ديجة.)**

**تحمله سيارة وضابط وجنديان صباح اليوم الثالث إلى مركز الأمن في قريته، وجد كل أقاربه في انتظاره وأغلب سكان قريته، وعلى رأسهم خاله الكفيف، بعد استراحة قصيرة في مركز الأمن، سمح المسئول لأهله بالسلام على ابنهم الأسير ا لمحرر، هجم خاله الأخرس عليه، احتضنه وهو يصيح كمواء القطط التي تحاول ان تحمي فريستها من القطط الأخرى المتحفزة للانقضاض عليها، ومقاسمتها غنيمتها، يضمه إليه بقوة ويهزه، يرقص به، يعلو ويهبط وهو يحمله، أحس سلوم أن خاله ذئب شجاع جامح، ثم بدأ جميع أقاربه يعانقونه ومعظم أهالي قريته، هنأوه على العودة لبلده سالماً، ألصق الضابط ظهره للسيارة يراقب الموقف، وأخرج الوسيط الدولي كاميرته، ولمس مسدسه، وبدأ يأخذ صورا كثيرة لسلوم ولأهله وهم يستقبلونه، لم يقترب الوسيط من الناس، بل لمح العيون تتجه إليه بشيء من حقد، لم يثق الناس بمراقبي الهدنة الشُّقْر، لأنهم كانوا يتحيزون في معظم الأوقات للمحتل الصهيوني، وربما لأنهم كانوا يفضلون زيارة المناطق التي سيطر عليها الصهاينة من فلسطين في أوقات فراغهم، وبعد ساعات عملهم الرسمية، يذهبون في إجازاتهم للاستجمام عند الصهاينة الأوربيين، وللسهر في نوادي إسرائيل الليلية وفنادقها، لكي يتمتعوا بالحرية التي عهدوها في أوربا وأمريكا واستراليا، ولقضاء أوقات وعلاقات حميمة وصداقات ساخنة مع فتيات إسرائيليات، ومع نساء يبحثن عن الحرية والمتعة والحياة الأجمل، فيقارن هؤلاء المراقبون الدوليون بين العقول المتحررة، وبين الجمود العربي والتخلف الحضاري، وانعدام الحرية في أي شيء، حتى في الأكل والشرب، أي لو شرب أحد الشباب في القرية علبة واحدة من البيرة، فستقوم القيامة عليه وعلى أهله، الذنب ذنب الشاب، وعلى أهله أن ينصحوه، فلماذا تتدخل جميع أهل القرية، ويقررون عقابه بمختلف الوسائل، حتى لو لزم العقاب البدني، ومن أكثر من شاب او رجل، التراث القديم عبء ثقيل، وقتها تذكر سـلوم كلام ريتشي وآخرون في معسكر الأسر، سمع الكثير من الكلام عن العقل العربي والتراث والتزمت والجمود، (لا حرية في تراث العرب، كله تبعية وتقليد وجمود، ولا مجال للتجارب والتعلم من الأخطاء، لا تجديد ولا حداثة في المجتمعات العربية، إنكم تعيشون خارج التاريخ المعاصر)**

**يتأثر مراقبو الهدنة بالحداثة والحرية في دولة الصهاينة حديثة النشأة، بالحياة في الضفة الغربية التي هي تحت الحكم العسكري الأردني، حيث لا توجد الحرية للمواطن العربي ولا للأجنبي، ليصادق امرأة تتمنى احدا يصادقها، حيث إن مثل ذلك غير متوفر في الدولة الأردنية الفتية، خشي المراقب غضب احدهم والحقد على الإنسان الغربي الأشقر، فصعد لسيارته الجيب، أدار محركها حتى يكون مستعدا للهرب إن ظهر له مهاجم او معادي، وواصل التقاط المزيد من الصور ، ثم بدأت سيارته البيضاء والتي عليها الحرفين (يو – إن UN) تستعد للمغادرة، لكن مترجماً كان يرافقه، أبلغ أهل سلوم ومخاتير القرية، أن مهمة رقيب الهدنة قد انتهت واطمأن أن الشرطة الأردنية أوصلت الأسير إلى أهله سالماً، وقال أن الرقيب الدولي يبلغكم أنه لا دخل له في التحقيق معه واحتجازه في أي مركز أمن، أو إن حصل له اعتقال بعد ذلك، ولكن وقبل إطلاق صراح سلّوم، اضطره آمر مركز الأمن الأردني التوقيع على تعهد بإثبات وجوده في مركز الأمن كل يوم لمدة شهرين، والتعهد بعدم الاقتراب من خط الهدنة مع دولة إسرائيل، وإلا سيتم سجنه لسنوات أخرى في السجون الأردنية.**

**سلوم يوقع الورقة، دون أن يفكر حتى بقراءة سطر منها، كل ما يهمه أن يشعر بحريته في بلدته، وبين أهله، وفي بيته مع زوجته، كان منشغلا أثناء ذلك بأمر أكثر اهمية من الصوراو التعهدات، او حتى كل شيء له علاقة بالأمن او بالحكومة، لم يعد يهتم بشرطي ولا بضابط ولا بمراقب هدنة، ولم يكن مهتما حتى بمعرفة أهله بوصوله سالماً، حال الرجال الكثيرون حول سلوم من تمكنه النظر لجمع النساء، عفان (الأسير سلوم) يريد أن يرى زوجته خديجة في صف النساء الأول تنتظره بلهفة، وتتمنى احتضانه بفارغ الصبر، ومع ذلك هجم سلوم على خاله الأعمى ليسلم عليه ويقبل وجنتيه، ازداد وجه خاله الكفيف بشاعة وشيخوخة واكفهراراً.**

**حاول أن ينأى بوجهه عن ابن شقيقته، تجعد وجهه، وضاقت فتحات مساماته، انعقفت أنفه، وانغلقت عيناه العمياوان، ثم سرعان ما انفتحتا على اتساع جفنيهما، صغيرتان كانتا وشبه مقفلتين، وفجأة تباعد الجفنان كجناحي طائر يهم بالطيران، فجحظت حبتا عينيه الخربتين وتضخمتا، امتد فمه وتدلت شفتاه حتى أصبحتا كشفتي إفريقي حرد، أبعد ابن أخته سلوم عنه وقال يخاطبه أمام أهل البلدة**

* **شكراً لله على سلامتك يا سلوم، أنت اليوم عشت وأنا متّ هذه اللحظة، أرجو أن لا تكرهني ولا تكره أهلك يا عفانً، ساعدوا إبن أختي يا أقاربي، ويا أهل بلدي، سلوم رجل صالح، ولحسن نيته سلمه الله من الصهاينة الأعداء، لا تبتئس يا سلوم، لايحق لي أن أقول لك يا ولدي، لكنني وافقت مع آخرين وشهدنا بأنك مُتّ يا بني.**

**لم يعبأ سلوم بما سمعه من خاله الكفيف، ولم يعره اهتمامه، لأنه لم يفهم سبب كلامه بهذه الطريقة، يسخر سلوم من كلام خاله هامسا في نفسه، وماذا في ذلك؟ شهد خالي بأني مت، ولكن ها أنا أمامهم بعثني الله للحياة ثانية، جذبه أفراد آخرون من أقرب الناس إليه، واهتم هو الآخر بالسلام عليهم بحرارة وفرح، ظنّ أن خاله أصابه مسّ من فرحته بعودته سالماً، أو انه فقد عقله من طول غيبته، وأثناء تواصل مراسيم استقبال الرجال له والسلام عليه، وأصدقائه القدامى وأقاربه، وبعد أن غابت غيمة الغبار التي أثارتها سيارة رقيب الأمم المتحدة، دفعه الرجال لمرافقتهم إلى المضيف الخاص بعشيرتهم، لكن صبره نفذ، فخرج عن طور المصافحة والسلام والمجاملات، ثم صاح بأعلى صوته.**

**- أريد أن أرى وجه زوجتي يا أقاربي ويا أهل بلدي، سامحوني على هذه الرغبة، دعوني أرى وجهها على الأقل، ونكمل بعدها أحاديثنا والتسليم.**

**تشنجت وجوه أقاربه، وأدار كبار السن من البلدة وجوههم يسارا او يميناً أو للخلف، فوجئ سلوم بشيخ عشيرتهم يناوله طفلة صغيرة، خاطبها العجوز وهو يمدها صوب صدر والدها سلوم قائلا**

* **احتضني والدك يا سلمى وعانقيه. ويقول آخر من أهله في شبه هذيان وقهر وعدم صبر**
* **قبّل ابنتك يا سلوم، وتعرف عليها، ثم يوجه كلامه للطفلة التي لا تفهم كل ما يجري، هذا والدك يا سلمى فاحتضنيه! سلمى طفلة بعمر يقارب العام.**

**حاول العجوز توليد ضحكة صفراء على وجهه، رفع سلوم عينيه، تأمل الطفلة وعانقها، قربها من صدرها اكثر، ثم جال بعينيه، يتفحص وجوه الرجال المحيطين به، وجد أن الضحكة الصفراء ترتسم على كل الوجوه، خاله يهذى بكلام لم يفهمه، أهي عدوى أصابت أهل بلدته أو اعتراهم جنون اللهفة واللقاء؟**

**زغرودة من خالته أم داغر تدوّي في أذنيه، عفان فرح بحريته، ويتحرق للقاء زوجته، فهو يحس أنه محلق فوق غيمة ندية تحمله فوق الرؤوس، في ذلك اليوم الحار لتبرد أعصابه، لكن دمه يغلي في حيرة وتماسك، يكره نفسه على الصبر طول وقت السلام والاحترام، لا يكاد يتمالك نفسه وهو يحاول التماسك، يريد من أهله أن يمكنوه من أن يقترب من زوجته ديجة، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل ليعبر عن فرحته بعودته لأهله، أيضحك، أيرقص، أيغني، أيرد على خالته بزغرودة أشد قوة، أيكلمهم بالعبرية أم بالعربية أم بالإنجليزية؟، عرف خالته من صوتها، لكنها استطاعت ان تشق طريقها في الزحام وتحتضن ابن شقيقتها، ثم أزاحها الرجال، قال العجوز (لا فض فوك يا أم داغر، كسرت طوق الصمت الذي يخيم علينا، ولا يدري أي منا ماذا يقول) ثم تلتها زغاريد جماعية أخرى متواترة متباينة في الشدة والضعف، فرحا وتهنئة بعودة الأسير إلى بلدته وأهله، قريباته كن الأكثر حماساً لعودته سالماً. قال له شيخ عشيرتهم العجوز**

**هذه ابنتك سلمى يا سلوم، (الخالق الناطق، ملامحها مثل ملامحك تماماً)، يمسك سلوم بالطفلة دون وعي أو إدراك، تنظر الطفلة له فزعة مستغربة من وجه حاملها والجمع الذي يحيط به، خائفة تبكي بمرارة، وتحاول التخلص ممن يحملونها متضايقة من هذا الجمع الذي لم تعهده من قبل، وبنفور حتى من والدها، ما أغلاها على قلبه، يناولها عفان لشيخ العشيرة قائلا**

* **لماذا لا تأتي بها والدتها زوجتي ديجا؟ ائتوني بزوجتي، أريد أن أرى والدتها، جاء دورها، والمفروض أن أرى زوجتي أولاً قبل أي أحد، دعوني أرى الأم قبل البنت ؟ أو هما معاً، وهي بلباقتها ستقوم بتقديمي لابنتنا، بكاء الطفلة وتبرمها يزدادان وهو يناولها لشخص آخر، وعيناها تجولان فزعاً بين البشر الكثيرين وقتها، باحثة عن والدتها، ثم عاد سلوم ثانية يقول**
* **دعني أناول الطفلة لوالدتها بنفسي، إن الطفلة لا تعرفني وتنفر مني، ولا ألومها لأنها لم تشاهدني من قبل.**
* **والدتها ليست هنا!**
* **نعم؟ ماذا حصل لزوجتي ؟ هل مرضت؟ هل ماتت؟ هل صار معها كما صار بوالدتي بعد ولادة أخي دعيس؟**
* **يتذكر عفان كيف كان يفكر وهو في الأسر، ويتذكر كلماته وافكاره التي كان يجهزها للتعامل مع زوجته ديجة حين ينجو من الأسر. عاد بذاكرته إلى الكلام الذي كان يخاطب نفسه به وهو يستعد للعودة لزوجته ديجة**

**((لا تستكيني يا ديجة، فأنا كما عهدتني، أعاهدك بأنني سأحاول مواصلة الحياة لأجلك، وسأحاول العيش على هذا العهد، اصبري وتصبري، سيفرجها الله، بل قولي سيأتي الفرج، عملت واجتهدت وعانيت حتى اقتنع اهلك بتزويجك لي، وعملت بجد ونشاط كي اعولك بعد زواجنا، وما زلت أعمل كي أنجو من الموت، ليس خوفاً منه، بل لأجلك يا ديجتي، لكي أعود لك، ولأضمك إلى صدري، هذا الصدر يشعر بفراغ وشوق حارق، يتمنى الاقتراب من انفاسك، واستنشاق عرقك، أحاول التغلب على اليأس بالعمل وبالصبر ياحبيبتي، لا شك أنك ازددتِ نضجاً وجمالاً وفهماً أثناء غيابي عنك، وأريد أن أطمئنك أنني فهمت كل ما يزيد من لذة الحياة مع رفيقتي ديجا، بعد أن مرت مايقارب ثلاث سنوات على فراقك.))**

**يتقدم واحد من رفاقه السيئين والمسيئين لسلوم أثناء طفولتهما ويقول له**

* **زوجتك تزوجت شخصاً آخر من أهلك.**

**أعرف أنك أبله وسخيف وقذر، لعنة الله عليك، ولولا أنني ضيف لأنشبت أظافري في حلقك، ولن أعتقك إلا وأنت ميت، أغرب عن وجهي قبح الله وجهك، أنا نادم أني أنصتُّ لك،. . . .. ينظر سلوم حوله،يتأمل وجوه الحاضرين، الحيرة والارتباك تخيم على ملامح الجميع، يفطن ليكمل كلامه قائلا لقريبه الذي أساء له في طفولته، فيقول**

* **ثم إنك في حضرة الوجهاء من العشيرة وأهل البلدة، فاغرب عن وجهي، وتجنب المزاح معي واي حديث بعد هذا، ثم ليس الوقت مناسباً للمزاح والقذارات. يقترب خاله الساذج منه و يمسك بذراعه قائلاً له**
* **ظننا أنك قتلت ولن تعود، وسترنا البنت والطفلة. لا تحاول معارضة التيار يا ولدي، والحال أصبح أمراً واقعاً، وعلى كل حال هو ابن عمك ، ولم يفز بها غريب عن عشيرتنا.**
* **ومن شهد بموتي ؟**
* **كثيرون وأكدوا للقاضي أنهم بحثوا عنك وعن جثتك فلم يعثروا إلا على قطعة صغيرة من ملابس قديمة من أثرك.**
* **حتى أنت يا خال تشهد بموتي؟؟**

**يسقط عفان على الأرض جالساً، ثم يميل مرتخياً، كأنه يريد النوم، يحسّ بإرهاق وحزن وخيبة أمل لا حدود لها، أصابه انهيار تام، لا يقوى حتى على الكلام، احاط به أهله، ارادوا رفعه، لكنه أشار لهم أن يتركوه قليلا، هو واع تماماً، ولم يصب بدوار او دوخة، لكنها فقدان قوة وانهيار اعصابه ومفاصله، صار بعضهم يهفّ عليه بطرف ملابسه او شماغ، لتغيير الهواء حوله لمساعدته التنفس بهواء جديد أنقى، وساد صمت وحيرة عل المكان، تحرك بعد دقيقتي صمت او ثلاثة، يرفع عفـان رأسه، وينهض بصعوبة، يمسك به أحدهم، فيعود للجلوس، قائلا له، لا تساعدني، انا بخير والحمد لله، انا قوي، بعدها ينهض بهدوء ويقف، يستطلع وجوه الحاضرين وبنظرات حقد على أهله،يتنحنح مرات عدة، يبتلع ريقه ليطرّي حلقه ويتأكد من وضوح كلامه وقوته، ثم يخاطب خاله قائلا،**

* **أتقصد ياخال، أنكم زوجتم خديجة زوجتي لرجل آخر بعد غيابي بشهرين او ثلاثة؟ أريد أن تخبرني يا خال، اين انام الليلة، ليتني أعود للأسر، قل لي كيف أدخل بيتي، وأين أذهب الآن؟ ما إن نطق هذه الجملة حتى داخ ثانية وسقط على الأرض مغشياً عليه.**

**اما في رواية عفان، فيمكن إضافة، لماذا لم تتقدم الأمم المتحدة التي وافقت على تقسيم فلسطين، لماذا لم تساهم في تأسيس دولة فلسطين على الجزء غير المحتل منذ العام 1948 حتى قرار الانضمام للأردن في وحدة اندماجية غامضة العام 1951، لماذا لم يحكم الجزء المتبقي من فلسطين شخصية فلسطينية بمساعدة مندوب مفوض من الأمم المتحدة؟**

**(ملاحظة للمهتمين بالتمثيل والمسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية، فإن تحولت هذه الرواية لمسلسل أو فيلم سينمائي، فسأرحب بالاتصل بي لمواصلة كتابة جزء أو أجزاء جديدة للحكاية)**

**Character Affan talks about his story**

**An introduction written by 3Affan Ibn Noman himself, for the narration of his story while in Israeli prison.   
In this strange love story we let its main characters talk in brief here. The Palestinian prisoner Salloom (which is named Affan), the main character in this novel says:**

**I am sorry to have to endure torture, oppression and prison, hoping to free me back to my family and my wife and my town. I cannot forget my wife and cannot live without her. I want my freedom back.**

**What puzzles me is why the Jewish settlers left their places and countries, and came to our country Palestine? Is it true because they consider Palestine and Jerusalem holy places? All Christians, all Muslims and all Arabs consider Palestine sacred grounds with its holy places, but however this did not motivate Arabs or European Christians from different countries to leave their homelands and come to settle in Palestine. Not only settling and capturing the land, but Israelis insisted to cleanse the country or kill our people to force them to leave their homes. They did everything cruel and evil deeds to scare us and force us to leave our homes and properties. Muslims from India or Pakistan or Russia may be they are oppressed, but they did not abandon their country to migrate to settle in Jerusalem and Palestine the Holy Land. I know that most Jews are rich, love freedom, trade and money, so why they insisted to come to our country and uproot our people the Palestinians from their native land and force them to leave their homes or be killed? Our people were heedless while the Britishers are allowing illegal immigrants to come to Palestine and give others’ lands to Zionists. Why the Britishers didn’t shelter the Jews in Britain, not in another country they do not own?? The new settlers wanted the whole country for them alone. The Palestinians lived thousands of years in Palestine and built everywhere in cities and towns with farms and good civilization and culture, living in peace and brethrenship with Christians and jews. How can they accept foreigners to confiscate their history and life in their homeland?. So again why the Jews left their countries? Why they came to hatered, suffer and then toruture our people? The land of Palestine was populated with Arabs, Muslims, Christians and Jews.**

**The Jewish lady soldier, who loved Salloome in his prison, said to him “I love you and I think I cannot live away from you. So if you are freed and forced to leave Israeli territories, I’ll not stay in this country. I shall seek shelter somewhere else. I cannot see my self and our child to oppress others and treat them unjust.”**

**He answered her; my people never harassed Jews or annoyed them because the Jews were living peacefully with us. He continued saying, O my God, where are my parents, where are my people? Where are the Arabs? Where is Islam? Where is Christianity? Where is mercy? Where is God?  
O God, I seek mercy and patience for the hatered. I beg God to give me the patience for this injustice and for this torment.**

**Why they insist on the displacement of my people, kill them and force them to leave their properties to possess their places, cities, villages cruely and selfishly? Deceived by their strength and with the support of some big powers, the Israeli settlers became killing, stealing and looting, then forced people to abandon their homes and their places and lands in 1948??**

**Why indigenous people of the country to become refugees??. . . , Jews and Zionists were not refugees to shelter them. It is true that Hitler probably oppressed them, but they were living in their homelands Germany or other European countries or the USA.   
Salloom (Affan) repeated saying: Where is God? O God, I seek mercy and patience for the hate. I beg you God to give me the patience and resistence for this injustice and for this torment.**

**I am sorry to have to endure oppression, hoping to free me back to my family and my wife and my town; I do loved the Israeli soldier Richi, but could not forget my wife. I cannot forget my great old house, which was inherited after grand grand father. I long to my brother, and I want to reassure him for better behaviour and righteousness,**

**The hatred and enmity caused to destroy my country, my life with my beloved wife. It is tragic that I am afraid I have to live unhappy all my life. And then what to do for tomorrow.**

**Note: Dear reader, If you want to know the whole love story in prison years between Affan and the female Israeili soldier Racheal you need to read this exciting and hot novel.**

1. سموها بلعبة الكال، ربما من الكلل والكلال ، أي عندما يصيبك الملل أي أن الكالّ ولا عمل عنده يلعب هذه اللعبة، وربما سميت كذلك لفحص مدى قدرتك على دقة تحمل حركات الالتقاط المتكررة وتتابعها. [↑](#footnote-ref-1)
2. الوجأة بمعنى السرة وجئشت بمعنى اضطربت وارتبكت بشعور مختلط [↑](#footnote-ref-2)
3. [↑](#endnote-ref-1)